

الصّديق الأكبر

الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

السيرة الاجتماعية للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

الجزء الأول

السيد زهير الأعرجي

(ص ١-٣٩)

موسوعة

النظرية الاجتماعية الإسلامية (٢)

الصّديقُ الأكبرُ

السيرة الاجتماعية للإمام علي بن أبي طالب (ع)

السيد زهير الأعرجي

الصديق الاكبر: السيرة الاجتماعية للامام علي بن أبي طالب (ع)

السيد زهير الاعرجي

المطبعة العلمية - قم المشرفة

الطبعة الاولى - ١٤٢١ هـ

حقوق الطبع محفوظة للناشر

Imam Ali Bin Abi Talib

(The First Imam of Islam)

By: Zuhair T. Araji

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين

الامام علي بن أبي طالب (ع):

(أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر...) الخصائص - للنسائي ص ٣.

و...) لا يحمل هذا العلم الا أهل البصر والصبر والعلم بمواضع الحق...

نهج البلاغة - خطبة ١٧٣ ص ٣٠٥.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد المصطفى (ص) وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

يبحث هذا الكتاب عن منهجية جديدة في الكتابة عن حياة الامام علي بن أبي طالب (ع) أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين (ص)، أول الناس اسلاماً وأولهم ايماناً، والصديق الاكبر الذي صدق نبوة خاتم الانبياء (ص) وبذل الغالي والنفيس من أجل الاسلام.

ونعني بالمنهجية: الاطار العلمي الذي نستخدم فيه العقل، بطاقته العظمى، لاكتشاف الحقائق التاريخية والاجتماعية في حياة الامام (ع). فقد كان أمير المؤمنين (ع) مصدراً للمعرفة الحققة والعلم الديني بعد النبي (ص). وكان عصره (ع) غنياً بالحقائق الشرعية والوقائع الاجتماعية التي بقيت، وستبقى باذن الله، مناراً للاجيال المتعاقبة.

وسوف نعرض في هذه المقدمة أمرين. الاول: منهجية البحث. والثاني: القواعد المرعية في كتابته.

منهجية البحث:

والمنهج العلمي في البحث يستند على مجموعة من الحقائق التي يمكن بسطها ضمن الترتيب التالي:

أولاً: فهم التأريخ، عبر ربط العلل التاريخية بعصرنا الراهن. أي ان القدرة الخارقة للعادة عند علي (ع) في البلاغة وادراك الشريعة والمعارك الكبرى والزهد والتعفف والتقوى ينبغي ان لا نستغربها اليوم، بحجة اننا لا نعيش علل تلك الفترة الزمنية ومسبباتها. ذلك ان ثبوت الدين في قلوب الناس كان يحتاج الى شخصية عظيمة كشخصية الامام (ع). بمعنى ان تلك العلل استدعت - قهراً - وجود بطل عملاق في الفكر والجهاد والقرب من رسول الله (ص) والزهد والعدل والتقوى وحب العدل، كي يستقيم الدين في ضمير الامة والتأريخ.

وحياة الامام (ع) وسيرته الحافلة بالمنجزات، كانت حدثاً له شخصية فلسفية. ونعني بالشخصية الفلسفية للحدث هو ان حياة الامام أمير المؤمنين (ع) كانت تستنطقُ علماً منطقية دينية ومباني عقلية يستأنسُ بها العقل البشري على مر العصور. فبلاغة علي (ع) الدينية لها شخصية فلسفية عظمت لانها تتناغم مع المباني العقلية للبشر. وشجاعته (ع) الخارقة للعادة كانت علة يتناغم معها ضمير الانسان الذي يميل الى هزيمة الاشرار من الكفار والمارقين ويحب انتصار أهل التوحيد والحق. ورحمته (ع) بالفقراء والمساكين كانت علة لتحريك روحية الانسان وعاطفته على مر التاريخ.

ثانياً: ان حياة أمير المؤمنين (ع) كانت مبنية على اساس العقل فضلاً عن الشريعة السمحاء العادلة. فخطاب الامام علي (ع) كان موجهاً الى العقلاء في المجتمع. وهو بتلك اللغة الادبية البديعة العالية، كان يصور معاني الدين بابدع الصور واجملها واقربها الى المعرفة الحقة، واشدها ارتباطاً بالعلم المطلق المتمثل بالقرآن المجيد. وكان من اهم آثار المبنى العقلاني لسيرة أمير المؤمنين (ع) انه كان يربط العلة بالمعلول، في تفسير الاحكام الشرعية وفي صناعة القرار الاجتماعي وفي الارتباط بمولاه وخالقه العظيم. وبكلمة، فان الامام (ع) حاول عبر ادراكه للشريعة، مخاطبة العقل البشري اينما وُجد وحيثما كان وأنى بلغ.

ثالثاً: نستطيع ان نستنبط من حياة الامام امير المؤمنين (ع) نظرية اجتماعية دينية مبنية على الاسس التالية:

١ - انها نظرية اجتماعية شاملة تفسر جميع مناحي الحياة الاجتماعية للانسان. وفيها مكونات اساسيان هما: البنية (أو التركيبة النظرية)، والفعل الاجتماعي. فهو (ع) فسر الظواهر الدينية المتعلقة بالبناء الفكري والشرعي للنظرية، وفي نفس الوقت قام بتطبيق النظرية على الفعل الاجتماعي. وبتعبير اوضح انه طَبَّق في الواقع العملي، كل ما كان يؤمن به من نظريات ذهنية جاء بها الدين الحنيف.

٢ - ان لعالم علي بن ابي طالب (ع) نماءً منطقياً مترابطاً. فهو ما ان ينتهي من الحرب، حتى يتوجه بفكره وروحه الى الله عز وجل. وما ان يصارع الطغاة بسيفه القاطع وكلماته البليغة، حتى يضع يده الرحيمة على رؤوس الايتام والمضطهدين. وما ان يئن من الم الجوع، حتى يضرب بمعوله الارض سعياً من أجل الرزق والاكتمال. ولذلك كان نظامه الاجتماعي وعالمه الديني كياناً حياً، تترايط فيه الاجزاء، وتشد بعضها بعضاً. وكان مصداقاً لتكاملية الدين في حياة الانسان.

٣ - ان الحياة الاجتماعية المستندة على اسس الدين، منظّمة تنظيمياً عقلائياً. ولذلك فاننا نستطيع استنباط نظرية اجتماعية شرعية، في ذات الوقت الذي نستطيع فيه تطبيقها على حياتنا العلمية في كل زمان ومكان. ومن هنا كانت لحياة الامام (ع) قيمة شرعية وعلمية. فالمعاني التي نتعلمها من دراسة سيرة أمير المؤمنين (ع)، ضخمة للغاية، خصوصاً في حياتنا المعاصرة.

رابعاً: القضية الشرطية في سيرة الامام (ع). ان القضية الشرطية في الحدث التاريخي، هي القضية التي يتحقق جزاؤها متى ما تحقق شرطها مثل (... **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُ**) وهذا هو الجزء (**حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم ...**) وهذا هو الشرط. وافكار الامام (ع) المنثورة على طبق من ذهب في صفحات (نهج البلاغة) تأخذ بالقضية الشرطية كمبنى من المباني الاجتماعية الشرعية. ف (تطبيق الشريعة) يعتبر الشرط، لقضية (تحقيق العدالة) وهو الجزء. و (الرغبة في الموت على فراش الاسنة) هو شرط ل (النصر). و (الانسجام بين المؤثر والمؤثر له) هو شرط ل (الايثار)، وهكذا. وهذا ترتيب فلسفي مترابط ساد فعاليات علي بن أبي طالب (ع)، في كل مراحل حياته الشريفة.

ب _ القواعد المرجعية في كتابة البحث :

ومن اجل فهم الاسس التي يقف عليها هذا الكتاب، لابد من استعراض بعض القواعد التي تمت رعايتها خلال مراحل تدوين البحث. وتلك القواعد هي:

١ - تواتر اخبار الامام (ع): يلحظ المفكر الاسلامي ان دراسة حياة الامام علي بن ابي طالب (ع) تقتضي الانتقال تاريخياً الى عالم الرواة ليشهد اتفاق كلمتهم على صفاته الشخصية (ع) وفضائله والحوادث التي وقعت في حياته. والاصل ان الرواة يبلغ اتفاقهم حداً لا يمكن معه الاقرار بتواطؤهم جميعاً على الكذب أو الافتراء. ولذلك فقد رفض الفقهاء المتقدمون اخبار الآحاد لانها لم تخرج مخرج التواتر. وقد اعتمدنا على نفس الاصل، فتكون الاخبار التي نُقلت في طيات هذا الكتاب «ضمن حدود الدقة العقلية» متواترة، وليست اخبار آحاد.

اذن فان الحياة الشخصية للامام (ع) وفضائله التي سوف نقرأها هنا، متواترة اخبر بها جماعة كثيرون لا سبيل لنا الا التصديق بما نقلوه الينا. وقد ادى ذلك التواتر الى شهرة تلك الصفات والاحداث وانتشار نبؤها بين الناس بالرغم من اختلاف مذاهبهم ونحلهم واتباعهم الفكرية والدينية.

ولم تتوقف شهرة تلك الاحداث عند الرواة فحسب، بل تعدت الى الشعراء الذين كانوا يدونون التاريخ البشري والاسلامي بالخصوص بقوالب لفظية بديعة كحسان بن ثابت، والسيد الحميري (ت ١٧٩هـ) وغيرهم.

٢ - الرجوع الى مصادر الدرجة الاولى: فقد حاولنا اقتطاف الكلمات الرائعة والالفاظ البديعة من مهرة الفن وائمة الفقه والحديث والتاريخ، والنياقد من اوتاد العلم واعمدة المذاهب. وحاولنا الاخذ بالكتب الحديثة المعتمدة من الطراز الاول بين المذاهب من اجل اكتشاف الحقائق الناصعة التي لا يشوبها شك أو تأويل.

أ _ ومن تلك الكتب، تصانيف المذهب الثمينة التي ألفها علماء الامامية، مثل:

كتاب «سليم بن قيس» الهلالي العامري (ت حوالي ٩٠ هـ) التابعي، الصدوق، الثبت، المعول عليه عند علماء الفريقين.

وكتاب «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ) من اقدم النصوص الجامعة لمعركة صفين بين جيشي الامام (ع) ومعاوية. حتى ان ابن ابي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦) اعتمد عليه، وقال: «ونحن نذكر ما اورده نصر بن مزاحم في كتاب صفين في هذا المعنى، فهو ثقة ثبت، صحيح النقل، غير منسوب الى هوى ولا ادغال، وهو من اصحاب الحديث» .

و«المحاسن» للبرقي (ت ٢٧٤ هـ) الذي اجمع العلماء على توثيقه والثناء عليه.

و«الغارات» للمحدث الثقة الثقفى (ت ٢٨٣ هـ)، وهو من الثقات الذي روى في كتابه عن الرواة المعروفين عند اهل السنة باسانيدهم. وروايته مقبولة عند الفريقين.

و«الكافي» لثقة الاسلام الكليني (ت ٣٢٩ هـ) الذي اجمع على توثيقه علماء الفريقين.
وهو من فحول اهل العلم وشيوخ رجال الفقه، وكبار ائمة الاسلام.

وكتاب «خصائص الائمة» لمؤلفه الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، المعروف في الطائفة برد
الاخبار والاحاديث الى مخارجها، ولا يذكرها الا بعد ان يقطع بسندها، وتظاهر النقل لها.

وكتاب «الارشاد» للشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، المعروف ايضاً بنقد الاخبار وتمحيصها،
وردّها لادنى علّة في اسانيدھا أو متونها. وقد اجمع علماء الفريقين على علمه وفضله وفقهه
وعدالته وثقته.

وكتاب «إعلام الوري بأعلام الهدى» للفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، الذي
يعدُّ من الفقهاء المدققين الذين يردون الاحاديث الى مخارجها الصحيحة، وليس من مذهبه
الرجوع الى روايات مجهولة او آحادية. وكان يوصف بانه أمين الدين والمسلمين، من علماء
الاسلام الذين يُشار لهم ويُرحل اليهم.

وكتب اخرى مثل:

«روضة الواعظين» لابن الفتال النيسابوري (من علماء المائة السادسة).

و«مناقب آل ابي طالب» لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) شيخ مشايخ الامامية في
عصره.

و«العمدة» لابن بطريق الخلي (ت ٦٠٠ هـ).

و«كشف الغمة في معرفة الائمة (ع)» للاريلي (ت ٦٩٣ هـ) الثقة، الاديب، المحدث،
الذي روى عن علماء الفريقين.

و«تحفة الابرار» للطبرسي (من علماء القرن السابع).

و«نهج الحق وكشف الصدق» للعلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) المعروف في الطائفة بالفقه والاصول والكلام.

و«ضياء العالمين» لابي الحسن ابن المولى محمد الطاهر الاصبهاني (ت بعد سنة ١١٠٠ هـ).

و«غاية المرام في حجة الخصام» للتوليي البحراني (ت ١١٠٧ هـ) المحدث الجليل الثقة.

و«بحار الانوار»، و«جلاء العيون» للعلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) المتبحر في العلوم العقلية والنقلية، الفقيه المتكلم الجامع للمحاسن، الثقة، الثبت، الذي كانت له دقة متميزة في النظر واصابة في الرأي.

وتلك الكتب المبنية على الاحتجاج لم يتوخ مصنفوها سرد الوقائع التاريخية اينما وردت، وانما قصدوا (قدس الله اسرارهم) فيها إلزام الخصوم بالحجج والبراهين المفحمة. فلا يسعهم الاسترسال بالاحاديث والروايات من أي مصدر كان دون تثبت وتروي. بل ان منطق الحجة والبرهان يلزمهم باثبات المشهور بين الفريقين، الثابت نقله، الصحيح اسناده، الشائع بين الفقهاء.

ولا شك ان ائمة الحديث لا يروقههم رمي القول على عواهنه، فلا يعتبروا المنقول شيئاً ما لم يتفرغوا من أمر اسناده، والتثبت فيه والتروي في متنه. يخافون في ذلك من مخالفة ذلك الحديث للمعقول، أو تقاطعه مع شيء من الاصول.

ولذلك فان المحدثين الذين ننقل عنهم من الامامية هم فقهاء بالدرجة الاولى يردون الفروع الى الاصول، ويفسرون آيات الكتاب المجيد حينما يتطلب الموقف ذلك، ويفهمون طبيعة الرجال من حيث التعديل والتجريح.

ب - ان مصنفات علماء ومحدثي المدرسة السنية (مدرسة الصحابة) الذين نقلنا عنهم تعد مصادر من الدرجة الاولى ايضاً. ويعد اصحابها فقهاء ومحدثين من الطراز الاول عند اتباع مذاهبهم. ومن تلك المصنفات:

«الامامة والسياسة» لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، وهو من اكابر المؤرخين من مدرسة الحديث. وقد اعتمد عليه فقهاء مدرسة الحديث والرأي في تواريخهم واستندوا الى رواياته في كتبهم. وقد ظهر رأي جديد بان هذا الكتاب منسوب الى ابن قتيبة، ولكن ذلك لم يثبت. فيبقى الكتاب على وثاقته.

و«خصائص علي بن ابي طالب (ع)» للنسائي (ت ٣٠٣هـ)، وهو من كبار الحفاظ. ذكره المؤرخون واصحاب السير من الفريقين بإجلال وإعظام وإكبار، وشرحوا محاسن علمه وجودة تفكيره وفضله.

و«تاريخ الرسل والملوك» للبري الشافعي (ت ٣١٠هـ) الذي أتهم بالتشيع لانه صحح حديث غدير خم. وكان حراً في التفكير، صريحاً في القول.

و«مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي (ت ٣٤٦هـ)، الذي ترجمه علماء الفريقين في معاجمهم مشفوعاً بالاكبار. وهو المعروف بكونه حجة ثبناً عند الفريقين.

و«المستدرک على الصحيحين» للحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) المعروف بضبطه وتقديمه في العلم والحديث والرجال عند علماء مدرسة الحديث والرأي.

و«مناقب امير المؤمنين (ع)» للخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) المعروف بفقاهته ووثاقته لدى الاعلام.

و«أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الاثير (ت ٦٣٠هـ)، المعروف عنه خبرته بتاريخ العرب وانسابهم وأيامهم ووقائعهم واخبارهم. وكتابه هذا ذكر فيه سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة، واستدرك على من تقدمه ما فاتهم وبيّن اخطاءهم.

و«مطالب السؤل في مناقب آل الرسول (ص)» لمحمد بن طلحة القرشي الشافعي (ت ٦٥٢ هـ)، الذي كان اماماً بارعاً في الفقه والخلاف، عارفاً بالاصول، بارعاً في مذهب الشافعية.

و«كفاية الطالب» للكنجي الشافعي المستشهد بجامع دمشق سنة ٦٥٨ هـ وكان عدلاً ثقة ديناً حافظاً للقرآن والسنة.

و«اسنى المطالب» للاكفاني اليمني الشافعي. والكتاب من مصادر مؤلفات علماء الفريقين.

و«فرائد السمطين في فضائل المصطفى والمرضى والبتول والسبطين والائمة (ع)» للحموي الشافعي (ت ٧٢٢ هـ)، وهو شديد الاعتناء بالرواية وتحصيل الاجزاء.

و«نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرضى والبتول والسبطين» للزرندي (ت ٧٥٠ هـ) الموصوف بالعلامة المحدث بالحرم النبوي الشريف.

و«توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل» لشهاب الدين احمد الايجي (من اعلام القرن التاسع الهجري)، المعروف بتوخيه الحق وتحريره الصدق وتنحيه عن مطبوعات الفريقين.

و«مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للهيتمي (ت ٨٠٧ هـ) الذي جمع فيه زوائد الكتب الستة: مسند احمد، والبخاري، وابي يعلى الموصلي، والمعجم الثلاثة للطبراني بحذف الاسناد مع التعليق عليها بالصحة والضعف.

و«الفصول المهمة في معرفة احوال الائمة (ع)» لابن الصباغ المالكي (ت ٨٥٥ هـ)، الذي ذكر مناقب اهل البيت (ع) الشهيرة ومآثرهم العظيمة.

و«الاتقان في علوم القرآن»، و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ)، الذي اغنى المكتبة العربية بشتى التصانيف، حتى ناهزت الالف. والمعروف عنه انه لم يخلط الروايات التي نقلها بشيء من عمل الرأي.

و«مفتاح النجاء في مناقب آل العباء (ع)» للبدخشاني (ت ١١٤١ هـ) من اعلام السنّة في الهند في القرنين الحادي والثاني عشر الهجري.

و«ينابيع المودة» للقندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤ هـ) الذي جمع فيه مناقب أهل البيت (ع) عن الطريق المعتمد عند أهل السنّة والجماعة، خصوصاً كتب الصحاح.

هذا الكتاب:

قسّمنا هذا الجزء من كتاب (الصديق الاكبر) الى خمسة ابواب، هي: مرحلة بناء الذات، الجهاد السلمي، الجهاد المسلح، الولاية ومشاكل السياسة، والخلافة والدولة، على مساحة ثلاثين فصلاً. حيث تناولنا فيها السيرة الاجتماعية للامام امير المؤمنين (ع) من الولادة وحتى الخلافة، بشيء من العمق والتحليل.

وسوف نتناول في الاجزاء القادمة _ باذنه تعالى _ ما بقي من فصول الخلافة والدولة، وهي اربعة: النظام العسكري، والثقافي، والاقتصادي، وبيت المال. والباب السادس: المعركة ضد العدو الداخلي، وهي حروبه زمن خلافته (ع). والباب السابع يتضمن النظريات الاجتماعية الدينية المستفادة من حياته الشريفة (ع). ثم نعرض فضائله، من الزاويتين الشرعية والعقلية.

اللهم تعلم انني لم ابذل هذا الجهد الا ابتغاء وجهك الكريم، ومرضاتك في الدارين. فاسألك يا رب الكريم، ان تقبله بقبول حسن، وان تجعله ذخراً لي ولوالدي يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم.

زهير طالب الاعرجي

الحوزة العلمية _ قم المشرفة

١ رجب المعظم ١٤٢١ هـ

الوجيز في السيرة الشخصية والاجتماعية للإمام (ع)

(عرض مختصر لأهم الأفكار الواردة في هذا الكتاب)

١ - الولادة

أجمع أغلب من كان لهم شأن بكتابة التاريخ الاسلامي وتدوين الروايات والاحاديث أن ولادة الامام علي (ع) في الكعبة المشرفة أتمست أمراً غيبياً، وميزة سماوية من حيث بعض المظاهر الخارقة للعادة؛ مثل: انشقاق الجدار، وعدم قدرتهم على فتح باب الكعبة، وإخبار أمه فاطمة بنت أسد (رض) بكرامات عديدة متواترة. فلم يكن الوضع اتفاقياً. بل كان خارجاً عن مجاري الطبيعة ومقتضيات الصدق والاتفاقات. ويسنده أن خبر الولادة في الكعبة لم يكن من اخبار الآحاد، بل ان الاجماع الذي تضافر حول صحة روايتها قد وصل حد التواتر.

وإذا كانت ولادته محط عناية السماء، فان الاسلام كان محطّ عنايته (ع) على صعيد الفكر والعطاء والجهد والتضحية والفداء. وكانت حياته ووجودها يدور حول بقاء رسالة السماء حيّة نابضة لا يمسه مسّ التحريف والتزييف الى يوم القيامة.

وإذا كانت الكعبة بيت عبادة لا بيت ولادة، فان ولادته (ع) فيها كانت أعظم عبادة لله أدتها فاطمة بنت أسد (رضوان الله عليها). لانها وضعت الانسان الذي قُدّر له أن يكون الرجل الثاني في الاسلام بعد رسول الله (ص) منزلةً وجهاداً وعطاءً. فقد تشرفت الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل (ع) بولادة ذلك البطل الذي غيّر موازين العالم تحت إمرة رسول الله (ص).

٢ - الاب الموحد

وعندما ولد علي (ع) كان والده أبو طالب (رضوان الله عليه) ابن بضع وستين سنة مؤمناً بالله عز وجل، توحيداً صرفاً، في حين كانت أجواء مكة وأنديتها تؤمن بالوثنية وعبادة الاصنام. وكان من كراماته (رض) انه رعى بذور النبوة والامامة في بيته وغذاها بجميل اخلاقه. فقد احتضن محمداً (ص) - وهو صبي يتيم الابوين - في داره قبل اثنتين وعشرين سنة من ولادة ابنه علي (ع). واحتضن علياً (ع) لحد السادسة من عمره حتى ضمه رسول الله (ص) إليه.

وبقي أبو طالب (رض) - الذي آمن برسالة محمد (ص) قبل انذار العشيرة - منافحاً مدافعاً عن رسول الله (ص) ورسالته السماوية الجديدة. وكان علي (ع) يلمس تحمس والده الشيخ الكبير لرسالة الاسلام، عبر التماسه النجاشي بحماية المسلمين الفارين من وحشية قريش، وعبر حثه أبناءه جعفرأً وعلياً عقيلاً للانضمام للدين الجديد وحماية رسول الله (ص)، وعبر الاقرار باسلام زوجته ام طالب (فاطمة بنت اسد) التي كانت ثاني امرأة تدخل الاسلام بعد خديجة بنت خويلد. فكان علي (ع) يلمس في سلوك والده الطابع الذي أخذ جميع آفاق عقله وتفكيره، بحيث كانت مناصرة والده أبي طالب لمحمد (ص) مصداقاً لذلك التفكير وأثراً من آثار ذلك الايمان.

٣ - الام الموحدة

ولم تكن أم طالب أقل تحمساً لمحمد (ص) وابنها علي (ع)، من زوجها أبي طالب. فقد كانت أم طالب (رض) على درجة عالية من الثقافة الدينية التوحيدية والايمان بالله سبحانه. تدلُّ على ذلك أمور ثلاثة:

الاول: بناؤها جسر الامومة الاعتبارية بينها وبين محمد (ص) اليتيم الذي توفي والده، وهو في بطن امه، وتوفيت أمه وهو بالكاد قد أكمل الربيع السادس من عمره. فقد كان (ص) يفتقد الابوة والامومة التكوينية.

الثاني: دعاؤها الخاص لله سبحانه عندما جاءها المخاض بعلي (ع) قائلةً: «ربّ اني مؤمنةٌ بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، واني مصدقةٌ بكلام جدي إبراهيم الخليل...».

الثالث: ايمانها بالاسلام بحيث انها كانت أول من دخل فيه من النساء بعد خديجة، وهي أول من بايع رسول الله (ص) من النساء، وأول من هاجر من النساء من مكة الى المدينة ماشية حافية مع ابنها علي (ع).

انجازات أم طالب (رض):

لقد قامت أم طالب (رض) بعملين من أعظم أعمالها الاجتماعية والدينية، وهما:

أولاً: جعلت من بيتها مكاناً آمناً ومنيعاً للحب والألفة والتقبل العائلي والمأوى النفسي وطيبة المأكل والمشرب. وعندما أحس ذلك الصبي العظيم محمد (ص) أن العالم الأسري الصغير من حوله عالم انسجام وحب ورحمة، بدأ يبني علاقة الامومة مع أمه الاعتبارية أم طالب. كما بنى علي (ع)، بعد أكثر من عقدين من الزمان، نفس العلاقة والاحاسيس التي كانت تختلج في نفس محمد (ص). الا ان الفارق كان كامناً في ان أم طالب كانت أمّاً لعلي (ع) من الناحية الجعلية التكوينية، وكانت أمّاً لمحمد (ص) من الناحية الاعتبارية. ولذلك فعندما دفنها رسول الله (ص) بعد وفاتها، قال (ص): «...كانت أمي بعد أمي التي ولدتني...».

ولا شك ان الحب والحنان اللذين افاضهما ابو طالب وفاطمة بنت اسد على محمد اليتيم (ص)، وعلى ابنتهما علي (ع) بعد حوالي اثنتين وعشرين سنة من ضمّ محمد (ص) اليهما، كانت له تأثيرات نفسية على استقرار شخصيتي محمد اليتيم (ص) وعلي الصبي (ع). فعندما بلغ محمد (ص) مبلغ الرجال وتوجه الى غار حراء ليعبد الله عزّ وجلّ، كان (ص) قد وضع مرحلة الحب والحنان التي اشبعها عائلة ابي طالب وراءه. وبدأ ينظر الى الخلق والخالق والوجود، وبدأ يعبد الخالق الواحد وهو يحمل شخصية عاطفية وفكرية متكاملة لا يشوبها نقص عاطفي أو نفسي. وهكذا كان علي (ع)، فقد وضع مرحلة العاطفة المنهمرة من قبل أبويه حباً وحناناً خلف ظهره، وبدأ يستمد من رسول الله (ص) منابع الحكمة والعلم والنور.

ثانياً: ان ثقافة ام طالب (رض) في التوحيد والابراهيمية الخالصة، كان لها دور فعال في تعليم أبنائها رفض عبادة الاصنام وادانة الوثنية في وقت كانت فيه أجواء مكة وأزقتها تعجّ بالثقافة الوثنية وعبادة الاحجار.

والقاعدة أن الام العارفة تحاول ان تزرع في ذهن وليدها افكاراً صحيحة واقعية عن العالم الذي يعيش فيه ذلك الوليد، بينما تحاول الام الجاهلة حشو ذهن وليدها بمعلومات أقرب الى الخرافة منه الى الواقع. ولا شك ان ثقافة ام طالب التاريخية حول الانبياء (ع) وايمانها بالله الواحد كانا لهما أثراً بالغاً على طهارة علي (ع) وصلابة منشأه وحسن توجهه، وهو لا يزال غضاً صغيراً يرضع من ثدي أمه معاني التوحيد.

٤ - مع رسول الله (ص) أيام الطفولة والصبا

وعندما بلغ محمد (ص) مبلغ الرجال وتزوج بخديجة بنت خويلد استقلّ في حياته الجديدة عن عائلة عمّه أبي طالب (رض). ولكن حصل في تلك الفترة أمر استثنائي، وهو ضمّه علياً (ع) اليه (ص). فعندما طلب رسول الله (ص) من ابي طالب (رض) ضم علي (ع) اليه للتخفيف من عيال عمه في الشدة التي أصابت قريشاً، كان (ص) يعلم بأنه يضمُّ اليه صفحة ذهنية بيضاء طاهرة مستعدة لالتقاط العلم والمعرفة الربانية، وارضاً بكرةً يغرس فيها (ص) ما يستطيع من علم ومعرفة وحكمة ودين. فقد كان علي (ع) وقتها صبياً في السادسة من عمره المديد.

عملية نقل الخصال النبوية:

تعلّم علي (ع) في البداية من رسول الله (ص) الخصال النبوية في كمال الادب وعظمة الخلق وعفة اللسان وسماحة النفس والشجاعة والأيد. وقد أشار (ع) الى ذلك بقوله: «... ولقد كنتُ اتبعه إتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه...». وقد رفع ذلك الإتياع والانقياد علياً (ع) الى مستويات من السمو والكمال والجمال. خصوصاً وانه (ع) كان يمتلك استعداداً هائلاً لتقبل ذلك العلم السماوي واستيعابه.

فكان التعليم النبوي لعلي (ع) اداةً لصقل دوافعه الدينية نحو الخالق عزّ وجلّ، ووسيلة لتنمية مواقفه الحياتية والفكرية مع الدين الجديد القادم، وطريقة لترسيخ الجمالية الدينية

والاخلاقية السماوية التي كان يتمتع بها رسول الله (ص) في شخصيته (ع). وبذلك، فان استعداد علي (ع) الخاص لاستيعاب كمية واقعية هائلة من المعلومات عن الحياة والوجود والخلق والشريعة والقانون وخفايا الحياة الآخروية، جعلته يخرج الى قريش والعالم الاوسع مسلحاً بفهم شامل وكامل للاحكام الواقعية والقضايا الحقيقية. على عكس الذين لم يقدر لهم أن يوهبوا تلك النعمة، فقد نشأوا وفيهم نقص ذهني في ادراك الواقع، وفي أذهانهم كمية محدودة وقليلة عن التشريع وأهدافه وملاكاته. ولذلك لمسنا هفواتهم عندما تسلّموا اعلى تكاليف الشرع في ادارة المجتمع بعد وفاة النبي (ص). ولكننا لم نلمس من علي (ع) الا الفهم الكامل الواقعي لقضايا الدين.

قدوة من الطراز الاول:

ومن الطبيعي، فاننا نلاحظ المسحة النبوية في حياة امير المؤمنين (ع) من خلال: فصاحة اللغة، وكمال الدين، وسلامة العاطفة، وشفافية الاخلاق. وتلك عوامل اجتمعت كلها في شخصية علي (ع) الذي كان قدوة دينية من الطراز الاول بعد رسول الله (ص).

واكتساب علي (ع) الفاظه من رسول الله (ص) منذ سن الفولة يعني أن نشاطه اللغوي الفصيح في مقتبل حياته والى آخر لحظة من لحظات عمره سيكون نشاطاً لفظياً شرعياً، ويعني أيضاً أن الثقافة التي تعدّ جزءاً من تركيبته اللغوية هي ثقافة دينية سماوية لا ثقافة اجتماعية، كما كان حال الرعيل الاعظم من المسلمين في تلك الفترة التاريخية. ذلك ان اللغة التي يكتسبها الفرد تتأثر متأثراً عظيماً بالثقافة الاجتماعية او الثقافة الدينية؛ فالانسان يكتسب اللغة عن طريق التعلم لا عن طريق الوراثة الجينية. ولذلك كان علي (ع) لسان الاسلام الناطق بالحق والقوة والبلاغة، وكانت كلماته الشرعية البديعة تعيش عطرة في الوسط الاسلامي الجديد.

ولم يقتصر النبي (ص) على تعليم علي (ع) قوة المضمون في العبارة ومطلق اليقين في منطوق الكلمات ومفاهيمها، بل منحه (ص) أيضاً فهماً في قضايا الخلق والايجاد، والوجود والحياة، والكون والانسان، والخالق والمخلوق. وأعطاه إدراكاً لملاكات الاحكام والمصالح والمفاسد وطبيعة الحقوق والواجبات ورتب التكاليف ومقتضياتها. وهذا هو الدين الذي انزله الله

سبحانه على رسوله (ص) عبر وضع الطبيعة النهائية للحقيقة على شكل مجموعة من العقائد والاحكام والإلزامات والنواهي، بحيث يؤدي تطبيقها الى سعادة الانسان في الدارين.

ولا يكتمل فهم الدين في شخصية الانسان، ما لم يقترن بعمل آخر مهم على صعيد المقدمة. وهذا العمل المبناي يشمل: بناء دوافع الخير دائماً ومقاومة اغراءات الدنيا، وبناء عاطفة سليمة نقية من الرذائل تنسج للنفس اللوامة بساطاً تمارس عليه دورها الايجابي في كبح جماح المعصية، وبناء حس قريب من حس الشرع في التمييز بين الخير والشر، والمصلحة والمفسدة، والعلل والمقتضيات. وهذا هو البناء العاطفي الذي بناه رسول الله (ص) في شخصية علي (ع).

وعلى صعيد الاخلاق، فان النبي (ص) بنى في عليّ (ع) الشخصية الاسلامية التي تحمل جميع القيم الدينية وتطبقها كمصاديق، كالصدق والامانة والشهامة والشجاعة والاقدام والتعفف والتعبد والتقوى والزهد. ولذلك فان الشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تعبد الصنم مثلاً، لانها تمرنت على مقاومة اغراءات التقليد الاجتماعي. والشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تظلم الناس، لانها بُنيت على اساس قيم العدالة الدينية والاجتماعية. والشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تتمتع بملذات الدنيا المادية، لانها تنظر أبداً الى السماء والحياة الآخرة حيث ترى فيها وجودها الحقيقي. وكذلك كانت شخصية علي (ع) المعيار الشرعي الاخلاقي للخير بكل ابعاده السماوية المشرقة.

الثمرة العظمى:

وبكلمة، فقد كان علي (ع) ثمرة من ثمرات جهود رسول الله (ص)، وكانت طبيعته الانسانية والدينية والذهنية مستقلة عن تأثيرات الثقافة الاجتماعية. أي أن علياً (ع)، وبفضل ايام الطفولة والصبا مع محمد (ص)، لم يخضع في ادراكه وتفكيره للمؤثرات الاجتماعية الوثنية في الثقافة والاجتماع والايمان والاعتقاد والفكر. بل كان ادراكه الديني والذهني الاجتماعي مستقلاً عن تلك التأثيرات. وما تلقاه من رسول الله (ص) ومنه (ع) هو نبعٌ صافٍ مستمدٌ من السماء لم يلوّث بافكار الناس او فلاسفتهم او مفكريهم. فعلي (ع) اجتنب عبادة الاوثان، لان طبيعته

الفكرية كانت مستقلة عن تأثيرات الثقافة الاجتماعية، وخاضعة فقط لتأثيرات رسول الله (ص) الذي كان خاضعاً لتأثيرات الوحي فحسب.

ولذلك فإننا عندما نقرأ خطب أمير المؤمنين (ع) فكأنما نقرأ فكر رسول الله (ص) وخطبه ومواعظه. وعندما ندرس عدالة الامام (ع) فكأنما ندرس عدالة رسول الله (ص). وعندما ندرك شجاعة أمير المؤمنين (ع) فكأنما تتمثل لنا شجاعة رسول الله (ص). لقد صاغ المصطفى (ص) في شخصية علي (ع) منذ ربيع الصبا شخصية الامامة بما فيها من عدالة وفصاحة وشجاعة وأيدٍ وحلم وزهد وتقوى.

٥ - الايمان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص)

ان الايمان المبكر بالله سبحانه وتعالى من قبل الامام (ع) وتصديقه برسالة محمد (ص) يعني انه ظلّ (ع) صافي الفكر والروح ولم يتشرب بالفكر الوثني بالرغم من انه عاش في زمان يُعجُّ بالثقافة الوثنية وممارسات عبادة الاصنام والاعتقاد بها في مكة. وطهارة السبق في قوله تعالى: **(والسابقون السابقون. أولئك المقربون)** تبقى ملازمة لحياته رغم المحن والمصاعب العظيمة التي تعرّض لها لاحقاً.

الاسبقية وصفاء الفكر والروح:

فقد حددت الاسبقية في الاسلام، التي عبّر عنها رسول الله (ص) عند مخاطبته علياً (ع) بالقول: «يا علي انت اول المؤمنين ايماناً، وانت اول المسلمين اسلاماً...»، حددت حاجاته الدينية والدينيوية، وتصوراته الذهنية عن الخلق والوجود، وموقفه الثابت من الاحداث والقضايا الخارجية، وخطه في العقيدة والحكم والقرار، وخطط العمل لنصرة الاسلام ضد الشرك والنفق والقسوط والانتكات والمُرُوق.

فالقاعدة ان ما يصبُّ في ذهن الانسان من علوم او ملاحظات يختبرها في الخارج تتحول لاحقاً الى صور وأشكال ذهنية، وأفعال لفظية أو مكتوبة، وحركات معبّرة، ومواقف اجتماعية، وفهم ذاتي واجتماعي، وصفات شخصية متعلقة بالفضيلة أو الرذيلة. فالذي يشبُّ على الايمان

بالله سبحانه ورسوله (ص) وعلى الانشداد التام بكتابه المجيد منذ نعومة اظفاره، انما يمتلىء من طاقة العلم والمعرفة الدينية حداً بحيث لا تنبثق من فيه الا ينابيع الحكمة والمعرفة والعلم. وتكون صورته الذهنية غنية بأجواء الوحي وبكلام الله المجيد وبالرسالة التي يحتك بمصداقها وبصاحبها (ص) كل يوم. فعلي (ع) عندما يتكلم لا يُخرج من فمه الشريف الا جواهر الافكار الدينية وعندما يخطب تنزل الكلمات الشرعية النقية كالزلال العذب بين شفثيه الشريفتين. لانه عاش (ع) جلّ حياته مع رسول الله (ص) يتلقى منه العلم والمعرفة عن النبع الصافي المتصل بالسماء. بينما كان البعض يخلط الصور الذهنية للوثنية بالصور الذهنية للاسلام.

والتحقيق، ان علياً (ع) آمن بالله عزّ وجلّ وبالعقيدة التوحيدية عندما ضمّه رسول الله (ص) اليه. والاقوى انه لم يتجاوز السادسة، وأعلن اسلامه وهو لم يتجاوز العاشرة (وقيل الثالثة عشرة من عمره). فأمن قبل الناس بسبع سنوات، وأسلم قبل الناس بفترة زمنية لا نعرف مقدارها على وجه الدقة. فكان (ع) أولهم ايماناً، وكان أولهم اسلاماً كما خاطبه رسول الله (ص) بذلك. بل كان (ع) الصديق الاكبر، ولم يعبد الله سبحانه من هذه الامة قبله أحد غير رسول الله (ص)، وصلى مع رسول الله (ص) قبل أن تصلي الناس على الاطلاق.

المؤهلات الروحية والفكرية:

ولا شك أن دعوة علي (ع) للاسلام من قبل النبي (ص) في تلك السن كانت لفضيلة متميزة تخص ذلك الشاب اليافع الذي لم يبلغ الحلم بعد. فعلي (ع) وقت البعثة لم يكن كباقي الصبيان، بل كان انساناً على اعتاب الرجولة قد امتلىء من علم المصطفى (ص)، ورضع من بيت النبوة، واستنشق من عبير الوحي، وكان يسمع الصوت ويرى الضوء قبل الرسالة وجبرئيل في الغار يعلم رسول الله (ص) معاني التوحيد.

وكان الامام (ع) مؤهلاً _ بفضل التربية النبوية _ لتقبل الاسلام والايمان به لانه كان مؤمناً في الاصل بالتوحيد والعقيدة الابراهيمية. بينما كان الامر يتطلب مع بقية الناس مرحلتين من التغيير. الاولى: الكفر بالوثنية وترك عبادة الاصنام. والثانية: الايمان بالله الواحد الاحد وبرسالته السماوية الجديدة. ولذلك قال ابن هشام بشأن اسلام القوم: «وما كان (ص) يدعو احداً من هؤلاء الى الاسلام الا كانت فيه عنده نظر وتردد وكبوة، أي تأخير وقلة اجابة».

فايمان علي (ع) كان يعني انه وضع ثقته بمحمد (ص) وبرسالته السماوية الخاتمة، وبنى جسراً من الثقة والاطمئنان بينه (ع) وبين السماء. فقد كان اعتقاده (ع) بالحقائق المنزلة عن طريق الوحي اعتقاداً يقينياً شاملاً. وعندما يخاطبه النبي (ص) بالقول: أنت أول المؤمنين ايماناً وأنت أول المسلمين اسلاماً، يعني انك أول من اعتقد بالحقائق السماوية المنزلة عليّ وانك أول من وضع ثقته بالرسالة السماوية التي جئتُ بها. ويتعبير آخر، ان علياً (ع) عندما آمن برسول الله (ص)، فانه (ع) آمن بكل ما كان يحمله نبي الرحمة (ص) من احكام وعقائد ومفاهيم وقيم واخلاق.

ولم يكن ايمان علي (ع) ايماناً لفظياً ظاهرياً، بل كان ايماناً يقينياً قطعياً تمثله المقولة المشهورة عنه: «لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً». وارتقاء الايمان بالرسالة الى درجة اليقين يعني اجتيازاً لحدود المعرفة العقلية من أجل الدخول الى عالم آخر يتجرد عن كل الشكوك والاوهام والمخاوف من العقوبة.

٦ - علي (ع) مع العشيرة والدار

عندما اب لغت السماء أوامرها لرسول الله (ص) بانذار عشيرته الاقربين من بني عبد المطلب بالقول: **(وأندِرْ عشيرتَكَ الأَقْرَبِينَ)**، فانها لاحظت كليات انسانية ثابتة في مباني القرابة والعشيرة. ذلك ان القرابة لعبت دوراً مهماً في تماسك افراد العشيرة وتضامنهم في المجتمع الانساني، لان نظامها كان يصوغ لوناً من الحقوق والواجبات المشتركة بين اعضائها. وكان بنو هاشم مصداق العشيرة التي تحمل تلك الكليات الثابتة. فمن مصاديقها: شرف بني هاشم، واعتراف قريش بها كعشيرة، وقوة نظامها المعترف به اجتماعياً، ووجود أبي طالب في زعامتها.

شرف العشيرة:

فالمعروف ان عشيرة بني هاشم كانت من أشرف عشائر مكة على الاطلاق. فكان فيهم هاشم «عمرو العلاء» الذي هشم الطعام وثرثد الثريد عندما اصابت مكة السنة الجذباء، وكان فيهم عبد المطلب الذي حفر بئر زمزم فسقى الحجيج الاعظم ووقف بوجه ابرهة عام الفيل من أجل حماية الكعبة، وكان فيهم ساقى الحجيج ابو طالب، وكان فيهم حمزة سيد فرسان العرب

وأشرفهم. فدعوتهم الى الرسالة الجديدة كان لها تأثيراً عظيماً على قبائل العرب وأشرفها. واذا قامت عليهم الحجة تعدت الى غيرهم.

وكانت قريش تعترف ببني هاشم كعشيرة لها جذورها الممتدة الى ابراهيم الخليل (ع)، وقد اشار تعالى الى نسل النبي محمد (ص) بقوله: **(... الذي يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين).** وظاهره تقلبه (ص) في الساجدين الموحدين من نبي الى نبي حتى أخرجه نبياً.

ولا شك انّ للعشيرة في تلك الحقبة الزمنية، نظاماً ادارياً قوياً يمنح الحقوق ويفرض الواجبات. ولذلك أقر الاسلام بعضاً من تلك الاعراف لانها كانت متناغمة مع مباني العقلاء. فكان من الالزام العرفي الاخلاقي دعوة عشيرته الى أفضل ما جاء به رجل لقومه وهو الاسلام والنجاة من غضب الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال (ص) لهم مخاطباً: «يا بني عبد المطلب، اني والله ما اعلم انساناً من العرب جاء قومه بافضل ممّا جئتكم به، انّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن ادعوكم...». ولكنهم تنكروا له واستخفوا بدعوته عدا أبي طالب وابنه علي (ع).

موقفا أبي طالب (رض) وابنه علي (ع):

وكان وجود أبي طالب (رض) في ذلك المجلس الذي ضمّ أربعين رجلاً من شيوخ العشيرة كالعباس والحزمة، اضافة الى أبي لهب، قد اكسب الاجواء المترقبة وضعاً خاصاً. فأبو طالب يعدُّ بالنسبة الى محمد اليتيم (ص) الأب الاجتماعي. والفرق بين الأب الفلسجي والأب الاجتماعي هو أن الأب الاجتماعي يتحمّل مسؤوليات اجتماعية ويتوقّع منه الزامات على صعيد الجماعة. فاليتيم الذي حُرِمَ من الأبوة البيولوجية يحتاج خلال خروجه الى المجتمع الى أبوة اجتماعية يقوم بها ولي أمره الموكّل بتربيته. ولذلك عندما قام أبو لهب مخاطباً القوم: لقد سحركم صاحبكم، قام له أبو طالب مستهيناً باستنكاره وموجّهاً الخطاب لرسول الله (ص) قائلاً: «ما أحبّ الينا معاونتك، واقبالنا لنصيحتك وأشدّ تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وانما أنا احدهم غير اني أسرعهم الى ما تحبّ، فامضِ لما أمرت به فوالله لازال احوطك وامنعك...». وكان ذلك الموقف احد موقفين عظيمين حصلا في ذلك اللقاء. فكان هذا الموقف المشرف للأب «ابي طالب». وكان الموقف الثاني لابنه اليافع علي (ع).

والموقف الثاني هو عندما دعاهم الى تلك الكلمتين الخفيفتين على اللسان الثقيلتين في الميزان فيملكون بهما العرب والعجم، وتنقاد إليهم بهما الأمم، ويدخلون بهما الجنة وينجون بهما من النار: شهادة أن لا اله الا الله، وأنه (ص) رسول الله، فمن منهم يكون وزيره وناصره؟ لم ينهض منهم الا علي (ع) - وهو في بداية بلوغه - بكل حماسة واندفاع، فامضى (ص) استجابته تلك - بعد أن اقعده ثلاث مرات لاتمام الحجة عليهم- بالقول: «يا ابا الحسن، أنت لها، فُضي القضاء، وجفّ القلم. يا علي اصطفاك الله بأولها، وجعلك وليّ آخرها».

لقد كانت دعوة العشيرة بسادتها الى مآدبة طعام، ثم دعوتهم الى الايمان بعقيدة جديدة كان فيها خروج على العرف العشائري السائد الذي كان يقرر بأن زعيم العشيرة هو الذي يدعوها الى مناسبة كتلك. ولكن نور النبوة وجلالها وجمالها الذي كان طاغياً على رسول الله (ص) هو الذي جبر تلك العملية الشاقة.

آثار دعوة العشيرة:

وهنا كسر الاسلام بشخصي رسول الله (ص) وعلي (ع) أول حواجز العشيرة في العصر الجاهلي، ألا وهو حاجز الطاعة العمياء لسلطة العشيرة. فأصبح علي (ع)، منذ ذلك اليوم، سيد القوم بعد رسول الله (ص) وهو لا يزال أحدثهم سنّاً وأرْمضهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت الطاعة للدين ومن يمثله لا لسادة العشيرة ولا لزعمائها.

وهذا المعنى وضع فكرة العشيرة في الموضوع الصحيح. فرابطة الدم والرحم لا غبار عليها، بل ان الدين يؤكدّها ويشدد على أخلاقيتها، ولكن الطاعة ينبغي أن تكون لمن له الشرف والرفعة والمنزلة في الدين. فالشريف في الدين - حتى لو كان صغيراً في السن كعلي (ع) - لا بد أن يُطاع من قبل عشيرته حتى من قبل سيدها أبي طالب، وغيره من وجهاء العشيرة واکابرها.

٧ - علي (ع) وأول مراحل الفدى

ان الرغبة في البقاء على قيد الحياة ليست مرتبة بمقدار اللذة والمتع المادية التي يجنيها الانسان من بقائه حياً. بل ان تلك الرغبة شعور غريزي لا يمكن الا للقلّة أو النخبة الافلات منه.

وهذا الشعور الفطري في التشبث بالحياة الدنيا له منشأ مرتبط برغبة الانسان الغريزية نحو البقاء على قيد الحياة حتى لو كان الانسان فقيراً معدّياً. فقد يفضّل الفرد الفقير او المعدّب، الحياة مع الفاقة والحاجة، على الموت. فالموت اذن، عملية مرعبة لا يريد الانسان ان يفكر فيها ما دام حياً. واذا صدق هذا، فان الايثار لا يتم لانه يعني ببساطة طلب الموت على الحياة اختياراً.

الايثار وطلب الموت:

ولكن علي (ع) _ وهو في الثالثة والعشرين من عمره _ غير هذا المفهوم؛ وجعل طلب الموت والتضحية والايثار، الاصل في منهج حياته الدينية والاجتماعية. فجعل حياته وقفاً للدين، واستعداداً كاملاً لحماية النبي (ص) في كل موقف. فقد قرر (ع) امتثال أمر النبي (ص) والمبيت في فراشه (ص) ليلة الهجرة. وكان عملاً جريئاً للغاية، لان أقل ما يمكن توقعه في تلك الليلة هو أن يقطّع بالسيوف دون مقاومة وبدم بارد فيضيع دمه بين قبائل العرب. وفي خصوص تضحيته تلك أنزل الله تعالى: **(ومن الناس من يَشري نفسه ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ واللهِ رؤوفٌ بالعبادِ).**

فكان ما يميز ايثار علي (ع) ليلة الهجرة هو أن الظرف الذي كان يمرُّ به رسول الله (ص) والرسالة التي يحملها كان صعباً للغاية، وكانت التضحية جسيمة جداً. ولذلك كان انكار المصلحة الذاتية عند الامام (ع) في ذلك الموقف، ضخماً وعملاقاً.

ولا شك أن المصلحة الذاتية تحدد الدافع نحو العمل في ظروف معينة. فعندما يأكل الانسان طعاماً طيباً في بلد يفيض بالخيرات والطيبات، فانه يتصرف من وحي مصلحته التكوينية، ولا ضير في ذلك ما دام الخيرُ كثيراً. ولكنه لو أكل نفس نوعية ذلك الطعام في وقت مجاعة يتضور فيها أرحامه وجيرانه جوعاً وألماً، لعدّ ذلك اهتماماً بمصلحته الذاتية وتكريساً لفكرة الانانية.

ملامح الايثار:

ولو كان رسول الله (ص) قد أمر علياً (ع) بالمبيت على فراشه وهو في المدينة وقت سلم وأمان لما انطوى ذلك العمل على قضية مهمّة، لانه لا يبرز انكاراً لمصلحة ذاتية. ولكن الامر حصل في ظرف خطير للغاية، حيث تجمّع ممثلو بطون العرب ليقتلوا رسول الله (ص). فنام علي

(ع) - مختاراً - على فراش النبي (ص) تحت ظلّ سيوف الأعداء، يتوقّع فيها سفك دمه في أية لحظة. هنا تجلى عند علي (ع) انكار الذات والترفع عن المصالح الذاتية بأجلى صورها.

ولو لم يكن هناك انسجام فكري وعقائدي وروحي تام بين المؤثر «وهو علي (ع)» والمؤثر له «وهو رسول الله (ص)»، لما تحقق الايثار بمعناه الكلي الواقعي. لان الاختلاف في الدوافع والاهداف لا يولّد ايثاراً. ذلك، أن اليقين بصحة الرسالة، والقطع بالنبوة الحقة، والثقة بنصر الله عزّ وجلّ، جعلت من قضية ذلك الايثار أمراً حتمياً، واندماجاً لا يمكن تفكيكه بينهما (عليهما الصلاة والسلام). فلم تكن هناك مشاعر فردية في حبّ الذات، أو الخوف من الموت، أو الحفاظ على المصالح الشخصية بقدر ما كان هناك اندماج في الرسالة وقائدها واندكاك في أهدافها ووسائلها.

ولكن الرسالة السماوية كانت بحاجة الى جهد جماعي متظافر من أجل نقل فحواها وأهدافها النبيلة الى البشرية كي تؤمن بها وتدافع عنها. وتركيبية دينية تضم أفراداً على رأسهم رسول الله (ص) ومن بعده علي بن أبي طالب (ع) ونخبة طيبة من الموالين لرسول الله (ص) وأهل بيته (ع) لا بد أن تنتصر على أعدائها. ذلك لان التظافر والتآزر الذي كان يشدّ تلك التركيبة أوصلها الى درجات عليا من الايثار وتفضيل الغير على الذات.

مقتضيات الايثار:

لقد أظهر علي (ع) بايثاره ذلك ثلاث خصال على درجة كبيرة من الاهمية، وهي:

الاولى: الاقرار بنبوة محمد (ص) والتضحية من أجلها ومن أجل الحفاظ على قائدها (ص).

الثانية: أنه كان المدافع الحقيقي عن رسول الله (ص)، وأقصى ما يفعله المؤثر أن يقدم للمؤثر له نفسه وجسده.

الثالثة: ان طبيعة الامام (ع) كانت ترى الموت والحياة في الله، على حد سواء. فاذا كان في الموت رضياً لله سبحانه فمرحباً بالموت. وإذا كان في الحياة - بخشونتها وآلامها - رضياً

لله عزّ وجل فمرحّباً بها وسيلة من وسائل نشر الدين. والى ذلك يشير (ع) ضمن كلام له لما قُبض رسول الله (ص): «... والله لابن أبي طالب آنسٌ بالموتِ من الطفل بثدي أمه...».

فلم يكن الايثار عند الامام (ع) حبّاً لمصلحة ذاتية، بل كان حبّاً لله عزّ وجل وذوباناً في القيم الدينية العليا والصفات المعنوية الأسمى، واندماجاً في مصلحة الدين وملاكاته وأهدافه العليا في الحياة الانسانية.

٨ - الهجرة الى المدينة

وعندما هاجر النبي (ص) الى يثرب أمر علياً (ع) بالبقاء في مكة عدة أيام من أجل ردّ الودائع، وقضاء الديون، ثم الاستعداد للهجرة الى المدينة أيضاً. وهكذا كان، فقد هاجر علي (ع) يحمل الفواطم (أمه فاطمة بنت اسد وهي أول من هاجر من النساء، وفاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص) وكانت في الثامنة من عمرها، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وقيل انها فاطمة بنت حمزة) من دار الشرك في مكة في ذلك الوقت الى دار الايمان في المدينة.

الابتعاد عن الوطن:

وكانت الهجرة الى المدينة تقتضي الابتعاد عن الوطن «مكة» مسافة بعيدة، والبقاء في الوطن الجديد بصورة دائمية ونهائية من اجل بناء المجتمع الديني المتماسك والدولة العالمية للاسلام. وكانت كل الدلائل تشير الى أن هناك فرصة حقيقية لتثبيت الاسلام في موقع آمن ونشره في العالم أجمع، بعد ان كان محصوراً في أزقة مكة وبيوتها المعدودة المترقبة. فكانت الهجرة - على ما فيها من مشاق ومصاعب - أمراً حتمياً من أجل بقاء الدين.

ولا شك أن الاضطهاد الديني الذي مارسه قريش ضد المسلمين كان من العوامل المهمة التي دفعت رسول الله (ص) للتفكير بالهجرة من بلده. فمع ان للاضطهاد الديني علاجاً مهماً في الاسلام يتمثل بممارسة التقية التي أشار اليها الذكر الحكيم بالقول: (... إلا أن تتقوا منهم ثقاةً...)، الا ان التقية مقيدة بعدم القدرة على مواجهة الظالم. ولا يمكن ان تؤدي وظيفتها في ظرف كان يتطلب الانطلاق والتحرك والجهاد في سبيل الله ومقاتلة المشركين. وقد استخدمت

التقية على نطاق ضيق في قضية عمار بن ياسر ومسلمين مستضعفين آخرين. ولكن استثمار رخصة التقية لا يمكن أن يستمر هكذا فيختنق الدين، فكان لابد من التحرك سريعاً نحو المدينة. وقد كان الشعور بالأمل، والطموح نحو نشر الدين، وامتلاء النفس بمستقبل التغيير والبناء، وجدية التكليف الشرعي هي التي دفعت المسلمين للهجرة من أجل غدٍ مشرقٍ ومستقبل ديني أفضل. وقد كان المهاجرون المسلمون يحلمون بتحدي قريش ومقاتلتها بالسيف حتى تنتصر كلمة التوحيد وتنتشر في جميع أرجاء المعمورة. وكان طموحهم يتجاوز إطار الصحراء العربية ليصل الى العالم كله، ولذلك وصفهم سبحانه وتعالى بالقول: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرًا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ...)**.

ملاح الهجرة المباركة:

ويمكن تشخيص ملاح تلك الهجرة المباركة عبر تشخيص أهدافها والقوة التي كانت تضعها في المؤمنين بالدين الجديد. فقد كان الجو الايماني الملهب ضد المشركين، والامداد المعنوي الذي كان يمدُّه نزول القرآن المجيد على النبي (ص)، وقيادة رسول الله (ص) للمواجهة بين الايمان والكفر من العوامل الحاسمة في شحن شخصيات المهاجرين. ولم يكن رسول الله (ص) سباقاً للهجرة مع طلائع الناس ليأمن اذى المشركين، بل كان (ص) من أواخر من هاجر ليطمئن على ان المسلمين قد افلتوا من اذى قريش وملاحقتها لهم وسلوكوا الطريق الآمن، حتى لو كان ذلك التأخير يعرضه للخطر. ولم تنته عملية مغادرة مكة عند ذلك الحد. بل كان علي (ع) آخر من هاجر من المسلمين مع الفواطم. وبذلك ضرب رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) أروع الامثلة في القيادة الدينية وعدم الاكتراث بالموت.

وفي ضوء ذلك فاننا عندما ننظر الى تلك الهجرة التاريخية العظمى، فاننا لا ننظر الى حجم المهاجرين وطبيعة شبكتهم الاجتماعية والانسانية، بل ننظر الى النوعية التي هاجرت مع رسول الله (ص) وغيّرت وجه التاريخ واصبحت قدوة لاجيال الانسانية المتلاحقة ومنهم حمزة وعبيدة وسلمان وابو ذر والمقداد وغيرهم. وقد وصفهم امير المؤمنين (ع) فيما وصف من اصحاب محمد (ص): «لقد كانوا يُصبحون شعثاً غبراً ، وقد باتوا سُجّداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكرٍ معادهم...».

ومن اللافت للنظر ان المسلمين هاجروا بشكل مجموعات وجماعات صغيرة وكبيرة، فكان سلوكهم سلوكاً جمعياً يحمي بعضهم بعضاً، عدا علي (ع). فقد هاجر علي (ع) مع الفواطم فكان حاميهن الوحيد من اعداء جمعوا كل قواهم المعنوية لمحاربة بطل الاسلام. وكان أهم ما في تلك الهجرة هو حفظ شخصية رسول الله (ص)، وبذلك حُفظت بيضة الاسلام. وتمت صيانة النبوة والامامة الى أجل مرسوم، حتى تحققا اهدافهما على الارض.

المؤاخاة في المدينة:

وكانت الهجرة الى المدينة شاقة بالنسبة للمسلمين، وكان التكليف بعد الهجرة أشق وأصعب، لان مجتمع مكة يختلف عن مجتمع المدينة. ولذلك قام رسول الله (ص) في أول عمل اجتماعي بعد الهجرة بالمؤاخاة بين المهاجرين والانصار من أجل: اعادة تأهيل المهاجرين نفسياً واجتماعياً، ودمج مجتمع المهاجرين بمجتمع الانصار وتوحيدهم عقائدياً تحت راية الاسلام.

ولكن رسول الله (ص) آخى نفسه مع علي (ع). فكان محمد (ص) خاتم الانبياء وعلي (ع) أخوين. وكان هدف تلك المؤاخاة الفريدة هو تثبيت موقع علي (ع) منه (ص) ومن الرسالة أيضاً، حتى لا يفقد الذين اعماهم الحقد الجاهلي نظرتهم الواقعية لشخصيته الرسالية (ع) في خضم مشقة الهجرة وواقع المجتمع الجديد. بينما كان حمزة عم رسول الله (ص) وزيد بن حارثة أخوين، وكان أبو بكر وخارجة بن زهير أخوين، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين. وقد سقنا تلك الاسماء من أجل ان نرى موقعية علي (ع) المتميزة في قضية الاخوة الدينية.

اخلاقية رد الامانات الى اهلها:

ولم يترك علي (ع) مكة ما لم يختمها بمنقبة من مناقبه العظيمة، فقد اقام (ع) بمكة بعد هجرة النبي (ص) اياماً يرّد الودائع ويقضي الديون. وكان ذلك العمل - على خطورته الامنية لعلي (ع) - على جانب عظيم من الأهمية في الفلسفة الاخلاقية للدين. ويمكننا لمس أهمية ما قام به الامام (ع) ضمن النقاط التالية:

أ - ان الوفاء برّد الامانات الى اهلها كان عملاً اخلاقياً امضى فيه الاسلام عمل رسول الله (ص) قبل البعثة وبعدها، حيث أوّتمن (ص) على الحفاظ على اموال الناس وحاجاتهم، ولذلك

شاع عنه انه الصادق الامين. وفي ضوء ذلك نكتشف متانة الرابط بين الاخلاق والدين والمجتمع. فالأمر بردّ الامانات الى اهلها حتى لو كانوا مشركين، يعبر عن عمق القيم الدينية الاجتماعية التي حملها الاسلام.

ب- لم يؤخذ في قضية الوفاء بردّ الامانة: حجم الخسارة والربح، من حيث احتمالية مقتل علي (ع) من قبل المشركين. وبذلك يمكننا عدّ الوفاء برد الامانة، من الاعمال الاخلاقية التي تنظر الى قيمة العمل، لا الى حجم الربح والخسارة.

ج - ان الوفاء برد الامانات قد طُبّق على المجتمع الوثني الكافر. حيث ان اغلب الذين ائتمنوا محمداً (ص) بعد البعثة ولم يهاجروا الى المدينة وبقوا في مكة كانوا من الذين لم يسلموا بعد. ولذلك تأخر علي (ع) في مكة لردها. ولو اسلموا لهاجروا. وقيل انه بقي عدد قليل من المسلمين في مكة في الخفاء. ولكن لسان دليل الروايات المتعلق بهذه المسألة لا يخصّ تلك القلّة، بل ان ظهور اللفظ يدلّ على اطلاقها على المسلمين وعلى غيرهم، وفيه قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...**

د - كان الوفاء برد الامانات الى اهلها من قبل الدين يعدّ احتراماً للثقة التي وضعها الفرد المؤتمن، ولا يمثل احتراماً لسلطة المشركين من قريش. وبذلك فقد كان الحكم تحكيماً للحق على الباطل على مستوى شريعة خاصة من الافراد من الذين وضعوا ثقتهم برسول الله (ص).

الهوامش:

(تليها ص ٤٠ - ٦٢)

سورة الرعد : آية ١١ .

٢ شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٠٦ .

٣ من مذاهب واختصاصات مختلفة كالسيد الحميري (ت ١٧٩ هـ)، والمسعودي (ت ٣٣٣ هـ) او ٣٤٥ هـ)، والشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، والحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، والعلامة

الحلي (ت ٧٢٦ هـ)، وابن الصباغ المكي المالكي (ت ٨٥٥ هـ)، والشبلنجي (ت ١٣٠٨ هـ)،
والمقدس الكاظمي (ت ١٢٢٧ هـ).

٤ «معاني الأخبار» _ الشيخ الصدوق. ص ٦٢ ح ١٠.

٥ «المستدرک علی الصحیحین» _ الحاكم النيسابوري. ج ٣ ص ١٠٨.

٦ «نهج البلاغة» _ خطبة ١٩٢ ص ٣٧٦.

٧ سورة الواقعة: آية ١٠ - ١١.

٨ «وسيلة المال في عدّ مناقب الآل» - لابن باكثير الشافعي. رواه الحضرمي باسناده عن عمر
بن الخطاب. الباب الرابع ص ٢١١.

٩ القُسُوطُ: الجور والعدولُ عن الحق. يقال: قَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطًا. قال الله تعالى: (وَأَمَّا
القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) سورة الجن: آية ١٥. «الصحاح» مادة قسط ج ٢ ص ١١٥٢.
والقاسطون: حاربوه يوم الجمل.

١٠ الإنتكاث: نكثَ العهدَ والحبلَ فانتكثَ، أي نقضه فانتقض. «الصحاح» مادة نكث ج ١
ص ٢٩٥. والناكثون: هم الذين حاربوه في صفين.

١١ المُرُوقُ: مَرَّقَ السَهْمُ من الرميّة مَرُوقًا، أي خرج من الجانب الآخر، ومنه سُمِّيت الخوارجُ
مارقةً، لقوله عليه السلام: «يمرقون من الدين كما يمرقُ السهم من الرمية». «الصحاح» مادة
مرق ج ٣ ص ١٥٥٤. والمارقون: حاربوه في النهروان بعد معركة صفين.

١٢ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٦٩.

١٣ «شرح ابن ميثم البحراني على كلمات الامام علي (ع)» ص ٥٢.

١٤ سورة الشعراء: آية ٢١٤.

١٥ سورة الشعراء: آية ٢١٨ - ٢١٩.

١٦ «كفاية الطالب» - الكنجي ص ٢٠٦.

١٧ «اسنى المطالب في مناقب علي بن ابي طالب» - الوصابي باسناده عن امير المؤمنين (ع).
الباب الثالث ص ١٢.

١٨ «الكامل في التأريخ» - ابن الاثير. ج ٢ ص ٦٠ - ٦١.

١٩ «منهاج الكرامة» - العلامة الحلي. المنهج الثالث. الدليل الاول.

٢٠ «سعد السعود» - السيد ابن طاووس ص ١٠٦. نقلاً عن تفسير محمد بن العباس بن مروان بن مهييار (الثقة) في تفسيره.

٢١ كما في رواية «كفاية الطالب» - للكنجي ص ٢٠٦.

٢٢ سورة البقرة: آية ٢٠٧.

٢٣ «نهج البلاغة» - الطبعة الحجرية. ص ٢٨.

٢٤ سورة آل عمران: آية ٢٨.

٢٥ انظر بحثنا المفصل: «التقية... وفلسفة الاتفاق على عدم الاتفاق» .

٢٦ سورة التوبة: آية ٢٠.

٢٧ الشعث: المغبر الرأس، والمراد انهم كانوا على درجة عالية من العبادة والسجود لله على تراب مساجدهم، ولذلك كانوا غُبراً شعثاً.

٢٨ «نهج البلاغة» - المختار من الخطب ص ١٧٣ خطبة ٩٦.

٢٩ «سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ١٥٠.

٣٠ سورة النساء: آية ٥٨.

٩ - علي (ع) في المدينة: الاهتمام الاستثنائي بالقرآن المجيد

واهتمّ الامام (ع) في المدينة وبالقرب من رسول الله (ص) بالقرآن الكريم كتابةً وجمعاً وحفظاً. وكان ذلك الاهتمام غير منفك عن اهتمام آخر وهو القتال في سبيل الله في المعارك والغزوات التي ابقت شوكة الدين قوية فعالة. ولكن الاهتمام بالقرآن الكريم كان اهتماماً استثنائياً، فلاعجب ان يقول (ع): «والله ما نزلت آية الاوقد علمتُ فيما أنزلت وأين نزلت، وان ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا». واهتم بالخصوص بـ«جمع القرآن على عهد رسول الله (ص)» حتى يُصان من التحريف بعد رحيل خاتم الانبياء (ص).

فليس عجبا أن نرى النبي (ص) يبذل وقتاً مديداً وجهداً طائلاً من أجل تعليم علي (ع) معاني القرآن الكريم واسراره وخفاياه. وكان (ع) يجهر بذلك مصرّحاً: «ما نزلت على رسول الله (ص) آية من القرآن الا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها، وتفسيرها، وناسخها، ومنسوخها، ومحكمها، ومتشابهها، ودعا الله عز وجل ان يعلمني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله عز وجل ولا علماً أملاه عليّ فكتبته وما ترك شيئاً علمه الله عز وجل من حلال، ولا حرام، ولا أمر، ولا نهى، وما كان أو يكون من طاعة أو معصية الا علمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري ودعا الله تبارك وتعالى، بان يملأ قلبي علماً وفهماً، وحكمةً ونوراً، ولم أنس من ذلك شيئاً ولم يفتني من ذلك شيء لم اكتبه...».

ولم تنحصر الكتابة بعليّ (ع)، ولم يكن الكاتب الوحيد للوحي، بل اشرك رسول الله (ص) افراداً آخرين بجانب علي (ع) منهم: زيد بن ثابت، وابي بن كعب الانصاري، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم. والعلّة في ذلك هو ان تثبت الامة - بكافة مذاهبها وطوائفها ومتبنياتهما- بعد وفاة رسول الله (ص) على قرآن واحد متفق على صحته، مصون بين الدفتين. فكتابة القرآن ليست كالولاية الشرعية، فالكتابة تقتضي التعدد بينما تنحصر قضية الولاية الشرعية بشخصية واحدة. وتعدد الكتاب واختلاف مذاهبهم يشبّه صحة القرآن. بينما يؤدي تعدد

الطموحات نحو كسب مقعد الولاية الشرعية الى صراع وربما الى تراجع مؤقت في تطبيق الافكار السياسية التي جاء بها الاسلام.

وكان الكتاب يكتبون القرآن على الجلود «الرقاع»، وجرائد النخل «العسب»، وصفائح الحجارة الرقيقة «اللخاف»، وعظام الجمال الجافة العريضة «الاكتاف»، وصحف الحرير، والاشخاب «الاقتاب» حيث تُنقش عليه الحروف والكلمات. وقد ورد في الروايات ان عليا (ع) جمع القرآن المكتوب على جرائد النخل، واكتاف الابل، والصحف، والحرير، والقراطيس.

وكتابة الوحي مقيّدة تماما بالنقل الامين لالفاظ القرآن الكريم على صحف متداولة في ذلك الزمان، على شكل كلمات وحروف. فهي لا تتضمن ابداعاً للافكار والآراء، أو تبادلاً للقيم بين الكاتب والقارىء، ولا تتضمن احكاماً يصدرها المؤلف للمخاطبين. فالكتابة هنا مختصة فقط بالامانة القصوى والدقة المتناهية في نقل الخطاب الشفهي الى مادة مكتوبة. فكتاب الوحي يحتاج - ضمن خصائصه- الى ملكة من التقوى والخوف من الله سبحانه ويقين تام بالدرجة الاولى، وقدرة على الكتابة والقراءة بالدرجة الثانية. وقد كان أفضل المرشحين لذلك العمل على الاطلاق: علي بن ابي طالب (ع). وكانت البقية من الافراد من اتجاهات شتى مثل: زيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن ابي سرح الذي ارتد لاحقاً وغيرهم من الذين كتبوا القرآن. وانما سَمَحَ لهم رسول الله (ص) بالكتابة، من أجل اتمام الحجة على الاعداء. والآ، فان خط علي (ع) كان كافياً لصيانة القرآن الكريم.

وليس غريباً ان نجزم بان الحفاظ على القرآن المجيد مصوناً بين الدفتين عبر التدوين، ساهم دون شك في حفظ افكار القرآن، ومفاهيمه، وكلماته، ورسالته السماوية في الهداية. وبذلك اصبح الكتاب السماوي المجيد يعيش في وراء حدود الاجيال، والثقافات، والعلوم، والمعرفة الحققة المتجددة مع تغير المجتمعات الانسانية. وهذا يفسّر لنا الاهتمام البالغ الذي اولاه الامام (ع) لكتابة القرآن المجيد في حياة رسول الله (ص)، والاهتمام الشديد بجمعه بعد وفاته (ص) مباشرة.

١٠ - علي (ع): الحياة العائلية

وكان زواج علي (ع) بفاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص) واشرف النساء حسباً ودينياً وعفةً في السنة الثانية من الهجرة، يقتضي تنظيمًا جديدًا للعلاقات الاجتماعية، بما فيها السكن الجديد للزوجين والعلاقات السببية الناتجة من آثار الزواج.

متاع البيت والعلاقة السببية:

وكان متاع البيت الجديد يشمل أبسط الادوات المستعملة في ذلك الزمان وأقلها كلفة، كالأدوات المنزلية المصنوعة من الخزف - وهو الطين المفخور - والفرش المصنوع من ليف النخل والكتان الخشن. في حين كانت نساء مكة يفتشن الحرير، ويلبسن ما تنتجه الصين والهند واليمن من ملابس واقمشة تنقلها القوافل العابرة الى الشام، ويستخدمن ما تنتجه بلاد الروم من أواني مصنوعة من الفضة والذهب. ولذلك عندما نظر رسول الله (ص) الى متاع فاطمة الزهراء (ع) بكى (ص) ثم رفع رأسه الى السماء وقال: «اللهم بارك لقوم جلّ اوانيهم الخزف». وكان بكائه (ص) ودعاؤه دالاً على امضاء منهج علي (ع) وفاطمة (ع) في اختيار الطريق الصعب في الحياة الاجتماعية؛ وهو طريق الزهد في الدنيا والقبول بشظف العيش من أجل الدين.

اما العلاقات السببية الناتجة من آثار الزواج، فنقول ان ذلك الزواج يُفهم على اساس انه كان تحالفاً بين طرفين ستربطهما رابطة دم جديدة بالاضافة الى رابطة الرحم القديمة. فهذا الاقتران يحمل دلالات دينية واجتماعية ينبغي التأمل فيها. فان من مقتضيات اقترانها ان بيت النبوة والامامة بات مركزاً لاهتمام المسلمين جنياً الى جنب مع القرآن الكريم، سواءً كان في حياته (ص) أو بعد وفاته. ذلك لان تركيبة أهل بيت النبوة (ع) المكونة من رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسنين (عليهم السلام جميعاً)، كانت مصدر العطاء الفكري العملي بعد القرآن الكريم. وكانت القدوة الاخلاقية العليا للامة على مر الزمن.

وكان من آثار زواجهما تهيئة نسل طاهر معصوم يحفظ رسالة الاسلام الى يوم القيامة، بعد ان كان ذلك الاقتران تحالفاً قدسياً بين النبوة والولاية، أي بين محمد رسول الله (ص) وعلي (ع) وصي رسول الله (ص) من أجل الاسلام واعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى. والخصوصية في ذلك

تكمّن في ان ذلك الاقتران كان يعني استمرار الفكرة او الرسالة التي يحملانها الى الجيل الجديد عبر ذريتهما. ولذلك فان اقترانهما كان انتصاراً للفكرة التي يحملانها. وبتعبير آخر ان عملية التزاوج تلك عكست مبدأ الحفاظ على الرسالة الدينية اكثر مما عكست مجرد اشباع العواطف والرغبات المشروعة.

وبذلك فقد ضمت أسرة علي وفاطمة (عليهما السلام) خصائص ديمومة، مستقاة من رسول الله (ص) وهي: الارث، والولاية، والنسب. فالارث كان متمثلاً بانتقال ملكية رسول الله (ص) بعد وفاته الى ابنته الوحيدة (ع) من خديجة بنت خويلد. والولاية كانت متمثلة بانتقال المنصب الالهي الى علي (ع) بالامامة بعد التحاقه (ص) بالرفيق الاعلى، لانه لا نبي بعد رسول الله (ص). وهو الذي قال (ص): «... اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي». والنسب كان متمثلاً بانتقال العوامل الوراثية النبوية من رسول الله (ص) الى ابنته الطاهرة فاطمة (ع)، ومن فاطمة وعلي (ع) الى ذريتهما الطيبة الطاهرة. فكانت الذرية الطاهرة تحمل صفات جدها (ص) وخصاله الحميدة في الكرم والشجاعة والاخلاص والتضحية والتفاني والعلم والتقوى والتعبد. ولاشك ان انتقال الملكية، والمنصب الالهي، والعوامل الوراثية بشكل متوازٍ في أسرة واحدة، يشكل ظاهرة فريدة في الاسلام. فلم توفّق أسرة رسالية الى مثل ذلك التوفيق العظيم.

الكفو والكفاءة:

والمقاعدة، ان عملية الزواج العرفية تقوم على اساس انها علاقة بين رجل وامرأة اعترف بها المجتمع وأقرها. بينما نفهم ان لزواج علي وفاطمة (عليهما السلام) _ اضافة الى الاقرار الاجتماعي به _ اقراراً آخر، وهو اقرار السماء وايمان الملائكة بملاكه ومصالحته. ويؤيده قول رسول الله (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي».

ومعناه ان شرعية زواج علي (ع) من فاطمة (ع) لم تكن مؤسسة حسباً يقتضيه العرف الاجتماعي والديني على الارض فحسب، بل كانت لشرعية ذلك الزواج قدسية معينة في السماء. ذلك لان للزوجين خصائص روحية وعقلية، وطاقت كامنة فريدة لا شبيه لها على الارض. فالمرأة التي لها منزلة دينية كفاطمة بنت رسول الله (ص) لا بد ان تقترب برجل له منزلة دينية كعلي بن ابي

طالب (ع)، حتى يكون الزواج متكافئاً في عالمي الشهادة والغيب. والتكافؤ كان مخصوصاً في العصمة في فهم احكام الدين وادراك معانيه العظيمة.

ومن هنا كثر تناقل قول رسول الله (ص) على ألسن المؤرخين والفقهاء: «لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤاً». ولذلك فانه (ص) لم يزوج فاطمة (ع) لابي بكر ولا لعمر بن الخطاب، مع انهما كانا يترددان عليه (ص) ويسألانه عن فاطمة (ع). فكان يجيبهم ان أمرها عند الله سبحانه. وهو جواب نبوي في غاية الادب يكشف عن انهما ليسا كفؤاً ولا كفيحاً لسيدة نساء العالمين (ع) في العصمة في الدين، والطهارة في النسب.

الكفاح :

وكان كفاح افراد الاسرة العلوية في الحياة الاجتماعية، باعتبارهم (ع) القدوة العليا في الدين، غير منفك عن مشقة نفسية وجسدية عظيمة. فمشقة فاطمة بنت رسول الله (ص) في انجاز الاعمال المنزلية، والجمع بينها وبين العبادة المشهودة لهم (ع) مع قلة الطعام والجوع اختياراً كانت حالة سلوكية، فضلاً عن كونها كانت حالة فسلجية. بمعنى ان مشقتها كانت من آثار كمالها وعفتها وزهداها وحبها للمحافظة على حقوق زوجها (ع) وعائلتها كاملة دون افراط او تفريط. ولاشك ان الجمع بين اداء الواجب البيتي وبين الانقطاع التام لله سبحانه، أمر صعب. ولذلك فقد كان اداؤها الشرعي الطاهر في تأدية وظيفتها الشرعية والمنزلية نابعاً من حالة نفسية قوية هائلة في تحمل المصاعب والشدائد، والرضا بقدر الله عز وجل، ومحاولة اداء الواجب كاملاً في احسن الاحوال.

ومن المسلم به ان الجوع الطبيعي وعدم تناول الطعام فترة طويلة من الزمن قد يؤدي الى حالات مرضية تنتهي الى الموت. ولكن جوع العترة الطاهرة (عليهم السلام) كان من نوع آخر. ولنطلق عليه بـ «الجوع التعبدي». فقد كان جوعاً بالاختيار، أو حرماناً من اكل الطعام بالارادة لانشغالهم بقضية أهم وهي العبادة أو الجهاد في سبيل الله أو الشوق للحياة الآخرة. والمتفق عليه ان الجوع عند الفرد العادي يؤدي الى الخمول والضعف والكسل. بينما كان جوع أهل البيت (ع) - الذي كان اثراً من آثار الزهد- باعثاً للعبادة والعمل والنشاط والجهاد في سبيل الله وحمل السلاح ومقاتلة اعداء الدين.

ولابد لنا من فهم حقيقة مهمة تقول بان طريقة استهلاك الطعام ليست طريقة فلسجية، بل هي سلوك ثقافي ديني بالدرجة الاولى، حيث يلتزم الفرد بممارسته على ضوء احكام الرسالة التي يؤمن بها. فليست هناك حدود لتناول العام في مجتمع غير متدين. بينما حدد الدين طبيعة الطعام في الحلية والاستحباب، وحدد المقدار الذي يسمح بتناوله عن طريق الاعتدال، وما يذكر قبل الطعام وبعده من بسملة ودعاء وتمجيد لرازق الطعام عز وجل.

وبذلك اصبح الطعام - نوعيةً وحجماً- في بيوت الانبياء والاوصياء (ع) وطريقة تناوله، يعبران عن لونٍ من ألوان الزهد والتقوى وقوة الاتصال بالله عز وجل. ذلك ان السيطرة - بهذا الشكل الصارخ- على شهوة البطن تفتح بوابة القلب على الخالق عز وجل فتستثمر بالعبادة وطاعة الله سبحانه. والاسرة التي تأكل الخبز وتأتدّم بالملح والخل، وهي على ما هي عليه من منزلة سماوية واجتماعية رفيعة، لابد ان تمثل رمزاً دينياً ومثلاً أعلى للمشاعر الانسانية حيث كانت تكتفي غالباً بالغذاء الروحي دون الغذاء الجسدي.

الزي:

وعندما نتأمل في زي فاطمة الزهراء (ع) الذي تُشير اليه الروايات العديدة، فاننا نخلص الى ان رداءها الشرعي كان مبنياً على أصلين: الحياء التام بكل ما تعنيه الكلمة، والحجاب الشرعي الكامل بما فيه المندوب فضلاً عن الواجب. وهذا التأمل يدعونا للايمان بان الزي المقبول شرعاً وعقلاً للمرأة المسلمة هو الزي الذي يكسبها احتراماً اجتماعياً، ويحفظ لها جمالها وجلالها وعفتها. فاللباس الديني للمرأة اذن هو الحياء التام، مضافاً اليه غطاء الرأس والجسد باستثناء الوجه والكفين. وكل قطعة تضاف الى ذلك الزي او تحذف منه ترتبط بالذوق العام والثقافة الاجتماعية التي تقترب من الدين أو تبتعد عنه بمقدار. وقد اشار عز وجل الى قاعدة الحجاب، فقال عز من قائل: **(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ...)** فغضّ الابصار والعفة متلازمان مع تغطية الصدور والرؤوس. وهذا المقدار الكامل من الحجاب والحياء كان متمثلاً في البتول (ع). فقد كان حجابها الشرعي

متناسباً مع حياتها وعفتها. ولا عجب فهي من سلالة بيت النبوة والوحي والتنزيل والقرآن المجيد. ومع ان القاعدة جواز اظهار الوجه والكفين، الا انه لم يرو ان احداً رأى وجهها (ع) فضلاً عن كفيها وقدميها. ولا عجب فأهل بيت النبوة (ع) لا يتركون المندوب، بل يعملون به ويزيدون عليه.

ملك اليمين بعد فاطمة (ع):

وبعد استشهاد فاطمة الزهراء (ع) في تلك السن المبكرة «وهي الثامنة عشرة، أي بعد تسع سنوات من اقترانهما»، تزوج امير المؤمنين (ع) بعدد من ملك اليمين. ومجرد ذكر ملك اليمين يدعونا للحديث عن الرقّ والرقيق. فالرقّ وصفٌ لوضع يكون فيه الانسان تحت سلطة ونظر انسان آخر اقوى، خلافا لطبيعة الاشياء القاضية بحرية كل فرد. فيسمى الاول بـ«العبد» أو «الامة»، ويسمى الثاني بـ«السيد» أو «المولى». ويكون السيد مالكا للعبد أو الامة فهي «ملك يمين». ذلك لان عملية الرق في الاسلام تُبطل حقوق الانسان القانونية أو التشريعية في الحرية والاختيار، ولكنها تُبقي الحياة الروحية منفتحة للتأثر والتغيير من اجل تحقيق الهدف الذي شرعت فيه حلية الرقّ.

فالرقيق كانوا محاربين منزهين يؤتى بهم وبمتعلقهم من خارج دار الاسلام؛ والاسترقاق كان محاولة جادة لقطع جذور الثقافة الوثنية التي يحملها المحارب ضد الاسلام، رجلا كان أو امرأة. ولذلك فان الغاء الشخصية الحقوقية للعبد أو الامة هو الغاء للشخصية الوثنية التي يحملها. ومن هذا المنظار فان تزويج الامة عبر التملك هو افضل الطرق وانسبها لقطع جذور الالحاد والكفر والوثنية. بينما لا يمكن سلب الشخصية الحقوقية بالاسترقاق للمنحرف داخل دار الاسلام لان هناك طرقا اخرى للتعامل مع المنحرفين لا تقلّ جدية وحسماً مثل القصاص والقتل والقطع والتعزير.

ولا شك ان معاناة انقطاع المرأة الكافرة خلال عملية الاسترقاق عن اقاربها وعشيرتها ينجبر بالعلاقة الاسرية الجديدة التي يحاول ان ينشأها سيدها واسرته. وقد كان أمير المؤمنين (ع) مثلاً رائعاً لمدى احترام المرأة التي كانت تمر بتلك العملية الانتقالية الشاقة حتى تنال الحرية الحقيقية بقبولها الاسلام.

ولذلك فقد جعل (ع) بيته مدرسة لتربية الاماء على الاخلاق الرفيعة. وهنا لا ينبغي ملاحظة عدد الاماء بدون ملاحظة وظيفة الامام علي (ع) في تربيتهم، خصوصاً وان بلاد الاسلام كانت تتسع في تلك الفترة ويدخل في الدين الحنيف افواج من مختلف الشعوب. ومن هذا اللحاظ، يمكن اعتبار بيت الامام (ع) مدرسة للتقوى والزهد والتعبد لا مجتمعاً للعباد والاماء والشهوات.

تعدد الزوجات بعد فاطمة (ع):

وبعد استشهادها (ع) تزوج ايضاً بعددٍ من النساء استثناساً بقوله تعالى: (... فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع...). وحكم تعدد الزوجات في الاسلام يصب لصالح المرأة لانه ينظر الى القضية الحقوقية التي حُرمت منها. خصوصاً وان التعدد ينشأ غالباً من التزوج بالارامل أو المطلقات أو الثيبات أو اللاتي لم يحالفهن التوفيق في زواج واحد ناجح. فالتعدد اذن أمر أريد منه معالجة مشكلة اجتماعية تخص المرأة بالذات.

فالحروب التي كانت تستعر في الماضي، وتستعر في الحاضر، ومن المرجح انها ستستعر في المستقبل تستدعي ان تزيد نسبة الرجال على النساء، بسبب مقتل العديد من الرجال في كل معركة من تلك المعارك. وهذا يقتضي حكم التعدد. ذلك ان وجود الارامل واللاتي يخونهن الحظ في الزواج من رجل اعزب، مشكلة اجتماعية تسبب قهراً واحباطاً نفسياً للمرأة. مع ان هناك حاجات حياتية لا يقضيها الا الزواج.

ولا شك ان شروط الحياة الاجتماعية والصحية والنفسية ستكون افضل للمرأة في اسرة كبيرة تجمع عدداً أكبر من الزوجات مع ذريتهن، خصوصاً اذا كان على رأسها ولي مدبر حكيم كالامام (ع). فاليتيم يشعر بان له من يقوم مقام أبيه، والارملة تشعر ان لديها زوجاً، والمطلقة تشعر ان حقوقها قد أرجعت اليها. فلا بد أن يُنظر الى تعدد الزوجات، على اساس انه حل لمشكلة اجتماعية معقدة لا يمكن ان تُحل الا عن هذا الطريق. ولذلك اختار الامام (ع) ذلك الطريق في بناء الاسرة بعد استشهاد فاطمة الزهراء (ع).

١١ - معركة بدر الكبرى

وكانت بدر اول معركة يشارك فيها الامام (ع) مع رسول الله (ص)؛ وكان (ع) صاحب راية النبي (ص). وهي اول الحروب الرئيسية التي خاضها خاتم الانبياء (ص) ايضاً. وكان عمر علي (ع) يومذاك خمساً وعشرين سنة. والظاهر ان المعركة وقعت بعد عقد علي (ع) بفاطمة (ع) وقبل البناء بها.

المسلمون ووسائل التسديد:

وكان المسلمون قلة مستضعفة يوم بدر بحيث وصفهم الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: (ولقد نصرّكم الله ببدرٍ وأنتم اذلةٌ...). ووصفهم المشركون على لسان أبي جهل: ما هم الا أكلة رأسٍ، لو بعثنا اليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد. وبالرغم من اختلاف الروايات في عدد الذين قتلهم علي (ع)، الا أن المرجح تاريخياً انه قتل النصف ممن قُتل في بدر. وكانوا من نخبة قريش وأكابرها وقادتها، خصوصاً من بني أمية وبني العاص وآل المغيرة. بينما قتل بقية المسلمين النصف الآخر.

وكان للملائكة دور الحرب النفسية وتكثير سواد المسلمين بهدف ادخال الرعب في قلوب المشركين، فقال تعالى: (ولقد نصرّكم الله ببدرٍ وأنتم اذلةٌ فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقولُ للمؤمنينَ ألن يكفِيكم أن يمددكم ربكم بثلاثةِ الافٍ من الملائكةِ مُنزّلين. بلى إن تصبّروا وتيقنوا وبأتونكم من فورهم هذا يُمددكم ربكم بخمسةِ الافٍ من الملائكةِ مُسومين. وما جعلهُ الله الا بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به وما النصرُ الا من عندِ الله العزيز الحكيم).

ولا شك ان فكرة التوازن التسليحي بين جيشي المشركين والمسلمين _ على قلة عدد المسلمين وضعف عدّتهم وشحة حديدتهم _ يدعونا الى التأمل في أهمية الشجاعة الفردية ودورها الحاسم في نتيجة المعركة. فقد كان الفرس والسيف والدرع والرمح ادوات المعركة واسلحتها. وتلك الاسلحة كانت تعطي المعركة نوعاً من الثبات الاستراتيجي، وتكشف عن شجاعة المقاتلين وبراعتهم في خوض القتال ببسالة. وهنا كان دور علي (ع) في المعركة حاسماً، لان بطولته الفريدة كانت ركناً اساسياً في انتصار المسلمين.

استهداف النخبة من المشركين:

ومن الطبيعي فان قتله ذلك العدد الكبير من ابطال المشركين لا بد ان يقلب التوازن العسكري المتعارف بين الفريقين. فكان سيف علي (ع) يستهدف رؤوس النخبة من المشركين امثال: الوليد بن عتبة الذي كان شجاعاً جريئاً وقاحاً فتاكاً تهابه الرجال، والعاص بن سعيد الذي كان هولاً عظيماً تهابه الابطال، وطعيمة بن عدي الذي كان من رؤوس أهل الضلال، ونوفل بن خويلد الذي كان من أشد المشركين عداوة للنبي (ص) ولما عرف (ص) بحضوره بدرأً سأل الله ان يكفيه أمره فقال (ص): اللهم اكفني نوفل بن خويلد، فقتله أمير المؤمنين (ع). وقتل (ع) ايضاً ما ذكرناه من أسماء هؤلاء المشركين وأوصافهم. وتلك البطولة الفريدة ادخلت عاملاً جديداً على ساحة المعركة، وهو العامل النفسي. فالرعب النفسي الذي أصاب المشركين يوم بدر جعلهم يفرون من ساحة المعركة مذعورين. وكان الامام (ع) أحد جنود الله سبحانه في بثّ الرعب في صفوف المشركين.

والاصل في الحرب النفسية التي استخدمها الاسلام ضد المشركين هو التأثير على رأي العدو وسلوكه في المعركة دون استنزاف موارد المسلمين العسكرية والسياسية والاقتصادية. أي اشعار العدو بان الجيش المقابل يمتلك اسلحة مادية وغير مادية تستطيع ان تحقق نصراً حاسماً في تلك المعركة.

الحرب النفسية ضد المشركين:

فكيف يستطيع المسلمون في تلك اللحظات الحاسمة اشعار العدو بانهم يمتلكون سلاحاً خارقاً يستطيع ان يحقق نصراً حاسماً عليه؟ لا شك ان ذلك كان يتطلب أمرين:

الاول: سلاح غير منظور قادر على محاربة العدو حرباً نفسية شرسة، وذلك بتكثير عدد المقاتلين المسلمين في اعين الاعداء المحاربين. فكانت ملائكة الرحمن التي أرسلها الله سبحانه و اشار اليها الذكر الحكيم بالقول: **(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مُردفين).**

الثاني: سلاحٌ منظور يراه العدو ويلمسه ويحسّ بعمق آثاره ومقتضياته، وهو علي بن أبي طالب (ع) البطل الذي ليس له مثيل. فالبطولة تحت هذا العنوان، كانت عملاً رمزياً خارقاً قام به علي (ع) من أجل إقناع الطرف المقابل بالفرار من ساحة المعركة. وقد وقع ذلك فعلاً، فبدأت فرسان العرب من المشركين تسابق الريح حتى لا يمسها حسام علي بن أبي طالب (ع). وبذلك فقد قامت المعركة النفسية في بدر الكبرى، بنجاح، بافساد علل المشركين الذين خرجوا الى تلك الآبار وفي قناعاتهم هزيمة الاسلام والمسلمين هزيمة قاسية سوف تتحدث عنها العرب مئات السنين.

ولكن الله عزّ وجلّ وعد رسوله (ص) والمؤمنين وعداً جميلاً بانهم سينصرون بالرعب، وهو سلاحٌ فتاكٌ رهيب. فعندما يدبُّ الرعب في طرفٍ منكسرٍ حربياً، فان الدافع نحو القتال سينكسر ويتشتت الجمع وتتحلّ فلوله. واول ما يفكر به الجندي عند شعوره بالهزيمة النفسية، هو الفرار من ساحة المعركة. والفرار من الساحة يعني التخلي عن كل مستلزمات المقاتلة، وعندما تفتح ابواب الانتصار للطرف المقابل. وما حصل في معركة بدر هو صورة حقيقية لهذا المنظر النادر. فبعد مقتل سادة قريش وابطالهم من قبل الامام (ع) وبقية المسلمين ومشاركة الملائكة في الحرب النفسية، تشتت جمع المشركين وانكسرت شوكتهم.

مقتضيات الصارم المسلول:

وبكلمة، لقد ساعد سيف ذي الفقار وفتوة علي (ع) في استحداث حالتين مهمتين:

الاولى: ان الخوف الشديد الذي سببه سيف ذي الفقار والملائكة المسؤمين كانت له آثار في تغيير الدوافع الثانوية الباطنية لشريحة من المغرر بهم من المشركين. فقد كان ذلك الخوف سبباً للبعض من الاقتراب لسماع صوت الحق. فالخائف هو اقرب الى سماع صوت الحق من الانسان الذي لا يعرف الا التحدي والطغيان والغطرسة.

الثانية: ان الخوف المشروط بشروط الظرف الخارجي، يغيّر سلوك الانسان الخائف وطبيعته عندما يكون الشرط قائماً. فاذا كان خوف المشركين هو أحد آثار بطولة علي (ع) الخارقة، فان خوفهم أو رعبهم لا يزول الا بزوال ذلك الظرف الخارجي. وتعبير آخر ان الرعب

اذا ساور الانسان مرة، فانه يبقى معه يتجدد كلما تجددت الظروف الخارجية التي انشأته. وبتعبير ثالث ان الذي خاف سيف علي (ع) وبطولته الخارقة في معركة بدر، فانه سيخافه في كل معركة لاحقة يلتحم فيها الطرفان. والرعب الذي اصاب المشركين المقاتلين في بدر، ترك آثاره على معركة أحد والخندق وخيبر وحُنين ايضاً. وجعل المعركة بالنسبة إليهم قضية لا يمكن ادارتها لصالحهم. فكانت النتيجة هروب المشركين وتوليهم عن الزحف وهزيمتهم القاسية، عدا الاستثناء الذي حصل في أحد بسبب عصيان الرماة لأوامر رسول الله (ص).

ولم يكن الرعب الذي نزل بعبد الاوثان في بدر، مجرداً عن ظروفه القانونية والاخلاقية. بل كانت بدر تحمل ظروفًا قانونية وشرعية تسمح للصراع المسلح بين قوى الشرك وقوى الايمان. لانها كانت كفاحاً من أجل البقاء، وبوجه أخص كانت كفاحاً من أجل بقاء الايمان على وجه الارض. والحرب في الاسلام كانت ولا تزال وسيلة من وسائل استقرار العالم دينياً وفكرياً وسياسياً. فالتسامح والاخلاق السامية التي ابدتها تعاليم الاسلام في الحروب من عدم التعرض للنساء والصبيان وحُرمة المثلة وعدم التعرض للجرحى، ورفع السيف عن المدبر، كلّها تدل على ان الدين السماوي يطمح بانشاء ظروف اجتماعية ملائمة لطاعة الخالق عزّ وجلّ وإقامة العدل واحقاق الحقوق. فالحرب الدينية التي كان يخوضها علي (ع) لم يكن هدفها سفك الدماء، بقدر ما كان هدفها تثبيت اسس الامن والسلام الديني في العالم. وعندما تقتضي الحرب لا يبقى الا مسلم أو مسالم. ولذلك قال الشاعر:

وأعددت للحرب اوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

١٢ - معركة أحد

وكانت الشجاعة الفردية في «أحد» عاملاً من عوامل قلب التوازن العسكري مرتين.

الاولى: عندما قتل علي (ع) اصحاب الرايات من بني عبد الدار من قريش. فانهزم جيش قريش من المشركين المقدّر بثلاثة آلاف رجل ومائتي فرس، يولون الدبر مع طعائنهم. فحوّلت

بطولة علي (ع) القلّة والضعف الظاهري في جيش المسلمين المقدّر بسبعمائة رجل وفرسين، الى نصر مؤزر.

الثانية: عندما عصى الرّماة أوامر رسول الله (ص)، وانقضّ خالد بن الوليد على عبد الله بن جُبَيْر وجماعته القليلة، فأتى على المسلمين من ادبارهم. هنا بالذات، قامت شجاعة علي (ع) الفردية البطولية بايقاف تداعيات تلك الهزيمة من تحقيق اهدافها، وهو المنع من قتل رسول الله (ص) من قبل المشركين على أقل التقادير. فكلما كان (ص) يشير على علي (ع): اكفني هؤلاء الذين قصدوا قصدي. كان علي (ع) يحمل عليهم ويكشفهم. وبذلك حفظ الامام (ع) الرسالة الالهية عن طريق حفظ قائدها (ص) من الاذى الذي كان يطمح ان ينزله المشركون به.

ولذلك خاطبه نبي الرحمة (ص): «يا ابا الحسن، لو وضع ايمان الخلائق واعمالهم في كفة ميزان ووضع عملك يوم أحد على كفة اخرى لرجح عملك على جميع ما عمل الخلائق وان الله باهى بك يوم أحد ملائكته المقربين...».

معركة أحد والظواهر الجديدة:

وشخصت معركة أحد ظواهر جديدة في المعارك وهي:

١ _ اخراج النساء مع المشركين على الهودج «الظعن» التماس الحفيظة وعدم الفرار، وكن خمس عشرة امرأة منهن «هند» آكلة الاكباد. وتلك الظاهرة تدلّ على ان هزيمة المشركين كانت قضية محتملة جداً في تفكيرهم، خصوصاً وانهم كانوا يحتملون بصورة قوية تواجد علي (ع) على ساحة المعركة مقاتلاً عملاقاً.

٢ _ أهم ظاهرة في معركة أحد كانت معصية الرّماة لأوامر رسول الله (ص)، في وقت كان المفترض بهم طاعة قائدهم (ص)، خصوصاً وانهم كانوا موظفين لحماية ثغر جيش المسلمين على جبل أحد. وكانت تلك ظاهرة فريدة في ابعادها. لأن معصية بذاك الحجم لم تحصل في أي معركة من معارك الاسلام، اذا استثنينا الفرار من المعركة في حنين. وهذا دليل على سطحية ايمان بعض الناس بالقتال فضلاً عن عدم ادراكهم لمعاني التضحية ودورها الحاسم في نصره الدين.

٣ _ اذا كان خلافاً من هذا الحجم قد أوقع تلك الخسارة بالمسلمين، فما بالك لو كانت شخصية فريدة كشخصية علي (ع) غائبة عن الساحة العسكرية، فكيف كان حجم الخسارة؟ لا شك ان وجود بطل الابطال (ع) في الميدان منافحاً عن رسول الله (ص) ومدافعاً عن الدين الحنيف ومقاتلاً المشركين كان قد جنّب الاسلام حجماً عظيماً من الخسارة في وقت انهزم فيه المقاتلون عن ساحة المعركة.

وقد أمر الله تعالى بحرمة الفرار وقت الزحف، فقال: **(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار...)**. ولكتهم فروا على أية حال، ولم يثبت مع رسول الله (ص) الا علي (ع) والقلّة القليلة من المؤمنين.

الخطأ البشري والتمنّ الباهض في المعركة:

فالخطأ البشري في ساحة المعركة مهما كان صغيراً، يكلف الجيش المقاتل خسارة عظيمة. وقد كان خطأ أولئك المسلمين ممن عصوا رسول الله (ص) مدمراً وقاتلاً بحيث كان الخطر مهيمناً على وجود الدين كله.

فلمعركة شروطها ومقتضياتها، فالقضية الشرطية هنا منحصرة بطاعة الجنود المقاتلين لقائدهم. وأي اخلال لمفهوم هذا الشرط يؤدي الى حرمان الدين من تحقيق اهدافه العليا في بناء النظام السياسي العالمي. واذا فشل الدين في تحقيق انتصار حاسم على الشرك، فان قضية الحرب والسلام تبقى معلقة بيد الذين لا يرجون الا استعباد الناس والسيطرة على مقدراتهم.

وبهذا اللحاظ نلمس أهمية طاعة الامام (ع) لرسول الله (ص) وشجاعته الفائقة بكونها عاملاً من عوامل تقريب الدين من تحقيق اهدافه عبر الانتصار على الشرك، وبناء دولة دينية مستقرة تستطيع تحقيق العدالة الحقوقية بين الناس وتثبيت الامن الاجتماعي والمعاشي لهم.

ولما ينس المشركون من قتل النبي (ص) فترت همتهم وعادوا القهقري. وهكذا حفظت بطولة الامام (ع)، الرسالة السماوية وقائدها (ص). وكان علي (ع) مصداقاً لقوله تعالى: **(وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيلِ الله وما ضَعُفُوا وما استَكاثوا والله يُحِبُّ الصابرين)**.

١٣ _ غزوة الخندق

اثبتت حادثة مقتل عمرو بن عبد ود قائد المشركين وأشرسهم في القتال والمبارزة، من قبل علي (ع)، ان شجاعة الامام (ع) كانت حالة عقلية اكثر منها حالة جسدية. بمعنى ان شجاعته الفائقة وبطولته الخارقة كانت حالة عقلية امتزج فيها اليقين بالله وحب لقائه اكثر منها حالة جسدية او فسلجية. وبتعبير آخر ان المعصوم (ع) في الفكر والادراك يكون دائماً على درجة قصوى في الاقدام والثبات واليقين في كل الحالات والمواقف الحياتية. لانه وصل الغاية في اليقين بالله، فهو يسعى الى الموت من اجل لقائه سبحانه.

والسعي نحوه عزّ وجلّ في كل وقت يزيل كل حالة من حالات الخوف والتردد والانزعاج والغضب لغير الله. فلا عجب اذن ان نرى شجاعة امير المؤمنين (ع) الفائقة باعيننا ونربطها بعصمته. ذلك ان الشجاعة الفائقة التي نتحدث عنها هي حالة عقلية مرتبطة بمقدار كمالية ادراك الانسان. فالمعصوم (ع) اذن، يمتلك درجة تامة من الكمال في الدين والفكر والسلوك توجّه شجاعته تلك نحو وجوه الخير وتثبيت العدل ومحق الشر وتدمير الباطل في كل لحظة.

حاجة الدين الى بطل فريد:

والدين الجديد الذي كان يتحدى العالم بكل ما فيه من أوثان وقوى شرك وشراسة وشر، كان بأمسّ الحاجة الى ابطال لا يهابون الموت، ولا يكثرثون للنوازل، ولا يعترّبهم الخوف والتردد أو الانهيار. بل كان الدين بحاجة الى ابطال تكون شجاعتهم فائقة واستثنائية لا شجاعة عادية مجردة من مضامينها الرسالية. ولذلك كان دور الامام (ع) حاسماً في معارك الاسلام، لانه كان يمتلك قدراً فائقاً من الشجاعة واليقين والاقدام والثبات. فقد كان (ع) بطلاً استثنائياً وشجاعاً لا مثيل له.

فلا يستقيم أمر الدين في المجتمع الانساني ما لم يدعمه بطل في غاية الشجاعة والاقدام، لان الدين - باعتباره خيراً يدعو الى الخير- في صراع دائم مستمر مع الشر. واذا كان الصراع مستمراً، فان الشجاعة والبطولة الفائقتين ينبغي ان تستمرا ايضاً. لان الخوف الذي تصاحبه عوارض جسدية مثل خفقان القلب، وتيبس البلعوم، وآلام المعدة، يجعل الخائف غير قادر على

التفكير فضلاً عن التركيز على عمله الحربي المكلف به. وحالة عاطفية كتلك، لا يستقيم معها الدين.

ولا شك ان الشجاعة الفائقة - ارادية كانت او غير ارادية- متداخلة مع عوامل اخرى كالادراك والدافع والتعبير. فالبطل الشجاع ينظر الى العدو المقابل على اساس انه أمر يستطيع معالجته فيقترب منه ويعالجه بالضرب أو الطعن أو القتل. ولا ينظر اليه على اساس انها قضية مرعبة خطيرة ينبغي ان يتجنبها أو يهرب منها. وهكذا كان الامام (ع)، فانه كان يقدم على منازل فرسان القوم لان يقينه بالله وقدرته الفائقة على مواجهتهم كانت تدفعه نحو الاقتحام وانزال الهزيمة المنكرة بالعدو. فكان (ع) مصداقاً لقوله تعالى: (**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَمَتُهُمْ فَسُدُّوا الرِّقَابَ...**).

مناظر الحرب واليقين بالله:

والذي يخاف من القتل لا يلجُ الحرب. لان في ساحة المعركة مناظر مرعبة تتضمن دماً مسفوكاً او عضواً مبتوراً او رأساً مقطوعاً. وكل تلك المناظر تذكّر الانسان بأن احتمالية القتل او الموت قائمة تصيب أي فرد وفي أي لحظة. هنا لو افترضنا ان شخصية الامام (ع) كانت غائبة عن الساحة، فماذا كان مصير الدين الجديد؟ وبتعبير آخر لو كان القلق والخوف يساور أشجع شجعان المسلمين، فهل نتوقع انتصار الدين على الشرك؟ والجواب على ذلك يستدعي نفياً قاطعاً. لان الدعوة الى الخير والفضيلة تحتاج الى جرأة وشجاعة وتضحية منقطعة النظير.

ولذلك ندرك أهمية هتاف رسول الله (ص): «لمبارزة علي يوم الخندق أعظم من عمل الثقلين». أي ان بطولة علي (ع) الفائقة في ذلك الموقف انقذت المسلمين من هزيمة محققة، وثبتت دور الدين في المجتمع الانساني. ولذلك فان الذين يعبدون الله بعد رحيل علي (ع) يدينون له بالفضل لبطولته المتميزة التي حفظت دينهم حيّاً الى يوم القيامة.

ولا شك ان يقين الامام (ع) بالله عزّ وجلّ هو الذي دفعه لوضع جسده في مشتبك الاسنة ومخالب السيوف. فكان يقينه بالله تاماً في وقت كان البعض من المسلمين قد أخذ منه الخوف كل مأخذ، بحيث وصف القرآن الكريم حالهم بالقول: (**وَإِذ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ**

الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ). والظن بالله هنا يعني التوقف في منتصف الطريق، بين الحقيقة ونقيضها. فهو غير مطمئن بالحقيقة كاملة ولا يصدّقها تماماً، وفي نفس الوقت غير مطمئن بنقيض الحقيقة ولا يكذبها تماماً.

وهذا الشك بالله تعالى كان مصحوباً بمشاعر الخوف والتردد والقلق، وهو أسوأ أنواع الظنون. لان تلك الظنون كانت تهدم اركان الايمان بمبدأ القضية التي تم القتال من اجلها.

١٤ - غزوة خيبر

وكان دور علي (ع) فيها حاسماً، لانه وضع دويلة اليهود المصغرة «خيبر» على حافة الانهيار والضمور ككيان مستقل على ارض الحجاز. وقد بدا واضحاً لرسول الله (ص) حجم الضرر الذي اصاب المسلمين من تحالف اليهود مع المشركين، فكان لا بد من ضربهم.

فكانت واقعة خيبر بالنسبة لليهود حرباً مدمّرة ومربكة في الوقت ذاته. كانت حرباً مدمّرة لأنها كانت آخر ضربة قاتلة وجّهت اليهم من قبل المسلمين، بسبب خيانتهم وغدرهم وتحالفهم مع المشركين والمنافقين. وكانت حرباً مربكة، لان شجاعة علي (ع) واستدراجه لابطالهم قد اربكتهم واخرجتهم عن طورهم في التحصن بالقلاع المنيعه وعدم منازلة العدو.

البطولة الفريدة والطاقة التدميرية:

وبدأت الحرب الابتدائية الاسلامية _ بفضل بطولته الفريدة (ع) _ تظهر وكأنها وصلت الى مرحلة عالية من الطاقة التدميرية التي تهدد القوى العظمى في عالم ذلك الزمان وهي بلاد فارس ودولة الروم بالاضافة الى قريش. وانتصاراً من قبيل «غزوة خيبر» خلق الاجواء الذهنية لتقبل بروز ادارة دينية واجتماعية جديدة للعالم في ذلك الوقت. وكان ذلك، يساعد الدين الجديد _ بقوة _ على احتلال موقعه الطبيعي في قلوب الناس.

لقد كان جيش المسلمين بقيادة رسول الله (ص) يحاول كسب نصر حسم في كل معركة رئيسية مع طرف من اطراف العداء الديني ضد الاسلام. ذلك لان النصر العسكري الحاسم يقنع الناس من اصحاب القلوب الضعيفة المترددة، بأحقية الدين في الوجود. والاصل في ذلك، ان

الفرد اذا لم يقتنع بالطريق الذهني والدليل العقلي، فلا بد من قوة مادية - حربية على الاغلب ومنتصرة- تقنعه بصحة متبنيات الرسالة السماوية الجديدة.

وهذا لا يقتصر على قوة دون اخرى بل يشمل كل القوى التي كانت تحارب الاسلام كقوى المشركين، والمنافقين، واليهود، والروم، والفرس. وكان على الاسلام، من أجل ان يبقى، أن يحقق نصراً حاسماً على كل طرف من تلك الاطراف المناوئة للدين. ولذلك لمسنا - بشكل جلي- حثّ القرآن الكريم على القتال والموت وافضلية الجهاد والمرابطة في سبيل الله.

فالمشكلة التي كانت تواجه الدين الجديد لا تكمن فقط في الاقناع القلبي والذهني عبر اعجاز القرآن الكريم، وهو لاشك إقناع اعجازي هائل. بل كان لابد من معارك طاحنة ضد الذين اغلقوا قلوبهم واذهانهم للدليل الشرعي القرآني. فكانت الشجاعة الخارقة والبطولة الفريدة المتميزة مطلوبة وحاسمة في تقرير مصير تلك المعارك.

وعندها كانت تلك الشجاعة وتلك البطولة من العوامل الحاسمة في تقرير مصير الدين ايضاً. ومن هذا المنظار ندرك أهمية شخصية علي (ع) القتالية في الميدان. فلولا تلك الشخصية الفريدة في البطولة والإقدام والتضحية والاقترداء برسول الله (ص) لكان الدين في وضع آخر يختلف عما نراه اليوم. فكان (ع) أداة قدسية من أدوات حفظ الدين والذكر السماوي، وكان مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).**

ردع العدو:

وبطبيعة الحال، فقد كان التواجد الفعّال للامام علي (ع) في ساحات المعارك يصول ويجول في سبيل الله تعالى، عاملاً من عوامل الردع العملي ضد المشركين. فقلع الباب العظيمة ومبارزة ابطال المشركين كمرحب وغيره وصرعهم في خيبر، وقتل النصف ممن قُتل في بدر، وقتل المشركين في أحد، ومبارزة عمرو بن عبد ود وصرعه في واقعة الاحزاب يجعل نظرية الردع صالحة. ويجعل التوازن الاستراتيجي بعيد المدى يميل رويداً رويداً لصالح الاسلام.

والردع يعني محاولة خلق تصور لدى العدو بأنه لا يستطيع الانتصار على المسلمين بأي طريقة من الطرق. فيقوم عندها بمصالحة المسلمين على الجزية، أو اعلان معاهدة سلام بين

الطرفين، أو الاستسلام دون قتال، أو الدخول في الاسلام. ولذلك قيل ان الاسلام - كما أشرنا الى ذلك سابقاً- يريد من الاعداء المحاربين ان ينتهوا الى: اما مسلمين أو مسالمين.

لقد كان المشركون يعتبرون الحرب من أفضل الوسائل لردع المؤمنين وحسر رسالتهم من الانتشار بين أمم الارض. فاذا بهم الآن، وبفضل البطولة الفائقة لداحي الباب (ع)، يواجهون ردعاً من قبل المسلمين انفسهم. وعندما نتحدث عن الردع الذي انزله علي (ع) بالمشركين، فاننا لا نقصد به ردع جنودهم فقط، بل نقصد به ردع القادة من اتخاذ قرار الحرب.

وقد ظهر واضحاً بعد خيبر وذات السلاسل ان قادة المشركين في مكة كانوا قد قرروا اعادة تنظيم بدائلهم، فاخترتوا عدم محاربة المسلمين في قضية فتح مكة، وهم على ما هم عليه من قوة وعُدّة وعدد. لان الحرب كانت تعني تحطيم مفاتيح قيادتهم وشركهم، بل ازهاق نفوسهم الشريفة. فاخترتوا البديل الاضعف وهو طلب الامان من رسول الله (ص). ولو كانوا يعلمون ان في المسلمين ضعفاً وجبناً لاخترتوا بديل الحرب والاستهتار بقيم الدين دون ادنى شك. وبذلك نفهم ان بطولة علي (ع) كانت رادعاً عظيماً ضد المشركين بعدم اختيار الحرب كبديل ضد المسلمين.

وبالاجمال، فقد كان اسلوب المبارزة الشخصية التي استخدمها الامام (ع) في قتل ابطال الشرك، من افضل اساليب الردع في الحروب الاسلامية ضد المشركين. فقد ارغب ذلك الاسلوب «النخبة» القيادية في الطرف المشرك، وجعلها تفقد توازنها الاستراتيجي بعيد المدى. ذلك لان جحيم الموت أصبح يصل أياً من المحاربين الذين يكتون العدا للاسلام، قائداً كان أحدهم أو بطلاً مقداماً أو فارساً من الطراز الاول.

١٥ - غزوة ذات السلاسل

كانت غزوة ذات السلاسل معركة غير عادية، وحادثة استثنائية حذفها كتب التاريخ لاهداف سياسية. فقد فشل ابو بكر وعمر على انفراد في الإيقاع بالمشركين، بينما نجح علي (ع) في مقاتلتهم وانزال الهزيمة النكراء بهم، والرجوع الى المدينة مع الغنائم بما فيها اسرى الحرب مكتفين بالحبال، كأنهم في سلاسل.

مميزات المعركة:

وتتميز هذه المعركة بأمرين. الاول: الرغبة التي أظهرها علي (ع) في القتال. والثاني: تنكّر التاريخ لهذه المعركة وحذفها من صحائفه.

الاول: الرغبة في القتال:

عندما نتناول موضوع: الرغبة في القتال، لابد ان نعرض ايضاً فكرة فرصة الحرب. ولا بد ان نبين ما بينهما من اختلاف. ف«الرغبة في القتال» تتعلق بارادة الانسان المحارب بوضع نفسه في خدمة اهداف الحرب، فلا يكثرث حينئذٍ بالقتل أو الجرح أو تكبد الخسارة. اما فرصة الحرب فهي تعني امكانية تحقيق التحام عسكري بين الطرفين المتحاربين. فهناك فرق بين هذين الاصطلاحين: أي «الرغبة في القتال» و«فرصة الحرب». فقد يذهب الفرد الى المعركة ولكن ليست لديه الرغبة في القتال. لانه قد يؤمّل نفسه بضعف احتمالية تحقيق الالتحام العسكري بين الطرفين.

ولذلك، فأني موقف سلمي يلمسه من قبل العدو - كشراسة الاعداء وحسن عدّتهم وكثرتهم- يجعله يتلمّس الاعدار للهروب من ساحة المعركة والفرار صوب الامان والحفاظ على النفس. وهذا ما حصل للذين ذهبوا الى المعركة قبل علي (ع). اما البطل المقدم الذي كان يحارب في سبيل الله، فانه ما ان لبسَ لامة الحرب، حتى بنى في نفسه وعقله رغبة جامحة في الاقتحام والمقاومة والموت من أجله تعالى. وهذا ما قام به علي (ع) في تلك المعركة.

فالرغبة في القتال، اذن، لها علاقة بالدوافع والاهداف التي يمتلكها المحارب حيث يختار الحرب كبديل رئيسي لتحقيق الهدف. ومن هنا نرى ان اقتحام الامام (ع) لتحصينات العدو في ذات السلاسل كان اقتحاماً سريعاً كلمح البصر تموّنه شعلة الرغبة للقتال والتحرّق لمواجهة اعداء الله. بحيث ان عدّوه السريع أعنف بجنوده. فخافوا ان ينقطعوا من التعب وخافوا ان تحفى دوابهم قبل ان يصلوا الى عدوهم. ولكن الرغبة الجامحة في قتال المشركين، والموت في سبيل الله كان يقوي فرص الحرب عند علي (ع) من أجل الالتحام بين جيشي المسلمين والمشركين.

ولا شك ان امكانية تأثر جنود علي (ع) الاربعة آلاف في ذات السلاسل ببطولته والاقنداء بشخصيته كان أمراً واقعياً. فلولا بطولة علي (ع) لم يستطع الجيش تحقيق شيء على مستوى المعركة بمنظورها الجزئي والاسلام بمنظوره الكلي.

وفي ضوء ذلك نستطيع ان نقرر بان الرغبة في القتال عند المؤمنين الموقنين كانت تحددتها عوامل وصفات ايمانية مثل: نكران الذات، واليقين، والبطولة، والافتحام. بينما تحدد الرغبة عند عموم الناس عوامل اخرى مثل: التريث في القتال، والتردد، والفرار من الزحف، وحب الدنيا، والخوف من الموت، ونحوها. ومن هنا نلمس ان المؤمنين الموقنين بالله حقاً اقتحاميون في ساحة المعركة، لان دوافعهم لا تقبل تغييراً بعد ان تيقنوا بان الله معهم، وانهم يحاربون من أجل الآخرة، وان الله سيرزقهم قطعاً احدى الحسنين: اما النصر واما الشهادة.

وفرصة الحرب للقائد البطل تعني انه سوف يستثمر طاقاته البطولية في سحق العدو وتدمير قدراته العسكرية. بينما يرى الخائف من الحرب ان فرص الحرب فرص للهلاك الذي ينبغي الفرار منه إن امكن، أو عدم التقدم في الخطوط الامامية وترك القيادة العسكرية لآخرين، أو الحصول على غنائم عندما تحين الفرصة لذلك.

وفرصة الحرب، اذن، تعبّر عن مقاربة عسكرية دامية بين عدوين متحاربين يحاول كل منهما افناء الآخر وافناء معتقداته معه. ومن هنا حاول الامام (ع) جاهداً خلق فرصاً للحرب من خلال تصميمه شكل الالتحام بين المعسكرين. فكان (ع) يسرع في السير نحو العدو، وكان (ع) يقف في المقدمة في المعركة التي خاضها، وكان (ع) ينتخب من مقاتلي المشركين: النخبة، فيبارزها ويفنيها عن بكرة ابيها. ثم يبدأ جيشه - وبعد ان رأى قائده (ع) في المقدمة وقد ارتدى رداء الموت- بالتحرك لمنازلة العدو.

الثاني: تنكّر التاريخ:

كيف استطاعت الماكنة الاعلامية تزوير التاريخ وحذف تلك الواقعة العظيمة، التي كانت اشهر موافقه (ع) مع النبي (ص)، من صحائف التاريخ؟ وما هي اهداف ذلك التزوير؟

لاشك ان الارضية التي تفسر بها احداث التأريخ لها أهداف سياسية. فالتحريف الذي يحصل في الاحداث التأريخية يرجع الى فكرة تغير العلية التأريخية. وبمعنى اوضح ان الاحداث تؤخذ بلحاظ الظروف التأريخية التي مرت بالحادثة ذاتها، ولا تؤخذ بالظروف التي يعيشها الناس بعد مئات من السنين. ذلك ان قراءة التأريخ يعني قراءة لعل تلك الفترة الزمنية التي نقرأ احداثها. وبالنتيجة فان حذف حدث تأريخي من كتب التأريخ، سيولد شكوكاً في مصداقية ذلك الحدث بعد مئات من السنين. وكان هذا هو الهدف الذي سعى من أجله السلاطين والخلفاء، وهو حذف فضائل أمير المؤمنين (ع) من كتب التأريخ حتى لا يتسنى للذين يأتون من بعده من الاجيال المتلاحقة تصديق تلك الاحداث المتصلة بفضائله ومعجزاته (ع).

(نهاية ص ٦٢)

١ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل السابع ص ٤٦.

٢ «توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل» - شهاب الدين الايجي. ص ٤١٨.

٣ «بحار الانوار» - رواه المجلسي باسناده عن سليم بن قيس الهلالي. ج ١٩ ص ٢٦ الطبعة القديمة.

4 «المناقب» - الخوارزمي. الفصل العشرون ص ٢٤٧.

5 الخصائص - النسائي ص ١٤. رواها النسائي باسناده عن سعد بن أبي وقاص.

٦ «مجمع الزوائد» - الهيثمي. ج ٩ ص ٢٠٤.

٧ كَفَح: من كَفَحْتُهُ كَفْحاً، اذا اسْتَقْبَلْتَهُ كَفَّةً كَفَّةً. قال الاصمعي: كَأَفْحُوهُمْ، اذا اسْتَقْبَلُوهُمْ في الحرب بوجوههم ليس دونها ترسٌ ولا غيره. ويقال: فلان يُكافِحُ الامور، أي يباشرها بنفسه. والكَفِيحُ: الكُفء. «الصحاح» ج ١ ص ٣٩٩.

٨ الخُمُر: القناع.

- ٩ الجيب: الصدر.
- ١٠ سورة النور: آية ٣٠ - ٣١.
- ١١ سورة النساء: آية ٣.
- ١٢ سورة آل عمران: آية ١٢٣.
- ١٣ سورة آل عمران: آية ١٢٣ - ١٢٦.
- ١٤ سورة الانفال: آية ٩.
- ١٥ «تأريخ الطبري» ج ٢ ص ٥٠١ - ٥١٤.
- ١٦ «ينابيع المودة» - القندوزي باسناده عن علي بن الحسين. الباب الثالث عشر ص ٦٤.
- ١٧ سورة الانفال: آية ١٥.
- ١٨ سورة آل عمران: آية ١٤٦.
- ١٩ سورة محمد: آية ٤.
- ٢٠ «المواقف» - الايجي ج ٨ ص ٣٧١. ط سنة ١٩٠٧. وعمل الثقليين هو: عمل الجن والانس.
- ٢١ سورة الاحزاب: آية ١٠.
- ٢٢ سورة الحجر: آية ٩.

١٦- فتح مكة

تمكن علي (ع) من خلال بطولته الرادعة في خيبر وذات السلاسل، وقبلها في بدر وأحد والخندق، من تحقيق ثلاثة امور عجز عن تحقيقها بقية المقاتلين من المسلمين، وهي:

١ - وضع الحرب على خشبة المسرح العقلائي. بمعنى ان العدو من عبدة الاوثان اذا كان يفكر سابقاً بنزوات انتصاره واوهام الاستيلاء على غنائم المسلمين وتدمير دينهم، فانه اليوم - وبفضل تحقق الردع- اصبح يفكر باجتنااب الهزيمة التي سيُمنى بها دون شك. والقاعدة ان الردع اذا كان قوياً، فان العدو سيفكر -جدياً- بالاستسلام دون اراقة مزيد من الدماء.

٢ - جعل التهديد الرئيسي ينبعث من وسط معسكر المسلمين ضد معسكر المشركين. أي انه جعل المسلمين اصحاب المبادرة، كما حصل في الهجوم على جيش ذات السلاسل من المشركين وقت الفجر، وكما حصل في استدراج «مرحب» الى القتال والمبارزة في خيبر، وكما حصل في استدراج «عمرو بن عبد ود» الى المبارزة في الاحزاب، ونحوها. وبمعنى ثالث انه جعل المقاتلين المسلمين في موضع الهجوم، وجعل المشركين في موضع الدفاع. وهذا تبديل استراتيجي خطير لصالح الاسلام.

٣ _ ساهمت بطولة علي (ع) في تحديد عدد البدائل التي كانت متاحة للعدو، وجعل الدخول الى الاسلام أو الاستسلام دون قتال أهم البدائل، وجعلت بديل الحرب ادنى البدائل حظاً في الاختيار من قبل المشركين.

وهكذا كان، وقد فتحت مكة في شهر رمضان من بعد ثمان سنوات من هجرة المسلمين التاريخية منها الى المدينة، بعد ان أيقن المشركون ان الحرب هي ادنى البدائل حظاً في الاختيار. فاستسلموا وأسلموا، وأمكنه الله سبحانه من رقابهم عنوة فكانوا له (ص) فيئاً. ولكنه (ص) خاطبهم قائلاً: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فتح مكة وقيادة العالم:

وفتح مكة كانت عملية تاريخية ضخمة ينبغي فهم آثارها أو مقتضياتها بنفس درجة فهم اسبابها أو عللها. فمع ان شجاعة رسول الله (ص) والامام (ع) الفائقتين كانتا من أهم عللها، فإن آثارها كانت خطيرة للغاية. ذلك ان فتح مكة وضع القيادة الدينية الاجتماعية للعالم بيد المسلمين بعد ان كان قادة المشركين يحكمون الناس بالظلم ويعيشون في الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنين باطناً وظاهراً، في دين الله افواجاً. وقد تنبأ كتاب الله المجيد بتلك الاحداث فقال: **(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا).**

واصبح الاسلام بعد فتح مكة قوة عالمية تستطيع مواجهة قوى الفرس أو الروم والانتصار عليهما، وقادرة على تثبيت الأمن العالمي في ذلك الوقت تحت شعار: لا إله الا الله، محمد رسول الله. وبذلك كان فتح مكة اعادة لبناء التركيب السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء الدين الجديد. في وقت كان العالم يبحث فيه عن قيادة جديدة تحقق العدل الاجتماعي والأمان والتوحيد، فكانت قيادة رسول الله (ص) تحقق ثبات دولة الايمان العالمية ونظامها الامني والحقوقي.

والسبب في ذلك ان العالم يتضمن شعوباً متباينة في التقاليد والعادات واللغات، ولا يمكن ان يجمعها الا دين سماوي واحد. فكان الاسلام هو الدين القادر على جمع ذلك العدد الهائل من البشر تحت سقف خيمة واحدة وفي ظل لواء واحد. ولا يستطيع احد تحمل مسؤولية ادارة ذلك التجمع العالمي اجتماعياً وسياسياً الا رسولٌ يوحى اليه. فكان رسول الله (ص) هو حامل المسؤولية العالمية. وكان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القيادة الدينية بعده (ص) أمير المؤمنين (ع).

علي (ع) منقذ الموقف:

وقد كان علي (ع) موضع ثقة رسول الله (ص) في فتح مكة. فحينما هتف أناسٌ من المسلمين من الذين لا زالوا لم يفهموا ابعاد الدين بعد: اليومُ يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحُرمة. دعاه النبي (ص) لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيؤدي حتماً الى سفك الدماء على غرار الجاهلية ولكن باسم الاسلام هذه المرّة. وأمره (ص) بحمل الراية والدخول الى مكة في المقدمة.

فكان علي (ع) منقذ الموقف حيث دخل مكة وهو يحمل راية التوحيد والسلام. وعندما قام خالد بن الوليد بقتل من قُتل من بني جُذيمة، ودّاهم رسول الله (ص) فبعث علياً (ع) لتسوية الوضع. وارشده (ص) بالقول: (يا علي، اخرج الى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك). وقبلها، عندما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم مقتلاً، جاء أبو سفيان الى المدينة معتذراً بعد فوات الاوان. فلم يفلح في مسعاه، ولكن ابو سفيان رأس الشرك الذي حارب الاسلام والنبي (ص) وعلياً (ع) أشد حرب، وجد علياً (ع) - اذا صحّت الرواية- ألين القوم معه وأشدهم نصحاً له. وهكذا كان خلق الانبياء والاوصياء (ع). وهكذا تعامل رسول الله (ص) في مكة مع الطلقاء.

جاء الحق وزهق الباطل:

إن أهم ما حصل من أحداث عند دخول رسول الله (ص) مكة فاتحاً، هو تحطيم الاصنام الضخمة بأمر النبي (ص) وييد علي (ع)، التي تكسرت كما تنكسر القوارير. وعندها قال (ص): (ايه ايه.. جاء الحق وزهق الباطل. ان الباطل كان زهوقاً).

كان قدوم الاسلام منتصراً، انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود في المجتمع وفي ذات المؤمن على الاقل. فالمؤمن بتعاليم الدين السماوي يؤمن بالحق ويبيني وجوده الاجتماعي والذاتي الجديد على اساس ايقاف الباطل وحذفه من حياته الشخصية. وهذا يعني اننا اذا الغينا الباطل من الساحة الاجتماعية، كما فعل رسول الله (ص) وعلي (ع) بتحطيم الاصنام، فان ذوات الناس سوف تنفتح على الخير وعلى الاستماع الى الحق. وهنا يتخير العاقل بحرية، في ذلك الجو المنفتح وتلك الارضية الواسعة، بين الحق والباطل. فيختار الحق على الباطل حتماً.

ولو كان الباطل قضيةً متعلّقةً بالاخلاق لاستطاع الانسان دحرها من دون مساعدة الدين، بل لكان العقل سلاحاً كافياً من أسلحة دحر الباطل. ولكن الحقيقة تقول: بأن للباطل كياناً مستقلاً لا يقف امامه الا الدين.

فمع ان العقل يدعو الى التوحيد والعدل، الا ان العقل المجرد عن الايمان قد يدعو الى الفساد والدمار والشرك. فالعقل لوحده لا يستطيع دحر الباطل. ولو كان العقل كافياً لادراك

معاني الوجود لانتهى دور الدين في حياة الانسان. فقضية الباطل ليست منحصرة اذن بالفلسفة الاخلاقية فقط، بل ان إزالة الباطل موكولة الى تعاليم الدين ومقدار أدائها من قبل المؤمنين.

فلا شك ان زوال الباطل يتحقق عندما يمارس المكلفون تكاليفهم الشرعية ويتنعمون برحمة القوانين الدينية، وعندها ينتهي الفساد والظلم والشرك. فثببت الحق مرهون بتقوية شوكة الدين. ومن هنا نفهم مغزى مخاطبته (ص) لعلبي (ع): ايه ايه (... **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**). فبتحطيم رمز الوثنية والشرك في مكة، بدأ الاذعان لتقبل فكرة انتصار الاسلام وقيمه السماوية في الخير والعدالة والمحبة والصالح، على مبادئ الظلم والفساد والشرك.

ومن هنا: جاء الحق وزهق الباطل، بكل ما تحمله تلك الالفاظ من معان ومفاهيم وأفكار. فقد جاء الحق عبر رسالة السماء محملاً بمفاهيم العدالة والخير والاخوة والمحبة والتعاون، وعندها انفتح الباب لاختيار طريق الخير بدل طريق الشر، وعندها كانت الحكمة الالهية: **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...**، لان الانسان بطبيعته يختار الخير على الشر، ويختار الحق على الباطل.

وتلك المقولة النبوية حبل يالمعاني العديدة التي يمكن ان يستظهرها المفكر الاسلامي. ومن تلك المعاني نظرية «حتمية محق الظلم وحتمية انتصار الدين» على المدى البعيد. فتلك النظرية تعرض علينا امكانية صياغة استراتيجية الاسلام بالنسبة للعالم والتاريخ. فالدين هو الحق، والكفر أو الظلم هو الباطل. ولا بد ان ينتصر الدين ويندحر الباطل ويموت. لان الحق باق الى الابد، والباطل ميّت الى الابد بظهور الاسلام وانتشاره في آفاق الارض. ومن هنا نفهم ان فتح مكة كان البوابة العظمى للانفتاح على البشرية في القلب والعقل والادراك على مدى الزمن.

١٧ - غزوة حنين

وقعت هذه الغزوة بعد شهر واحد فقط من فتح مكة. وكانت الغزوة تأديبية ضد هوازن وثقيف اللتين جمعتا جيشاً كبيراً قوامه ثلاثون ألفاً ضد المسلمين. واغتر المسلمون بكثرتهم، في جيش قُدّر باثني عشر ألفاً، فقال تعالى يصف حالهم: (... **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم**

تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ...». فانهم المسلمون في اللحظات الاولى من المعركة عدا رسول الله (ص) وعلي (ع) ومجموعة قليلة من الهاشميين.

وكان ثباتهم قد غير مسار المعركة، خصوصاً عندما قتل علي (ع) «أبا جروول» إمام هوازن، وبعضاً من أبطالهم. وكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جروول. فما الذين حصل في تلك المعركة؟ لقد تجلّت في تلك المعركة أمور ثلاثة مهمّة ينبغي التوقف عندها وهي: أ- العُجْب. ب- الفرار. ج- ثبات الهاشميين.

أ - العُجْب:

يعني العُجْب تناقص القوة العقلية في النظر الى القضايا الواقعية الخارجية. وتلك الصفة غير المحمودة لا تتغير من القوة البصرية للنظر ولا من كثافته؛ ولكنها تجعل الصور العقلية التي يحللها الذهن صوراً غير واقعية، كما قال تعالى: (... إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً...). وهنا تصبح الحقائق الواقعية الخارجية مجرد سراب خادع للنظر. فتصبح الكثرة العددية - في عقل المأخوذ بالعُجْب - أمراً مبالغاً فيه، وتصبح الاشياء والصفات المضادة للكثرة كالشجاعة والإقدام والقلة المضحية مجرد قضايا هامشية أصغر من حجمها الحقيقي الواقعي.

والاصل في المسألة، ان الصور العقلية المخزونة في ذهن الانسان، والتي تحصل غالباً من مجموعة تراكمات ذهنية سابقة، هي التي تحدد الصورة الجديدة للواقع القديم. فالذين انهزموا في حنين بعد ان أعجبتهم كثرة المسلمين، انما انطلقوا من موقع سراب الصور العقلية التي حملوها قبل الاسلام، ومن موقع ايمانهم القبلي بأن الكثرة - لا الايمان والثبات - هو الذي يحدد مصير المعركة الحاسمة. وفي ذلك دلالة على ان عناصر الايمان لم تكن راسخة في عقولهم ولا في قلوبهم.

ولاشك ان الصورة الذهنية عن القضايا الخارجية تتحوّل الى قضية معرفية. فهنا عندما يُثار عُجْب البعض بالكثرة العددية، فانهم يبنون عليها قضايا معرفية خاصة مثل: عدم جدّيتهم في قتال العدو، وايمانهم بأن هزيمة العدو أمر حتمي، وانحصار تفكيرهم بالغنائم. ولذلك فقد كانوا

أول من فرّ من المعركة، لانهم تصوّروا - خطأً - ان الكثرة ستكون عاملاً من عوامل حمايتهم من سيوف الاعداء المحاربين.

ب - الفرار:

والفرار في المعركة ما هو الا أثر من آثار الخوف من الموت، وقد أشار تعالى الى ذلك بالقول: **(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ...)**. وأشار الى معركة حنين بالخصوص، فقال: **(... وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ...)**. ذلك ان الذي يخاف من الموت، فان وضعه الشخصي يعبر عن حالة من الحالات النفسية والعقلية التالية:

الاولى: انه لم يفهم بعد مقاصد الدين والشريعة فهماً يقينياً، بحيث يؤمن يقيناً بأن الموت يقربه الى الله سبحانه في جنان الخلد والنعيم.

الثانية: ان يمتلك حبّ الدنيا قلبه الى درجة انه لا يحبّ مفارقتها. فالمكتسبات المادية التي اكتسبها خلال حياته الدنيوية تجعله يركن الى الدنيا أكثر ممّا يطمح الى الآخرة.

الثالثة: ان تكون ذنوبه كبيرة الى درجة انه يخاف الموت، لانه يخاف العقاب والعذاب.

وتلك الحالات جميعاً تعبر عن حالات مَرَضِيَّة عند المقاتلين لا يستقيم معها أمر الدين والجهاد. ومن هنا كانت القاعدة بأن المقاتل المؤمن عندما يدخل المعركة ينبغي ان يقاتل وأمام عينيه الموت وفكره مشغول بلقاء الله تعالى. والّا فان لم يكن كذلك، فان تفكيره سينشغل بمقدار المال الذي يملكه، وعدد الاولاد المنتسبين له، وزوجته التي يحنّ اليها، واللذائذ التي يمكن ان تقدمها الدنيا له وهو على قيد الحياة. وهنا إذا تأججت نار الحرب، فانه أول من يفرّ من المعركة أو يهرب من الموت الذي ينتظره فيها. وهو لا يعلم به: **«انّ الموتَ طالبٌ حثيثٌ لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب»** كما اشار أمير المؤمنين (ع) الى ذلك. ثم اردف (ع) قائلاً: **«إن أكرمَ الموتِ القتلُ! والذي نفسُ ابنِ ابي طالبٍ بيده، لألفُ ضربةٍ بالسيفِ أهونُ من ميتةٍ على الفراشِ في غير طاعةِ الله»**.

وبكلمة، فان الذين يفرّون من المعركة هم الذين لا يملكون يقيناً بحقائق الدين، ولا يرجون لقاء الله، بل ان همّهم أن يبقوا أحياءً في الدنيا، بقي الدين على الارض ام انهزم أمام قوى

الشرك. ولذلك شدد المولى عزّ وجل على قضية الثبات في المعركة قائلاً: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

ج - ثبات علي (ع) والهاشميين:

ولم يثبت في المعركة الا تسعة نفر من بني هاشم مع رسول الله (ص)، بالاضافة الى أيمن ابن أم أيمن. فقتل أيمن (رضوان الله عليه) وثبت الهاشميون التسعة حتى تاب الى رسول الله (ص) من كان قد انهزم في البداية. وصمد أمير المؤمنين (ع) لابي جرول وبارزه وصرعه. فانهزم القوم من بين يديه (ع). وكانت هزيمة المشركين بقتل ابي جرول.

وبجدر بنا هنا النظر الى حقيقة أساسية وهي ان معركة حنين قد وقعت بعد شهر واحد فقط من فتح مكة. فلو تحققت هزيمة المسلمين عند فرارهم من مضايق حنين وكان علي (ع) غائباً على سبيل الافتراض، لكانت تلك هزيمة ساحقة يتحدّث عنها التأريخ بسخرية. ذلك لان هزيمة من ذاك القبيل كانت ستحطم معنويات المسلمين، وكانت ستدمر كل ما انجزوه من انجازات دينية وعسكرية على صعيد عالم الجزيرة العربية. فكان مقتل إمام هوازن على يد أمير المؤمنين (ع) قد غير سير المعركة وبدّل نتائجها ومقتضياتها.

١٨ - غزوة تبوك

وغزوة تبوك الشاقة بقيادة رسول الله (ص) انتهت بالجزية دون قتال. وهي آخر غزوة غزاها رسول الله (ص) قبل وفاته. وكانت تلك الغزوة الطافرة تقتضي اما ان يبقى رسول الله (ص) واما علي (ع) في المدينة ويذهب الآخر مع الجيش لقتال المشركين، بسبب بُعد المسافة، وضرورة وجود مدير يدير عاصمة الاسلام ويدافع عنها وقت الحاجة. فاختار رسول الله (ص) ان يُبقي علياً (ع) في المدينة، وقال له: «يا علي انما خلقتك على اهلي، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي». وفي تعبير آخر: «اخلفني في اهلي واهلك».

والمصادر اللغوية تعترف بان الاهل هم «أهل الرجل وأهل الدار». ولا شك ان رسول الله (ص) لا يقصد بـ «اخلفني في أهلي» الاستخلاف على بيت النبي (ص)، لان ذلك يتعارض مع

مفاهيم الشريعة واحكامها. فبييت النبي (ص) يأوي زوجاته (ص)، ولا وجه للاستخلاف في ذلك لان علياً (ع) ليس ابناً لرسول الله (ص) مثلاً. واذا اضمنا مسؤولية النبي (ص) الشرعية في الولاية على المسلمين، يصبح معنى «اخلفني في اهلي» هو: اخلفني في اهل داري، وهي دار الاسلام بمن فيهم المتظاهرون بالاسلام وقلوبهم غير مؤمنة به، ويشمل ايضاً العاجزين والقاعدين لاسباب شرعية وغير شرعية.

وكان لاستخلاف الامام (ع) على المدينة دلالات كبيرة. فقد كانت تلك الغزوة آخر غزوات النبي (ص) وبعدها عن المدينة. فكان لا بد من اجراء احترازي لمستقبل الاحداث في الاسلام، وكان لا بد من عرض واضح لظهار مقدره علي (ع) في الادارة الاجتماعية لمجتمع المسلمين، وكان لا بد من ارسال رسالة واضحة المعالم للطامحين بخلافة رسول الله (ص) بالتخلي عن مطامحهم لان علياً (ع) هو المؤهل الوحيد لتلك المهمة الاستثنائية.

ولا شك ان كلمات الاستخلاف كانت واضحة وقوية للغاية، فقد جعله (ص) بمنزلة هارون من موسى، لكنه نفى النبوة بعده. والقوة في التعبير لا تُبقي مجالاً للشك في منزلة علي (ع) في الاسلام ودرجة قرابته الدينية والعلمية من رسول الله (ص).

معاني الاستخلاف على المدينة:

كانت لخلافة علي (ع) على المدينة معانٍ ضخمة، أراد المنافقون في ذلك الزمان التقليل من شأنها وتحجيمها. الا ان دراسة معمقة لطبيعة ذلك الاستخلاف يكشف عن انه لم يكن مجرد استخلاف على مجموعة افراد، بل كان استخلاًفاً على مجتمع مؤسسات ودولة بكل ما تعنيه الكلمة.

وفلسفة «اخلفني في اهلي» تقتضي الحفاظ على مجموعة من الانظمة الاجتماعية والاجهزة الدينية التي تُمسك بخيوط المجتمع. فهي تقتضي الحفاظ على تركيبة النظام الاجتماعي والسياسي للمجتمع الديني من حيث الهرم الاداري. وتقتضي ايضاً الحفاظ على العمليات الاجتماعية من زاوية القضاء وحل الخصومات، وتوزيع الثروة واشباع الفقراء، والتعبديات واقامة الفرائض الجماعية، وعدالة السوق التجاري ونظافته من الربا والاحتكار،

وتطبيق العقوبات على المنحرفين ونحوها. وهذا كله يفضي بانتقال الادارة الاجتماعية من يد امينة الى يد امينة اخرى. فاذا أُريد لحركة الاسلام ان تستمر، كان لابد ان يخلف النبي (ص) شخصاً عالمًا مؤتمناً كفوءاً لادارة مجتمع المدينة خلال غيابه في تبوك، كما خلف النبي موسى (ع) اخاه هارون لادارة شؤون مجتمع بني اسرائيل خلال غيابه (ع) عنهم والتماسه الجبل.

ولا شك ان تبوك كانت مرحلة تمرين وامتحان للصحابة بحسن استيعاب قضية الولاية الشرعية بعد رسول الله (ص) وفهمها فهماً صحيحاً بعيداً عن الاهواء والطموحات السياسية القبلية. خصوصاً وان قضية تبوك ونظرية «اخلفني في أهلي» قد جاءت قبل واقعة الغدير بفترة زمنية قصيرة.

ومن الطبيعي فان فكرة النيابة مشروطة بتطابق التكليف مع القدرة الكاملة على انجازه تاماً. والسبب في اننا نولي أهمية بالغة لفكرة الاستخلاف على صعيدي السلطة وادارة المجتمع، هو ان لها تأثيراً على حقوق الناس ومعتقداتهم وتكاليفهم الشرعية والاجتماعية.

شروط الاستخلاف:

ودراسة واعية لحجم المسؤولية الملقاة على عاتق علي (ع) في الاستخلاف على المدينة خلال غزوة تبوك يكشف عن عمق شخصية الامام (ع) وعلاقته الصميمية بالنبوة وبمحمد (ص). فقد كان المصطفى (ص) يعلم ان في شخصية علي (ع) ثلاثة شروط تستطيع ان تحقق خلفاً صالحاً لخير سلف، وهي:

الاول: قوة ادراك علي (ع) لمقتضيات الشريعة واحكامها ونظامها الاخلاقي والعقائدي. وكان ذلك واضحاً في ادراكه اسرار القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة. وهي ما نسميها بالعصمة.

الثاني: قوّة علي (ع) الذهنية التي تستطيع ان تدير الامور الاجتماعية في عاصمة الدولة الاسلامية. خصوصاً اهتمامه بالفقراء، والمعوزين، وتقسيم الثروة الاجتماعية بالتساوي لمستحقيها.

الثالث: قدرة الامام (ع) في إحكام تماسك المجتمع الاسلامي دينياً، لانه كان يمتلك تلك الشخصية الاستثنائية في البطولة، والايثار، والزهد، والتقوى، والعلم، والعبادة، ومواساة الفقر والمحرومين.

وتلك الصفات الفاضلة في شخصية واحدة لها القدرة على جمع العابد مع العالم، والتاجر مع الفقير، والغني مع المحتاج، والقوي مع الضعيف. واذا تم جمع تلك العناصر في خيمة اجتماعية واحدة يسودها الحب والتكاتف والمسؤولية، اقترب الاسلام من تحقيق اهدافه العليا في الحياة.

فلاستخلاف اذن كان يمثل إرادة الدين في ادارة مجتمع دار الاسلام. وما يريدُه الدين هو ارادة الشريعة والملاكات التي تمثله احكامها. فرؤية الدين تجاه الذين تعيّنهم السماء يتطابق مع رؤيته لملاكات الاحكام ومقتضياتها. ولذلك كان علي (ع) - في نظر السماء - حارساً لاحكام الشريعة وملاكاتها في غياب النبي (ص). وهذا المعنى مطابق تماماً لفكرة: «اخْلُفني في اهلي».

مواضع الاستخلاف:

ودار الاسلام في تلك الفترة كانت تشتمل على مؤسسات اجتماعية خاصة بالدولة، (منها): بيت المال، الذي كان من أهم المؤسسات التي كان يرهاها رسول الله (ص) وخليفته (ع) لانها كانت توزع الحقوق على الفقراء من صدقات واخماس وزكوات واجبة أو مندوبة. و(منها): السوق التجاري الذي كان مزدهراً بالمواد الغذائية من قمح وشعير وتمر وزبيب ونحوها. و(منها): المسجد، الذي كان داراً للدولة في العبادات والخطط الحربية والتبليغية والتعليمية. و(منها): القضاء، وهي المؤسسة التي تهتم بحل النزاعات بين المتخاصمين. و(منها): الزراعة والصناعة والأحياء العمرانية. وتلك المؤسسات كانت بحاجة الى ادارة اجتماعية وتنظيم ديني للاولويات.

اما الافراد الذين خُلفَ على ادارتهم فقد كانوا مؤلفين مما يلي: المؤمنون الفقراء الذين بقوا في المدينة لانهم لم يتمكنوا من تحصيل غُدّة السفر والجهاد، والقاصرون من نساء وذرياري من عوائل المقاتلين الذين ذهبوا الى تبوك، والعاجزون عن القتال لاسباب صحية كالمرض والسن، والمناقفون الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام وكان بينهم اغنياء ومتمولون، وأهل الذمة من يهود

ونصارى، وبقية الافراد كالأعراب الذين يأتون الى المدينة من البوادي، والتجار الذين كانوا يمرّون بالمدينة وهم في طريقهم الى العراق والشام واليمن.

ولا شك ان ذلك الاستخلاف على المدينة كان تجربة فريدة للإمام علي (ع) في الادارة الاجتماعية، خصوصاً انه كان متوقعاً للنبي (ص) ان يرجع ويرى عمل علي (ع) خلال غيابه. وكان امضاؤه (ص) لادارة علي (ع) شهادة عظيمة على كفاءته (ع) وقدرته على تنظيم أمور المجتمع الاسلامي بعد رحيله (ص) الحتمي الى الرفيق الاعلى.

تبليغ سورة براءة:

ولم يتوقف الامر على ذلك الاستخلاف التاريخي على المدينة، بل عندما رجع رسول الله (ص) من غزوة تبوك في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة، أمر (ص) المسلمين في ذي الحجة من نفس السنة - أي بعد شهرين فقط - بالتحرك لاداء فريضة الحج وكان على امرتهم ابو بكر. فلما نزلت سورة براءة أمر علياً (ع) بتبليغ الناس بمضمونها، وهي: حرمة حج المشركين بعد ذلك العام، وحرمة الطواف بالبيت عرارة، ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد فهو الى مدته وغيرها من الاحكام والمفاهيم الاخلاقية. وقال (ص) قوله المشهورة: «لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي».

وسورة براءة لها خصوصية بنقض ما بين النبي (ص) وبين المشركين من العهد العام، والعهود الخاصة بينه (ص) وبين بعض قبائل العرب. ولها معانٍ ضخمة في البراءة من المشركين ومقاتلتهم بقوة وجدّ، والنهي عن موالاتهم، وفيها حديث عمّن تخلف من المنافقين عنه (ص) في تبوك. فكشفت سرائر الناس خصوصاً المنافقين. وتلك المعاني الضخمة لا يستطيع حملها الا رسول الله (ص) أو رجل منه، كما قال (ص) ذلك.

فاذا اضفنا ذلك الى بطولة الامام علي (ع) ودوره الحاسم في قتال المشركين وبلاغة منطقته وعلو شأنه في الدين، لتبين لنا انه كان البديل الوحيد لرسول الله (ص) في تبليغ تلك السورة المبعثرة الممشقة الحافرة، بكل قوة في مكة. فهو لا يخاف مشركاً ولا كافراً ولا شجاعاً من شجعانهم ولا فارساً ولا راجلاً، بل انه ارعب في ساحات المعارك ابطالهم وقتلهم شر قتلة.

وكان اظهر الناس بعد النبي (ص) واكثرهم خشوعاً وتعلقاً بالله سبحانه واكثرهم زهداً وتعظفاً عن الدنيا.

ولذلك كان علي (ع) ابلغ المؤمنين في توصيل سورة براءة الى عالم ذلك الزمان، كي يؤمنوا وتخضع قلوبهم لذكر الله عزّ وجلّ.

١٩ - نظرة شاملة في حروب الامام (ع) بجوار النبي (ص)

لم يكن اندفاع الامام (ع) في مواجهة الموت والقتال في سبيل الله ناشئاً من منطقة فراغ، بل كان اصراره على القتال مستخلصاً من القرآن المجيد. فقد تناول القرآن مسألة القتال والجهاد بكثير من العناية والاهتمام باعتباره وسيلة من وسائل نشر الدين الحنيف ودحر الكفر والباطل. فقال سبحانه: **(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...)**. **(وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ...)**.

وقد كان ذلك الحث المتواصل على الجهاد مدعاة لنشوء معارك كبرى خاضها الاسلام ضدّ الشرك. وكانت معارك بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وخيبر، وذات السلاسل، وحنين معارك كبرى بلحاظ النتائج المتمخضة عنها والآثار التي سببتها. وكان من آثارها ردع العدو الذي تمثّل بفتح مكة دون سفك دماء، وتبوك حيث دُفعت الجزية وتمّت المصالحة عليها. وهكذا أدّت الشجاعة العظمى وحبّ لقاء الله بالموت على فراش الاسنة، دورها الحقيقي في نشر الاسلام بين الناس وتثبيت اسس الدين.

وكان من آثار شجاعة الامام علي (ع) في الحروب التي خاضها مع رسول الله (ص) خلال مراحل تكوين الدولة الاسلامية وتثبيتها، هو نقل المجتمع الاسلامي من مجمع محلي الى مجتمع عالمي له قانون ونظام وادارة تستطيع قيادة العالم. فقد برز الاسلام قوة عالمية بعد المعارك التي خاضها محمد المصطفى (ص) جنباً الى جنب مع علي (ع). وبعد الانتصارات التي تحققت في بدر وخيبر وذات السلاسل وفتح مكة وحنين وتبوك، برز الجيش الاسلامي واحداً من اقوى الجيوش في العالم القديم.

وبذلك تراكمت لديه الخبرات العسكرية والمعدّات اللازمة التي تهيؤه للحروب الكبرى القادمة مع الروم والفرس، والسيطرة على التجارة العالمية، ومن ثمّ صياغة النظام السياسي السماوي للعالم.

لقد وجّه الامام (ع) شجاعته من أجل الاسلام، وفي سبيل الله خالصة دون أية مطامع دنيوية. ولذلك فقد كان عدو المشركين الاول بعد رسول الله (ص). وبكلمة، لقد كان الامام (ع) رفيق النبي (ص) في كل جهاد ونصر على الكافرين، وكان شريكه في كل جرح وفرح ومعاناة في سبيل الله سبحانه. ذلك ان سيف علي (ع) ترك آثاراً عميقة في المجتمع الاسلامي، كما تركت كلمات رسول الله (ص) وسيرته آثارها العميقة عليهم.

ومن هنا قيل ان كل حرب لا تحمل الآثار المتوقع حملها، لا يمكن ان تعدّ حرباً مؤثرة. أي ان قيمة الحرب تحدد بمقدار التبعات التي تنتجها في النظام الاجتماعي ومقدار التغيرات التي تحدثها في التركيبة الدينية للطرف المنهزم. وبالأجمال، فان تفسير اسباب الحرب يرجع بالدرجة الاولى الى فهم وظيفة آثار المعركة الحربية من حيث التغيير في تركيبة المجتمع وتبديل صورة النظام الاجتماعي.

الشخصية القتالية:

وبكنا الان ادراك طبيعة الشخصية القتالية الفذة للامام (ع) عبر النقاط التالية:

أولاً: كانت طبيعة التربية النبوية لعلي (ع) منصّبة على تعليمه طرق تمييز الخير من الشر، والحق من الباطل، والمعبود من العابد، والخالق من المخلوق. فصورة الرغبة في القتال تفترض ان الحرب هي وسيلة من وسائل محق الشر وازهاق الباطل وتثبيت الخير واحقاق الحق.

ثانياً: ان التعامل الاخلاقي لعلي (ع) في الحروب التي خاضها في حياته مثل: عدم الكرّ عندما يفرّ العدو، والصفح عن المسيء عندما يتمكن منه، والقتل خالصاً لوجه الله، كلّها تدلّ على ان بطولته (ع) كانت عملية أخلاقية صاغها السلوك العقلي الديني.

ثالثاً: لا يمكن الاخذ بصفة الشجاعة عند الامام (ع) بصورة منفصلة عن الصفات الشخصية الاخرى كالزهد والتقوى والتعفف عن ملاذ الدنيا الفانية. فاذا أضفنا تلك الصفات في

القدرة على نبذ ملذات الدنيا -حلالها فضلاً عن حرامها- الى البطولة الخارقة، كان العامل الشخصي المحرك للحرب عند علي (ع) عاملاً اخلاقياً نظيفاً نابعاً من جوهر الدين في محاربة الشر والباطل بما فيه من ظلم وورذيلة وفساد.

رابعاً: ان بطولة علي (ع) في المعارك الطاحنة كانت عاملاً مهماً من عوامل الردع النفسي ضد العدو. وبذلك ساهمت تلك البطولة في الحفاظ على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم، لان الردع كان يقتضي استسلام الجيش المقابل دون قتال.

خامساً: ان بطولة داحي الباب (ع) لم تكن حباً في أذى الناس ولم تكن قضية غريزية من أجل القتل والتدمير. بل كانت تلك البطولة مصمّمة على اساس ان ينتشر الخير والعدل بين البشر. وكانت شجاعة الامام (ع) حالة عقلية ألبسها الدين ثوب الكمال.

٢٠ - يوم الغدير

وعلى ضوء كل ما عرضناه لحدّ الان عن حياة الامام (ع)، فان يوم الغدير كان منسجماً تماماً مع طبيعة مسار تلك الاحداث في المجتمع الاسلامي، ومتكاملاً مع تخطيط السماء.

ويوم الغدير هو يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة، وهو يوم نزول قوله تعالى: **(يا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...)**. حيث أمره تعالى ان يقيم علياً (ع) علماً للناس ويبلّغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على المسلمين.

وكان نص قوله (ص) عندما قفل راجعاً من حجة الوداع في غدير خم على اطراف صحراء الجزيرة العربية في جموع المسلمين هو: «ان الله مولاي، وانا مولى المؤمنين، وانا أولى بهم من أنفسهم. فمن كنتُ مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبّه، وابغض من ابغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، الا فليبلغ الشاهد الغائب».

ولم يتفرق الجمع العظيم حتى نزل الوحي بقوله: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً). فقال النبي (ص): «الله أكبر على اكمال الدين، واتمام النعمة، ورضى الرب برسالتي، والولاية لعلي من بعدي».

مؤهلات الامامة:

ولا شك ان تصريح رسول الله (ص) بتلك القوة، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، قائلاً: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» يعني انتقال جميع صلاحيات الولاية التي كان يتمتع بها النبي (ص) الى الامام (ع) عدا الوحي والنبوة. وهذا يعني استمرار المسيرة الاسلامية على نفس الخط المرسوم من قبل السماء، خصوصاً اذا تذكرنا تنبؤ النبي (ص) بقرب وفاته.

وانتقال جميع صلاحيات الولاية الشرعية في قوله (ص): «من كنت مولاه فعليّ مولاه» يعني ان علياً (ع) توفرت فيه جميع الشروط التي تجعله صالحاً للامامة، وهي:

أولاً: امتلاكه (ع) امكانية هائلة على تحمّل مسؤولية الولاية الشرعية وادارة المجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي (ص). فقد كان (ع) الأرض الخصبة التي بذر فيها المصطفى (ص) بذور الشجاعة والحلم والعلم والاخلاق والطهارة والعفة والزهد والتقوى والفصاحة. بحيث كان موقع علي (ع) من النبي (ص) موقع المرأة المتألّثة، والصوت القوي، والسيف المنافح عن الحق، والشخصية الاسلامية المثلى لامتدادات نبي الرحمة (ص). فكانت تلك الامكانية الهائلة موضع نظر المسلمين، والمشركين، والمنافقين على حد سواء. ولم يكن للآخرين مثل او شبيهه لتلك الامكانية.

ثانياً: كان نمو قوة علي (ع) الاجتماعية نمواً طبيعياً، خصوصاً: في المعارك الطاحنة التي خاضها ضد الشرك، وفي حفظه القرآن المجيد وادراك باطنه وظاهره، مجمله ومبينه، محكمه ومتشابهه، ناسخه ومنسوخه، وتعليمه المسلمين، وفي زواجه بسيدة نساء العالمين (ع)، وفي توليته على المدينة من قبل رسول الله (ص) في غزوة تبوك، ودعوته الناس للاسلام في اليمن، وتبليغه سورة براءة في حج السنة التاسعة، ثم اعلان الولاية الشرعية الآن في غدير خم. كل ذلك اعطى الامام (ع) قوة اجتماعية ودينية، تجعل انتقال الصلاحية الشرعية من النبوة الى الامامة

انتقالاً طبيعياً لا يزلزل تلك الامة التي لا تزال حديثة عهد بالدين وبأحكامه وبعدائه ونظامه الاخلاقية.

وانتقال بهذا الحجم، وهو حجم النبوة التي يوحى اليها والامامة المعصومة التي لا يوحى اليها، يحتاج الى أمرين مترابطين أشد الارتباط، وهما:

أ - امضاء ذلك الانتقال من قبل صاحب الرسالة، وهو النبي (ص)، واعلانه الى الجمهور العريض والامة الواسعة. وقد حصل ذلك يوم الغدير بالخصوص.

ب - ان يكون الاعلان عن انتقال الصلاحية الشرعية في حياة رسول الله (ص) وقبل وفاته وعلى لسانه الشريف حتى يطمئن الناس لصلاحية ذلك الانتقال. وقد حدث كل ذلك امام الملاء العام ايضاً.

ثالثاً: نضوج فكرة الامامة والولاية الشرعية في اذهان الناس، بحيث ان يوم الغدير - وهو يوم اكمال النعمة واتمام الدين - لم يحمل اعتراضاً وجيهاً حمله لنا التاريخ. بل كان زعماء قريش من أوائل من هنأ الامام (ع) بإمرة المؤمنين. خصوصاً وان رسول الله (ص) قد نعى نفسه بالقول: «انني اوشك ان أدعى فأجيب داعي الله». وفيه دلالة على ان انتقال الصلاحية الشرعية كان أمراً طبيعياً عند وفاة رسول الله (ص) وانتقاله الى عالم الخلود. ولكن نضوج فكرة الامامة في اذهان المسلمين لا يعني قبولها والتسليم بها دون معارضة وطموحات شخصية. وقد اشار تعالى: (وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...).

الصفوة الدينية:

وارتباط ولاية علي (ع) يوم الغدير بأهل البيت (ع) الذين وصفهم الامام (ع) نفسه بصفات مثل: «هم اساسُ الدين، وعمادُ اليقين...» يدعونا الى التوقف عند فكرة الصفوة الدينية.

وفكرة الصفوة تعكس ظاهرة اساسية في الحياة الاجتماعية للمجتمع المدني المتحضر. فالمجتمعات الانسانية - على اختلاف درجات تطورها - تحتاج الى مرجع تعتبره رمزاً للحياة الشرعية العامة وتجسيدا للقيم الاخلاقية والدينية. ولا شك ان الاختلاف في القابليات الذهنية والروحية للناس، والتباين في الاداء بين البشر يساعد على الركون الى نظرية الصفوة. ذلك لان

الاختلاف الشاسع في درجات الازعان أو التسليم تؤدي الى فوارق في النفوذ، والقيادة، والسلطة. فالانسان الذي ندعن له ونسلم بسلطته لخصيصة معينة لا نملكها، نعطي الحق في الحكم والادارة الاجتماعية والدينية.

ومن هنا كانت الصفوة الدينية قلة منتخبة انتخاباً سماوياً، ومتميزة عن بقية افراد المجتمع بسبب لياقة خاصة ورفعة مقام وسمو لا يصل اليها احد؛ فيها «يُستعطي الهدى ويُستجلى العمى». وكان علي (ع) وفاطمة (ع) وذريتهما هي تلك الصفوة التي كانت تشتمل على جميع الفضائل والخصال الجليلة.

وعند التأمل في تلك الفضائل والخصال ندرك ان لتلك الصفوة السماوية سلطة اخلاقية وشرعية، وقابلية فريدة على ادارة الازمات الاجتماعية الكبرى. وكانت سلطتهم الاخلاقية غير محدودة بجيل مشخّص أو زمن معين، بل كانوا مشاعل هداية لكل جيل. ولكنهم واجهوا ازمات اجتماعية خطيرة. فكان من الازمات التي واجهها الامام (ع): اجتماع السقيفة بعد وفاة رسول الله (ص) وتقرير الأمر لغير أهله، وخروج أم المؤمنين عليه في حرب الجمل، وعصيان والي الشام المخلوع معاوية بن أبي سفيان لاوامره (ع) ومقاتلته جيش الامام في صفين، وانشقاق مجموعة من جيشه (ع) عليه ومقاتلتها له في معركة النهروان. وتلك أزمات خطيرة للغاية عولجت بطريقة شرعية فائقة في الدقة والالتزام.

ولو ابدلنا الصفوة الدينية بنخبة اجتماعية دنيوية انصح صورها خلفاء قريش وبنو أمية وبنو العباس وغيرهم لاختلت المعادلة الدينية، لان اولئك الخلفاء كانوا أناساً يرتكبون الاخطاء الاجتماعية والشرعية ولا يدركون مقاصد الشريعة. فهم قاصرون في الادراك والاداء عن الصفوة الدينية التي مُنحت اعظم نعم السماء وهي نعمة العصمة في ادراك الدين واداء تكاليفه الشرعية وارشاد الامة الى تكاليفها وواجباتها ومحرماتها.

ولاية بحجم الدين:

وولاية بهذا الحجم لا بد ان تديرها الصفوة الدينية. خصوصاً وان من وظائفها: تبليغ احكام الشريعة وتطبيقها وتفسيرها، واداء وظيفة القضاء بين الناس وانزال العقوبات بالمخالفين، وعدالة

توزيع الثروة الاجتماعية، والتنسيق بين العبادات والمعاملات، والدفاع عن الامة من اعتداءات العدو، ونشر الاخلاق والفضائل بين الجماعة، وتشجيع الناس على حرية التعبير عن آرائهم بما يخدم الاسلام والمجتمع الاسلامي.

وبكلمة، فقد أريد لولاية علي (ع) يوم الغدير ان توحد الامة حول رمز عظيم من رموز الاسلام، ومركز شرعي يركن الناس اليه، ومحور يدل على شخصية الدين كما عبّر هو (ع) عن نفسه بانه القرآن الناطق ويعسوب الدين. وكانت الولاية مكسباً خطيراً للجماعة في الوحدة والتعاون والاشترك جميعاً في محاربة الشرك والكفر، بلحاظ اختلاف المؤمنين في القابليات، والوظائف، والادراكات، والاداء، والاخلاقيات الاجتماعية والتعبدية. ولكن ذلك المكسب سرعان ما تحطم على اعتاب اجتماع السقيفة بعد وفاة النبي (ص) مباشرة.

فقد كانت مشكلة الخلافة بعد وفاة النبي (ص) من أهم عوامل الانقلاب التي عبّر عنها الذكر الحكيم: (... انقلبتم على أعقابكم...). فقيادة المجتمع تُعدّ مشكلة خطيرة تحتاج الى تخطيط مسبق وعملية رسم خريطة عمل للمستقبل، ذلك لان اكتمال مباني الدين باكتمال نزول القرآن المجيد كان يفتح الباب للتأويل والتفسير والاجتهاد المبني على البناء الثقافي الجاهلي. وكان المجتمع الاسلامي الجديد بحاجة ماسة الى معرفة تفصيلية لمصاديق نظام الدولة في الحقوق والواجبات، والمسؤوليات الاخلاقية والشرعية، والعدالة الاجتماعية، وادامة الدفاع الابتدائي والحرب الهجومية من أجل نشر الاسلام في العالم.

لقد كانت الامة بحاجة الى وقت، في مرحلة ما بعد النبوة، لاستيعاب معاني القرآن الكريم وادارك السيرة النبوية الشريفة. وكان ذلك يتطلب فهماً لموقع الامة التاريخي من كل ذلك. فالدين انما جاء من أجل تقوية الضعيف، وتعليم الجاهل، وتمكين الايمان من احتلال موقعه الطبيعي في النفس الانسانية. فالاسلام لا يكتفي بمجرد انشاء كيان اجتماعي للمسلمين، بل يريد لذلك الكيان ان يستمر مع استمرار الحياة على الارض. وتلك مهمة صعبة لاشك، ولكن مهمة تملك كل مقومات النجاح والتسديد. ولذلك كان قرار يوم الغدير بتولية علي (ع) قراراً دينياً بالدرجة الاولى يتعلق بالتخطيط الاجتماعي لمرحلة ما بعد النبوة.

الجسر الدائم بين النبوة والامامة:

والاقرار بالولاية لبطل المعني شاب مثل علي بن ابي طالب (ع) وهو في سن ينوف قليلاً على الثلاثين، له دلالات ينبغي ان تؤخذ في التخطيط الاجتماعي. وهو ان المخطط له، وهو المجتمع الاسلامي، كان يُراد له ان يعيش الحكم الشرعي ويتفاعل معه لعقود مديدة قادمة. وهي فترة تربية عظيمة لو قُدِّر لها ان تتم.

وإذا تصورنا ان هناك جسراً بين النبوة والامامة اعلنه رسول الله (ص) في ذلك اليوم القاظ تحت حر الهجير في مفترق طرق الصحراء على جمع عظيم من المسلمين وهو يوم الغدير، فان ذلك الجسر يعبر عن حالة من حالات الاندماج بين طرفين لا يمكن ان يكون أحدهما ضد الآخر. بمعنى ان الاندماج لا يتم بين المتناقضين ولا بين المتضادين، بل يتم بين المنسجمين اللذين يكمل أحدهما الآخر. وأحسن تعبير عن الحالة الاندماجية هو المقولة النبوية: «من كنت مولاه فعليّ مولاه». فالمولوية هنا عملية استمرار لتطبيق الحكم الشرعي من المنبع السماوي «القرآن والسنة». وتلك المولوية المتصلة بعضها ببعض تعني قرارات شرعية متشابهة تحكم القانون الاجتماعي والاعراف والارتكازات العقلانية. واعلان الولاية يوم الغدير يعني ان هناك تناسقاً فكرياً بين النبوة والامامة. بمعنى ان النبي (ص) والامام (ع) كانا ينظران الى نفس الملاك والمصلحة، وكانا ينسقان لنفس التخطيط بعيد المدى للدين. ولذلك كان النبي (ص) على اطمئنان تام بصحة نقل المولوية منه (ص) بعد وفاته الى من هو أهل لتلك المسؤولية وهو علي بن ابي طالب (ع). وكان ذلك أمر الله سبحانه وتعالى.

والاندماج بين النبوة والامامة يوم الغدير كان خاضعاً لثلاثة عوامل:

الاول: ان درجة الائتلاف - على سبيل المجاز - أو الاندماج كانت ضخمة جداً بحيث ان صلاحيات المولوية انتقلت بكاملها من النبي (ص) الى الامام (ع) عبر قوله (ص): «من كنت مولاه فعليّ مولاه». أي إذا كنتُ انا قائداً لزيد، فإنّ علياً (ع) هو أيضاً قائداً بنفس الدرجة.

الثاني: ادامة ولاية العترة الطاهرة (ع) الى يوم القيامة. فالولاية الشرعية على المجتمع الاسلامي لم ولن تتوقف عند حد زمني معين، لأنّ أهدافها الدينية في تكامل الجماعة المؤمنة تبقى متجددة مع كل جيل من الأجيال الانسانية.

الثالث: ان فحوى القرار الذي يمكن ان يتخذه الامام (ع) لا يحيد عن فحوى القرار الديني السماوي. ف شخصية علي (ع) تعلّمت من رسول الله (ص) جميع الكليات الدينية، ولا ريب في ذلك فهي شخصية غير منفصلة عن الصفوة الالهية التي اصطفها الله سبحانه لعباده.

٢١- وفاة رسول الله (ص)

لم تكن وفاة رسول الله (ص) لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة حدثاً مفاجئاً، وانما استمر المرض الذي اشتكى منه (ص) شكواه الذي توفي فيه اياماً عديدةً. وكانت تلك الايام الاخيرة المتصلة بالوفاة باعثاً على تهيئة الرأي العام بقرب وقوع الحزن الاكبر برحيل نبي الرحمة (ص) الى عالم الغيب والملكوت. وكانت تصريحاته (ص) الخاصة بابعاد من كان يطمح بالخلافة الى جيش أسامة، والاعلان لمن كانت له وصية أو عهد أو ذين عنده (ص) واخباره به ليوقيه اياه، وطلبه (ص) الدواة والكتف ليكتب لهم كتاباً لن يصلوا بعده ابداً، والطلب من علي (ع) بمواراته في رمسه عند موته (ص)، كلها تدلُّ على ان رسول الله (ص) كان قد تنبأ بوفاته تنبؤاً صادقاً. وهذا يعني ان الرأي العام كان يحس - مصداقاً ووجداناً - وجود خليفة كفوء يخلف النبي (ص) خلافة طبيعية بعد وفاته (ص).

وينقل لنا التاريخ المنصف دور علي (ع) خلال الايام الاخيرة من حياة رسول الله (ص) بأنه كان متميزاً وأخلاقياً. فقد قبل علي (ع) وصية النبي (ص)، والتزم أسراره، وقرر انجاز عدته وقضاء دينه. وفاضت روح البشير (ص) وهو في حجر علي (ع). فهو (ع) آخر من رآه وآخر من سمع وصاياه وتعليماته السماوية. كما كان رسول الله (ص) أول من رأى علياً (ع) بعد أبويه (رض) أم طالب وأبي طالب يوم ولد في الكعبة. وهكذا استمرت العلاقة التاريخية بينهما مدّة ثلاثة وثلاثين عاماً.

مقتضيات الوفاة:

والموت قضية تكوينية تشمل جميع المخلوقات دون استثناء كما قال تعالى: (كلُّ نفسٍ ذائقة الموت...). ولكن موت حامل الرسالة السماوية ومبلّغها الصادق الامين (ص) يعدُّ حدثاً

عظيماً هائلاً، لانه قد يولد شكوكاً حول الرسالة عند غياب قائدها. وقد تنبأ الذكر الحكيم بضخامة الحدث قبل وقوعه بسنوات، فقال: (وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...).

وادراكاً لآثار الوفاة، ينبغي التأمل في الأمر على أصعدة ثلاثة:

الاول: الصعيد الغيبي: وهو يعني توقّف الوحي توقفاً تاماً عن الاتصال بالارض، واكتمال مقاصد القرآن الكريم في هداية الانسانية المعذبة في ذلك الزمان بل وفي كل زمان حتى يحين يوم القيامة. وكان يعني توقف عصر النبوة، فقد كان محمد بن عبد الله (ص) خاتم انبياء السماء.

الثاني: الصعيد الاجتماعي: ويعكس انقطاع دور النبوة التي يوحى إليها، وبداية دور الامامة الموصى بها من قبل رسول الله (ص). فكان المفترض أن يختبر المجتمع عصراً جديداً في الادارة الدينية رائده علي بن أبي طالب (ع). وكان أول اختبار لعلي (ع) في ذلك هو كيفية الصلاة على الجسد الطاهر (ص)، فأشار (ع) عليهم بان رسول الله (ص) إمامنا حياً وميتاً، فاستجابوا له وصلّى الناس صلاة الميت عشرة عشرة. وكان الاختبار الثاني هو عندما خاض المسلمون في موضع دفنه، فقال (ع): «ان الله سبحانه لم يقبض نبياً في مكان الا وارتضاه لرمسه فيه، واني دافنه في حجرته التي قبض فيها». واستجاب له المسلمون في ذلك ايضاً. ولاشك ان هذين الاختبارين من الاختبارات الفقهية الشرعية التي لا ينهض باعبائها الا من كان كفوءاً لها.

الثالث: الصعيد الشخصي: وهو اختيار رسول الله (ص) الرفيق الاعلى على الرجوع الى الدنيا. وهو اختيار يثبت نبوة المصطفى (ص) وحبّه للقاء الله عزّ وجلّ.

وبطبيعة الحال، فإن رحيل النبي (ص) عن عالمنا الدنيوي هزّ التركيبة الاجتماعية للمجتمع الاسلامي في ذلك الزمان. فقد كان الناس حديثي عهد بالاسلام، ولم يفهموا معاني الموت وعلاقتها بالدين بعد. بل كانت الجذور القبلية قبل الاسلام لا تزال سارية في نفوس بعض القوم ممن دخلوا الاسلام ظاهراً، وقلوبهم غير مهيةة للدين.

والأمر الأهمّ في حادثة الوفاة هو ان غياب شخصية بهذا الوزن وبتلك الاهمية الدينية كشخصية خاتم الانبياء (ص)، كان يهدد النظام الديني في المجتمع. ذلك ان دور النبوة الاجتماعي والديني لا يمكن تعويضه الا بدور مقارب من النبوة، حتى يستقر الدين في النفوس والقلوب استقراراً راسخاً الى اجل معلوم. فكانت الامامة الشرعية لعلي بن ابي طالب (ع) هي أقرب الادوار وأنسبها لسدّ الفراغ الذي تركه موت رسول الله (ص).

الواجب الشرعي والواجب الاخلاقي:

قام بنو هاشم بتجهيز النبي (ص) ودفنه، بينما انشغل المسلمون في نفس الوقت بقضية الخلافة في سقيفة بني ساعدة. وقد كان من وظيفة الجماعة الاهتمام بجسد النبي (ص)، الا ان علياً (ع) مثل دور الامة في هذا الواجب الكفائي، وأماط عنها العذاب الالهي. وهنا لابد من التفكير بالواجب الشرعي والواجب الاخلاقي. فالواجب الاخلاقي أضيق دائرة من الواجب الشرعي. بمعنى ان الذي يعبد الله، لانه يؤمن بأنه أهلٌ للعبادة، فانما يمثل الواجب الاخلاقي فضلاً عن الشرعي. بينما الذي يعبدُ الله امتثالاً للأمر - لمجرد الامتثال - فانما يمثل للواجب الشرعي فقط. والواجب الشرعي يدعو الانسان الى اعطاء الفقير بعضاً مما يملكه المُعطي لا كل ما يملكه. ولكن الواجب الاخلاقي يدعو الانسان الى اعطاء كل ما يملكه للفقير. هنا انحصر الواجب الاخلاقي بالصفوة من الناس، بينما عمّ الواجب الشرعي كل مكلف.

ولو نظرنا الى سلوك القوم بعد وفاة النبي (ص) لرأينا أنه افرز ثلاث حقائق:

الاولى: لم يلتزم القوم بالواجب الاخلاقي في تجهيز النبي (ص) ودفنه، مع ان ذلك الواجب كان واجباً شرعياً كفايماً قام به بنو هاشم. الا ان الالتزام الاخلاقي يدعو المؤمن الى التريث حتى يتم دفن الرسول (ص)، قبل التداول في أمر الخلافة.

الثانية: ان الواجب الاخلاقي، فضلاً عن الواجب الشرعي، كان يقتضي تنفيذ وصية رسول الله (ص) بحذافيرها دون ابطاء أو تأخير. ولكننا لم نرَ أثراً لذلك الواجب الاخلاقي عندهم.

الثالثة: ان الواجب الاخلاقي أعلى درجة من الواجب التكليفي، كما ذكرنا آنفاً. بمعنى ان الاول يؤدي خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى من دون تكليف، بينما يؤدي الثاني بدافع التكليف

والأمر المولوي. ولو افترضنا - نظرياً - ان عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين دفعتهم الى نسيان الوصية، لكان الأجدر بهم ان يقدموا علياً (ع) للخلافة على سبيل أداء الواجب الاخلاقي. وهو الذي شهد له التاريخ القتالي والعلمي بحسن الادارة والقتال والتفاني في سبيل الدين.

وعلى أي تقدير، فقد انكسر الواجب الاخلاقي والشرعي اللذان كانا يدعوانهم الى رعاية حرمة رسول الله (ص) خلال احتضاره وبعد وفاته (ص). وهنا كان الحزن الاعظم حزناً مضاعفاً يصعب على الانسان احتماله.

دور علي (ع) في اللحظات الصعبة:

الا ان الدور الذي أنيط بعلي (ع) كان متميزاً في النوعية والفعالية. فعلى مستوى النوعية، قَبَل علي (ع) وصيته (ص)، ووعد بانجاز عدته وقضاء دينه (ص). ولا يقوم بذلك العمل النوعي الا من كان مؤهلاً وصادقاً فيما يقول ويُوعِد. وعلى مستوى الفعالية، قام علي (ع) بكل ما يمكن أن يقوم به من الالتصاق بالنبي (ص) في الساعات الأخيرة وتغسيله والصلاة عليه ودفنه (ص). وكان جلوسه (ع) للمصيبة عملاً اخلاقياً ودليلاً على انه كان ترابياً مندكاً في الله سبحانه وتعالى. هذا في الوقت الذي كانت فيه مؤشرات تدلّ على ان القوم سوف يسارعون الى تقرير ولاية الأمر قبل ان يفرغ بنو هاشم من مصاب رسول الله (ص).

ولذلك احدثت وفاة رسول الله (ص) أزمة اجتماعية لان المتغيرات التي أريد لها ان تحتلّ مواقعها قد أبدلت. فقد أريد للامامة الشرعية أن تكون خليفةً للنبوة، وهو ما أوصى به رسول الله (ص) لعلي (ع). ولكن الامامة أقصيت وجاءت محلها الخلافة الدنيوية التي لم تستند على وصية شرعية أو تبليغ سماوي ولم تكن تملك التحويل الشرعي لاصدار الاحكام والاوامر والنواهي الشرعية.

وما ان اغمض رسول الله (ص) عينيه وهو في حجر علي (ع) تاركاً هذا العالم الفاني حتى اجتمع الانصار والمهاجرون في سقيفة بني ساعدة للتداول في أمر الخلافة. وكان القوم نسوا تماماً وصية النبي (ص) لعلي بن أبي طالب (ع) خلال غزوة تبوك: (اخلفني في أهلي)، «اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي»، ويوم الغدير: «من كنت مولاه فعليّ مولاه». ولم يكن بين وصية رسول الله (ص) لعلي (ع) يوم الغدير بالولاية وبين وفاته (ص) الا سبعون يوماً. وتلك مدة زمنية قصيرة لا يمكن الادعاء فيها بنسيان خطبته (ص) في حجة الوداع ووصاياه فيما يتعلق بالولاية.

خصائص اجتماع السقيفة:

وعلى اية حال، فان اجتماع السقيفة كان مؤتمرا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. فقد كان اجتماعاً لافراد جاءوا بدعوة - على الاغلب تأريخيا - من أجل مناقشة هدف محدد في فترة زمنية قصيرة جداً. وكانت آلية ذلك الاجتماع اعطاء صلاحية شرعية للبرنامج السياسي المطروح وهو خلافة رسول الله (ص)، وتناسي المرشح الاول في ذلك وهو علي بن ابي طالب (ع).

وكان ذلك الاجتماع يحمل خصائص خطيرة نعرضها فيما يلي:

أولاً: جمع اجتماع السقيفة كل الافراد الذين كانوا يطمحون سياسياً للامارة. والذي كان يوحدهم في الاجتماع ويجمع شملهم هو الأمل بالفوز بذلك المقعد الحساس، وهو مقعد الخلافة والامارة. ولذلك تكررت الفاظ تدل على ذلك الأمر، منها: «منا أمير ومنكم أمير»، و«نحن الامراء وانتم الوزراء»، و«هيئات لا يجتمع سيفان في غمدٍ واحدٍ» وغيرها من الالفاظ المشابهة. ولذلك فانهم تناسوا خطبة رسول الله (ص) يوم الغدير القائلة بخلافة علي (ع). ولم يبرز في ذلك الاجتماع الصاحب ولا صوت واحد يذكّرهم بما قاله رسول الله (ص) في غدير خم قبل شهرين وعشرة أيام فقط. وهذا يعني بالنتيجة ان اجتماع السقيفة كان يحمل رباطاً يربطهم جميعاً وهو رباط الطموح الشخصي للخلافة.

ثانياً: لم يكن اجتماع السقيفة اجتماعاً تشاورياً بين الخبراء يؤدي الى الخروج بمبنى عقلائي. ولو كان كذلك لاسترجعوا في اذهانهم وصايا رسول الله (ص)، واقروا ولاية علي بن ابي

طالب (ع). ولكنه كان اجتماعاً من أجل السيطرة والتحكم بالمقدرات، ولذلك رُفِعَ السيف أكثر من مرة، وأُسكت أكثر من فرد، وتهاوت الافكار من اقصى الطموح بالخلافة للانصار الى مستوى: منا أمير ومنكم أمير، الى القبول بخلافة المهاجرين. وكان اجتماعاً يتناغم فيه زعماء قريش بعضهم لصالح بعض. وكان الحباب بن المنذر أشدهم في المعارضة السلّحة وكذلك سعد بن عبادة. بينما أخذ الحسد بشير بن سعد مأخذه منه.

ثالثاً: لم يكن جدول اعمال السقيفة تبادل الآراء بهدوء من أجل الوصول الى حل لمشكلة غياب النبي (ص)، على افتراض انها مشكلة، بل ان الجو النفسي كان جو ارهاب وتحدي وعنف لفظي مثلته مخاوف الانصار من المصير القاتم على أحفادهم من خلافة قريش، وقول عمر لسعد بن عبادة: اقتلوه قتله الله، ونحوها. ولو كان اجتماعهم اجتماع دين وتقوى في الصورة والمحتوى، لتوصل الى اتفاق مبدئي في الالتزام بوصايا رسول الله (ص).

ولذلك كان أهم آليات التعامل خلال اجتماع السقيفة هو استخدام القوة والتهديد حتى يرضخ الطرف الآخر صاغراً لارادة الطرف الاقوى. وهنا كان الاتفاق نابعاً عن الاكراه والعنف، لا عن الاقناع والرضا. وقد انتصرت قريش وارغمت الانصار وغيرهم على قبول الواقع الجديد.

ثم استخدمت قريش شتى أساليب الضغط والاكراه ضد علي (ع) وبني هاشم من أجل حملهم على الرضوخ لمطالب الوضع الجديد. ولم يكن أمام الامام (ع) الا المقاومة السلمية ضدهم وهو القائل (ع): «اما والله لقد تقمصها فلان، وانه ليعلم أن محليّ منها محلُّ القُطبِ من الرحا...». ذلك انه (ع) لو استخدم اسلوب المقاومة المسلحة - وهو بطل الابطال - لدخل في حرب لا تحمل شروطاً موضوعية، وغير قابلة للتجانس مع مجتمع حديث عهد بالدين.

رابعاً: كان اجتماع السقيفة مؤتمراً جمع اغلب اطراف الصراع الاجتماعي في عصر الاسلام عدا بني هاشم، فقد عزلوا تماماً من مجرى الاحداث. فقد حضر الاجتماع في سقيفة بني ساعدة: سعد بن عبادة شيخ الانصار، وبشير بن سعد من سادات الخزرج، وبعض رؤوساء الاوس كأسيدي بن حضير، وغير الاوس كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة من قريش. ثم اجتمعت بنو أمية الى عثمان، واجتمعت بنو زهرة الى سعد وعبد الرحمن بن عوف. وكان بنو أمية وبنو زهرة على وفاق

مع ما حصل في السقيفة. وكان هؤلاء جميعاً يمثلون التيارات المختلفة في المدينة، وهي: تيار الانصار «الايوس والخزرج»، وتيار المهاجرين «قريش وبنو أمية».

خامساً: التأم جمع السقيفة في يوم وفاة رسول الله (ص) وهو لا يزال مسجى لم يُوارَ الثرى بعد. وكان رسول الله (ص) قد هياً لأسامة جيشاً كبيراً قبل أيام من وفاته (ص). وكان في الجيش وجوه الانصار والمهاجرين. وتذكر كتب التاريخ ان النبي (ص) كان كثيراً ما يردد: «انفذوا جيش أسامة» ويدعو الانصار والمهاجرين الى الالتحاق بالجيش، حتى يستوسق أمر الخلافة لأهله. والسؤال الذي يطرح هو: كيف التأم جمع السقيفة من الانصار والمهاجرين، في الوقت الذي كان يُفترض فيه أن يكونوا خارج المدينة مع جيش أسامة؟ وهذا يجعل المرء يشكك في مصداقية اولئك النفر الذين يأمرهم النبي (ص) بالذهاب الى الجيش، فيتعللون بمختلف العلل للبقاء في المدينة بانتظار موت النبي (ص). فأين شرعية اجتماع السقيفة من كل ذلك؟

سادساً: أريد لاجتماع السقيفة أن يُؤسس لاجواء ذهنية اجتماعية لتقبل إبعاد الامام (ع) عن الخلافة والقبول بخلافة الخليفة الجديد. واجتماع من ذاك القبيل جمع تيارات سياسية واجتماعية تناست كُلهَا وصية النبي (ص) في غدِير خم.

سابعاً: لم تكن العلاقة المبدئية بين القوى الفاعلة في السقيفة علاقة انسجام وقرار بمبدأ واحد، فيما يخص الولاية على أقل التقادير. بل كان الفهم السائد في اجواء السقيفة يقتضي الصراع ثم كبح جماح الطرف الاضعف. ولم يكن يقتضي التفاهم على وصية رسول الله (ص) مثلاً، التي كانت أصل الانسجام الاجتماعي المفترض في المجتمع المتدين.

ومن الطبيعي، فان تجمع ذلك العدد من الطامحين للمقاعد السياسية في تلك البقعة الصغيرة وفي ذلك الزمن القصير الحساس، كان مدعاةً لصراع اجتماعي وعدم انسجام مبدئي حول من يخلف رسول الله (ص). فقد كان لكل طرف من تلك الاطراف اهداف ووظائف غير قابلة للاندماج مع وظائف الآخرين، في خليط سياسي مضطرب وغير متجانس. فبينما كان الامام (ع) يسعى من أجل ديمومة الشريعة وتطبيق احكام السماء في المجتمع الديني، كانت الاطراف الاخرى تحاول الفوز بالسلطة على حساب طموحات الدين.

وذلك التنافس المحموم حول السلطة كان يعبر عن حربٍ بين الضمائر أيضاً. ذلك ان الاهداف المتعاكسة تتصادم، ويحاول كل طرف انهاء طموحات الطرف الآخر في السلطة والرياسة. خصوصاً اذا كانت تلك المبادئ التي تؤمن بها تلك الاطراف متناقضة تماماً وغير قابلة للتعايش. ومن هنا نفهم ان الاحداث التي اعقبت وفاة رسول الله (ص) تشير الى أن الامور كانت تسير بهذا الاتجاه، فلم تكن هناك أهداف مشتركة تعمل على تحقيقها الاطراف المختلفة. فلم تكن - في الصورة الكلية - مساحة للتفاهم والمشاركة.

ثامناً: كان من اهداف المنافسة السياسية والصراع الاجتماعي محاولة الطرف القوي - في الدهاء - حذف الطرف الآخر من المعادلة الاجتماعية. ولذلك حاولت قريش حذف علي (ع) بكل ما يمثله من قيم ومبادئ وبطولة واخلاق وفهم للشريعة. لان متطلبات بقائها في السلطة كان يقتضي ذلك. والى ذلك أشار (ع) في احدي خطبه: «اللهم اني استعديك على قريش ومن أعانهم! فإنهم قطعوا رحمي وصغروا عظيم منزلي، واجمعوا على منازعتي أمراً هو لي. ثم قالوا: ألا إن في الحق ان تأخذهُ، وفي الحق ان تتركهُ».

ولولا طموحات القوم السياسية لما اصبح الصراع ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية عند المسلمين. بل إنهم بفضل اجتماعهم في السقيفة وتغييبهم للقانون والشريعة، قد اوجدوا للصراع الاجتماعي بين الحق والباطل شروطاً موضوعية من أجل ان يستمر الى يوم القيامة.

واصبحت التركيبة الاجتماعية للمسلمين منذ واقعة السقيفة ولحد اليوم تركيبة مبنية على اساس صراع الضمائر بين الحق والباطل. فالضمير الشيعي الامامي اصبح مرهفاً يبكي مظلومية علي (ع)، ومظلومية الزهراء (ع) ومظلومية بقية الاوصياء (ع)، بينما بقى ضمير الاغلبية الصامتة جاهلاً شروط الصراع وظروفه التاريخية.

ومن الطبيعي فان عملية الانتقال لا تكون شرعية الا ان يوصي الحاكم الاول وهو رسول الله (ص) الى الحاكم الثاني، أو على الاقل يُمضي انتقال السلطة الشرعية من يده الشريفة (ص) الى اليد الثانية. اما ان يجتمع القوم ويقررون، دون رضا رسول الله (ص)، فهنا يصبح الانتقال غير شرعي ولا ملزم. ولذلك فان الامام (ع) لم يبايع الخليفة الاول.

وانتقال السلطة الدينية التي خطط لها رسول الله (ص) لا يعني انتقال السلطة التنفيذية فقط، بل كان يعني انتقال السلطة التشريعية والقضائية أيضاً. وكل تلك السلطات مبنية على اساس القرآن والسنة الشريفة. ذلك ان العصمة في الدين تعكس القدرة الاستثنائية على ادراك ملاكات الاحكام، والمصالح والمفاسد، ادراكاً واقعياً حقيقياً. وهنا يكون الولي الذي اوصي له بالقول: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» قائداً حقيقياً في التنفيذ والتشريع والقضاء. خصوصاً وان الوضع الاستثنائي الذي كان يعيشه الاسلام من حيث وجود المنافقين، والذين دخلوا الاسلام حديثاً، والذين آمنوا ظاهراً ولم يؤمنوا باطناً، يتطلب تكثيف الإرادة الشرعية فيما يتعلق بالادارة الاجتماعية والسلطة الشرعية في يد وحدة قادرة على اداء تلك الوظائف مجتمعة. ولذلك خاطبهم الامام (ع) بعد انتهاء السقيفة: «...لنحنا أحقّ الناس به، لأننا أهل البيت، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم. ما كان فينا الا القارىء لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله (ص)، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الامور السيئة، القاسم بينهم بالسوية».

عاشراً: انتهى اجتماع السقيفة بانتصار قريش على الانصار، لوجهين:

أ _ ارتكب الانصار أعظم الاخطاء السياسية عندما طرحوا آراءهم واهدافهم من البداية على طرف محنك سياسياً. ولم يتأنوا قليلاً وينتظروا ما سيقول خصمهم.

ب _ لم يكن اندفاع الانصار نحو الخلافة كاندفاع قريش القوي الشرس، وكان قول الانصار: منا أمير ومنكم أمير، أول الوهن وأول التنازل أمام خصم قوي. فاستغلت قريش ذلك وطالبتهم بأن يكونوا وزراء لقريش، وهي التفاتة سياسية وتوهين لم يحسب لهما الانصار حساباً. وهنا استخدمت قريش استراتيجية محكمة في التعامل مع الانصار، بينما اعتمد الانصار على مجرد الالفاظ والعبارات من اجل قطف ثمار الخلافة.

وعندما رأى (ع) ما حصل في السقيفة من انتخاب القوم لرجلٍ من قريش، وابعاده (ع) عن حقه في الولاية، قرر ان يلتزم الصمت والصبر بعد ان بحّ صوته في نقاشهم ومحاجتهم، فكان (ع) يقول: «...فرايت ان الصبر على هاتا احجى (ألزم). فصبرتُ وفي العينِ قذى، وفي الحلقِ شجاً، أرى تراثي نهياً...».

صيانة القرآن:

وكان عليه الآن ان يتجه فوراً لحفظ القرآن وصيانتته من يد التحريف. فقد رأى من الناس ما رأى عند وفاة النبي (ص). فأقسم (ع) ان لا يضع رداءه على ظهره حتى يصون القرآن. فلزم بيته حتى تأكد من جمعه واطمئنت نفسه الى ذلك.

وقد ورد في بعض المصادر ان علياً (ع) لزم بيته بعد وفاة النبي (ص) مدة ثلاثة أيام وأقبل على القرآن يجمعه ويؤلفه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه كله. وكتب على تنزيله النسخ والمنسوخ منه، والمحكم والمتشابه.

والمستفاد من ذلك ان مكوث علي (ع) في بيته ثلاثة أيام كان من أجل التأكد من وجود القرآن مكتوباً بكامله. فيكون الأمر من قبيل مراجعة نصوص القرآن المجيد، والاشارة الى النسخ والمنسخ، والمحكم والمتشابه. والا، فانه لو لم يكن مكتوباً لتعدرت كتابته في تلك الفترة القصيرة المضطربة. ويؤيده ان الصحابة كانوا متفقين على ان علم القرآن مخصوص لاهل البيت (ع)، كما نقل الشهرستاني في مقدمة تفسيره «مفاتيح الاسرار ومصايح الابرار» بحيث انهم كانوا يسألون علياً (ع): هل خُصصتم أهل البيت دوننا بشيء سوى القرآن؟

ومع ذلك فقد حُذف اسم علي (ع) من باب جمع القرآن من مصادر مدرسة الصحابة عدا ما شذَّ كابن النديم في «الفهرست» والخوارزمي في «مناقبه».

وعلى أي تقدير، فقد بقي القرآن الذي كتبه أمير المؤمنين (ع) باملاء رسول الله (ص) هو المصحف الحق الذي حفظ ما بين الدفتين، وكان مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**. وهناك دليلان على ذلك:

الاول: ما رواه ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) في كتابه «سعد السعود» نقلاً عن كتاب ابي جعفر محمد بن منصور، ورواية محمد بن زيد بن مروان في اختلاف المصاحف: «ان القرآن جمعه على عهد ابي بكر (زيد بن ثابت) وخالفه في ذلك (أبي) و(عبد الله بن مسعود) و(سالم) مولى أبي حذيفة. ثم عاد عثمان فجمع المصحف برأي مولانا علي بن ابي طالب (عليه السلام). وأخذ عثمان مصاحف أبي، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى ابي حذيفة فغسلها (وفي بعض

النسخ: فاحرقها). وكتب عثمان مصحفاً لنفسه، ومصحفاً لاهل المدينة، ومصحفاً لاهل مكة، ومصحفاً لاهل الكوفة، ومصحفاً لاهل البصرة، ومصحفاً لاهل الشام».

الثاني: ما ذكره الشهرستاني في مقدمة تفسيره برواية سويد بن علقمة، قال: سمعتُ علي بن ابي طالب (ع) يقول: ايها الناس، الله الله اياكم والغلو في أمر عثمان، وقولكم حرق المصاحف. فوالله ما حرقها الا من ملاً من اصحاب رسول الله (ص). جمعنا وقال: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها: يلقي الرجلُ الرجلَ فيقول قراءتي خيرٌ من قراءتك، وهذا يجزّ الى الكفر. فقلنا بالرأي. قال: اريد ان أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشدّ اختلافاً. فقلنا: نعم ما رأيت. فأرسل الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، قال: يكتب احدكما ويُملي الآخر، فلم يختلفا في شيء الا في حرف واحد في سورة البقرة. فقال أحدهما: «التابوت» وقال الآخر: «التابوه» واختار قراءة زيد بن ثابت لانه كتب الوحي. وفيما ذكره الشهرستاني دلالات:

١ _ ان علياً (ع) كان شاهداً ومشرفاً على كتابة القرآن في عهد عثمان، ولذلك فقد فصل في طبيعة الكتابة والاملاء والاخذ بقراءة زيد بن ثابت.

٢ _ ان علياً (ع) أكد ان «زيد بن ثابت» كان كاتباً للوحي، كما كان أمير المؤمنين (ع) ذاته. ولعل في اختياره لكتابة الوحي مع علي بن ابي طالب (ع) مراداً، وهو ان لا تختلف الامة من بعد رسول الله (ص) في القرآن كما اختلفت في ولاية أهل البيت (ع). وقد أشرنا الى ذلك سابقاً.

وهكذا كان، فان علياً (ع) لم يألُ جهداً في حفظ القرآن وصيانته من يد التحريف. فكتب القرآن على عهد النبي (ص) وجمعه وتأكد من جمع السور والآيات بعد وفاته (ص)، ووضع قواعد النحو من أجل ان لا يختلط على الناس الملحون من الفصيح وكان تلميذه في ذلك أبا الاسود الدؤلي. وكان (ع) له فضل في وضع الإعراب والاعجام عن طريق تلامذة الدؤلي وهما: يحيى بن يعمر العدواني قاضي خراسان، ونصر بن عاصم الليثي. وعلم (ع) الناس تفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه. وكان من قبل قد قاتل المشركين ثم قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين من بعد، من أجل ان يبقى القرآن محفوظاً بين الدفتين الى يوم القيامة.

وإذا تصفحنا كتب الحديث في مدرسة الصحابة نجد ان هناك روايات متناقضة حول جمع القرآن. ولا نشك انها انما وضعت من أجل اعطاء فضل الجمع، لافراد كانت المصلحة السياسية تقتضي ان يفضلوا على غيرهم. وقد حاولت تلك المصادر الغاء دور علي (ع) في كتابة القرآن وجمعه وصيانته. وكان ذلك الامر من مقتضيات اجتماع السقيفة وما تمخص عنه من نتائج وآثار.

٢٣ - فاطمة الزهراء (ع)

لم يشك احد ممن صاحب النبي (ص) وعاصره فترة نزول الوحي في المدينة في عصمة فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص) وقرينة الامام أمير المؤمنين (ع). فقد لمس الناس دليلين من أقوى الادلة على ذلك، أحدهما من القرآن المجيد والآخر من السنة الشريفة.

ادلة العصمة:

١ _ فالدليل القرآني يقول: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). والارادة الالهية هنا تدلّ على وقوع الفعل للشيء المراد. والمراد بأهل البيت (ع): رسول الله (ص) وعلي وفاطمة وذريتهما (عليهم السلام جميعاً)، كما ورد في الروايات الصحيحة المسندة.

٢ _ الدليل الروائي، وهو قول رسول الله (ص): « فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجلّ». ولا يمكن ان يقول النبي (ص) ذلك، لو كانت ابنته تقترف الذنوب. فلا يمكن ان يكون موزيها مؤذياً لرسول الله (ص) ما لم تكن منزّهة عن ارتكاب المعاصي. وهذا يثبت انها كانت لا تقترب من الذنوب مطلقاً. واذا اضفنا أمراً آخر، وهو علمها المطلق بالشرعية السماوية، لتبين لنا انها كانت امرأة كاملة في الفهم والاداء. وهذا هو المراد بعصمتها.

وبكلمة، فإن فاطمة الزهراء (ع) - من حيث القضية الفسلجية التكوينية - لم تكن تختلف عن قريناتها من النساء، حيث كانت تمر بمراحل الحمل والولادة والرضاعة. باعتبار ان

تلك القضية قضية طبيعية تكوينية لا تتنافى مع الطهارة والكمال. ولكن ورد في الروايات ان مزاجها كان ثابتاً غير متغير كما هو المعهود في النساء، ولا يأتيها ما يأتي النساء عادة كل شهر، ولا تشارك نساء زمانها في مطلق الرغبات الدنيوية. وتلك مختصات في الطهارة والكمال اختصت بها (ع) دون غيرها من النساء.

الوجود الاجتماعي:

الا ان المهم في شخصية فاطمة الزهراء (ع) هو وجودها الاجتماعي، الذي تمثل في الموارد التالية:

١ - ان فاطمة (ع) لم تنشأ في الحلية، وهي الاجواء التي اعتادت عليها النساء من حيث زينة الذهب والفضة والجواهر والحريير. وتلك الاجواء تغمر المرأة بمظاهر التزين والترقق، وتسلب منها الاهتمام بالأمر الروحية والتعبدية. بل نشأت (عليها السلام) في اجواء الوحي والنبوة والعلم والجهاد والحرب والمشقة. وهذا ما كان يميزها عن بنات زمانها.

٢ - ان العصمة في الدين النابعة من قوله تعالى: **(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)**، يضعها - اجتماعياً - في موضع القدوة التي يقتدي بها الناس. فهو يبعتها ايضاً عن اهتمامات النساء الغالبة في زمانها. ويجعلها رمزاً للمرأة المتعبدة المتهجدة العارفة.

٣ - قوة موقعها الديني كان يقتضي من اعدائها محاربتها بنفس الشدة التي حورب بها زوجها علي (ع)، ومن قبله رسول الله (ص). ولكن ظرف المواجهة كان مختلفاً وشرطها كان متبايناً.

فدك: اغتصاب الحق من اهله

وانصبّ محور الصراع على قطعة خصبة من الارض بالحجاز وهبها لها رسول الله (ص) في حياته، اسمها فدك. وكان ذلك أمراً من الله بموجب رواية هذا نصها: «لما فرغ (ص) من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا الى رسول الله (ص) فصالحوه على النصف من فدك. فانزل الله تعالى على نبيه (ص): **(فَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ...)**. ثم أوصى اليه ان ادفع فدكاً الى فاطمة (ع)،

فدعاها رسول الله (ص) فقال لها: يا فاطمة، ان الله امرني ان ادفع اليك فداكاً. فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله (ص). فلما ولي أبو بكر اخرج عنها وكلاؤها...».

فرفعت فاطمة (ع) الأمر الى الخليفة الاول مطالبة بفدك، باعتبارها ارضاً قد وهبها لها النبي (ص) في حياته، أي انها نحلة. وجاءت بشاهدين هما: علي (ع) وأم أيمن. ولكن الخليفة الاول رفض ذلك، مع ان الاصل في القضاء انه يجوز ان يقضي بيمين وشاهد.

والبيّنة التي يطلبها القاضي - على الاغلب - انما يُراد منها التغليب في الظن على صدق المدعى. ولاشك ان العدالة معتبرة في الشهادات لانها تؤثر في غلبة الظن. ولذلك اجيز للحاكم ان يحكم بعلمه من غير شهادة، لان علمه أقوى من الشهادة. ومن المستبعد ان فداكاً كانت قد وهبت لفاطمة (ع) دون علم الناس. اذن، فالبيّنة كانت موجودة، ولكن الارادة السياسية في رد الحق كانت غائبة.

وكان رد شهادة فاطمة (ع) بنت رسول الله (ص) أحد أخطر الاعمال وأجرأها بعد السقيفة. فكيف يمكن رد دعوى تلك المرأة الطاهرة (ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله)؟

وعندما فشلت دعوى النحلة عند الخليفة الاول، قامت الزهراء (ع) بالمطالبة بميراث رسول الله (ص)، باعتبارها البنت الوحيدة للنبي (ص). والاصل في ذلك ان فداكاً لو لم تكن نحلة قد وهبها لها النبي (ص) في حياته، فلا بد ان تكون إرثاً لابنته الوحيدة (ع). خصوصاً وان فداكاً كانت لرسول الله (ص) خاصة، لانه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. ولكن الخليفة احتج بأن الانبياء لا يورثون، وهو مخالف لأصل القرآن الذي قال: **(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ...)**، وفي خبر يحيى بن زكريا قال: **(فَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ...)**، ونحوها.

وفشلت تلك الدعوى ايضاً في اقتناع الخليفة الاول بأحقية فاطمة (ع) يارث أبيها. فتقدّمت ثالثةً للمطالبة بسهم ذوي القربى مما بقي من خمس خيبر. ولكن الخليفة اسقط سهم النبي (ص) وسهم ذوي القربى، ومنع بني هاشم من الخمس وجعلهم كغيرهم. وهكذا حُرمت الزهراء (ع) من جميع حقوقها، ولم يُستَجَب حتى لطلبٍ من مطالبيها المدعومة بالحجج والادلة.

وعندها، أجهرت (ع) في معارضتها للنظام الجديد؛ وكانت خطبتها الشهيرة في مسجد رسول الله (ص) أقوى وثيقة تشهد بما جرى عليها وعلى زوجها (عليهما السلام). ثم قاطعت (ع) القوم حتى يوم استشهادها.

فدك: بين الامتياز والحق

وبقيت «فدك» قضية تدك مضاجع الجميع. فقد ارادت سيدة النساء (ع) من اثاره قضية فدك من اغتصب الحق، وصدّ أهله عنه، وخالف النبي (ص) بعد وفاته، ونكث عهده.

ولكن - في الجانب الاقتصادي - وإن كانت فدك ملكاً لفاطمة (ع)، الا ان خيراتها العظيمة كانت تصبُّ في صالح المسلمين خصوصاً الفقراء والمعوزين. بينما كانت مالكتها فاطمة (ع) لا تزيد في طعامها مع زوجها (ع) وذريتهما على خبز الشعير الخشن.

فهنا تخلّت فاطمة (ع) عن امتيازات تلك الملكية لصالح الفقراء. ومن هنا كانت ملكية البتول (ع) لفدك تختلف عن الفكرة العامة للملكية. ذلك ان تلك الملكية نقلت حالة التملك من حالة «الامتياز» الى حالة «الحق» فقط.

وبتعبير ثانٍ ان فاطمة (ع) لم تكن تفكر بامتيازات مادية تنهمر عليها من ذلك التملك، بل ان «حق الملكية» يعني ان لها ان تدير الثروة الناتجة من ذلك التملك بما يوحيه عليها ادراكها الشرعي للمصالح الاجتماعية للمسلمين. ولذلك نرى ان قبولها التملك من والدها (ص) كان في غاية الدقة.

فقد قال لها رسول الله (ص): (ان الله امرني ان ادفع اليك فدكاً). فكان جوابها: (قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك). فقد كان في تلك النحلة او الهبة ايجاب وقبول؛ ولم تزد حرفاً على ذلك. وهذا يعني انها كانت تعي المسؤوليات المترتبة على ذلك اللون من التملك.

وبتعبيرٍ ثالثٍ، اننا لو افترضنا ان فدكاً كان قد تملكها فرد من عامة الناس لاستفاد من امتيازاتها وثرواتها استفادة شخصية. ولكن تملك المعصوم (ع) لفدك يعني ان في نيّته توزيع الثروة الناتجة على فقراء المسلمين، بينما لا يفكر باقتناء شيء لنفسه. فهنا اصبح «الامتياز» من

تملك فذك عند فاطمة الزهراء (ع) عائداً للامة بينما كان حقها في تملك الارض أي «حق الملكية» هو حق كامل بمقتضى أحكام الشريعة.



(تليها ص ١٠٠ - ١٣٢)

- 1 «سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٥٤ - ٥٥.
- 2 سورة النصر: آية ١ - ٣.
- 3 «سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٤٩.
- 4 م. ن. - ج ٤ ص ٧٢.
- 5 م. ن. - ج ٤ ص ٧٢.
- 6 م. ن. - ج ٤ ص ٣٩.
- 7 «المستدرک علی الصحیحین» ج ٢ ص ٣٦٦.
- 8 سورة الاسراء: آية ٨١.
- 9 سورة البقرة: آية ٢٥٦.
- 10 سورة التوبة: آية ٢٥.
- 11 سورة التوبة: آية ٢٥.
- 12 سورة الجمعة: آية ٨.
- 13 سورة التوبة: آية ٢٥.
- 14 «نهج البلاغة» - الخطبة ١٢٢ ص ٢٢٠.
- 15 سورة الانفال: آية ١٥ - ١٦.

16 «الخصائص» ص ١٤ . رواها النسائي باسناده عن سعد بن ابي وقاص .

17 «الصحاح» ج ٣ ص ١٦٢٨ مادة «أهل» .

18 «سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ١٩٠ - ١٩١ .

19 سورة البقرة: آية ١٩٠ .

20 سورة البقرة: آية ١٩١ .

21 سورة المائدة: آية ٦٧ .

22 سورة المائدة: آية ٣ .

23 «أسد الغابة» ج ٣ ص ٣٠٧ ، ج ٥ ص ٢٠٥ .

24 سورة آل عمران: آية ١٤٤ .

25 «نهج البلاغة» خطبة ٢ ص ٣٥ .

26 «نهج البلاغة» خطبة ١٤٤ ص ٢٤٦ .

27 سورة آل عمران: آية ١٤٤ .

28 سورة آل عمران: آية ١٨٥ .

29 سورة آل عمران: آية ١٤٤ .

30 «نهج البلاغة» - خطبة ٣ ص ٣٥ .

31 «نهج البلاغة» - خطبة ١٧٢ ص ٣٠٣ .

32 «الامامة والسياسة» - ابن قتيبة ج ١ ص ٢١ - ٣٠ .

33 «نهج البلاغة» - خطبة ٣ ص ٣٦ .

34 «الفهرست» - ابن النديم. ص ٣٠. وايضاً: «الاتقان» - السيوطي عن ابن حجر. و«شرح الكافي» للمولى صالح المازندراني عن كتاب «سليم بن قيس».

35 سورة الحجر: آية ٩.

36 «سعد السعود» - ابن طاووس ص ٢٧٨.

37 «مفاتيح الاسرار ومصايح الابرار» - الشهرستاني. المقدمة.

38 الاعراب هو وصل الخط مضبوطاً بالحركات والسكنات. والاعجام هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس.

39 سورة الاحزاب: آية ٣٣.

40 «ينابيع المودة» ص ٢٦٠.

41 سورة الاحزاب: آية ٣٣.

42 سورة الروم: آية ٣٨.

43 «اصول الكافي» - كتاب الحجة ج ١ ص ٥٤٣. و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ج ٤ ص ١٧٧. و«شرح نهج البلاغة» ج ١٦ ص ٢١٠.

44 «سنن ابي داود» ج ٣ ص ٢١٨ رقم ٣٠١٦.

45 «سنن ابي داود» ج ٣ ص ١٩٨ رقم ٢٩٧٣.

46 سورة النمل: آية ١٦.

47 سورة مريم: آية ٥ - ٦.

(ص ١٠٠ - ١٣٢)

٢٤ - حياة الامام (ع) في عهد الخلفاء

بقي الامام علي (ع) فاعلاً في الساحة الاجتماعية، على الرغم مما حصل في السقيفة. حيث كان القدوة في العبادة والزهد والتقوى والعلم الديني المستمد من علم رسول الله (ص). ويمكن رصد حياة الامام (ع) خلال تلك السنوات، الخمس والعشرين، ضمن أربعة محاور هي:

أ - النشاط التعبدية:

وقد كان نشاطاً متميزاً في الصلاة والصيام وقراءة القرآن وملازمة الاوراد وقيام النافلة وصلاة الليل. وقد درج على تلك العبادة منذ ان كان صبياً يرافق رسول الله (ص). وكان زهده (ع) ملازماً لعبادته. فكلماً ذاب في التفكير في خالقه ومولاه عزّ وجلّ، كلما زهد في أموره الدنيوية.

ب - العمل السياسي: التقية

استخدام الامام (ع) التقية كرخصة لمواجهة عصر ما بعد السقيفة. والى ذلك صرح قائلاً: «والله ما منعني الجبن، ولا كراهية الموت. ولكن منعني عهد اخي رسول الله (ص) اذ قال: يا ابا الحسن ان الامة ستعذر بك، وتنقض عهدي، وانت مني بمنزلة هارون من موسى. فقلت: ماذا تعد اليّ يا رسول الله اذا كان ذلك؟ فقال: إن وجدت أعواناً فبادر اليهم وجاهدهم، وان لم تجد أعواناً فكفّ يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً». فكانت قلة الاعوان، وكون الناس حديثي عهد بالاسلام، من الاسباب التي دعت الى استخدام التقية كرخصة مؤقتة استمرت ربع قرن من الزمان.

وقد حفظت التقية التي طبّقها مولى الموحدين (ع)، التوازن التاريخي بين الحق والباطل. فلو لم يكن هناك من يحفظ الايمان والولاء في القلوب لتحقيق الهدف النهائي لاجتماع السقيفة، وهو حذف ائمة أهل البيت (ع) من الخارطة السياسية والاجتماعية للاسلام. ولكن الاستخدام الصحيح لتلك الرخصة، أدى فيما بعد الى إرجاع شعلة الولاء لأهل بيت النبوة (ع). فما ان زال الاكراه حتى عاد الحق الى نصابه.

ج - العمل القضائي: الاستشارة

وكانت نشاطات الامام (ع) فيما يتعلق بالقضاء أقرب الى العمل الاستشاري منها الى العمل كمنصب. فقد كان (ع) - عندما يعجز القوم عن حل المشكلات الشرعية - يُستشار من قبل الخلفاء فيعطي رأي الشريعة في ذلك. ولذلك كان ذلك العمل محدوداً بحدود عجز القوم عن فهم الاحكام الشرعية، والا فهو لم يكن قاضياً زمن الخلفاء الثلاثة كما يتبادر الى الذهن أول مرة.

لقد كان أمير المؤمنين (ع) من أعلم الناس بعد النبي (ص). ولأجل «ما خصه الله تعالى به من فهم دقائق العلم بسرعة، احتاج أجلاء الصحابة لحلّه للعويصات». وتوزع نشاطه القضائي الاستشاري على مساحة واسعة من القضايا المتنوعة: كالحكم فيما يتعلق بالملكية، وما يتعلق بالقضايا الاخلاقية، والجنايات الاجتماعية، وفي قضايا العقائد ومبهمات الامور، والعبادات، وفي قضايا الحرب.

وكان (ع) سدرة المنتهى في القضاء الاسلامي. خصوصاً عندما كان القوم يعجزون عن استظهار الحكم فيظهر جهلهم للشريعة واضحاً للعيان، وعندما كانوا يخطأون أو يتسرعون في اصدار أحكام على غير الاسس الشرعية. وقد حوت بطون الكتب التاريخية والفقهية الكثير من الروايات في ذلك. ولا شك ان البعض من الناس يختبر الحاكم في المسائل الشرعية والاعتقادية، من أجل ان يرى مقدار علمه. وقد حصل مثل ذلك كثيراً في مسائل العقائد والمبهمات من الامور. وكان (ع) رائداً في حلّ معضلاتها، بينما كان الآخرون يُظهرون عجزاً تاماً في ذلك. وسوف نقرأ الكثير من ذلك في محله من هذا الكتاب، باذنه تعالى.

ولما كان الاسلام ديناً جديداً يافعاً بالنسبة للاديان السماوية الاخرى، فقد كانت عملية اثاره الأسئلة المعقدة أو المحرجة واثارة الشكوك أمراً طبيعياً من قبل الاعداء. لذا كان تواجد الامام (ع) على الساحة الاجتماعية والفكرية، حاسماً من أجل ردّ تلك الشبهات والشكوك والأسئلة المعقدة. وبذلك حفظ الامام (ع) رسالة الدين من شبهات اولئك الاعداء.

د - العمل الكسبي: الزراعة

توفرت لدى الامام (ع) فرص كثيرة للاثراء والتملك الواسع، ولكنه بقي متعففاً عن المال زهداً في الدنيا، يعمل في الزراعة. وكان ينفق مما يجنيه في الحراثة ونقل الماء وسقي الزرع، على الفقراء والمساكين. وكان لا يمد يده الى بيت المال، بل اذا لزمه في العيش الضيق والجهد أعرض عن الخلق وأقبل على الكسب والكّد. وكان (ع) «يسقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة، حتى مجلت يده، ويتصدق بالأجرة ويشدّ على بطنه حجراً».

وكل ما تملكه علي (ع) من الاراضي كان ينفق ريعه في سبيل الله على الفقراء والمساكين وابن السبيل. وعندما بُشّر بانفجار عين من الماء في أرضه، قال لهم بكل بساطة: «بشّروا الوارث». بمعنى لا تبشّروني بأمرٍ فانّ ودنيا زائلة. فكلُّ ملكٍ لا بد ان يرثه غيرُ صاحبه.

وبكلمة، فان الامام (ع) بقي يراقب الوضع الاجتماعي الديني عندما سُلبت منه ادوات تحكيم الدين، يوم السقيفة. ولكنه (ع) وقف بوجه القوم عندما كان الحكم الشرعي يتطلب الوقوف، ونصحهم عندما كان الموقف يتطلب النصيحة. وفي غير ذلك، فان حكم النقية كان الغالب على الحياة الدينية والاجتماعية لمجتمع الثلث الاول من القرن الاول الهجري.

٢٥ - حكومة الامام امير المؤمنين (ع): النظام السياسي

بعد مقتل عثمان بن عفان، استلم الامام (ع) مقاليد الخلافة الشرعية على المسلمين. وقد امتازت حكومة الامام علي بن ابي طالب (ع) بخصائص جوهرية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ويتفق الكل على انه (ع) كان اكثر الناس اماماً بمعاني القرآن المجيد ومعالم السيرة النبوية. وكانت حكومته الرشيدة مبنية على اركان عشرة هي: ١- النظام السياسي. ٢- النظام الاداري. ٣- النظام الحقوقي. ٤- القانون وحاكمية الشريعة. ٥- النظام القضائي. ٦- النظام الجنائي. ٧- النظام العسكري. ٨- النظام الثقافي. ٩- النظام التجاري والاقتصادي. ١٠- بيت المال.

شروط الحاكمية الشرعية:

وعندما نخوض في بحر العالم السياسي، فإننا نحتاج الى تحديد معنى الحاكمية الشرعية. وقد بين لنا الامام (ع) ذلك عبر تحديد أربعة مفاهيم:

الاول: الإمرة النقية:

وهي الإمرة البرة يعمل فيها النقي، حتى يستقيم العدل في البلاد، وتظهر المودة بين الرعية والحاكم، ويُتَصَف للمظلوم فيها من الظالم. وهي من خصائص المعصوم (ع) وحقوقه. فهو المسؤول عن ادارة أمور الناس وتنظيم شؤونهم.

صفات الإمرة الشرعية:

وتلك الإمرة لها صفات، منها:

١ - منها الإمرة الشرعية ليست إمرة اكراه واستبداد، بل هي إمرة يطيعها المكلف بإيمان وإخلاص. لان تلك الطاعة نابعة عن معتقد قلبي وعقلي بالرسالة الدينية السماوية. وبتعبير آخر ان الفاصل بين السلطة الدينية التي كان يمثلها الامام (ع)، وبين الإكراه والإستبداد والتسلط الذي كان يمثله الحاكم الظالم هو: «الشرعية». أي ان الدين يجعل للمعصوم (ع) حقاً شرعياً لادارة الناس، ويفرض - في الوقت نفسه - تكليفاً على المكلفين بالطاعة. بينما ينكر على الظالم ذلك الحق.

٢ - ان السلطة الشرعية للامام أمير المؤمنين (ع) كانت قد مُورست مع قدرٍ شديدٍ من الوضوح في محاسبة الولاة والعمال على الامصار الاخرى. فكان (ع) يقول لأحد ولاته: «وان عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عُنقك أمانة». فالإمرة الشرعية في عهد الامام (ع) كانت إمرة ذات طبيعة منظمة، هي أقرب الى طبيعة المؤسسة التي يُؤتمن عليها منه الى الطبيعة الفردية. وذلك الوضوح في الرؤية الحكومية، كان مدعاةً لاستتاب الأمن الاجتماعي وبناء الاستقرار النفسي للامة.

٣ _ ان الامرة البرة هي سلطة شاملة لجميع السلطات الاجرائية في الحقوق والواجبات، ونظام العقوبات، ونظام الخراج، ونظام الجيش والأمن العام ونحوها. فهي إمرة لا تنحصر باصدار الأوامر بخصوص الشروة وتحقيق العدالة فحسب، بل تعني ايضاً معاقبة الجناة والمنحرفين.

وبذلك تشمل الإمرة البرّة السلطات الثلاث: التنفيذية والقضائية والبرلمانية (التوكيلية). ولعل الامام (ع) هو أول من خصص السلطة في التأريخ، بتلك الحصص الثلاث.

الثاني: الحكومة

وإذا كان المفكرون يعنون بالحكومة: تضافر مجموعة من الافراد - وعلى رأسهم قائد - للقيام بمسؤولية الادارة الاجتماعية وممارسة السلطة. فعليهم الاقرار بان فكرة الحكومة لها مفاتيح ثلاثة، هي: المسؤولية، والنظام الهرمي، والادارة. نستلهم ذلك من أقوال الامام (ع). ففي المسؤولية قال (ع) موجهاً كلامه لأحد ولاته: «وان عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه في عنقك امانة...». وفي النظام الهرمي قال (ع): «...انك فوقهم (يقصد الرعية)، ووالي الامر عليك فوقك، والله فوق من ولاك...». وفي الادارة، قال (ع): «...فانه لا بد للناس من أميرٍ برٍّ أو فاجرٍ...».

خصائص الحكومة:

وهنا لا بد للحكومة من أربع خصائص، هي:

1 - شرعية يمنحها الدين. ودليل تلك الشرعية يمنحها الله سبحانه، فيقول: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...). ومفهوم قوله (ع) التالي يعدّ تفسيراً للآية الكريمة آفة الذكر: «اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء، ألا يُقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها...». وتنبع أهمية «الشرعية» في السلطة من ان العمل الاجتماعي ينبغي ان يطابق الواقع الشرعي، وعندها يكون مبرراً للذمة أمام الله تعالى.

2 - صناعة قرار على صعيد المصداق. ويمثله صريح قوله (ع): «اما الإمرة البرّة فيعمل فيها التقى، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي الى ان تنقطع مدته وتدركه منيته». بمعنى ان الحكومة لا تثمر في عملها الاجتماعي، ما لم تُترجم النظريات التي يحملها الحاكم الى قوانين عملية صالحة.

وإذا كان القرارُ شرعياً وحاسماً، استتب العدل والامن في البلاد. فالمقياس في صناعة القرار هو ان يكون للدولة: شرعية معترفٌ بها، وقوة حسم. بحيث ان الحاكم لديه الكفاءة المطلوبة، ولا يخشى احداً الا الله. وبهذين العنصرين: الشرعية والحسم، استطاع الامام (ع) بناء دولة دينية مثالية ساهمت في تثبيت العدل بين الناس.

3- الكفاءة، أي قابلية الحكومة على سدّ حاجات الامة من الضروريات. وتلك وظيفة أساسية، ولولاها لما كان لوجود الحكومة معنى. وقد قامت حكومة الامام (ع) بتحقيق العدالة الاجتماعية والحقوقية بين الناس. فقد كانت حكومة كفوءة قادرة على العناية بالفقراء والاغنياء على حد سواء، وقادرة على تثبيت اسس النظام في المجتمع الاسلامي.

4- التركيبة الجماعية للحكومة. ونعني بذلك ان تكون الحكومة ذات طبيعة تضافرية، يتضافر الجميع على تسديدها والعمل فيها. فاذا كان على رأس الحكومة امامٌ عادلاً كأمر المؤمنين (ع)، كان ولاته وعماله في الولايات والامصار اقرب الى العدالة والكمال. ونظرة فاحصة الى تركيبة حكومة أمير المؤمنين (ع) تُظهر لنا انها لم تكن حكومة (فرد) بل انها كانت حكومة «جماعة» مؤلفة من الامام (ع)، واداريين عُينوا من قبله (ع)، وقادة عسكريين، وقضاة، وجباة، ومستشارين.

الثالث: العدالة

ان من آثار العدالة - في نظر أمير المؤمنين (ع) - وضع الامور في مواضعها، قال (ع):
«... العدلُ يضعُ الامورَ مواضعها...».

والناس تختلف عن بعضها البعض في أمور مثل: الصفات الطبيعية في الذكورة والانوثة، والصفات الشخصية في القوة والضعف والذكاء والتخلف، والصفات الاجتماعية كالغنى والفقر والحرية والعبودية.

وبموجب تلك الاختلافات، فان احتياجات الناس تتفاوت. ولذلك، فان أمر الاختلاف يستدعي من القائد الديني ان يكون عادلاً. أي ان يضع الامورَ مواضعها، كما صرح (ع) بذلك. فالغني لا يحتاجُ مالاً، بل عليه ان يدفع الحق الى الفقير المحتاج؛ وهذا هو العدل لانه وضع

الامور مواضعها. والعامل الماهر الكفوء يكافأ بأجرٍ أعلى من العامل الخامل غير الماهر؛ وهذا هو العدل لانه وضع الامور مواضعها. والضعيف، قاصراً كان أو عاجزاً، ينبغي ان تُضمن معيشتته؛ وهذا هو العدل لانه وضع الامور مواضعها.

ومن قراءة تلك الامثلة نفهم، بان مقولة الامام (ع) تستدعي إعمال العقل ايضاً في تحقيق العدالة الاجتماعية.

مبادئ العدالة:

وقد كان الامام أمير المؤمنين (ع) يسير على ضوء ثلاثة مبادئ في العدالة، هي:

1 - ان الاختلافات التكوينية بين الافراد هي واقع حقيقي لا يمكن انكاره أو تجاهله. ولذلك فان فكرة «المساواة» تصدق فقط في نطاق معين. مثل «المساواة» في معونة المظلومين واسترجاع حقوقهم من الظالمين، و«المساواة» في العطاء من بيت المال لذوي الحاجة والمسكنة من الامة. وقد قال (ع) عند بيعة الناس له: «... فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية. لا فضل فيه لأحدٍ على أحد».

فالمساواة في العطاء للفقراء تخلقُ جواً من العدل، وإحقاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم من ظالمه. وتلك العدالة في العطاء للفقراء تجبرُ الاختلافات التكوينية التي خلقت أصلاً من الافراد دون ارادتهم.

2 - لما كان تحقيق المساواة العقلية بين الناس أمراً مستحيلاً، كان لا مفرّ للامام علي (ع) من تحقيق المساواة العرفية التي هي شكل من اشكال العدالة، عن طريق الانصاف والعدل والميزان، كما قال: «... ايها الناس، اعينوني على انفسكم، وایمُ الله لانصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتته، حتى اوردّه منهل الحق وإن كان كارهاً».

وهو منسجم تماماً مع المفهوم القرآني القائل: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...)، (وَيْلٌٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ...)، (... وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...)، (... كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...).

وتلك آيات شريقات أكدت على عدالة توزيع الثروة، وحسن تعامل الناس فيما بينهم على صعيد المال. وجعلت للفقراء حقاً محسوباً في أموال الاغنياء. بمعنى ان الشريعة لم تجعل للاغنياء الخيار في مساعدة الفقراء أو اهمال مساعدتهم، بل فرضت عليهم ذلك بقوة التشريع.

3- كما ان بيت المال يوزع الحقوق على الفقراء بالتساوي، فانه في الوقت نفسه يأخذ من أرباب العمل والزراعة: الخراج. وهي ضريبة تدخل بيت المال بضميمة موارد اخرى كالغنائم والصدقات والخمس ونحوها. وقد نهى (ع) زياد بن ابيه - عامله على فارس - عن زيادة الخراج، بقوله (ع): «استعمل العدل، واحذر العسفَ والحيفَ...».

وبطبيعة الحال، فان اشباع الفقراء وسدّ حاجاتهم لا يعني زيادة عددهم. فالصدقة لا تشجع الغني على الهبوط الى الطبقة الفقيرة من أجل استلام تلك العطية. والاهتمام بالفقراء لا يعني تقليل الانتاج الاجتماعي من زراعة وصناعة، بل العكس. فالمجتمع الذي يتساوى في الناس بسد رمقهم واشباع حاجاتهم، يكون أكثر انتاجاً وأوفر عطاءً في العلم والفضائل.

فالعدل اذن، هو:

أ - المساواة بين الفقراء في العطاء من بيت المال. ب - التكافؤ في الفرص. ج - المساواة أمام الشريعة او القانون عندما يتوحد الشرط والظرف. د - المفاضلة بين الناس على اساس العلم والايمان والتقوى. هـ - التفاضل بالاجور على مقدار العلم والجهد وقيمة العمل. وهذا هو جوهر فكرة وضع الامور مواضعها.

الرابع: الحاكمية:

«الحاكمية» عنوان يعكس فكرة تقول بان الحاكم أمينٌ عامٌّ على أموال الناس وأعراضهم وأنفسهم. أي ان الحاكمية الشرعية تعني القدرة على إقامة العدل والحرية ورفع الفقر والجهل والانحطاط. ولا يمكن ان تكون الحاكمية شرعية، ما لم تستمد صلاحيتها الإلزامية من الدين. فلا نستطيع تصور دولة عادلة ونظام حقوقي واجتماعي وسياسي، لا يستند على مبادئ الدين واحكامه وتشريعاته، واحكام العقل ودلالاته.

والحاكمية الشرعية هنا تعني القدرة التي يمتلكها الانسان كالمعصوم (ع) او من يوكله في هذه الحالة، على إدارة أمور الامة ضمن علاقات اجتماعية شرعية واضحة بين الحاكم والمحكوم. وعندها تكون الصفات الفاضلة امثال: الكرم والعلم والصلة والاعتدال والتعفف والرحمة والامانة وإقامة الدين، حتمية في ثبوت تلك العلاقات ورسوخها.

ونستنبط من نظرية الامام أمير المؤمنين (ع) في الحاكمية أفكاراً عظيمةً في ادارة الدولة. فهناك مجموعة من الصفات تُبلور معنى الحاكمية، منها: التواصل المشترك بين الوالي والامة: «فاذا أدت الرعية الى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحقُ وقامت مناهج الدين»، والانفتاح على الناس: «واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك، وألن لهم جانبك...»، وتطهير عيوب الناس لا كشفها: «فان في الناس عيوباً، الوالي أحقُّ من سترها... فانما عليك تطهير ما ظهر لك...»، وتفضيل المحسن على المسيء: «ولا يكوننَّ المحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلةٍ سواء...»، وعدم الانقطاع عن الامة فترة طويلة: « فلا تُطوّلنَّ احتجابك عن رعيتك، فان احتجابَ الولاةِ عن الرعيةِ شُعبَةٌ من الضيق...»، وحرمة سفك الدماءِ بغير حلّها.

آثار الحاكمية الشرعية:

وللحاكمية الشرعية التي يستعملها الحاكم على الامة آثار، نرتبها في النقاط التالية:

1 - ان المهم في حُسن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي ان تُقيم احتمالاً عقلائياً، بتوجيه سياسة الحاكم نحو تحقيق آمال الرعية وتلبية طموحاتها في العبادة والعدالة وال عمران. واكثر ما يستفيد منه الحاكم هو وجود العلماء والحكماء في مجالسه العامرة بالعلم والادب والمعرفة. ولذلك كان الامام أمير المؤمنين (ع) يشير الى عامله في مصر بالاكثار من: «مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمرُ بلادك واقامة ما استقام به الناس قبلك». فالانفتاح على الامة بالمقدار الذي وضحته رسائل الامام (ع) وخطبه، يشخص للحاكم الهوية السياسية، وبيعة المشاكل الاجتماعية التي يواجهها الناس خلال ولايته (ع).

2 - ان انفتاح الامة على الحاكم سوف يزيح - الى حد ما - الحاشية الفاسدة التي تحاول عزل الحاكم عن مشاكل الامة، وتقوده نحو الانغماس في اللهو والمفسدة. والى ذلك يشير (ع): «... ولا تعجلنَّ الى تصديق ساعٍ، فان الساعي غاشٌّ، وإن تشبه بالناصحين...».

ولا شك ان الاغلبية من السعاة هم من حاشية السلطان ومريديه. والحاشية الفاسدة تقرب اصحاب المال والثروة نحو الحاكم، بينما تحاول ابعاد الفقراء والمساكين. ومن الطبيعي ان الانفتاح على الامة يحرم تلك الحاشية الفاسدة الكثير من الامتيازات التي يمكن ان تتمتع بها.

3 - ان مجرد الشعور بامكانية الوصول الى الحاكم يمنح الامة شعوراً بالارتياح، ويجعلها تؤمن بان السلطة الشرعية ما هي الا وسيلة من وسائل الادارة الاجتماعية وحفظ حقوق الناس. وليست وسيلة من وسائل الامتيازات المالية والاقتصادية وتجميع الثروة عند الطبقة الحاكمة. والى ذلك أمر عامله بعدم الاحتجاج طويلاً: «... فإنَّ احتجابَ الولاةِ عن الرعيةِ شعبةٌ من الضيق، وقلةٌ علمٍ بالامور. والاحتجابُ منهم يقطعُ عنهم عِلْمَ ما احتجبوا دونه...».

٢٦ - النظام الإداري

انتخب الامام أمير المؤمنين (ع) مجموعة من أهل العلم والحكمة وصناعة القرار، ووضعهم على مسؤولية الحكومة في الامصار. فكانوا ثلثة طيبة من أصحاب الدين والعلم والتضحية والجهاد. وكانوا له عوناً على تحمل مسؤولية الولاية.

فقال (ع) يصف محمد بن أبي بكر واليه على مصر: «... فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً...». وقال (ع) في كتابه الى اهل مصر وهو يصف مالك الاشر: « اشدَّ على الفُجَّارِ من حريقِ النارِ...». وقال (ع) في مدح بعض اصحابه الذين استشهدوا في صفين: «اين القومُ الذين دُعوا الى الاسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآنَ فاحكموه، وهيجوا الى الجهادِ فولهوا ولةَ اللقاحِ (الناقة) الى اولادها، وسلبوا السيوفَ اغمادها...».

ونقصد بالنظام الاداري: القانون والجهاز اللذين ينظمان السلطة السياسية والمالية والقضائية والاجتماعية بعنوانها العام. فالنظام الاداري يكشف عن صلاحيات الولاة والمدراء

والقادة في مختلف مجالات الحياة، ويفصح عن التزاماتهم الاخلاقية والدينية تجاه الامام (ع).
فولاية هؤلاء - حتى لو كانت محدودة بحدود التحويل - كانت تقتضي مسؤولية قانونية وشرعية
امام القائد العام وهو أمير المؤمنين (ع).

شروط الوظيفة الادارية:

1- ان الوظيفة الادارية تتطلب انشاء قوانين تفصيلية متعددة في مجالات الحياة العامة.
ولذلك نلاحظ ان اهتمام الامام (ع) بالادارة الاجتماعية، فيما يتعلق باختيار الولاة وارشادهم
ومراقبتهم ومحاسبتهم والاستئناس بآراء أهل العقول وأهل المشورة، كان اهتماماً شمولياً تفصيلياً.
ونتيجة لذلك الاهتمام، ترك (ع) لنا هذا الكم الهائل من الرسائل والمواعظ. فالادارة الاجتماعية
الصحيحة هي التي تمتلك قوانين تفصيلية تشمل جميع جوانب الحياة الاجتماعية.

2- تتطلب الوظيفة الادارية الاجتماعية ايضاً القدرة على تعيين الولاة والموظفين وحكام
المناطق وارشادهم ومعاقتهم وعزلهم، اذا استدعى الأمر ذلك. فالموظف الادنى في السلم
الاداري ينبغي ان يخضع لأوامر الأعلى وهو الامام (ع)، وينفذها بدقة، ويكون مستعداً للمحاسبة
وقت التقصير ومستعداً للدفاع عن نفسه، ومستعداً لتحمل العقوبة اذا ثبت التقصير.

3- الاصل في الوظيفة الادارية انها تتضمن جزءاً عظيماً من الحكم على الافراد واختيار
الافضل، بما يشبه العملية القضائية. فاختيار من يحافظ على اموال المسلمين ويوزعها توزيعاً
عادلاً بينهم يعكس قضية ذات طبيعة قضائية؛ واختيار قادة الجيش أو الشرطة للمحافظة على
أمن البلاد ومحاربة العدو يتطلب قدرة تشبه القدرة القضائية في اختيار أصح الافراد وأقربهم
للتقوى والشجاعة؛ والاكثر من مدارس العلماء في تثبيت أمور البلاد هو أقرب الى الحكم بالعلم
والاستشارة ضد الجهل، بل ضد الاستبداد بالرأي.

4- ان من أهم شروط الوظيفة الادارية هو ان الذي يتسلم الادارة ينبغي ان يكون من أهل
السوابق الحسنة والايمان والاخلاص. وليس للظالم أو من عمل له، فرصة أو مقعداً في الادارة
العادلة. وقد لمسنا - تاريخياً - ان الظالم عندما تحمل المسؤولية الادارية، أفسد النظام. وتلك
مشكلة خطيرة من مشاكل الادارة، ولذلك حذر الامام (ع) ولاته بالقول: «شُرُّ وزراءك من كان

للاشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكوننَّ لك بطانةً. فانهم اعوانُ الأئمةِ، واخوان الظلمةِ...».

خصائص الادارة عند الامام (ع):

وكانت لادارة أمير المؤمنين (ع) خصائص على درجة كبيرة من الاهمية، نجملها في الموارد التالية:

1- اسلوب اللامركزية ولغة الكليات: فقد عكست التوجيهات والتوصيات والرسائل التي كان يستلمها الولاة وعمال الدولة من أمير المؤمنين (ع) طبيعة اللغة الادارية. وكانت تلك التوجيهات حاسمة وقاطعة، ولكن كانت فيها عمومات وتخلو من التخصيصات على الاغلب. وهو أمرٌ يفتح الباب لإعمال العقل والفكر عند الولاة.

والامثلة على ذلك كثيرة، كقوله (ع): (ولَّ عليّ أمورَكَ خيرَهُم) فهنا يكون الامرُ عاماً بتولية أفضل الناس (من كتاب الدولة) على الادارة، ولم يأمره بتعيين فلان أو فلان.

وعندما يأمره (ع) بالقول: «دَعِ الإسْرَافَ مُقْتَصِداً» فانه لا يشخّص له موارد الاسراف، بل يرشده الى كليات عدم الاسراف لان فيه ضرراً على مصالح المسلمين والاسلام.

وعندما يأمر عامله على البصرة بعدم مدهنة الاقوياء من أهل الثروة وحضور ولائهم يقول (ع) له: «فما اشْتَبَهَ عليك علمُهُ فألفِظُهُ». هنا لم يخص له شيئاً، بل ارجعه الى كلية ما اشتباه عليه علمُهُ من حلال أو حرام فعليه ان يرفضه ولا يأخذه. هنا ابنتت التوجيهات والتوصيات في القوانين الادارية على صيغة الكليات العامة. وتُرك للولاة والقضاة ربط تلك الكليات بالمصاديق والجزئيات.

2- توزيع السلطة: ان حكم القانون لا يمكن ان يتم بصورته النهائية، ما لم يتم توزيع السلطة بين شريحة واسعة من الناس. فلا بدّ من تعيين الكُتّاب والرؤوساء: «واجعل لرأس كلِّ أمرٍ من أمورِكَ رأساً منهم». والعيون: «واما بعدُ، فان عيني بالمغرب كتب اليّ يُعلمُني انه...». والمستشارين: «ولا تُدخِلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدلُ بك عن الفضل...». والعلماء والحكماء: «واكثرِ مُدارسةَ العلماء، ومنافثةَ الحكماء، في تشييت ما صلَحَ عليه أمرُ بلادك...». والنخبة

الاجتماعية: «... ثم الصِّق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة...». والوزراء: «شُرُّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكوننَّ لك بطانةً». والقضاة: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضلَ رعيتك في نفسك...». وقادة الجيش: «فولَّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك...».

فالحكومة اذن، كانت جهازاً واسعاً لاصدار القوانين، ومراقبة تنفيذها من قبل القائد، ومحاسبة المقصرين في تنفيذها. وعندئذٍ توسَّعت الحكومة - بموجب هذا الفهم - الى جميع الجهات الاجتماعية، وتوزعت السلطة على أكبر عدد ممكن من الافراد. وهذا المنحى في دولة الامام (ع) سبق كل النظريات في الدولة الحديثة التي دعت الى فصل السلطات الثلاث: القضائية والتنفيذية والتشريعية.

وبذلك حققت الادارة الاجتماعية في عهد الامام (ع) كل ما ارادت السلطات الثلاث تحقيقه، وهي: حل الخصومات بين الافراد عبر القضاء، وادارة الثروة الاجتماعية وحسن توزيعها عبر جمع الضريبة (الخِراج والصدقات والخمس والغنائم ونحوها)، وتثبيت الامان الاجتماعي والغذائي العام، والدفاع عن الدولة الشرعية، ومراقبة وضع السوق التجاري.

3- ان محاسبة الموظفين لم تكن محاسبة رياضية تتعلق بالارقام ومقدار المال المسروق، بل كانت محاسبة اخلاقية. فحتى لقمة حرام واحدة تبرر عزل ذلك الوالي الذي عينه الامام (ع). يقول (ع) محاسباً أحد عماله: «... كيف تُسيغُ شراباً وطعاماً، وانت تعلم انك تأكل حراماً، وتشرب حراماً، وتبتاع الإماء وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين...». وفي كتابه للمنذر بن الجارود: «اما بعد، فإن صلاح أبيك ما غرني منك، وظننتُ انك تتبع هديته، وتسلكُ سبيله، فإذا انت ممَّا رُقِّي اليَّ عنك، لا تدعُ لهواك انقياداً...».

4- كان أمير المؤمنين (ع) قوياً في الادارة والفكر الاداري. فقد وضع أصولاً محكمةً لعلمٍ مهم، وهو علم ادارة المجتمع على ضوء الدين والعقل.

فاهتم (ع) بشخصية المدير، ووضع له ضوابط اخلاقية مثل: التقوى، والامانة، والمنشأ الصالح، والكفاءة الادارية، والعلم، وقوة الرأي.

وأهتمّ (ع) أيضاً بإليات الادارة، وهي:

أ - استشارة الحاكم لاهل الخبرة والاختصاص، ووضع قاعدة: «من استبدَّ برأيه هلك».

ب- تنمية النخبة الاجتماعية المؤمنة، التي كانت تعبّر عن مرآة مصغرة للحالة الاجتماعية الكبرى.

ج- لغة الكليات التي استخدمها أمير المؤمنين (ع) في إدارة المجتمع والافراد، كانت موفقة في تثبيت النظام اللامركزي في الدولة. ولذلك، فاننا نستطيع، باطمئنان، أن نطلق على حكومة الامام (ع) اصطلاح حكومة القانون ودولة الشريعة.

٢٧- النظام الحقوقي (المالي)

يبقى المال، والنقد بالخصوص، من الوسائل المهمة في تشخيص تركيبة المجتمع. ولذلك حاولت بعض القوى الاجتماعية - مثل بني امية- ان تجعل الفارق في الدخل الشخصي بين طبقة واخرى فارقاً شاسعاً. حتى يتسنى لها استثمار الثروة المكدسة في طبقتها من أجل حيازة السلطة وامتيازاتها السياسية والاجتماعية. ولذلك أشاعت تلك القوى فكرة خاطئة مفادها ان الدخل الشخصي يحدد الطبقة الاجتماعية ويحدد ايضاً من الذي يحكم!! فاذا كان الدخل قليلاً، هبط الانسان الى الطبقة المحكومة. واذا كان كثيراً هائلاً صعد الى الطبقة العليا الحاكمة.

ولكن الامام أمير المؤمنين (ع) حارب تلك الفكرة، واعتبرها طريقة من طرق الجاهلية للوصول الى السلطة. واتخذ خطوات مهمة في هذا الشأن.

خطوات الامام (ع) في العدالة الحقوقية:

فمن الخطوات التي اتخذها (ع) اعتماداً على مبادئ الاسلام:

١- ساعد الفقراء من بيت المال. فقال (ع) مخاطباً عامله على مكة: «وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه الى ما قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مُصيباً به مواضع الفاقة والخالات. وما فضل عن ذلك فاحمله الينا لنقسمه فيمن قبلنا».

٢- اشاع فكرة الاسلام القائلة بأن الفقر الاختياري صفة من صفات الأنبياء والأولياء والصالحين. فقال (ع) عن نفسه: «...ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني جشعي الى تخيير الاطعمة - ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في الثُمرِ ولا عهد له بالشبع - أو أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى...» .

٣- ألزم الأغنياء - بقوة الاخلاق والسلوك- على دفع حصة الفقراء. قال (ع): «إنّ الله سبحانه فرضَ في أموالِ الاغنياءِ أقواتَ الفقراءِ، فما جاعَ فقيرٌ الاّ بما مُتّع به غنيٌّ، واللهُ تعالى سائلهم عن ذلك.».

٤- جعل الدخل الشخصي مقياساً للمساعدة. أي ان قلة الدخل تُجبر بسهم من بيت المال. فعندما تتجمع الحقوق المالية الشرعية في بيت المال، فانها توزع على الاصناف الثمانية التي ذكرتها آية الصدقات (سورة التوبة: آية ٦٠) وهم الفقراء، والمساكين، والعاملين على جباية الزكاة، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله تعالى، وابناء السبيل. والخمس (سورة الانفال: آية ٤١) يوزع على آل الرسول (ص) من ايتام ومساكين وابناء سبيل. ولاشك ان جميع تلك الاصناف التي ذكرت في الآيتين هم من ذوي الدخل القليل.

وهذا يعني ان قلة دخل الفرد تُجبر بكمية من المال يدفعها بيت المال لتلك الاصناف من أهل الحاجة. وبذلك تستفيد تلك الشرائح المتفاوتة الدخل من أموال بيت المال، كلّ حسب حاجته.

وبذلك صممت حكومة الامام (ع) للناس مجتمعاً متكافئاً نظيفاً أشبع فيه الفقير، وأكرم فيه الغني المؤمن، وخُوسب فيه الظالم مهما كان حجم ظلمه.

أ _ السياسة المالية:

وكانت السياسة المالية في عصر الامام (ع) تستند على عدة اساس، منها:

الاول: توزيع ما كان يتجمع في بيت المال من النقدين - الذهب والفضة- على الموارد التي ذكرتها الآية ٦٠ من سورة التوبة، وكان اغلبها من الصدقات. وكانت سياسة الامام (ع) كنس بيت المال كل يوم جمعة والصلاة فيه ركعتين والقول: «ليشهد لي يوم القيامة».

الثاني: توزيع الفيء - من مواد نقدية او عينية - على المقاتلين، أو الذين يحضرون القتال ويقومون بشؤون خدماتية للجيش. وكان عددهم ضخماً.

وكانت الثروة العينية الاوسع المتمثلة بزكاة الغلات والانعام توزع على الفقراء أيضاً. وتلك السياسة كانت تمثل سياسة في الضمان الاجتماعي لجميع الافراد في المجتمع الاسلامي.

ولاشك ان مقدار تلك الثروة المجتمعة في بيت مال المسلمين كان ضخماً. فكان يتطلب وجود نوع من الادارة، لتنظيم صرف ذلك المال وحسن توزيعه، من قبيل وجود الكتاب والدفاتر التي تُدرج فيها اسماء الافراد الذين يستلمون من بيت المال.

خذ مثلاً على ضخامة العملية الادارية في التوزيع. فقد كان جيش الامام (ع) الذي شارك في صفين قد بلغ أكثر من مائة وعشرين الف مقاتل. وهذا العدد الضخم كان يحتاج الى سجلات بأسمائهم ومقدار عطاياهم.

الثالث: ضبط السوق التجاري عبر حثّه (ع) الباعة وأصحاب الحوانيت على عدم الغش، والتحكم بالمكيال الحق، والمحافظة على الاسعار، ومحاربة الاحتكار. فقد كان (ع) يكثّر المرور على سوق الكوفة فيحثّ الباعة على ضبط الميزان وعدم الغش. ولا شك ان السوق التجاري في الكوفة - عاصمة أمير المؤمنين (ع) - كان فرعاً رئيسياً من فروع مجرى النقد في المجتمع.

الرابع: محاربة الربا، الذي حرّمه الاسلام عبر قوله تعالى في كتابه المجيد: (... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا. وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...)، في الوقت الذي شجع فيه على الكسب الحلال في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات.

ولذلك كان الامام (ع) يدعو التجار الى التفقه في احكام التجارة، فيقول لهم: « مَنْ اتَجَرَ بِغَيْرِ فِقْهِ فَقَدْ ارْتَضَمَ فِي الرِّبَا ».

ب - الدخل الشخصي:

كان الوارد الشخصي للمعيل في عصر الامام (ع) يُكتسب عن طرق متعددة، منها: العمل اليدوي، وتملك الارض، والتجارة، ورأس المال الذي كان يقوم بتشغيله التاجر من أجل جني الربح. وهذا يعني ان كسب المال كان ممكناً عن طريق ثلاثة موارد:

الاول: الأجر الناتج عن العمل وبذل الجهد.

الثاني: الربح الصافي الناتج عن تشغيل رأس المال في التجارة.

الثالث: تأجير الاراضي الزراعية المملوكة من قبل المالك الحقيقي.

اذن لدينا ثلاثة عوامل منفصلة، تتضافر احياناً من أجل تحقيق دخل شخصي معقول، وهي: الاجارة، والتجارة، والملكية. وكلها تولد رصيداً مالياً يتفاوت حجمه من انسان لآخر.

وصورة الوضع الاجتماعي قبل استلام أمير المؤمنين (ع) الحكم كانت تكشف عن وجود نظام طبقي، ساهمت فيه عطاءات الخليفة السابق في تنمية الطبقة المالكة من بني امية. فكان هناك افراد اغنياء مثل مروان بن الحكم حيث كانت عطاياه من قبل الخليفة الثالث لا تقل عن مئات الالوف من الدنانير الذهبية. والزبير بن العوام الذي خلف عند موته خمسين الف دينار ذهب والوف أمة. وطلحة بن عبيد الله وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ذهب.

وكانت هناك طبقة مسحوقة من الاجراء والعبيد لا يزيد دخل الفرد منها على بضعة تمرات في اليوم الى عدة دراهم. ومنهم اغلب اصحاب الامام (ع) كسلمان، والمقداد، وعمار، وأبي ذر وغيرهم.

ومن هنا نجد أمير المؤمنين (ع) يشتكي بالقول: «اضربْ بطرفكْ حيثُ شئتَ منَ الناسِ، فهل تُبصرِ إلا فقيراً، أو غنياً بدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أو بخيلاً اتَّخَذَ البُخْلَ بحقَّ اللهِ وفراً، أو متمرداً، كأنْ بأذنيه عن سَمعِ المواعظِ وقرأً». فلا ريب في أن يوصي الامام (ع) مالك الاشر بالفقراء، فيقول: «... ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى...».

ج - ميزانية الدولة:

لا تستطيع الحكومة أن تؤدي وظائفها ما لم تمتلك سياسة واضحة المعالم فيما يتعلق بالواردات والمصروفات. ويطلق على ذلك عنوان: «ميزانية الدولة». فاذا اتُخذ قرار بايواء كل يتيم وأرملة وسد حاجتهما مثلاً، فلا بد من حساب اجمالي اليتامي والأرامل، ولا بد من حساب ما يدخل بيت المال من أموال، ثم تقسيم ذلك على اساس الحصص. فيكون لكل يتيم حصة، ولكل أرملة حصة. وأقل الحصص، على مقتضى الروايات خمسة دراهم أو نصف دينار ذهباً. وهذا الامر لا يكتمل ما لم يُعلم الحد الأدنى لرغبات الناس ونواياهم في دفع الحقوق الشرعية.

إذن، اذا ربطنا سياسة الامام أمير المؤمنين (ع) في اشباع الفقراء مع رغبات الناس القوية في دفع الزكاة، استنتجنا بأن عصر الامام (ع) كان عصراً مزدهراً بالعدالة والانصاف. والميزانية الرشيدة لحكومة أمير المؤمنين (ع)، كانت قد سددت ذلك الازدهار.

فقد كانت سياسة أمير المؤمنين (ع) تصرح بأن لا يبقى مالٌ في الخزينة (بيت المال)، الا ويوزع على الفقراء والمحتاجين. ولم يكن ذلك اسرافاً أو تبذيراً للمال، بل العكس. ذلك لأن الفقر والجوع كانا منتشرين في أرجاء البلاد. فكان على بيت المال ان يتصرف بهذا الاسلوب الرحيم.

وبتعبير آخر ان سياسة أمير المؤمنين (ع) المالية لم تعر للرصيد النقدي في الخزينة أهمية تُذكر. بل كانت سياسته (ع) كنس بيت المال كل يوم جمعة والصلاة فيه ركعتين والقول: «ليشهد لي يوم القيامة» كما ذكرنا ذلك سابقاً. وهذا يعني ان الاولوية كانت موجهة لسد حاجات المعوزين والفقراء. وهذا هو سر قوة دولة أمير المؤمنين (ع). فما فائدة الرصيد النقدي القوي للدولة اذا كان الناسُ يئنون من الجوع؟

٢٨ - القانون وحاكمية الشريعة

كانت حكومة الامام (ع) حكومة تشريع وقانون. والمقصود من ذلك، انها نظّمت العلاقات المالية والتجارية والحقوقية والانسانية بين الناس على اساس أحكام شريعة سيد المرسلين محمد (ص).

فعلى المستوى القضائي والمخاصمات بين الافراد، وقف رئيس الدولة على قدم المساواة مع مواطن عادي امام القضاء، من أجل حل خصومة. وتشير الروايات الى وقوف الامام (ع) جنباً الى جنب مع يهودي امام شريح القاضي مطالباً بدرعه. وكانت تلك حادثة استثنائية، بكل المعايير. ولم تكن بلاد روما ولا بلاد فارس ولا قريش لتسمح لسادتها وأمرائها بالوقوف أمام القضاء. ولكنّ علياً (ع) وقف يداعي بدرعه أمام قاضي الدولة. وقد تعلمت اوربا الحديثة من الامام علي (ع) فكرة فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وتعلمت منه (ع) أيضاً ادارته للدولة بما نفعها في بناء الدولة الحديثة.

وعلى المستوى الجنائي، كانت العقوبة المنصوصة اذا ازدادت على المعاقب أقتص من المعاقب. وقد حصل ذلك، عندما غلط قنبر فضرب الجاني ثلاثة أسواط زائدة، فاقتص الامام (ع) من قنبر ثلاثة أسواط.

وعلى المستوى الحقوقي، كانت الحقوق توزع على الناس، حتى لو كان بعضهم على خلافٍ مع الامام (ع). بل حتى لو كان بعضهم يكره الامام (ع) ويتمنى زوال حكمه، كما كان الحال مع قبيلتي «باهلة وغنّية».

وبالاجمال، فقد كانت حاكمية الشريعة في تلك الفترة الزمنية، مهيمنة على الوضع العام. وبذلك ادرك الناس طبيعة السلطة الشرعية، وفهموا ابعاد الاحكام وملاكاتهما في الضبط الاجتماعي، وادركوا ايضاً طبيعة الحقوق المدنية.

واقعية القانون الشرعي:

وأثبتت حكومة امير المؤمنين (ع) ان للاحكام الشرعية طبيعة واقعية. فلا الخصوص عمم الحكم الشرعي، ولا العموم خصص ذلك الحكم. أي لا كرهه (ع) لقبيلتي باهلة وغنّية حرمهما من عطاء بيت المال، ولا حبه (ع) لعشيرته واهل بيته (ع) كان مبرراً لزيادة عطائهم من بيت المال. وبتعبير ثالث، ان الكره لم يغيّر حكماً، ولم يبذلّ الحب أمراً شرعياً جاء به الدين.

ولم يشترك الامام (ع) أصلاً من استحالة التوفيق بين اصدار الحكم وبين تطبيقه، خصوصاً فيما يتعلق بتحقيق العدالة الحقوقية والاجتماعية بين الناس. فقد قال (ع): «لو كان المأل لي

لسوّيت بينهم، فكيف وإنّما المأل مأل الله». وهذا هو حكم نظري بالمساواة؛ وعند التطبيق ساوى فعلاً بينهم في العطاء.

نعم، كان هناك خللٌ في خصائص شريعة من الناس أتعبها تعلق أمير المؤمنين (ع) بالآخرة، في الوقت الذي كان نظرها شاخصاً الى الدنيا وملتقاً بزخارفها ومتعها، فذمها (ع) بشدة وتمنى ان يبادلها بعدوها.

ولكن الامام (ع) عالج مشكلة أفراد تلك الشريعة، خصوصاً أهل الكوفة الذين اتعبهم التفكير بالآخرة، وحثهم على جهاد عدوهم ومقاتلته. وعالج مشاكل الدولة عبر محاسبة بعض الولاة الذين أكلوا من بيت المال بغير حق كما كان الحال مع زياد بن أبيه، ومصقلة بن هبيرة وغيرهما. وعزل البعض الآخر لضعفه، كما كان الحال مع محمد بن ابي بكر واليه على مصر حيث عزله لضعفٍ فيه واضطراب الأمر عليه.

وهكذا كانت سياسة الامام (ع): تطابق النظرية مع التطبيق، وتطابق الأحكام - بما فيها من أوامر ونواهي - مع التنفيذ. وهذا يثبت واقعية الشريعة في دولة القانون.

والمفتاح في قضية حكم القانون والشريعة هو «الشرعية» وليس الاكراه. ونعني بشرعية حكومة أمير المؤمنين (ع) هو أن الامام (ع) كان مخوّلاً من قِبَل النبي (ص) بالادارة الشرعية للامة. فكل ما كان يصدر عن الامام، (ع) كان له امضاء شرعي من قبل رسول الله (ص). فالشرعية كانت مفتاحاً لتطبيق القوانين في المجتمع. وكما أن هناك الزاماً شرعياً يدفع الضريبة، فإن هناك شرعية في المطالبة بها من قِبَل الحاكم العادل أو مَنْ يمثّله. فالشرعية تجعل تلك العملية (الدفع والاستلام) عملية قانونية تميل النفس الى أدائها.

ولكن لو كانت السلطة فاقدة لمثل تلك الشرعية، لأصبحت عملية أخذ الضريبة من المالك عملية انتهاك لحرمة الملكية الشخصية. وهنا يتبدّل الإلزام - تحت ظلّ الظالم - الى عملية إكراه واجبار.

ومن هنا أصبح مجتمع القانون الذي قاده أمير المؤمنين (ع)، مجتمعاً حضارياً متطوراً يحمل معه آلات علاج مشاكله الشرعية، ووسائل حل معضلاته الاجتماعية.

حكومة الامام (ع) ومباني العقلاء:

وكان تطبيق القانون في زمن الامام (ع) يعني أن هناك: سلطة، واتفاقاً، وعقلانية في النظام القانوني. فالنظام القانوني يرفع الإكراه، ويقبل المنطق (الدليل العقلي)، ويساهم في الاتفاق الاجتماعي العام بخصوص الواجبات المدنية. فيكون هدف القانون هو اخضاع السلوك الانساني لاحكام الشريعة في المجتمع.

والعدالة والانصاف ومحاربة الظلم من الأمور التي يقرّها العقل. اذن، نستطيع الآن ان نقول بأن حكومة أمير المؤمنين (ع) كانت حكومة الشريعة والعقل في المجتمع الانساني. واذا اقتربنا من إدراك كيفية تحويل الامام (ع) تلك الدولة الواسعة الى دولة قانون وشريعة ومنطق، لاقتربنا من إدراك حجم المكسب الاخلاقي الذي كسبته الأمة في تلك الفترة الحاسمة من عمرها.

ولاشكّ أن إرادة حكومة الامام (ع) في تنظيم المجتمع وادارته، كانت إرادة عقلانية وشرعية في الوقت نفسه. لأن العلل الحُكْمية المرتبطة بالمعلول (الموضوع) - التي كانت تعرضها - كانت عللاً يقبلها العقل. وفوق كل ذلك كانت عللاً سماوية مستمدّة من القرآن والسنة، بينما كانت علل مناوئيه باطلة وغير صالحة للبقاء أو الانتقال.

والانتقال من الصلاحية الشرعية الى حكم القانون، كان يتطلّب ادراكاً بأن الحاكم قادرٌ على الاجابة عمّا يدور في أذهان الجماعة. فقد كانوا يسألونه وكان (ع) يجيبهم. وكان يقول: «يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني. هذا سفظ العلم. هذا لعابُ رسول الله (ص). هذا ما زقني رسول الله (ص). فاسألوني فإن عندي علم الاولين والآخرين. أما والله لو تُنيت لي وسادةٌ وجلستُ عليها لافتيت أهل التوراة بتوراتهم...وأهل الانجيل بإنجيلهم...وأهل القرآن بقرآنهم...».

لقد كان خطاب الامام (ع) موجّهاً الى العقلاء في المجتمع. فهو بتلك اللغة الادبية البديعة العالية، كان يصوّر معاني الدين بأبدع الصور. ولا شكّ أن تلك الصور البديعة لا يفهمها الا العقلاء. وقد أشار الكتاب المجيد الى العقلاء في المجتمع بأفضل إشارة، فقال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)، (وتلك الأمثال نضربها

للناس وما يعقلها إلا العالمون). والعقلاء في المجتمع هم خلاصة العقل العام. فإذا كسبهم الحاكم، فإن حكمه يكون مدعاةً للاستقرار والثبات. وقد قال (ع) في رسالته الى الاشر: « وأكثرُ مُدارسةَ العلماء، ومُناقشةَ (أي مجالسة) الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمرُ بلادك، وإقامة ما استقام به الناسُ قبلك».

ان الضمير العام الذي يؤمن بالحكمية الشرعية، هو الذي يُدرك - بعمق - معنى الحرية تحت ظلّ القانون. أي أن الانسان - في دولة القانون والدين - يستطيع أن يعبر عن رأيه في الوقت الذي لا يخاف فيه على ماله ونفسه وعرضه من الانتهاك. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الخوارج يتمادون في مواجهتهم اللفظية مع الامام أمير المؤمنين (ع). فقد كانوا في مآمن تامّ وطمأنينة بأن الامام (ع) لا يودعهم السجن، ولا يعذبهم، ولا يقتلهم. بل عندما كانوا يسبون الامام (ع) ويتوثب الناس لقتلهم، كان (ع) يقول للناس: «...انما هو سبٌ بسبّ. أو عفو عن ذنب». فيتركونهم وشأنهم.

ومن الطبيعي فان تركيبة القانون الشرعي تتناسب مع حاجات الشعوب على اختلاف لغاتها وظروفها الاجتماعية. ذلك لان الشريعة تعاملت مع الكليات التي يستقبحها عقل الانسان كالقتل والاعتداء والظلم والفحشاء والكفر والشر، فعاقبت عليها. وتعاملت مع الكليات التي يستحسنها كالتعاون والصفح والتسامح والايثار والعدل والانفاق والحب والخير، فشجعت على فعلها. وبذلك جاءت التركيبة القانونية للمجتمع الاسلامي منسجمة مع فعل الخير بعنوانه المطلق، وبند مطلق الشر على وجه الارض. وقانون كهذا ليس اكرهياً ولا كبحياً ولا قمعياً. بل هو مصمم لطرده الشر من الضمير الانساني، وادانة كل ما يمتُّ اليه بصلة.

وعندما نُشير الى النظام القانوني الذي يحكم بلداً ما، فاننا لا نقصد به انتشار المحاكم والقضاة وزيادة عدد الشرطة والعيون. بل نقصد: أن للقانون الشرعي وظيفة عملية في تنظيم أمور الناس وتثبيت حقوق الجماعة، عبر التلويح بالعقوبة للمخالفين والمنحرفين عن الجادة الشرعية.

ولذلك كان من وظائف حكومة الامام (ع) وضع سيطرة شرعية على الظواهر الاجتماعية الخطيرة كالانشقاق، وعصيان أوامر القائد الشرعي (ع)، والاستئثار بالثروة الاجتماعية، ومطلق

الظلم الاجتماعي. ولذلك كان (ع) يقول: «أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن أحدٌ ليحتريء عليها غيري... ولو لم أكن بينكم ما قوتل أصحاب الجمل وأهل النهروان».

ويُفهم من قوله (ع) أنه لو كان الواجب في كل فتنة تقع بين المسلمين التهرب منها بدعوى حرمة قتال أهل القبلة، لوجد أهل الفسق سبيلاً لارتكاب المحرمات من سفكٍ للدماء، وهتكٍ للأعراض، وغصبٍ للأموال.

وتلك الصلاحية الممنوحة له للسيطرة على الوضع الاجتماعي، تمنحه استخدام مختلف الوسائل المشروعة لتحقيق الاستقرار والأمن الجماعي. ولم تكن تلك وظيفة سياسية فحسب، بل كانت وظيفة دينية حتمية.

٢٩ - النظام القضائي

ان المبادئ التي طرحها أمير المؤمنين (ع) في وصيته لمالك الاشر، تفصح عن ان التنازع بين الناس يمكن ان يحلّ بطريقة قانونية تقوم على أساس عرض الحجج والبراهين من قبل الأطراف المتنازعة. وهذه الطريقة العقلانية يضمنها النظام القضائي. خصوصاً القاضي العادل، الذي لا يفكر بالانحياز لطرفٍ دون آخر. لانه «أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحُجج، وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشفِ الأمور».

وظائف القاضي:

وللقاضي وظائف مهمّة في النظام القضائي، نلخصها في النقاط التالية:

١- كشف الحقيقة الخارجية وتثبيتها. وكشف الحقيقة يحتاج الى مجموعة أدلة وطرق لمعرفة. فهناك قرائن موضوعية وهناك قرائن شرعية تثبت ارتكاب العمل المخالف (على الصعيد الجنائي)، وتثبت الحق المالي أو الملكية مثلاً (على الصعيد الحقوقي)، وتثبت المخالفة الاخلاقية (على صعيد ما يُطلق عليه بحقّ الله تعالى).

٢- تشخيص القانون الشرعي للقضية المتنازع فيها. وهذا التشخيص يتطلب معرفة علمية توصل القاضي الى منابع الحكم الشرعي. ويتطلب ذلك فهماً لمعاني الالفاظ الشرعية ومذاق الشارع الحكيم وانطباق شروط الحكم على القضية مورد النزاع.

٣- ربط الحكم الشرعي بالموضوع، في القضية القضائية. ولا شك أن ربط حجم العقوبة بطبيعة المخالفة هو من مهمة قاضي الشرع في المحكمة. وهذا الربط هو الثمرة العظمى لعلم القاضي وعدالته وحسن أدائه في العملية القضائية.

وبطبيعة الحال، فان قاضي الحق يرجع الى مباني العقلاء والدليل العقلي، في كشف الحجج القانونية والاستفادة من القرائن الموضوعية في اصدار الحكم النهائي. أي ان هناك مساحات عقلية واسعة يستطيع ان يستثمرها القاضي في تحديد الحكم، بالاضافة الى المساحة الشرعية المنصوصة. فالإقرار بأن ذات البعل تطلب بعلاً، كما في رواية صاحب «المناقب» يعني إعمال الفكر بأن البعل الاول لا يستطيع المقاربة، وعليه فان النكاح ينبغي ان يفسخ، ولها الحق في الزواج من رجل آخر. وحدّ الشهود الثلاثة الذين لم يكتمل عددهم الى الاربعة في شهادة على «زنى»، هو إعمال للعقل بضرورة تحقق الشروط الشرعية وعندها يمكن الأخذ بشهادتهم. وأمر النساء بالنظر الى الفتاة التي أتهمت بارتكاب الفاحشة، هو إعمال للعقل بضرورة اكتشاف حقيقة ما حصل بمن عليها خاتم من الله عزّ وجلّ.

لقد كانت القوّة العظيمة الكامنة في النظام القضائي زمن الامام (ع)، تحرك المجتمع نحو لون من الاستقرار النفسي والطمأنينة. وكان شعور الجماعة في أن احكام القرآن اذا طبقت، فانها ستحقق عدالة قضائية وحقوقية بين الجميع. وقد تحقق ذلك فعلاً. ذلك لان انتشار مفاهيم القرآن الكريم بذلك الوضوح عند الامة جعل قضية التوقع الاجتماعي للعقوبات أمراً حتمياً. وكان هذا مهماً على صعيد الوضع الاجتماعي العام، لان التوقع الاجتماعي للعقوبات يردع الجناة عن العبث بمقدرات الناس.

مبنى اللغة القضائية:

ومن الطبيعي، فان القضاء لا يترك بصماته على المجتمع، ما لم يكن مسلحاً بلغة قضائية خاصة يفهمها الناس. وتلك اللغة مبنية على أسس ثلاثة:

الاول: منطقية القرار القضائي. هو يعني ان القاضي يستثمر استخدام المقدمتين: الصغرى والكبرى من أجل الوصول الى النتيجة. والمقدمة الصغرى تشمل دائماً المصاديق، بينما تشمل المقدمة الكبرى الكليات.

ولا يمكن الوصول الى المقدمة الصغرى ما لم يستمع القاضي الى الآراء المتضادة بين المدعي والمدعى عليه، وما لم يدرك القرائن الموضوعية الخاصة بالقضية ويحللها. وقد علمنا الامام (ع) - من خلال روايات عديدة- طريقة تطبيق القوانين القرآنية على الوقائع القضائية المتنوعة.

الثاني: بلاغة القرار القضائي. والبلاغة في القرار القضائي تُقنع الناس بقوة الحق، وتُشعرهم بقوة الشريعة وقوة الاستدلال العقلي ايضاً. والبلاغة في القرار القضائي قضية شرطية في التأثير على أفكار الناس وأعمالهم. وتدلّ الروايات الواردة عن الامام (ع) أن اللغة القضائية قد استخدمت استخداماً بلاغياً دقيقاً من أجل إقناع المخاطبين بقوة الحق والدليل الشرعي. فقوله (ع): «قد أعذر من أنذر»، و«إن شاء أخذ دية كاملة ويعفو عن صاحبه»، و«لا على الحامل حدٌ حتى تضع»، كله يدلُّ على بلاغة القرار القضائي، وعلى قوة تأثير ذلك على الناس.

الثالث: لحن القرار القضائي. ونقصد بالحن القرار هو اللغة الضامرة للقرار التي تؤثر على القيم الاجتماعية وتحفظها من التفسخ والانحلال. وفيها اصطلاحات مهمة مثل: القصاص، والضرر، والدية، والجلد، والرجم، ونحوها. ولاشك ان لحن القرار القضائي يُفهم من قبل المجتمع، على اساس ان القضاء الاسلامي هو: قضاء جدي، موضوعي، عادل، ونزيه.

خصائص النظام القضائي زمن الامام (ع):

واحتوى النظام القضائي زمن الامام (ع) على مجموعة خصائص، منها:

أولاً: كان اشرف أمير المؤمنين (ع) على القضاء أمراً لا بد منه. لان القرار القضائي كان يحدد أحياناً عن الحكم الشرعي الصحيح. فهذا شريح قد ارتكب أخطاءً فادحةً في القضاء، ولولا اشرف الامام (ع) على عمل شريح لكان هناك ظلم.

ومن الطبيعي، فإن انزال الحكم الشرعي الى منزلة القانون الذي ينفذ لحل التنازع بين الناس، لا يتم بشكله المطلق ما لم يكن القاضي قاضي حق. أي أن القاضي ينبغي ان يكون كما وصفه الامام (ع): «أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج...».

ثانياً: يقوم القاضي بتفسير الحكم الشرعي وتطبيقه على الواقع. فاذا كان لدى القاضي علماً بالحكم الشرعي، فان علمه سوف يساعده على الوصول الى الحكم النهائي. أي ان تشخيص الحكم والموضوع بطريق صحيح سوف يؤدي الى اقرار الحكم النهائي.

والرواية التي ذكرت قوله (ع) بأن أقل الحمل ستة أشهر، بدليل الكتاب المجيد: (... وحملةً وفصائله ثلاثون شهراً...)، (والوالدات يُرضعن أولادهنَّ حولين كاملين...)، من أروع الاستنتاجات في الربط بين تفسير الحكم الشرعي وفهم الواقع الاجتماعي. ثم الحكم النهائي في تلك القضية القضائية.

ثالثاً: ان قرار القاضي بالحكم على الجاني ينبغي ان لا يكون قراراً شخصياً. ولذلك قال (ع) في صفة القاضي: «... ممن لا تضيقُ به الأمورُ، ولا تمحُّهُ الخصومُ، ولا يتمادى في الزلَّةِ، ولا يحصرُ في الفئءِ الى الحقِّ اذا عرفه». وهذا يعني ان بعض الخصال الشخصية للقاضي ينبغي ان لا تؤثر على قراره القضائي المرتبط بالمجتمع.

رابعاً: لما كان القضاء يتطلب شجاعة من القاضي في إصدار حكمه ضدَّ الجاني أو المفسد ومعاقبته، فان عملية تعيين القاضي لا تخضع لموافقة الناس أو معارضتهم، بل لا بد للقاضي من تعيينٍ من قبل ولي الأمر. ولذلك عين أمير المؤمنين (ع) شريحاً للقضاء في الكوفة، وأوصى (ع) ولاته بتعيين القضاة في أمصارهم دون موافقة العامة من الناس بالضرورة.

خامساً: يتوقع الناس من القرار القضائي أن يكون معتمداً بصورة مباشرة على أحكام الشرع والعقل. وما يبحث عنه القاضي في الخارج هو القرائن الموضوعية التي تساعده على صناعة

القرار القضائي. فالقرار القضائي اذن، يُعتمد في صياغته على مبنى العقلاء، بالاضافة الى مبنى الشريعة. أي ان طريقة اتخاذ القرار من قبل القاضي الشرعي هي طريقة عقلائية. فالبحث عن الحجية، والاستماع للشهود، والاستماع للمدعي والمدعى عليه، والبحث عن القرائن، كلها طرق عقلائية شرعية للوصول الى القرار النهائي العادل للقضية القضائية.

سادساً: ومن اجل ضمان العدالة القضائية، لابد من ضمان امرين: ١- علم القاضي. ٢- حالته العقلية والنفسية. وفي كليهما تحدد قدرته على صنع القرار الصحيح في القضية موضع البحث.

فعلى صعيد العلم، فقد ورد عنه (ع): «...وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج...». وهو يعني أعلمهم بطرق القضاء، وأعلمهم في سلوك طريق الحجج والادلة والبراهين. وعلى صعيد الحالة العقلية، فليس للقاضي ان يقضي وهو غضبان، ولا جائع، كما علم أمير المؤمنين (ع) قاضيه شريح بذلك. وأضاف (ع): «...ثم واس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك، حتى لا يطمع قريبك في حيفك، ولا يبأس عدوك من عدلك». وهنا تلعب خلفية القاضي الثقافية والاجتماعية والعلمية دوراً مهماً، في تحديد قدرته على اختيار البديل القضائي الافضل، عندما يحكم على المدعي أو المدعى عليه.

٣٠- النظام الجنائي

ويتعامل النظام الجنائي مع الجنائية، وتعريفها وضبط حدودها. والنظام الجنائي يخضع للقانون الجنائي العادل الذي جاء به الاسلام. فاذا صرح القانون الجنائي الشرعي بأن القتل المتعمد جريمة، عُدت تلك العملية في ازهاق روح بريء جنابة يعاقب عليها القانون. وقد قال تعالى في كتابه المجيد: **(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب...)**. واذا قال القانون الشرعي بأن ارتكاب السرقة جنابة، عُدت تلك العملية في كسر الحرز المقفل عملية جنائية. واذا اعلن القانون الشرعي أن ارتكاب الفاحشة جُنحة عُدت ذلك العمل عملية يعاقب عليها القانون.

فالجنابة هو كل ما يصفه لنا الشارع الحكيم بأنه جنابة. ومن هنا نعلم أن حدود الجنابة هي تلك التي يحددها لنا القانون الشرعي. ولا سبيل لنا لمعرفة ذلك الا عن طريق الدين. وقد كان

أمير المؤمنين (ع) على إدراك تام بذلك. فقام بعدة خطوات من اجل بناء نظام جنائي اسلامي في المجتمع:

أولاً: إحكام بناء سجن الكوفة كي لا يهرب الجناة منه، فيرتكبوا جنایات جديدة. وقد قال (ع):

اما تراني كيساً مكيساً بنيتُ بعد نافع مخيساً

وكان السجن مبنياً من القصب، وكان الجناة يفرجونه ويخرجون منه. فهدمه الامام (ع). وبنى سجناً بالحص والآجر. وكان هذا العمل في بداية عهده (ع) من الاعمال المهمة في بناء دولة القانون. فكان (ع) يدرك بأن للسجن وظيفة عزل الجناة عن الاختلاط بالمجتمع، وضمان نيلهم العقوبة المقررة بحقهم اذا ثبتت اذنتهم.

والقاعدة أن الحرمان النفسي والجسدي للسجين من الاتصال بالمجتمع الكبير، يفرض عليه ضغوطاً من أجل تغيير سلوكه الاجتماعي. ومن هنا كان السجن علاجاً لبعض الحالات الانحرافية المتمثلة بالفاسق من العلماء والجاهل من الأطباء والسارق للمرة الثالثة ونحوه. أي ان السجن لا يصلح ان يكون أداةً لعلاج مطلق الجنایات والجرائم كما هو معمول به اليوم في مجتمعات العالم.

ثانياً: ارسال الحقوق المدنية كمقدمة لتقليل الجنایات. فقد قام أمير المؤمنين (ع) بتحقيق العدالة الحقوقية بين الناس، من حيث المساواة في العطاء من بيت المال، وحثّ الموسرين على دفع حقوقهم المالية، والتأكيد على نظافة سوق الكوفة من الغش والاحتكار والاحتيال. وبذلك ساهم (ع) بتقليل حجم الجنایات الاجتماعية الى أدنى حدّ ممكن.

ولا شك ان الحاجة والفقر قد تؤديان الى ارتكاب السرقة والفاحشة. والفكرة الاساسية هنا هو ان الوضع الاجتماعي الصحيح والظروف العادلة التي يعيشها الانسان هي التي تؤدي بالناس الى سلوك سلبي غير عدواني. أي ان العدل، ووضع الامور مواضعها، واشباع حاجات الانسان هي التي تصرف ذهن الانسان عن التفكير بارتكاب الجنایات، وكان عصر أمير المؤمنين (ع) مثلاً طيباً لذلك.

ثالثاً: لم يستخدم الامام (ع) اسلوب التهديد والوعيد في انتزاع اعترافات المتهمين، بل كان (ع) يستخدم اسلوب العلم والذكاء في حثّ الجاني على الاقرار بجنايته.
والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

أ - التظاهر بتزويج الغلام من المرأة التي ادّعت أنها ليست أمّه. وكان ذلك سبباً في اعتراف الام بولدها.

ب - صبّ الماء الحار على بياض البيض الذي وضعته امرأة على ثوبها، مدعيةً بأن الرجل قد افترضها فتبين الغش في ذلك، وأقرت المرأة على فعلتها.

ج - تفريق الشهود في قضية قتل رجل. فأقرّ الشاهد الاول على انفراد ثم الثاني... وهكذا حتى أقرّوا جميعاً بارتكاب الجناية.

ولو درسنا التاريخ الجنائي العالمي لرأينا بأنّ الاعترافات كانت تنتزع من خلال تعذيب المتهمين. ولكن أمير المؤمنين (ع) لم يستخدم أي ضغطٍ مادي أو معنوي على المتهمين. بل كان علمه (ع) يساعده على انتزاع الاقرار والاعتراف من المجرمين.

رابعاً: تعدُّ إقامة الحدود على الجناة، أفضل السبل لتحقيق العدالة الجنائية في المجتمع. وفي إقامة الحدود ايضاً: ردعٌ عظيم للناس، وتنظيفٌ للمجتمع من أدران الفساد الاجتماعي.

ولا شك ان العقوبة هي الحل الأخير لأمان المجتمع. فالاسلام يفترض ان يعيش الناس حياةً طبيعيةً، تُعرفُ فيها الحقوق وتُشخص فيها الواجبات. ومن أجل ذلك لا بد ان يلمس الناس رادعاً يردعهم عن ارتكاب المخالفات الشرعية والقانونية. ولا بد لهم ان يدركوا ان الأفضل هو ممارسة الكسب الحلال بدل السرقة والغصب، وممارسة العلاقات الطبيعية السلمية بدل القتل والاعتداء والعنف، والتزوُّج الشرعي والصحيح بدل الممارسات الجسدية البعيدة عن مباني الدين الحنيف.

وفي رواية الشيخ الصدوق (ره) التالية معنى كبير. فقد بعث معاوية يسأل أبا موسى الأشعري عن زوج قتل رجلاً وجده مع زوجته يرتكب المنكر، فسئل الامام (ع) عن ذلك، فقال:

«والله ما هذا في هذه البلاد وما هذا بحضرتي، يعني الكوفة وما يليها». ومعناه ان محيط دولة أمير المؤمنين (ع) كان آمناً نظيفاً من تلك الألوان المرعبة من الانحرافات الاخلاقية.

خامساً: وبفضل النظام الجنائي الديني، كانت الناس زمن أمير المؤمنين (ع) تعيش حياة أخلاقية طبيعية نظيفة. حتى ان المعاقبين في عهد الامام (ع) كانوا - وعندما تنتهي عقوبتهم - يخرجون الى المجتمع الكبير ويعملون بحرية. ورواية الحبشي الذي قطعه خير الناس، تدلّ على الراحة النفسية التي كان يتمتع بها عندما قال: قطعني خيرُ الناس علي بن ابي طالب (ع). وتدلّ ايضاً على انه كان يعمل في المدينة في حقل السقاية. وهذا يعني انه ترك حرفة السرقة، وتوجّه نحو العمل الحلال كي يكسب رزقاً حلالاً مباركاً.

اذن، فان السلوك الجنائي يتضخّم عندما يستشعر المجتمع ظلماً في الحقوق، وضعفاً في الحكومة، بينما ينتفي ذلك السلوك عندما يعيش الناس عدلاً وانصافاً في الحقوق والواجبات، وقوةً في الحكومة. وهكذا كانت حكومة الامام (ع) عادلة وقوية. عادلة بين الفقراء والأغنياء، وقوية في تطبيق حكم الله في الحدود والعقوبات.

ولاشك ان الجنايات لا تحصل من فراغ، بل لابد لها من منشأ اجتماعي كالعداوة، والظلم، والروح الشريرة، والانحراف، ونحوها. ولم يتعامل الاسلام مع الجنايات بعلاج العقوبة فقط. بل حاول ايجاد مناخٍ مناسبٍ لمنع الجريمة من الوقوع في المجتمع، عبر الحثّ على الأخوة الدينية والانسانية، ونبذ العداوات القبلية، والمساعدة والتعاون على إنجاح الحياة الدينية للمجتمع، والمساعدة في العطاء، ونبذ الطبقيّة والظلم الاجتماعي. فقد كان عصر الامام (ع) عصر ازدهار السلام الاجتماعي ونبذ الجريمة.

(نهاية ص ١٣٢)

1 «كفاية الطالب» - الشنقيطي ص ٥٧.

2 «شرح نهج البلاغة» ج ١ ص ٧.

- 3 «وسيلة المآل». رواه الحضرمي بإسناده عن جعفر بن محمد عن ابيه.
- 4 «نهج البلاغة» خطبة ٤٠ ص ٨٣.
- 5 «نهج البلاغة» كتاب ٥ ص ٤٦٣.
- 6 «نهج البلاغة» - كتاب ٥ ص ٤٦٣.
- 7 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٤٧.
- 8 م. ن. - خطبة ٤٠ ص ٨٣.
- 9 سورة النساء: آية ٥٩.
- 10 «نهج البلاغة» - خطبة ٣ ص ٣٩.
- 11 م. ن. - خطبة ٤٠ ص ٨٣.
- 12 «نهج البلاغة» - باب المختار من حكمه (ع) رقم ٤٢٧ ص ٦٩٥.
- 13 «شرح نهج البلاغة» ج ٧ ص ٣٦ - ٣٧.
- 14 م. ن. - خطبة ١٣٦ ص ٢٣٨.
- 15 سورة النحل: آية ٩٠.
- 16 سورة المطففين: آية ١ - ٣.
- 17 سورة النور: آية ٣٣.
- 18 سورة الحشر: آية ٧.
- 19 «نهج البلاغة» - المختار من حكمه (ع) رقم ٤٦٦ ص ٧٠٢.
- 20 «نهج البلاغة» - خطبة ٢١٦ ص ٤١٩.

- 21 م. ن. - كتاب ٤٦ ص ٥٣٨.
- 22 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٤٩.
- 23 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥١.
- 24 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٤٩.
- 25 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٧٠.
- 26 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٥٢.
- 27 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٤٩.
- 28 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٦٦.
- 29 م. ن. - كتاب ٣٥ ص ٥١٩.
- 30 م. ن. - كتاب ٣٨ ص ٥٢٢.
- 31 م. ن. - خطبة ١٢٠ ص ٢١٨.
- 32 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٥٠.
- 33 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٦٠.
- 34 م. ن. - كتاب ٢١ ص ٤٧٧.
- 35 م. ن. - كتاب ٤٥ ص ٥٣٠.
- 36 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٦٠.
- 37 م. ن. - كتاب ٣٣ ص ٥١٧.
- 38 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥٠.

- 39 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥٢.
- 40 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥٤.
- 41 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥٠.
- 42 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥٦.
- 43 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٥٠.
- 44 «نهج البلاغة» - كتاب ٤١ ص ٥٢٦.
- 45 م. ن. - كتاب ٧١ ص ٥٩٤.
- 46 «نهج البلاغة» - المختار من حكمه (ع) رقم ٢٠١ ص ٦٤٥.
- 47 «نهج البلاغة» - المختار من كتبه (ع) رقم ٦٧ ص ٥٨٩.
- 48 م. ن. - المختار من كتبه (ع) رقم ٤٥ ص ٥٣٢.
- 49 م. ن. - المختار من حكمه (ع) رقم ٣١٩ ص ٦٧٢.
- 50 «شرح نهج البلاغة» ج ٢ ص ١٩٩.
- 51 سورة البقرة: آية ٢٧٥.
- 52 «نهج البلاغة» - المختار من حكمه (ع) رقم ٤٣٧ ص ٦٩٧.
- 53 «نهج البلاغة» - خطبة ١٢٩ ص ٢٣٠.
- 54 م. ن. - كتاب ٥٣ ص ٥٦٣.
- 55 «المحاسن» - البرقي ص ٣١٩.
- 56 «الغارات» - الثقفي ص ٧٥.

- 57 «الكافي» - كتاب الحدود ج ٧ ص ٢٦٠.
- 58 «الغارات» ص ١٢.
- 59 «الاختصاص» - المنسوب للشيخ المفيد ص ٢٣٥.
- 60 سورة آل عمران: آية ١٩٠.
- 61 سورة العنكبوت: آية ٤٣.
- 62 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٥٢.
- 63 «نهج البلاغة» - القصار من حكمه (ع) رقم ٤١٠ ص ٦٩٢.
- 64 «الغارات» ص ٥.
- 65 «نهج البلاغة» - خطبة ٥٣ ص ٥٥٦.
- 66 «المناقب» - في اجوبته على المسائل العويصة.
- 67 «تهذيب الاحكام» - كتاب الحدود في اواخر حد الزنى.
- 68 «من لا يحضره الفقيه» - الشيخ الصدوق ج ٤ ص ١٢٧.
- 69 «الكافي» - كتاب الديات. باب من لا دية له. ج ٧ ص ٢٩٢.
- 70 م. ن. - ج ٧ ص ٣١٧.
- 71 م. ن. - باب الحدود ج ٧ ص ١٩٩.
- 72 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٥٧.
- 73 سورة الاحقاف: آية ١٥.
- 74 سورة البقرة: آية ٢٣٣.

- نهج البلاغة - كتاب ٥٣ ص ٥٥٧.
- 76 «نهج البلاغة» - كتاب ٥٣ ص ٥٥٦.
- 77 «الوسائل» ج ١٨ ص ١٥٦.
- 78 «مستدرك الوسائل» ج ٣ ص ١٩٥.
- 79 «الوسائل» ج ١٨ ص ١٥٥.
- 80 سورة البقرة: آية ١٧٩.
- 81 «الغارات» ص ٧٩.
- 82 «من لا يحضره الفقيه» - الشيخ الصدوق. كتاب القضاء ج ٣ ص ٢٠.
- 83 م. ن. - ج ٣ ص ٢٠.
- 84 «الكافي» - كتاب القضاء. النوادر. ج ٧ ص ٤٢٣.
- 85 م. ن. - ج ٧ ص ٤٢٢.
- 86 م. ن. - ج ٧ ص ٣٧١.
- 87 «من لا يحضره الفقيه» - نوادر الدييات ج ٤ ص ١٢٧.
- 88 «الكافي» - كتاب الدييات ج ٧ ص ٢٦٤.

الباب الاول

شخصية الامام (ع) ومراحل البناء

الفصل الاول

الولادة

ولادة علي (ع)، الدلالات العلمية للنصوص: ١- شهرة الواقعة. ٢- مغزى الولادة في الكعبة المشرفة. ٣- فاطمة بنت أسد: العالمة الموحدة. ٤- مزاعم قوى الصراع لتوهين تلك الكرامة. ٥- علي (ع) بمنزلة الكعبة. ٦- أول هاشمي من هاشميين. ٧- خبر الولادة في الكعبة ليس من أخبار الآحاد.

(ولادة علي ع)

ولد امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) بمكة في بيت الله الحرام ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله وكان عمر النبي (ص) عندئذٍ ثلاثين سنة، الحرام، اكراماً له بذلك واجلالاً لمحله في التعظيم وذلك بعد تزوجه (ص) من خديجة بخمس سنين، وقبل المبعث بعشر سنين. وقد قالت الشعراء قولها في تمجيد تلك المناسبة، منها قول الشاعر:

وشعلة العلم دلتني على العملِ سلامة القلب نحتني عن الزلِ

:الى ان يقول

كمثل مولده ما كان للرسل طوبى له كان بيت الله مولده

وروي انه عندما اقبلت فاطمة بنت أسد الى بيت الله الحرام وقد أخذها الطلق قالت: «ربّ اني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب. واني مصدقة بكلام جدّي ابراهيم الخليل، وانه بنى البيت العتيق. فبحقّ النبي الذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الذي في بطني فاستجاب الله عزّ وجلّ دعائها ويسّر عليها ولادتها، وجعل مولودها .«لما يسّرت عليّ ولادتي خالداً في التأريخ. ولا شك أن ولادة علي (ع) كانت خارجة عن مجاري الطبيعة ومقتضيات الصدف والاتفاقات

الدلالات العلمية للنصوص

يلمس المحقق ان هناك دلالات علمية في موضوع ولادة علي (ع) في الكعبة المشرفة لابد من الوقوف عليها. ومن تلك الدلالات: شهرة الواقعة، وانها ليست من اخبار الآحاد، وان لها مغزى معيناً، وان شخصية فاطمة بنت اسد كانت تستحق تلك الميزة رغم مزاعم القوى المناوئة لتوهين تلك الكرامة، وان منزلة علي (ع) كانت كمنزلة الكعبة، فأين الغرابة في ان يرى نور الحياة لأول مرة بين جدرانها؟ وسوف نستعرض كلاً من تلك الدلالات

شهرة الواقعة -1

لم يتردد الكثير من المحققين بالجزم بأن ولادة امير المؤمنين (ع) في الكعبة من القضايا المشهورة في التأريخ الاسلامي التي اتفق عليها الفريقان. ف «المنقّب في التأريخ والحديث جدّ عليهم بان هذه الفضيلة من الحقائق التي تطابق على اثباتها الرواة، وتطامنت النفوس على اختلاف نزعاتها على الاخبات بها. حيث لا يجد الباحث قط غميمة في اسنادها، ولا طعناً في وثبيت تلك .«...أصلها، ولا منتدحاً للكلام على اعتبارها وتظافر النقل لها وتواتر الاسانيد اليها في «مروج الذهب» (الحقيقة شيخ المؤرخين علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٣٣ او ٣٤٥ هـ «عند ذكره خلافة امير المؤمنين (ع)، ويجزم بها من غير تردّد فيقول: «وكان مولده في الكعبة

:ويؤيده قول الآلوسي المفسر في شرح عينية عبد الباقي العمري عند قول الناظم

بطن مكة عند البيت اذ وضعها انت العلي الذي فوق العلي رفعا

وفي كون الامير (كرم الله وجهه) ولد في البيت امر مشهور في الدنيا، وذكر في كتب «
الفريقين السنة والشيعة... ولم يشتهر وضع غيره (كرم الله وجهه) كما اشتهر وضعه، بل لم تتفق
الكلمة عليه. وأحرى بامام الائمة ان يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين، سبحان من يضع
...الاشياء في مواضعها وهو أحكم الحاكمين

:وهذا القول يفرز بعضاً من القضايا العلمية

اشتهار الولادة في الكعبة المشرفة شهرة تتجاوز كل الشكوك التي تثار غالباً حول :أولاً
موضوع من هذا القبيل. والمراد بالشهرة هنا، تواتر الرواية في كتب الفريقين على اقل التقادير

قوله: «ولم يشتهر وضع غيره كرم الله وجهه كما اشتهر وضعه» يعني تفنيد المزاعم :ثانياً
التي زعمت بأن حكيم بن مزاحم، وُلد في الكعبة، كما سنشير اليه لاحقاً

وقوله: «وأحرى بامام الائمة ان يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين...»، اعتراف :ثالثاً
بامامة امير المؤمنين (ع) والائمة (ع) من ولده. وهو قول جميل يصدر من مدرسة الصحابة
(بشأن امير المؤمنين ع).

وُلد امير المؤمنين (ع) بعد عام الفيل ومولد « وفي «عُدّة الرجال» للمقدس الكاظمي
النبي بثلاثين سنة، في ايام هرقل يوم الجمعة في رجب، وقيل في شعبان في البيت الحرام، ولم
وقد اشار الاوردبادي (ت ١٣٨٠ هـ) الى ان مصنف «...يولد في البيت احد قبله ولا بعده
«عمدة الرجال» وجد خلافاً في شهر الولادة فاوعز اليه، لكنه لم يجد في حديث الولادة في
وتلك اشارة متينة. فلو وجد البيت الحرام أي تردّد، فلم يعترض عليه ولم يأتِ برأي آخر
المقدس الكاظمي رأياً آخر له قيمة لما أثر تركه. فايراده بهذا الاسلوب يدلّ على انه كان قاطعاً
به.

2- مغزى الولادة في الكعبة المشرفة -

وعلى اية حال، فان الولادة في مكان مقدس عند الاديان التوحيدية خصوصاً الاسلام لها
:أكثر من مغزى يمكن عرضه ضمن النقاط التالية

ان ام طالب لم تضع في الكعبة بحسب الاتفاق، حتى يُرعم بأن الوضع لم تكن فيه :أولاً
ميزة تكريم سماوية. فلم يكن الوضع اتفاقياً، بل «ان الفضيلة والكرامة في ان باب الكعبة كان
عند الطواف خارج الكعبة (مقفلًا). ولما ظهرت آثار وضع الحمل على فاطمة بنت أسد (رض
ولو كان الامر اتفاقياً، لما كان له .«...انفتح لها الباب باذن الله تعالى وهتف بها هاتف بالدخول
اثر عندئذٍ الا تلويث ذلك المكان المقدس بالمخاض. فيجيب عندئذٍ ازالته، لان الكعبة من
المحال المحترمة ولا تجوز فيها النجاسة.

يزيد بن قعنب « احد الذين عاينوا الواقعة »ولكن الوضع كان امراً من الله تعالى، وهذا
حيث دخلت ام طالب الكعبة يسترسل راوياً: «... فرأينا البيت قد انشق (أي انفتح) عن ظهره
ودخلت فاطمة فيه وغابت عن ابصارنا، وعاد الى حاله (والتزق الحائط) فرمنا ان يفتح قفل
الباب فلم يفتح، فعلمنا ان ذلك امر من الله تعالى. ثم خرجت في اليوم الرابع وعلى يدها امير
ع)...»(المؤمنين ع).

ولا منافاة بين الروايين من حيث انشقاق الجدار، او فتح الباب بقوة اعجازية بعد ان عجز
القوم عن كسر رتاج الباب. اما لجواز اجتماع الامرين، وذهول الراوي عن الجمع بينهما. واما ان
حجم المعجزة وضخامتها وجعلت العيون ترى صوراً متوازية وتروي قضايا متباينة. وأقصى ما في
الروايين ان الامر كان غيبياً لم يتسن لهم معالجته.

ومهما كان امر الباب او الجدار، فان وضع ام طالب في ذلك المكان المقدس يعدّ تكريماً
لوليها واشارةً لميزته الرسالية، لان الوضع لم يكن اتفاقياً.

ان ما يصحب الولادة عادةً من خروج كيس المشيمة والدماء قد يؤدي الى نجاسة :ثانياً
ع) طاهرة ايضاً)المكان الذي توضع فيه لامرأة. ولكن طهارة الكعبة تقتضي ان تكون ولادة علي
من تلك النجاسات. ولم نقرأ في كتب التأريخ ولا حتى اشارة الى ان تلك الولادة قد تركت
نجاسة في الكعبة المشرفة. والمتيقن ان الولادة الطاهرة لا تتم الا عن طريق لون من الوان
التكريم الالهي للمولود. ويؤيده الرواية المروية في «معاني الاخبار» على لسان فاطمة بنت اسد:
«ان مريم بنت عمران اوحى اليها ان اخرجي من بيت المقدس فانه بيت عبادة ولا بيت ولادة،
فاني دخلت بيت الله الحرام فأكلت من ثمار الجنة وأرزاقها، فلما اردت ان اخرج هتف بي

فهي تعلم ان الكعبة بيت عبادة ايضاً لا بيت ولادة، «...هاتف: يا فاطمة، سمّيه علياً فهو عليٌّ ولكن طهارة الولادة وشأن المولود كانت مبرراً للوضع في بيت العبادة

: (ت ١٧٩ هـ) في قصيدته) ويؤيد طهارة المولود ما ذكره السيد الحميري

والبيت حيث فناؤه والمسجد ولدته في حرم الاله وامنه
طابت وطاب وليدها والمولد بيضاء طاهرة الثياب كريمة
وبدا مع القمر المنير الاسعد في ليلة غابت نحوس نجومها
الا ابن آمنة النبي محمد ما لف في خرق القوابل مثله

ولا شك ان قرب الشاعر الحميري من عصر النص، وقربه ايضاً من عصر انكار فضائل امير المؤمنين (ع) من قبل بني امية، يعدّ أثبت لمفاده من اخبار كثيرة. والحجة في شعر السيد الحميري ان ولادة علي (ع) كانت طاهرة كطهارة ولادة رسول الله (ص). ولو كان ذلك مخالفاً للمشهور والواقع السائد في ذلك الزمان لما استطاعت تلك القصيدة ان تمر بتلك السهولة في الفترة الدقيقة من تاريخ الاسلام من دون نقد او اعتراض او تعجب. والشاعر يسترسل في ذكر تلك الفضيلة كما لو استرسل في عرض حكم ثابت

الى طهارة الولادة، فقال: «فالولد (وقد اشار ابن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨ هـ الطاهر من الطاهر ولد في الموضع الطاهر، فاين توجد هذه الكرامة لغيره؟ فاشرف البقاع: الحرم، واشرف الحرم: المسجد، واشرف بقاع المسجد: الكعبة. ولم يولد مولود سواه. فالمولود فيها يكون في غاية الشرف، وليس المولود في سيد الايام: يوم الجمعة، في الشهر الحرام، في البيت الحرام سوى امير المؤمنين (ع)».

وتؤيده ايضاً الرواية التي روتها امرأة من بني ساعدة للامام السجاد (ع) حيث قالت: «ان بيدها وجاء بها الى الكعبة، [ابو طالب] في شدة من المخاض، فأخذ [كانت] فاطمة بنت اسد وقال: اجلسي على اسم الله، فطلقت طلقة واحدة، فولدت غلاماً مسروراً نظيفاً منظفاً لم أر وعقب الامام زين العابدين «كحسن وجهه. وسماه علياً، وحمله النبي (ص) حتى اداه الى منزلها فوالله ما سمعت بشيء قط الا وهذا أحسن منه: (ع) على ذلك بالقول

ان مقارنة فاطمة بنت اسد نفسها بمريم بنت عمران في الوضع وفي مكان الولادة :ثالثاً
يكشف في طياته عن منزلة المولود. والا، فلا يكون للمقارنة وجه اذا لم يكن للمقارنين خط
مشترك، كالنبوة والولاية مثلاً. وما بينهما من الكمال والتسديد وطبيعة الوظيفة السماوية ما يقوي
(،) وولاية علي بن ابي طالب (ع) ذلك. وقد كان ذلك واضحاً في نبوة عيسى بن مريم (ع)

3- فاطمة بنت اسد: العالمة الموحدة

ان دعاء فاطمة بنت اسد يكشف عن علمها بالعقيدة التوحيدية الابراهيمية وايمانها بها.
فدعاؤها يدل على انها كانت مؤمنة بما أنزل من رسل وكتب سماوية، ومصدقة بكلام جدّها
ابراهيم الخليل (ع)، ومؤمنة بالله الواحد في حين كان السواد الاعظم من اهالي مكة يؤمنون
بالوثنية ويتعبدون بالاصنام.

وفي رواية أخرى انه عندما اخذها الطلق رمت بطرفها نحو السماء وقالت: «أي رب اني
وبكل نبي من أنبيائك، وبكل كتاب أنزلت... فأسلك [الرسول] مؤمنة بك وبما جاء به من عندك
بحق هذا البيت ومن بناه وبهذا المولود الذي في أحشائي الذي يكلمني ويؤنسنني بحديثه. وانا
«موقنة أنه احدى آياتك ودلائلك، لما يسرت عليّ ولادتي».

4:مزايم قوى الصراع لتوهين تلك الكرامة

استقطبت الكثير (لا شك ان شخصية مهمة في الاسلام كشخصية علي بن ابي طالب (ع
(ع) وشجاعته في) من اهتمام الاعداء الذين تضررت مصالحهم الاجتماعية والسياسية من حزمه
(ص). فكان الصراع الاجتماعي بين) الحروب والمعارك التي خاضها جنباً الى جنب مع رسول الله
الاسلام وقادته من طرف وبين فحول الجاهلية الذين التحفوا بلحاف الدين لاحقاً من أجل
مصالحهم الدنيوية من طرف آخر صراعاً فيه الكثير من الادوات لتزوير التاريخ، وقلب الروايات
رأساً على عقب، وتبديل عناوين الكرامات والمعاجز، وتغيير الصفات ونحوها على ما نراه في
فكان من لوازم الصراع الاجتماعي ان يُزعم ولادة شخص مزيف في الكعبة. ثنايا هذا البحث
ايضاً حتى يُستهان بأهمية تلك الكرامة التي خصّها الباري عزّ وجل لعليّ بن ابي طالب (ع).
فاختلقوا ولادة «حكيم بن حزام بن خويلد» في الكعبة المشرفة، توهيناً لولادة علي (ع). ولكن

ذلك الاختلاق المزعوم لم يقدر له الصمود فترة طويلة. فقد اجمعت الامة على اختلاف مذاهبها (ع) باختصاص تلك الكرامة بعليّ

فقد روى الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) عن مصعب بن عبد الله حول ولادة حكيم بن حزام المزعومة: «ان ام حكيم ولدته في الكعبة، ضربها المخاض وهو في جوفها، ولم يولد قبله وعلّق الحاكم النيسابوري على كلام مصعب بن عبد الله فقال: «وهمّ». «ولا بعده في الكعبة أحد وقد تواترت الاخبار ان فاطمة بنت اسد ولدت امير المؤمنين عليّ. مصعب في الحرف الأخير وهذا التشكيك بولادة حكيم من الحاكم». «بن ابي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة النيسابوري، المعروف بضبطه وتقدمه في العلم والحديث والرجال عند علماء السنّة، يحطّم ذلك (الاختلاق المزعوم ويكشف انه انما أفتعل من اجل التوهين بكرامة امير المؤمنين ع)

عليّ (ع) بمنزلة الكعبة -5

وقد تواترت الاخبار عن ذكر عظمة المؤمن وانه افضل من المسجد، بل انه اعظم من الكعبة ذاتها. فحرمة المؤمن عند الله اعظم من حرمة أشياء مقدسة جاءت قدسيتها بالجعل بمنزلة الكعبة أو اعظم منها. وقد (ع) الالهي. ومن هنا ندرك ابعاد الروايات التي ذكرت ان عليّاً تناقل الرواة حديثاً عن عليّ (ع) يروي فيه خطاب رسول الله (ص) اليه (ع): «انت بمنزلة الكعبة فاقبل منهم، وان لم يأتوك _ تؤتى ولا تأتي فان أتاك هؤلاء القوم فسلموها اليك _ يعني الخلافة وهذا يعني ان جلوسه في بيته خمسة وعشرين سنة كان باشارة من رسول». «فلا تأتهم حتى يأتوك (والتزاماً بأوامره، ولم يكن خوفاً على نفسه أو عجزاً في وسائله. ويعني ايضاً انه (ع) (الله ص) بمنزلة الكعبة من حيث القدسية والكرامة

ومساواة عليّ (ع) بالكعبة منزلة ليس غريباً، بل تؤيده مطلق الروايات التي تقول بعظمة المؤمن عند الله تعالى

«منها): «ان المؤمن اعلى عند الله من ملك مقرب)

«و(منها): «المؤمن اعظم من الكعبة

«و(منها): قوله (ع): «نحن مثل بيت الله الحرام يؤتى ولا يأتي

وإذا كان هذا شأن المؤمن الذي ليست له خصوصية غير الايمان بالله عزّ وجلّ وأداء فلا شك ان ولادته (ع). التكليف، فما بالك بالمعصوم (ع) الذي سُدد بالعلم والالهام والكمال في ذلك المقام المنيف كانت شرفاً لمكة المكرمة. فلم يسبقه احد ولن يلحقه احد بتلك الكرامة. ولم يشرف الله سبحانه احداً من الانبياء والاوصياء بهذا الشرف، فكان مخصوصاً به (ع).

وعهدنا الى إبراهيم وإسماعيل أن تطهرا (...): وقد رفع الله تعالى منزلة البيت الحرام بالقول والمثابة هو المكان _ المقدس _ الذي يشوب اليه (...وإذ جعلنا البيت مثابة للناس). (...بيتي وهذا كله لا ينافي ان يكون المؤمن _ فضلاً عن (...وليطوفوا بالبيت العتيق...). المكلف كل عام، المعصوم (ع) _ اعظم من الكعبة.

6- أول هاشمي من هاشميين:

(ع) وتقول: كان امير المؤمنين (ع) هاشمياً) وتذكر المصادر التاريخية ولادة أمير المؤمنين ومعنى ذلك التقاء نسب أمه وأبيه في هاشم. فأمه: من هاشميين، واول من ولده هاشم مرتين (عبد مناف) ابن عبد المطلب بن فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف. وأبوه أبو طالب هاشم بن عبد مناف. فالقول هنا أن هاشم ولده مرتين، يعني ان اياه وامه يرجعان الى هاشم بالنسب. وكان ذلك اول قران بين هاشميين. وذلك لان بني هاشم كانوا قد اعتادوا ان يصهروا الى اسر اخرى من قريش، قبل ان يتزوج ابو طالب من ابنة عمّه فاطمة بنت اسد.

7- خبر الولادة في الكعبة ليس من اخبار الآحاد -7

ان فقهاء الشيعة كانوا ولا يزالون يدققون عموماً في الروايات قبل ان يأخذوا بها. فقد رفضوا أخباراً كثيرة لأنها لم تخرج مخرج التواتر، وعمل بعضهم بالخبر الواحد ورفض آخرون العمل بالخبر الواحد. وكلّ له دليله الشرعي في ذلك. ومن الذين رفضوا الاخذ بالخبر الواحد: ، والشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، والشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) (الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، والفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ). ولكنهم (رضوان الله عليهم جميعاً) ذكروا ولادة

في الكعبة، مما يدلّ على ان خبر ولادته (ع) في ذلك المكان المقدس لم يكن من (علي ع) اخبار الآحاد.

فقد ذكر الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) ولادة علي في الكعبة وقال: «... ولا نعلم مولوداً وذكر الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ولادة علي (ع) في الكعبة وقال: بأن تلك «في الكعبة غيره وذكر الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ). كانت اكراماً من الله سبحانه له واجلالاً لمحلّه في التعظيم وذكر الطبرسي (ت «هـ) ولادته (ع) في الكعبة واطاف: «... ولا نظير له في هذه الفضيلة ٥٤٨ هـ) ولادة علي (ع) في الكعبة، وقال: «وهذه فضيلة خصّه الله تعالى بها اجلالاً لمحلّه «ومنزله وإعلاءً لقدره».

وهؤلاء الاعلام من الفقهاء والمدققين الذين يردون الاحاديث الى مخارجها الصحيحة، ولا يذكرونها في كتبهم الا بعد ان يقطعوا باسانيدها، وليس من مذهبهم الرجوع الى روايات مجهولة وآحادية. وبذلك نقطع بان ولادته (ع) في الكعبة كانت من الاخبار القطعية المتواترة

ويؤيد ذلك ما ورد في الفاظ زيارة امير المؤمنين (ع): «السلام عليك يا من ولد في والمغزى منها ومن بقية زيارات الائمة (ع) ذكر «...الكعبة، وزوج في السماء بسيّدة النساء مناقب اهل البيت (ع) ومزاياهم واحياء امرهم وذكرهم في المناسبات الدينية كالوفيات والولادات والمبعث الشريف حيث تحتشد الامة، فتقف على مقامهم الرفيع وتركن الى دورهم في الارشاد والهداية.

وبكلمة، فان الاجماع الذي حصل في صفحة رواية ولادة امير المؤمنين (ع) في الكعبة، «قد وصل الى «حد التواتر

(تليها ص ١٤٧ - ١٦٠)

و«المستدرک علی . نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار» - الشبلنجي ص ١٥٦ « 1 الصحيحين» - الحاكم النيسابوري ج ٣ ص ٤٨٣ . و«الفصول المهمة» - لابن الصباغ المكي العلامة الحلي ص ٢٣٢ - «المالكي ص ٣٠ . و«نهج الحق وكشف الصدق

2. (الغدير» ج ١١ ص ٣٢ والقصيدة للشيخ محمد طاهر القمي (ت ١٠٩٨ هـ) « 2
3. امالي الشيخ الصدوق» ص ١١٤ ح ٩. ايضاً: «معاني الاخبار» ص ٦٢ ح ١٠ « 3
4. علي وليد الكعبة» - محمد علي الغروي الاوردبادي ص ١ « 4
5. مروج الذهب» - المسعودي ج ٢ ص ٢ « 5
6. شرح عينية عبد الباقي العمري» - محمود آلوسي ص ١٥ « 6
7. عُدة الرجال» - المقدس الكاظمي ج ١ ص ٥٤ « 7
8. احقاق الحق» - نور الله التستري - مخطوطة» 8
9. كشف الغمة» الاربلي ص ١٩ عن كتاب «بشائر المصطفى» مرفوعاً الى يزيد بن قعنب» 9
10. معاني الاخبار» ص ٦٢ ح ١٠ « 10
11. ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٦٠. نقلاً عن القاضي التستري في كتابه - «المناقب» 11
«مجالس المؤمنين».
12. المصدر السابق» ج ١ ص ٣٥٩ « 12
13. (الفصول المهمة» ص ١٤ ، رواها عن ابن المغازلي مرفوعاً الى علي بن الحسين (ع)» 13
14. المصدر السابق» ص ١٤ « 14
15. في «امالي الشيخ الطوسي» باختلاف يسير 15
16. شرح نهج البلاغة» ج ١ ص ١٤ « 16
17. المستدرک» - للحاكم ج ٣ ص ٤٨٣ - باب مناقب حكيم بن حزام» 17
18. هم: من الهممة وهو ترديد الصوت في الصدر 18

- 19 .المستدرک» ج ٣ ص ٤٨٣ « 19
- 20 .أسد الغابة في معرفة الصحابة» - ابن الاثير ج ٤ ص ٣١ « 20
- 21 .سفينة البحار» - المحدث القمي ج ١ ص ٣٥ « 21
- 22 .بحار الانوار» - المجلسي . الطبعة القديمة ج ٨ ص ٨٤ « 22
- 23 .سورة البقرة: آية ١٢٥ 23
- 24 .سورة البقرة: آية ١٢٥ 24
- 25 .سورة الحج: آية ٢٩ 25
- 26 .للحاكم «أسد الغابة» ج ٥ ص ٥١٧ . و«التهذيب» للطوسي ج ٦ ص ١٩ . و«المستدرک» ج ٣ ص ١٨٠ 26
- 27 .خصائص الائمة» - الشريف الرضي . مخطوط» 27
- 28 .الارشاد» - الشيخ المفيد ص ٣ « 28
- 29 .شرح القصيدة المذهبة للسيد الحميري» - الشريف المرتضى ص ٥١ . طبعة مصر» 29
- 30 .اعلام الوری» - الطبرسي ص ٩٣ « 30
- 31 رواه السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) في «مصباح الزائر» في زيارة امير المؤمنين (ع) يوم 31
مولد النبي (ص) ١٧ ربيع الاول. تلك الزيارة التي علمها الامام الصادق (ع) للثقة الجليل
محمد بن مسلم .
- 32 .غاية المرام» - التوبلي البحراني ص ١٣ « 32

الفصل الثاني

ابو طالب والذ امير المؤمنين (ع)

- أبو طالب (رض) الدلالات العلمية للنصوص: ١- اسلام ابي طالب. ٢- ابو طالب حامي رسول الله (ص). ٣- ابو طالب والحثّ على الايمان بالاسلام. ٤- خاصية محمد (ص) وايمان ابي طالب. ٥- مغزى الزعم بكفر ابي طالب. ملخص الدلائل العلمية على ايمان ابي طالب.

أبو طالب (رض)

كان أبو طالب بن عبد المطلب «منيعاً عزيزاً في قريش» انتهت اليه الزعامة المطلقة في مكة. ولم تكن زعامته مجرد سلطة قبلية، بل كان له شرف سقاية الحجيج الوافدة على مكة. و«كانت قريش تطعم [ايضاً ولكن] اذا أطعم أبو طالب لم يطعم يومئذ احد غيره». وفي ذلك دلالة على شرفه ومنزله الاجتماعية والدينية الابراهيمية.

واهم المحطات في حياة ابي طالب اثنتان. الاولى: ضمّه رسول الله (ص) اليه. والثانية: ايمانه بالاسلام عند ظهور الدعوة. فقد قام ابو طالب بضمّ رسول الله (ص) اليه عند وفاة جدّه عبد المطلب. وله (ص) من العمر ثمان سنوات. وكان حبّه حبّاً شديداً ، ويخصّه بالطعام ويهتم بكل ما يتعلّق بشؤونه الخاصة والعامة. ولا شك ان اهتمام ابي طالب برسول الله (ص) بعد الرسالة يدلّ على ايمانه بمحمّد (ص) وبرسالته السماوية الجديدة ويؤيد ذلك رواية مروية عن الامام الصادق (ع) ان رسول الله (ص) قال: «ان اصحاب الكهف اسروا الايمان وأظهروا الكفر، فأثامهم الله اجرهم مرتين. وان ابا طالب أسرّ الايمان وأظهر الشرك فأثامه الله اجره مرتين». وللمقارنة بين اصحاب الكهف وابي طالب وجه مشرق يتلخّص بمشاطرتهما ظروف الظلم القاسية التي كان يمرّان بها، وبقوة ايمانهما المستور عن عيون الاعداء. ولا ريب ان مناصرة ابي طالب ومؤازرته لرسول الله (ص) تعكس قوة الايمان القلبي برسالة الدين السماوية، في وقت كان ابو طالب يعاني اشدّ المعاناة من تسفيه قريش وحطهم لمنزلته، وهو صاحب المنزلة الاجتماعية الرفيعة. وعلى أي تقدير، فالمشهور شهرة عظيمة ان ابا طالب لم يغادر هذه الدنيا حتى قال: لا اله الا الله ، محمد رسول الله. توفي ابو طالب وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة في النصف من شوال في السنة العاشرة من ظهور الاسلام. وكان عمر علي (ع) يوم وفاة والده (رضوان الله عليه) عشرين عاماً.

الدلالات العلمية للنصوص

كان ابو طالب من أعظم المدافعين عن رسول الله (ص) ورسالته السماوية امام قريش.
وكان لذلك الدفاع منشأً دينيًّا _ لا وضعاً قبلياً _ يدلّ على ايمان ابي طالب بالاسلام وحثّه ابناؤه
علياً (ع) وجعفرأً وعقيلاً على الايمان بالدين الجديد ومناصرة زعيمه محمد (ص).

١- اسلام ابي طالب:

لم يراود علماء الاسلام المنصفين ومحققوه ادنى شك في اسلام ابي طالب وايمانه
الشديد بالرسالة السماوية الجديدة. فقد تضافرت الادلة التاريخية على ذلك. ومن تلك الادلة:
اولاً: القول المروي عن ابي بكر بن ابي قحافة: «ان ابا طالب ما مات حتى قال: لا اله الا
الله، محمد رسول الله...».

ثانياً: قول عمر بن الخطاب مخاطباً عثمان بن عفان في كلمة يقولها العبد فتحرم عليه
النار: «هي كلمة الاخلاص التي أمر بها رسول الله (ص) عمّه ابا طالب عند الموت شهادة ان لا
اله الا الله...». وهذه الرواية وسابقتها تدلان على ايمانه قبل وفاته بفترة قصيرة. ولكن التحقيق
ان ايمانه كان قبل ذلك بفترة طويلة، كما نلمس بعد لحظات، من مخاطبته النجاشي. ولا يمكن
ان يخاطب النجاشي بتلك الافكار ما لم يكن مسلماً يدافع عن اخوته في العقيدة من ظلم
قريش.

ثالثاً: الابيات المنسوبة لابي طالب في مخاطبته النجاشي وحضه على حسن الجوار:

ليعلم خيار الناس ان محمداً وزيراً لموسى والمسيح بن مريم

أتانا بهدى مثل ما أتيا به فكلّ بأمر الله يهدى ويعصم

وانكم تتلونونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث المرجم

وانك ما تأتيك منها عصابة بفضلك الا ارجعوا بالتكرم

ولو جمعنا تلك الادلة التاريخية لافضت بنا الى نتيجة واحدة، وهي: ايمان ابي طالب
واعتناقه الاسلام، بالرغم من اختلاف توقيت ذلك الايمان. فبعضهم زعم بأنه اسلم وهو على
فراش الموت وهو ضعيف، والآخر أكّد على اسلامه في حياته قبل هجرة المسلمين الاولى الى

الحبشة وهو ما تؤكد تلك الابيات المنسوبة له الموجهة الى النجاشي وهو قوي ومتين، وعلى أي تقدير، فان المقدار المتيقن عند الفريقين ان ابا طالب آمن بالله وبدينه ومات مسلماً مؤمناً، وبكى النبي (ص) لفقده وترحم عليه. وهذا يكفي للتدليل على اسلامه وايمانه.

ولو كان كافراً لما جاز لرسول الله (ص) حبه لقوله تعالى: **(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله...)**.

وابو طالب كان مؤمناً بشخصية محمد (ص) الرسالية قبل المبعث ايضاً. ويؤيد ذلك خطبة النكاح المشهورة التي ألقاها شيخ الاباطح عند نكاح محمد (ص) خديجة، وتبدأ بالقول: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوباً، وجعلنا الحكام على الناس». ثم يسترسل قائلاً: «ان محمداً بن عبد الله اخي من لا يوازن به فتى من قريش الا رجح عليه برأً وفضلاً، وحزماً وعقلاً، ورأياً ونبلاً، وان كان في المال قُلٌّ فانما المال ظل زائل، وعاريةٌ مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما احببتم من الصداق فعليّ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل». وليس من عرف الكريم ان يعلم نبأه الشائع ويتوقع له الخطب الجليل، ثم يعانده ويكذبه!!

٢- ابو طالب حامي رسول الله (ص):

وكان اقتصاد قريش في القرن السادس الميلادي قائماً على التجارة بين اليمن والشام والعراق. وكان ابو طالب يحترف بما احترف به قومه. فخرج في احدى سفرائه بمحمد (ص) وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره الى الشام. وكان محمد زكياً نجيباً، ودلائل الطهر والنقاء بادية على وجهه ومحياه. فلما نزل بصرى وهي مدينة قديمة فيها صومعة الراهب المشهور «بحيرا»، رآه ذلك الراهب المشهور بالتقوى والصلاح فقال: سيكون من هذا الفتى امر عظيم ينتشر ذكره في مشارق الارض ومغاربها. وقد صدقت تلك النبوة فيما بعد. ولكن تحقيق تلك النبوة لم يكن خالياً من ثمن باهض دفعه ابو طالب شخصياً نتيجة ايمانه برسالة ابن اخيه. فقد حاربه قريش وحاولت اهانتته والحط من كرامته، وهو على ما هو عليه من كبر السن وجلالة المقام.

لقد كان ابو طالب من اعظم حماة رسول الله (ص) في اوائل دعوته الناس الى الاسلام. وكان ناصره والمدافع عنه ايما دفاع. ويساند تلك الفكرة أدلة مهمة وردت في المصادر التاريخية:

(منها): ما ذكره محمد بن سعد كاتب الواقدي في طبقاته: «ان ابا طالب دعا بني عبد المطلب فقال لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم امره فاتبعوه واعينوه ترشدوا». وما زالت قريش كافة عنه (ص) حتى توفي ابو طالب (رضوان الله عليه).

و(منها): ما رواه ابن الاثير عن ابن عباس عندما نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قام (ص) بدعوة عشيرته فكذبه ابو لهب مخاطباً القوم: لقد سحركم صاحبكم. فقال ابو طالب مستهيناً باستنكار ابي لهب مخاطباً رسول الله (ص): «ما احبّ الينا معاونتك، واقبالنا لنصيحتك وأشدّ تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو ابيك مجتمعون، وانما انا احدهم، غير اني أسرعهم الى ما تحبّ، فامض لما أمرت به فوالله لا ازال احوطك وامنعك...».

و(منها): ما عاناه ابو طالب من حصار بني هاشم في الشعب. فعندما علمت قريش ان ابا طالب ابا خذلان رسول الله (ص) وتسليمه اليهم، مشوا اليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي _ وكان اجمل فتى في قريش _ فقالوا له: يا ابا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، فاتخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا هذا ابن اخيك الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك لتقتله، فانما هو رجل برجل. فقال ابو طالب: والله لبئس ما تسومونني! تعطوني ابنكم اغذوه لكم، واعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون ابداً.

وفي ضوء ذلك، قام ابو طالب بدعوة بني هاشم وبني عبد المطلب لحماية رسول الله (ص) بوجه فحول قريش، فاجتمعوا اليه وقاموا معه واجابوه الى ما دعاهم اليه من الدفاع عن رسول الله (ص)، الا ما كان من ابي لهب.

وطال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب، فحبسوا الضعفاء منهم وأوثقوهم بالقيد، وجعلوهم في حرّ الشمس على الصخر والصفاء، وامتدّت ايام الشقاء عليهم ولم يصلوا الى محمد

(ص) لوقوف ابي طالب الى جنبه. وعندها اجمعت قريش على كتابة صحيفة بينها وبين بني هاشم تعاقدوا فيها الا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم، وكانت تلك الصحيفة من ابشع العقود واغربها في تاريخ العرب. فكيف يوقع المرء على عقد فيه أذاه وضرره ومعاناته؟ لكنه الاكراه والظلم الذي مارسته قريش ضد المسلمين. فكتبوا الصحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على انفسهم . وانحازت هاشم وعبد المطلب، فدخلوا كلهم مع ابي طالب في الشعب فاجتمعوا اليه، وخرج منهم ابو لهب الى قريش فظاهرها على قومه.

فضاق الامر ببني هاشم وعدموا القوت، الا ما كان يحمل اليهم سرّاً وخفية، وهو شيء قليل لا يمسك ارماقهم، وأخافتهم قريش مدة ثلاث سنين، فلم يكن يظهر منهم احد، ولا يدخل اليهم احد. وكان ذلك اشد ما لقي رسول الله (ص) واهل بيته بمكة ، حتى مُزقت الصحيفة وخرج بنو هاشم من حصار الشعب.

ولا شك ان معاناة ابي طالب لم تكن في محلّها لو لم يكن مؤمناً برسالة محمد (ص). والا، فكيف يصبر شيخ الابطاح مدة ثلاث سنين في الشعب وبطون اهله وعشيرته خاوية، يأكلون ما تنبت الارض من حشائش وما يصل اليهم مما لا يسدّ الرمق لولا ايمانه العميق برسالة ابن اخيه (ص)؟

٣- ابو طالب والحثّ على الايمان بالاسلام:

وكانت دعوة ابي طالب ابنه علياً (ع) للايمان برسالة محمد (ص) والدفاع عنها ومؤازرتها حجة اخرى في هذا الطريق. فقد روى الخوارزمي مناشدة ابي طالب ابنه علياً (ع): «يا بُنَيَّ انصر ابن عمك ووازره». ومقتضى منطوق الرواية ان المعركة ضد الشرك تقتضي المناصرة والمؤازرة من قبل المؤمنين حتى يصلوا الى قلوب الناس، ويحركوها من اجل الايمان بالله سبحانه وبرسالته السماوية. وكان تأكيد ابي طالب على ذلك يعكس مقدار الفهم الذي كان يتمتع به نحو الدين الجديد. فكان يحثّ علياً (ع) قائلاً: «يا بُنَيَّ الزم ابن عمك، فانك تسلم به من كل بأس عاجل وآجل...»

فاشدد بصحبته على ايديكما»

ان الوثيقة في لزوم محمد

ووجه الدلالة هنا ان مخاطبته علياً (ع) بـ «ابن عمك» اشعاراً له (ع) بأنهما من شجرة واحدة وأصل واحد طيب طاهر. وقوله: تسلم به من كل بأس، هو السلامة الاخروية من سخط الله سبحانه وعذابه والسعادة الدنيوية عبر الايمان بالدين الجديد.

٤ - خاصية محمد (ص) وايمان ابي طالب:

ولولا خاصية النبوة وايمان ابي طالب لما كان شيخ قريش ورئيسها يمدح ابن اخيه محمداً، وهو شاب قد رُبِّيَ في حجره يتيم الابوين، فيقول فيه:

وتلقوا ربيعَ الابطحين محمداً على ربوةٍ في رأسٍ عنقاء عطيلٍ

وتأوى اليه هاشم، إن هاشماً عرانيين كعبٍ اخرٌ بعد أول

ومثل قوله:

وابيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للاراملِ

يطيف به الهلاك من آل هاشمٍ فهم عنده في نعمةٍ وفواضِلِ

ينقل ابن ابي الحديد في شرحه على نهج البلاغة عن علي بن يحيى البطريق قوله: «فان هذا الاسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والدُّنابي من الناس، وانما هو من مديح الملوك والعظماء، فاذا تصورت انه شعر ابي طالب، ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمد (ص)، وهو شابٌ مستجير به، معتصم بظله من قريش، قد رباه في حجره غلاماً، وعلى عاتقه طفلاً، وبين يديه شاباً، يأكل من زاده، ويأوي الى داره، علمت موضع خاصية النبوة وسرها، وان امره كان عظيماً، وان الله تعالى اوقع في القلوب والانفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً». وعلمت ايضاً منزلة ابي طالب ذاك الشيخ العظيم وايمانه برسالة محمد (ص) وتواضعه لابن اخيه اليتيم الذي كان يرى فيه نور النبوة وجلالها وجمالها. ومن اجل ذلك كان ابو طالب يخشى على رسول الله (ص) كيد الاعداء من المشركين واليهود وغيرهم. وقد ورد ما يشير الى ذلك، كما في امالي ابي جعفر محمد بن حبيب منقولاً في «شرح النهج»: ان ابا طالب كان كثيراً ما يخاف على رسول الله (ص) البيات اذا عرف مضجعه، فكان يقيمه ليلاً من منامه، ويُضجع ابنه علياً مكانه، فقال له علي (ع) ليلة: يا أبتِ، اني مقتول، فقال له:

اصبرن يا بُنيَّ فالصبر أحجى كلَّ حيٍّ مصيره لشعوبِ
قدَّر الله والبلاء شديدٌ لفداءِ الحبيبِ وابنِ الحبيبِ
لفداءِ الأغرِّ ذي الحسبِ الثا قبِ والباعِ والكريمِ النجيبِ
إن تصبك المنون فالنبل تَبرى فمصيبٌ منها، وغيرُ مصيبِ
كلُّ حيٍّ وإن تملَى بعمرٍ آخذٌ من مذاقِها بنصيبِ

فاجاب علي (ع)، فقال له:

اتأمرني بالصبرِ في نصرِ أحمدٍ ووالله ما قلت الذي قلتُ جازعا
ولكنني أحببتُ أن ترى نصرتي وتعلم أنني لم أزل لك طائعا
ساسعى لوجه الله في نصرِ أحمدٍ نبيِّ الهدى طفلاً ويافاعا

٥- مغزى الزعم بكفر ابي طالب:

وكان من لوازم الصراع الاجتماعي في عصر ما بعد رسول الله (ص) الطعن بايمان ابي طالب لأحد أمرين. الاول: ان الطعن باسلام ابي طالب كان من اجل خدش شخصية علي (ع) الرسالية. والثاني: ان الطعن باسلام ابي طالب كما مفاده تقوية موقف اخيه العباس حيث تمكنت ذريته لاحقاً من استلام الحكم وتأسيس فيما سُمي بالدولة العباسية على انقاض حكم الامويين.

فاما الاول فان اتهام ابي طالب بالكفر كان يؤمل فيه أن يكون مبرراً للطعن بشخصية امير المؤمنين (ع) لاحقاً. فتكفير ابي طالب هي بوابة لزعزعة الشخصية الرسالية لابنه (ع). فكانوا يتصورون ان الصاق تهمة الكفر بابي طالب ستكون عامل خدش في شخصية الامام المعصوم (ع) واخراجاً له من مفهوم الآية الكريمة الموجهة لرسول الله (ص): (... **وتقلَّبكَ في الساجدين**)، حيث كان (ص) ينتقل بين الاصلاب الطاهرة والارحام الزكية.

حتى وضعوا حديثاً عنه (ص) يزعم: «... ان ابا عبد الله [أباه] وآمنة [أمه] و ابا طالب [عمه] جمراتٌ من جمرات جهنم». وحسبهم انه روي عنه (ص) ان جبرئيل (ع) خاطبه (ص) بالقول: (ان الله مشقَّعك في ستة: بطنٍ حملتك: آمنة بنت وهب ؛ و صُلْبٍ أنزلك: عبد الله بن

عبد المطلب ؛ وحجر كفلك: ابي طالب ؛ وبيت آواك: عبد المطلب ؛ وأخ كان لك في الجاهلية _ قيل: يا رسول الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخياً يطعم الطعام ويجود بالنوال _ ؛ وثدي ارضعتك: حليلة بنت ابي ذؤيب). ولا شك ان مفهوم الشفاعة منحصر في اسقاط العقوبة عن المؤمنين المذنبين، لكنها لا تشمل الكافرين كما جاء في الذكر الحكيم: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم...). فتكون شفاعته للمؤمنين من ارحامه، كما هو واضح في البطن الذي حملته، والصلب الذي انزله، والحجر الذي كفله، والبيت الذي آواه، والاخ الذي كان له قبل الاسلام، والثدي الذي ارضعه. ولا يمكن ان ننفي الايمان عن هؤلاء الاطهار من ارحامه، بل يفترض ان لهؤلاء ذنوباً تمحوها شفاعته (ص). ومن الجلي ان منطوق الرواية يدل على تقييد الشفاعة هنا بارحامه فقط. ولكن بموجب القاعدة وبضميمة روايات اخر ندرك ان الوارد لا يقيد المورد. فتكون شفاعته عامة لكل المؤمنين المذنبين.

وسياق الحديث منسجم مع اخلاقية الاسلام ورحمته، ومتوافق مع المشهور عنه (ص): نقلنا من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الزكية. فوجب بهذا ان يكون ابؤه كلهم منزهين عن الشرك، لانهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين.

واما الثاني فان الطعن باسلام ابي طالب يؤدي الى تقوية موقف العباس عم النبي (ص)، حيث تمكنت ذرية العباس من اقامة الدولة العباسية. وكان ذلك الالتصاق ضعيفاً في حينه، بحيث ان عبد الله بن عباس حينما سُئل هل ان ابا طالب مات كافراً، اجاب:

كذبتم وبيت الله نسلم احمداً

ولما نقاتل دونه ونناضل

ونتركه حتى نصرع حوله

ونذهل عن ابنائنا والحلائل

ولكن المنقّب في التاريخ الاسلامي يجد ان قضية اسلام ابي طالب لم تُشر الا بعد تسلم بني العباس السلطة، خصوصاً خلال فترة المنصور العباسي. ولاشك ان العباسيين يرجعون الى العباس بن عبد المطلب الذي اسلم لاحقاً، بينما يرجع الطالبيون من بني هاشم الى ابي طالب الذي زُعم بانه لم يعلن اسلامه. وفي ذلك دليلان.

الاول: ان معاوية الذي حارب علياً (ع) بشتى الاساليب لم يطعن باسلام ابي طالب، مع انه لم يُعرف عن معاوية انه رعى يوماً عهداً ولا ذمّةً مع الامام (ع). وكان علي (ع) يهاجم معاوية في امه هند، وابيه ابي سفيان من مذاّم ومثالب. ولكن معاوية لم يشر الى عدم اسلام ابي طالب. وهذا دليل على ان اسلام ابي طالب كان امراً واضحاً للجميع، بحيث لم يجزأ معاوية على التشكيك فيه في تلك الفترة من تأريخ الاسلام.

الثاني: في (المعاني) باسناده فيه رفع عن موسى بن جعفر (ع) فيما جرى بينه وبين هارون الرشيد وفيه:

قال هارون: فلم ادعيتكم انكم ورثتم رسول الله (ص) والعم يحجب ابن العم، وقبض رسول الله (ص) وقد توفي ابو طالب قبله والعباس عمه حي...

فقلت: ان النبي (ص) لم يورث من لم يهاجر ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر.

فقال: ما حجّتك فيه؟

قلت: قول الله تبارك وتعالى: (... والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا...). وان عمي العباس لم يهاجر.

فقال: اني سائلك يا موسى هل افيتت بذلك أحداً من اعدائنا ام اخبرت احداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟

فقلت: اللهم لا وما سألتني عنها الا امير المؤمنين _ يعني هارون الرشيد _.

والتحقيق، ان كلا الامرين وجدا في نفوس زعماء الصراع الاجتماعي ما يحقق مآربها في تضعيف شخصية ابي طالب واتهامها بالكفر وانها جمرة من جمرات جهنم. وعلى أي حال، فان ابا طالب كان عميد البيت الهاشمي وراعيه خلال الفترة التاريخية الحرجة التي ظهر فيها الاسلام. حيث رعى النبوة والامامة في بيته وغذاها بجميل اخلاقه. واسلم على يدي رسول الله (ص) في وقت كانت قريش تخشى شيخ الاباطح وترهبه. واضمر اسلامه، ولكن لم يضمم حمايته لرسول الله (ص) بالغالي والنفيس.

ملخص الدلائل العلمية على ايمان ابي طالب

ونعرض هنا ملخص الافكار التي وردت حول ايمان ابي طالب عبر النقاط التالية:

١ _ كان ابو طالب يعتقد بلغوية عبادة الاصنام وبطلانها، ولم يسجل له التأريخ انه عبد صنماً او سجد لوثن ابداً، وكان ابوه عبد المطلب مثل ذلك تماماً.

٢ _ ان ابا طالب لم ينكر على ابنه علياً (ع) الايمان بمحمد (ص) وبرسالته السماوية ولم يزجره. مع ان المعروف ان الابناء على دين آباءهم. وكانت العرب تحض أبنائها على الايمان بمعتقداتهم وعاداتهم. وقد اشار القرآن المجيد الى ذلك على لسانهم: (... **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**). بل انه امر ابنه جعفرأ بأن ينضم الى اخيه علي (ع) في الصلاة مع النبي (ص). وفي ذلك قال شعراً:

ان علياً وجعفرأ ثقني
عند مُلِمِّ الخطوب والنُوبِ
لا تخذلاه، وانصرا ابن عمكما
أخي لأمي، من بينهم، وأبي
والله لا أخذل النبي ولا
يخذه من بنيّ ذو حسبِ

٣ _ ان ابا طالب لم ينكر على زوجته فاطمة بنت اسد اسلامها. فكانت ثاني امرأة تدخل الاسلام بعد خديجة بنت خويلد. فلو لم يكن ابو طالب مسلماً لما أقرَّ خروجها الى عقيدة منافية تماماً لعقيدته.

٤ _ ان الرابطة الدينية بينه وبين محمد (ص) كانت أقوى من روابط النسب والسبب. وكان ابو طالب وابو لهب من اعمام رسول الله (ص). فلو كانت القبلية هي التي دعت ابا طالب لمناصرة ابن اخيه، فلماذا لم تكن تلك القبيلة ذاتها مدعاة لمناصرة ابي لهب له؟ فكلاهما من اعمام رسول الله (ص)، وكلاهما يرجعان نسباً اليه في نفس الرتبة.

ان عقيدة ابي لهب الوثنية الفاسدة قد اخذت جميع آفاق عقله وتفكيره، بينما اخذت عقيدة ابي طالب التوحيدية جميع آفاق عقله وتفكيره. فكانت مناصرته لرسول الله (ص) مصداقاً

لذلك التفكير. وكان ابو لهب مصداقاً لتفكيره الوثني. اذن نستنتج من ذلك ان الرابطة العشائرية لم تكن تدفع ابا طالب نحو مناصرة ابن اخيه، بل كانت الرابطة الدينية وانوار النبوة وجلالها وجمالها هي التي تدفع ابا طالب نحو اتباع النبي الأمي ابن اخيه اليتيم (ص).

٥ _ تحمّل ابو طالب في مناصرة رسول الله (ص) الكثير من المحن والمصاعب، كالعزلة الاجتماعية في شعب ابي طالب ثلاث سنوات متواصلة مع بني هاشم، والتحديات الاجتماعية التي كان يتعرض لها من فحول قريش المشركين. ولكنه كان صامداً وثابتاً في نصرة محمد (ص) في كل ظرف وفي كل موقع. وبقي كذلك محامياً عنه (ص) وعن دعوته حتى وفاته (رضوان الله عليه).

(تليها ص ١٦١ - ١٧٠)

١ «انساب الاشراف» - البلاذري ج ٢ ص ٢٣.

٢ م. ن. - ج ٢ ص ٢٣.

٣ «شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٧٠، ٧١.

٤ «شرح نهج البلاغة» ج ٣ ص ٣١٦.

٥ «المستدرك على الصحيحين» ج ١ ص ٣٥١.

٦ م. ن. - ج ٢ ص ٦٢٣.

٧ سورة المجادلة: آية ٢٢.

٨ «شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٧٠.

٩ م. ن. - ج ١٤ ص ٧٠.

١٠ «الطبقات الكبرى» - لابن سعد. ج ١ ص ٧٥.

- ١١ سورة الشعراء: آية ٢١٤.
- ١٢ «اسنى المطالب» - الوصابي باسناده عن امير المؤمنين (ع). الباب الثالث ص ١٢.
- ١٣ «الكامل في التاريخ» - ابن الاثير. ج ٢ ص ٦٠ - ٦١.
- ١٤ انهد فتى: اشده واقواه.
- ١٥ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٧٥.
- ١٦ «المناقب» - الخوارزمي. ص ٧٨.
- ١٧ «شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٧٠، ٧٥.
- ١٨ م. ن. - ج ١٤ ص ٦٣.
- ١٩ الشعوب: المنية.
- ٢٠ «شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٦٤.
- ٢١ سورة الشعراء: آية ٢١٩.
- ٢٢ «شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٦٧.
- ٢٣ م. ن. - ج ١٤ ص ٦٧.
- ٢٤ سورة التوبة: آية ٨٠.
- ٢٥ «شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٦٧.
- ٢٦ «توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل» - الايجي. القسم الثاني ص ٢٤٢. مخطوطة.
- ٢٧ سورة الانفال: آية ٧٢.
- ٢٨ تجد الرواية في كتاب «الاختصاص» المنسوب للشيخ المفيد.

٢٩ سورة الزخرف: آية ٢٣.

٣٠ «يوم الدار» - طالب الرفاعي. ص ١٢٣.

(ص ١٦١ - ١٧٠)

الفصل الثالث

فاطمة بنت اسد ام علي (ع)

فاطمة بنت اسد الدلالات العلمية للنصوص معاني الأمومة: ١- الحبّ والتقبل العائليين. ٢-

هل يمكن احتلال دور الأم؟ أم طالب: الأمومة التوحيدية الصادقة.

فاطمة بنت أسد

فاطمة بنت اسد بن هاشم ابن عبد مناف، اجتمع نسبها بنسب النبي (ص) في هاشم الجد الثاني. فكانت اول هاشميّة ولدت هاشمياً، كما المحنا الى ذلك آنفاً. وهي اول امرأة بايعت محمداً رسول الله (ص) بمكة بعد خديجة (ع)، وكانت اول امرأة بايعت رسول الله (ص) من النساء، وهي اول من هاجر من النساء من مكة الى المدينة ماشية حافية. فكانت رضوان الله عليها من السابقات الى الايمان برسالة محمد (ص) بعد خديجة وعلي (ع).

والمشهور عنها أنها كانت تعتنى برسول الله (ص) فتجوع وتشبعه وتعري وتكسيه وتمنع نفسها طيب الطعام وتطعمه تريد بذلك وجه الله الكريم عزّ وجلّ والدار الآخرة، كما نعاها رسول الله (ص) بمثل تلك الكلمات عندما توفيت فلا ريب انه (ص) كان ينزلها بمنزلة أمّه ويكرمها في حياتها ومماتها.

وفي الرواية انه لما ماتت فاطمة أم علي بن ابي طالب، ألبسها رسول الله (ص) قميصه ثم كفنت بعد ذلك فوقه واضطجع في قبرها ودعا لها، نادياً الذي يحيي ويميت وهو حيّ دائم لا يموت: «اغفر لأمي فاطمة بنت اسد ولقنها حجتها وأوسع عليها في مدخلها بحقّ محمد نبيّك والانبياء الذين من قبلي فانك أرحم الراحمين». فقالوا لرسول الله (ص): ما رأيناك صنعت ما صنعت بهذه، فقال (ص): «... ان هذه المرأة كانت أمي بعد أمي التي ولدتني، إن أبا طالب كان يصنع الصنيع وتكون له المأدبة. وكان يجمعنا على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضّل منه، كله نصيبنا، فأعود فيه. وان جبرئيل (ع) أخبرني عن ربي عزّ وجلّ انها من أهل الجنة...».

الدلالات العلمية للنصوص

١- يستفاد من تلك النصوص ان ابا طالب لم يكن وحده مدافعاً عن رسول الله (ص) ومحامياً له، بل كانت زوجته ام طالب تكرمه (ص) وترعاه في شؤونه البيتية كما ترعى ولدها علياً

(ع). وهذا الوجه يعكس وحدة بيت الموحدين وتماسكه في قضايا الرسالة والحياة. ولولا رعايتها لرسول الله (ص) في الطفولة لكان الاهمال قد أحدث شرخاً في الجانب العاطفي من شخصيته الشريفة خصوصاً وانه (ص) كان يتيم الابوين. فلأم طالب دور عظيم في التخفيف عن آلام رسول الله (ص) ومعاناته زمن الطفولة.

٢- ان نزول رسول الله (ص) في قبرها وإلباسها قميصه وتكفينها وحفر لحدها بيده الشريفة قبل ذلك، كله يدل على أنها كانت جزء من البيت النبوي في اسلامها وايمانها. فكل فعل يقوم به رسول الله (ص) له مغزى رسالي ديني وقد مات في حياته (ص) عددً من ارحامه وأفراد عشيرته، فلم يفعل ذلك معهم. فكان استفهام أصحابه بأنهم لم يروه يصنع بأحد ما صنع بأم طالب في محلّه. لانهم يفهمون انه لا يتصرف الا بوحى الرسالة الالهية الموحاة اليه.

٣- حاولت بعض الروايات ان تجعل من اعتناء فاطمة بنت اسد برسول الله (ص) من باب الاهتمام بسد حاجاته المادية من طعام وكساء فحسب، وهو لا شك مهم لانه (ص) كان يتيم الأبوين. ولكن قراءة معمّقة لحياة أم طالب تكشف عن ثقافتها الدينية ، وانها كانت تهتم بمحمد (ص) من باب مقدمات التهيئة الالهية لمستقبله الجليل.

٤- كان من آثار الصراع الاجتماعي بين بني هاشم وبني امية، ان السلطة الظالمة زعمت انها ماتت قبل الهجرة، من اجل التشكيك في اسلامها ايضاً. ومن ثم التشكيك بشخصية ابنتها امير المؤمنين (ع). ولكن ذلك الزعم لم يكن ذا بال. خصوصاً وان رسول الله (ص) فعل عند وفاتها، على رؤوس الاشهاد، ما لم يفعله مع غيرها.

معاني الأمومة

قال رسول الله (ص) عندما دفن ام طالب: «... ان هذه المرأة كانت امي بعد امي التي ولدتني...». وقد توفي والده «عبد الله» وهو في بطن امه، وتوفيت امه آمنة بنت وهب وهو في السادسة من عمره، فتكفله عبد المطلب ثم ابو طالب. فما معنى الامومة الاعتبارية تلك؟

لا شك ان الامومة من أعظم المسؤوليات التي تستطيع المرأة تحملها. فالام ترى في طفلها الضعيف كياناً متعطّشاً لطلب الطعام، والكساء، والملجأ، والحب، والتشجيع. فوظيفة

الامومة لا تنقطع بل تستمر دوماً مع الحياة . والامومة تختلف عن الزواج، لان الزواج يمكن ان ينتهي بالطلاق، بينما لا يمكن ان تنتهي الامومة بالتخلي عن الطفل. فالطفل دائماً يحتاج الى اشباع حاجاته العاطفية والنفسية والجسدية من قبل الام.

الحب والتقبل العائليين:

ان الطفل او الصبي يحتاج في حياته الطويلة الى حب وتقبل عائليين. وعندما يشعر الصبي بعمق انه محبوب عائلياً، فان شخصيته العاطفية تنمو بتكامل واضطراب. خصوصاً عندما تُبنى قواعد الثقة بينه وبين والديه، وبينه وبين الافراد الذين يحيطون به.

وقد كان رسول الله (ص) يشعر _ وهو صبي _ ان بيت ابي طالب كان مكاناً آمناً ومنبعاً للحب والألفة والتقبل العائلي والطعام والمأوى النفسي. وكان لام طالب (رضوان الله عليها) دور كبير في تأمين ذلك. وعندما احس ذلك الصبي العظيم (ص) ان العالم الصغير من حوله عالم انسجام وحب ورحمة، بدأ يبني علاقة الأمومة مع امه الاعتبارية ام طالب.

ان المراحل التي يمر بها الانسان في حياته من طفولة وصبا وبلوغ متصلة بعضها ببعض، فاذا انتهت مرحلة من تلك المراحل تهيأ الانسان للدخول في مرحلة اخرى. فمن تلك المراحل التي يمر بها الطفل: مرحلة الاعتماد الكامل على الأم أو المرضعة، مرحلة الاستقلالية النسبية والأمن من المحيط المجهول، مرحلة الاحساس بالحب والحنان من قبل الأبوين. وربما تتداخل تلك المراحل مع بعضها البعض، الا ان المرحلة الاخيرة هي من اهم مراحل تكامل نمو الانسان في الطفولة. فالحب والحنان يساعدان الطفل على الدخول من بوابة النمو العقلي السليم. واذا حُرم الطفل من الحب والحنان ايام الصبا، فانه سيحمل الكثير من العقد النفسية والشعور بالنقص وعدم القدرة على التفكير. ومن هنا كان دور ابي طالب وزوجته عظيماً في بناء شخصية محمد اليتيم (ص). فعن طريق الحب والحنان والاعتناء بمأكله وملبسه وتشجيعه على الاندماج مع الجو العائلي، قامت ام طالب بمهام دور الأم الحنون لابنها الاعتباري الذي كان يحمل هموم الكون والحياة وتقديم الخيارات له ليختار الافضل.

ولا يشك احد ان استقرار شخصية رسول الله (ص) الفكرية والعاطفية كان بفضل الحب والحنان اللذان أفاضهما ابو طالب وزوجته عليه (ص) زمن الصبا. وبذلك، فعندما بلغ مبلغ الرجال وتوجه الى غار حراء لعبادة الله عزّ وجلّ كان (ص) قد وضع مرحلة الحب والحنان اللذين أشبعتهما عائلة ابي طالب وراءه. وبدأ ينظر الى الخلق والخالق والوجود، وبدأ يعبد الخالق الواحد وهو في شخصية فكرية وعاطفية متكاملة لا يشوبها نقص عاطفي او نفسي.

ان البيوت التي تربي أبناءها على العقل والحكمة، هي نفس البيوت التي تغمرهم فيها بالحب والدفء والحنان. وعندها يتعلّم الصبي طريقة اختيار القرار، وطبيعة التعامل الاجتماعي، والكفاءة في تأدية الواجبات المناطة به. ومنها ينطلق الانسان الى المجتمع مسلّحاً بالخبرة الأسرية من اجل استثمارطاقاته وتوظيفها لخدمة الناس. والخبرة الأسرية تعني سلوك الصبي أو الرجل سلوكاً عرفياً يتقبّله المجتمع . ولو كانت عائلة ابي طالب وثنية لعلمت أبناءها وبضمنهم محمد (ص) أساليب عبادة الوثن، ولكنها كانت عائلة توحيدية ابراهيمية علمت أبناءها معاني التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد وعلمتهم بأن لهم خالقاً واحداً هو الله سبحانه.

فالجو الذي كانت تشيعه ام طالب في وسطها الأسري كان جوّاً توحيدياً مؤمناً برسالة ابراهيم ورسالة موسى وعيسى (عليهم السلام)، ورفضاً عبادة الاصنام والوثنية في وقت كانت اجواء مكة وازقتها تعج بالثقافة الوثنية التي جعلت لله عزّ وجل أكثر من شريك.

٢- هل يمكن احتلال دور الأم ؟

والسؤال الذي نحاول الاجابة عليه هو: هل ان ام طالب نجحت في احتلال موقع آمنة بنت وهب ام رسول الله (ص)؟

ان الامومة على نوعين: جعلية واعتبارية. فالامومة الجعلية مرآة للعلاقة الطبيعية التي تُنشئها الام مع وليدها الصغير. بينما تكون الامومة الاعتبارية وسيلة تعويض تقوم بها امرأة صالحة لإحداث آصرة الامومة مع طفل لم تلده. ولا شك ان اهم خطوة قامت بها ام طالب مع محمد (ص) وهو صبي هي اقامة آصرة الامومة. وتلك الآصرة يمكن اقامتها عن طريق الحنان والحب والرحمة واشباع الحاجات العاطفية للطفل او الصبي. وبذلك تستطيع امرأة مثل ام طالب احتلال

موقع ام رسول الله (ص) الى حد انه يصفها بتعبير «أمي بعد أمي التي ولدتني...». واذا اضفنا الى شخصية ام طالب: العلم الابراهيمي التي كانت تحمله، تبين لنا انها لم تكن مجرد امرأة تعيش عصراً جاهلياً، بل كانت مؤمنة موحدة عالمة ومربية توحيدية من الدرجة الاولى. ولم يكن محمد (ص) آخر صبي عاش مع ام طالب (رض).

بل عاش علي (ع) مع امه في بيت واحد حتى بلغ السادسة من عمره. وما ان بلغ الربيع السادس من عمره حتى ضمه رسول الله (ص) اليه في بيته.

أم طالب: الامومة التوحيدية الصادقة

لا شك ان الامومة وظيفة تُكَلَّف بها المرأة بسبب طبيعتها التكوينية، وبسبب قدرتها على منح الحب والحنان لوليدها الصغير. ولا شك ان الام توفّر لوليدها الأمان من المحيط المجهول الذي يرى نفسه فيه. واكثر الامهات منحاً للأمان هي الأم التي تصمم حياتها على اساس العلم والمعرفة. فهنا تحاول الأم العارفة ان تزرع في ذهن وليدها افكاراً صحيحة واقعية عن العالم الذي يعيش فيه طفلها، بينما تحاول الام الجاهلة ان تحشو ذهن وليدها بمعلومات اشبه ما تكون بالخرافات عن ذلك المحيط. ومن هنا نعلم اهمية الأم العارفة التي تضطلع بنقل ثقافتها الدينية الى أبنائها وبناتها. وقد كانت ام طالب (رضوان الله عليها) مثلاً رائعاً من امثلة الامومة المصحوبة بالمعرفة والايمان. والدليل على ثقافتها التوحيدية هو:

١- دعاؤها عندما اخذها الطلق بجنينها علي (ع): «ربّ اني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، واني مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل، وانه بنى البيت العتيق، فبحقّ النبي الذي بنى هذا البيت وبحقّ المولود الذي في بطني لما يسرت عليّ ولادتي».

٢- قولها عندما جاءت بابنها علي (ع) وليداً: «اني فضلت علي من تقدمني من النساء لان آسية بنت مزاحم عبدت الله سراً في موضع لا يحب الله ان يعبد فيه الا اضطراراً، وان مريم بنت عمران هزّت النخلة اليابسة بيدها حتى أكلت منها رطباً جنياً، واني دخلت بيت الله الحرام فأكلت من ثمار الجنة وأرزاقها...».

٣- ما فعله رسول الله (ص) عند وفاتها قائلاً بأنها أمه بعد أمه التي ولدته.

ولو حللنا قولها عند ولادتها ابنها علياً (ع) للاحظنا بأن لديها علماً ابراهيمياً حول الانبياء والظروف التي مرّوا بها من ابراهيم الخليل (ع) وحتى عيسى (ع). ولا شك ان الديانة الابراهيمية التوحيدية كان يؤمن بها الثلثة الطيبة من بني هاشم من اجداد رسول الله (ص) كعبد المطلب وأبي طالب وعبد الله ابي النبي (ص).

وبكلمة، فان ثقافة ام طالب الابراهيمية التوحيدية لم يكن امراً خارجاً عن مقتضيات سلالة النبوة ودوحة المصطفى (ص). ولا شك ان تلك الثقافة التاريخية حول الانبياء (ع) وذلك الايمان بالله الواحد الاحد كان لهما الاثر البالغ على طهارة علي (ع) وصلابة منشأه وحسن توجهه، وهو لا يزال غضاً صغيراً يرضع من امه معاني الحكمة والتوحيد.

وبطبيعة الحال، فان الأبوين يحاولان دائماً تربية أبنائهما بما يتناسب وقيمهما المذهبية. فاذا كانا يؤمنان بالتوحيد نشأ ابنهما موحداً، واذا كانا يؤمنان بالشرك نشأ مشركاً. وكانت فاطمة بنت أسد (رضوان الله عليها) تحاول ان تبني اولادها على اساس الطهارة والتبرأ من عبادة الاوثان، وعلى اساس تحمل المسؤولية في ايجاد عقيدتهم الدينية التوحيدية وعلى اصل طاعة الأبوين. ومن هنا ندرك ان التعلم الاجتماعي الذي استقاه علي (ع) من امه في السنوات الست الاولى من حياته كان نابعاً من مصدر توحيدي نقي. ومن الطبيعي فعندما يحاول الطفل اكتشاف الاشياء والاحداث في حياته المبكرة، فان سلوكه سيكون محدوداً بحدود سلوك افراد عائلته الصغيرة بالعموم وسلوك امه بالخصوص. ولذلك فان أي تأثير لام طالب على ابنها علي (ع) يفهم على اساس انه تأثيرٌ له جذور ابراهيمية توحيدية، وليست له جذور وثنية بالمرّة.

(نهاية ص ١٧٠)

١ «تذكرة الخواص» - سبط ابن الجوزي ص ١٠.

٢ البسها قميصه: أي وضعه عليها.

٣ «كفاية الطالب» للشنقيطي ص ٢٢ . و«المناقب» للخوارزمي ص ١٣ .

٤ «المستدرك على الصحيحين» ج ٣ ص ١٠٨ .

٥ «المستدرك على الصحيحين» ج ٣ ص ١٠٨ .

٦ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ١٧٧ .

٧ «امالي الشيخ الصدوق» ص ١١٤ ح ٩ .

٨ «معاني الاخبار» ص ٦٢ ح ١٠ .

٩ «المستدرك على الصحيحين» ج ٣ ص ١٠٨ .

(ص ١٧١ - ١٩٦)

الفصل الرابع

مع رسول الله (ص) ايام الطفولة والصبأ

فترة الطفولة والصبأ: جنباً الى جنب مع رسول الله (ص) الدلالات العلمية للنصوص الاجواء الوثنية في مكة التعليم في الصغر: ١- الاستعداد الذاتي. ٢- طرق التعلم الديني. إليات التعليم النبوي: ١- اللغة والالفاظ: أ- اللغة والنفس. ب- اللغة والثقافة الدينية. ٢- الدين. ٣- العواطف: التنمية الاخلاقية والعاطفية. ٤- الاخلاق فترة التحصيل مع رسول الله (ص): ١- اهتمامات المعلم والتلميذ. ٢- علي (ع) والترية النبوية الحقة.

فترة الطفولة والصبأ: جنباً الى جنب مع رسول الله (ص)

بعد ان تزوج رسول الله (ص) بخديجة بنت خويلد (رضوان الله عليها)، انتقل من دار عمه ابي طالب الى بيت الزوجية الجديد. وبعد احد عشر عاماً من زواجه من خديجة ضم (ص) علياً (ع) اليه. فقد «كان من نعمة الله تعالى على علي بن ابي طالب (ع) ان قريشاً [قبل الاسلام] اصابتهم شدة وكان ابو طالب ذا عيال. فقال رسول الله (ص) للعباس: ان اخاك ابا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا فلنخفف من عياله. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا ابا طالب، فقالا له: انا نريد ان نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما ابو طالب: اذا تركتما لي عقياً فاصنعنا ما شئتما. فاخذ رسول الله (ص) علياً فضمه اليه. واخذ العباس جعفرأ فضمه اليه، فلم يزل علي مع النبي (ص) حتى بعثه الله عزّ وجل فتابعه وآمن به وصدقه».

ومن كلام له (ع): «انا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر. وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقراية القريبة والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وانا ولد يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه». والظاهر ان ذلك كان قبل ان يضمه اليه (ص)، فمضغ الشيء واطعامه يصدق على وضع الطفل الصغير الذي لم تظهر أسنانه أو لا يملك قواطع تقوى على المضغ. ثم يقول: «... وما وجد لي كذبة في قول ولا خطله في فعل». وهو يدلّ على مراحل لاحقة في حياته، وربما بعد انضمامه (ع) الى بيت رسول الله (ص).

وفي كتاب «مطالب السؤل» ان النبي (ص) رباه «وازلفه وهداه الى مكارم الاخلاق وتقفه». وبالاجمال، فقد كان علي بن ابي طالب (ع) في حجر رسول الله (ص) قبل الاسلام، وهي ميزة لم يختص بها احد غيره.

ومن كلام له (ع) متحدثاً عن اخلاقية رسول الله (ص): «ولقد قرن الله تعالى به (ص) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليلته ونهاره. ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه، ويأمرني بالافتداء به... ولقد كان يجاور بكل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري».

الدلالات العلمية للنصوص

يُستنتج مما ذكر من نصوص ان طفولة علي (ع) كانت ارضاً بكرّاً لرسول الله (ص) يغرس فيها ما يشاء من علم ومعرفة وحكمة ودين. ويمكن استلهام ذلك من النقاط التالية:

١- كانت مبادرة رسول الله (ص) بسؤال عمه العباس للتخفيف عن ابي طالب، ثم اختياره لضم علي (ع) الى جنبه قضية متميزة. فتلک القضية لم تكن مجردة عن مضامينها الرسالية والدينية. خصوصاً اذا ما لوحظ اعجازية ولادة علي (ع) في الكعبة المشرفة، والبركة والخير للذين رافقوا تلك الولادة، واهتمام رسول الله (ص) بذلك. فلو كانت القضية مجرد اختيار عابر لاختار (ص) جعفرًا مثلاً. ولكن قضية الاختيار كانت قضية محكمة ليكون علي (ع) الى جنب رسول الله (ص) يصنع الاحداث الجسيمة اللاحقة ويشارك في توجيهها. ويؤيده كلامه (ع): «... وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة...». ولا تأتي المنزلة الخصيصة الا بميزة يمتاز بها المُنزَل عند المُنزِل.

٢- اذا ضمنا مناصرة ابي طالب لرسول الله (ص) بعد النبوة ورعايته قبلها، لاستنجنا بان تركه قرار الاختيار لرسول الله (ص) كان قراراً حكيماً، خصوصاً ان ابا طالب كان يلحظ الاهتمام الذي كان يوليه رسول الله (ص) لعلي (ع) وهو لما يزل حدثاً صبيّاً. ولا شك ان رسول الله (ص) كان مصمّماً على اختيار وزيره وناصره. فكان سؤاله (ص) ابا طالب سؤال تأدب فضلاً عن كونه سؤال اقتضاء.

٣- مع ان المؤرخين لم يذكروا على وجه التحديد السنة التي ضمّ فيها علي (ع) الى بيت النبي (ص)، لكن المقطوع به ان ذلك كان بعد زواجه (ص) بخديجة (رضوان الله عليها). والمفترض ان علياً (ع) كان صبيّاً عمره ست سنوات، لان المشهور انه اسلم (ع) وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره. فيكون بقاؤه مع النبي (ص) قبل اسلامه سبع سنوات كما سنبحث ذلك في الفصل القادم باذنه تعالى.

٤- ان من آثار التربية النبوية لعلي (ع) في تلك السن المبكرة هي انها رسّخت الخصال النبوية فيه (ع)، فشبّ معها ذلك الصبي المتميز على منهج رسالي مرسوم. ولا شك ان اشتمال

النبى (ص) على سجايا النبوة وشمائلها كان امراً عظيماً تقف امامه العقول منبهرة والعواطف جياشة والعيون خاشعة. فهو صاحب الجلال والكمال والجمال النبوي. فلا ريب ان نرى علياً (ع) يتعلم من رسول الله (ص) كمال الادب وعظمة الخلق وعفة اللسان وسماحة النفس والشجاعة والأيد. كما اشار الى ذلك بقوله: «... ولقد كنت اتبعه اتّباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه...».

بل انه (ع) شهد علامات النبوة التي اعترت رسول الله (ص) بعد نزول الوحي. وهو الذي قال: «كنا مع رسول الله (ص) بمكة، فخرج في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل، الا قال له: السلام عليك يا رسول الله...». وهو منسجم مع اعجازات الرسالة السماوية، والقدرة الالهية على فعل الاشياء الخارقة للعادة. مع اننا نعلم بان الشجر والجبل من الاشياء الصماء التي لا تعقل ولا تنطق، ولكن ينطقها الذي يُنطق كل شيء.

والى ذلك أشير في حاشية «سيرة ابن هشام» قول السهيلي: «وهذا التسليم _ أي قول الاشياء الصماء السلام عليك يا رسول الله (ص) _ الاظهر فيه ان يكون حقيقة، وأن يكون الله انطقه انطافاً، كما خلق الحنين في الجذع. ولكن ليس من شرط الكلام _ الذي هو صوت وحرف _ الحياة والعلم والارادة. لانه صوت كسائر الاصوات، والصوت عرض في قول الاكثرين...».

وفي رواية مروية عن الامام الصادق (ع): «كان علي (ع) يرى مع النبي (ص) قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت». والمراد من الضوء والصوت ضوء الوحي وصوته. وهذا لا يتنافى مع جلال النبوة وحرمتها، فالموحى اليه هو رسول الله (ص) فقط. ولكن لكون علي (ع) الوصي والوزير والخليفة من بعده (ص) فانه كان يرى ويسمع. ولا شك ان الامر مقيد بزمان سبق زمن الرسالة. وهذا يؤكد ان النبي (ص) كان يمر بمرحلة اعداد وتهيئة للنبوة.

٥- لم يكن للذين حاربوا علياً (ع) بعد ظهور الرسالة من ميزة القرب من اجواء الوحي وعطر النبوة. فقد كان ابو سفيان ومعاوية وعمر يعيشون اجواء الوثنية في بيوتهم. هنا لا بد من التوقف قليلاً لبحث وجه من وجوه الاجواء الوثنية في مكة في الوقت الذي كان علي (ع) يعيش في بيت رسول الله (ص) اجواء الطهر والوحي والارتباط بالسماء.

الاجواء الوثنية في مكة

وكانت مكة تعيش قبل الاسلام أجواءً تسيطر عليها الافكار الاجتماعية الوثنية. وكان الذين دخلوا الاسلام لاحقاً وتنعموا بمرافقة النبي (ص) وصحبه، انفسهم من الناشطين في فعاليات ذلك المجتمع الجاهلي.

فقد كان ابو بكر يعيش مع والده «ابو قحافة» الذي كان اجيراً عند «عبد الله بن جدعان» للنداء على طعامه. والى هذا اشار امية بن الصلت في قصيدته التي يمدح فيها عبد الله بن جدعان:

له داع بمكة مشمعل وآخر فوق دارته ينادي

وكان «عبد الله بن جدعان» نخاساً يبيع الجواري في الجاهلية.

اما عمر بن الخطاب فقد كان دلالاً يسعى بين البائع والمشتري. وقيل انه كان في الجاهلية مبرطشاً وهو «الذي يكتري للناس الابل والحمير ويأخذ عليه جعلاً».

وطبيعة اسلام عثمان بن عفان [٢٠] تكشف عن المحيط الذي كان يعيش فيه. قال البلاذري: «ولما اسلم عثمان بن عفان اوثقه عمه الحكم بن ابي العاص ابن امية، رباطاً وقال: أترغب عن دين آباءك الى دين مُحدث، والله لا احلك ابداً، فلما رأى صلابته في دينه تركه. وحلفت امه (اروى بنت كرز) ألا تأكل له طعاماً، ولا تلبس له ثوباً، ولا تشرب له شرباً حتى يدع دين محمد، فتحولت الى بيت اخيها (عامر بن كرز) فاقامت به حولاً، فلما يئست منه رجعت الى منزلها. قالوا: وأتى عثمان ابا احيحة فقال له: اني قد آمنت واتبعت محمداً (ص) فقال: قُبِّحَتْ وَقُبِّحَ ما جئت به ثم خرج من عنده وأتى ابا سفيان بن حرب، فاعلمه اسلامه فعنفه».

اما معاوية بن ابي سفيان، فقد اسلم مع أبيه وأمه وأخيه يزيد يوم فتح مكة. والمقطع التالي يكشف عن الوضع الاجتماعي والاخلاقي الذي كان يعيشه اولئك النفر قبل الاسلام:

لما عزم النبي (ص) على فتح مكة، لجأ ابو سفيان الى العباس عم النبي مضطراً، والتمسه ان يأخذه الى رسول الله (ص). فاردفه العباس على بغلة رسول الله (ص) واتى به الى النبي (ص) بعد ما مكث ابو سفيان عشرين سنة عدواً لرسول الله (ص) يهجو المسلمين ويهجونه ويعاديه عداوة لم يعاها أحد قط. قال العباس لابي سفيان: ويحك اسلم واشهد ان لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله.

فحين عرض النبي (ص) الاسلام على ابي سفيان قال له: كيف اصنع بالعرى؟ فسمعه عمر بن الخطاب من وراء القبة فقال له: تخرأ عليها، فقال له ابو سفيان: ويحك يا عمر، انك رجل فاحش. فاسلم في الظاهر ولم يؤمن بقلبه. وذلك لما رواه المقرئ باسناده ان ابا سفيان دخل على عثمان، حين صارت الخلافة اليه، فقال: قد صارت اليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة واجعل اوتادها بني امية فانما هو الملك ولا ادري ما جنة ولا نار. وفي رواية اخرى انه قال: أهل في الدار احد غير بني امية؟ وكان اعمى فقيل له: لا. فقلا: تلقوها يا بني امية تلقف الصبيان للكرة، فوالله ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب.

اما هند زوجة ابي سفيان فقد كانت من اعداء الاسلام ومناصري الشرك والوثنية. يقول ابن الطقطقي: «وكانت في وقعة أحد، لما صرع حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) عم رسول الله (ص) من طعنة الحرب التي طعنها [وحشي] جاءت هند فمثلت بحمزة وأخذت قطعة من كبده فمضغتها حنقاً عليه لانه كان قد قتل رجلاً من اقاربها، فلذلك يقال لمعاوية: ابن آكلة الاكباد. ولما فتح النبي (ص) مكة حضرت اليه متكررة في جملة نساء من نساء مكة أتين ليباعنه، فلما تقدمت هند لمبايعته اشترط (صلوات الله عليه وآله) شروط الاسلام عليها، وهو لا يعلم انها هند. فأجابته بأجوبة قوية على خوفها منه. فمما قال لها وقالت:

قال لها (ص): «تبايعني على ان لا تقتلن اولادكن». وكانوا في الجاهلية يقتلون الاولاد.

فقال هند: اما نحن فقد ربناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر.

فقال (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي عزمنا ان نعصيك.

قال (ص): «وعلى ان لا تسرقن».

قالت: والله ما سرقت عمري شيئاً اللهم الا انني كنت آخذ من مال ابي سفيان شيئاً في بعض الوقت. وكان ابو سفيان زوجها حاضراً. فحينئذ علم رسول الله (ص) انها هند.

فقال (ص): هند؟

قالت: نعم يا رسول الله. فلم يقل شيئاً لان الاسلام جب ما قبله.

ثم قال (ص): «وعلى ان لا تزنين».

قالت: وهل تزني الحرة؟ قالوا: فالتفت رسول الله (ص) الى العباس (رضي الله عنه)

وتبسم».

فلا ريب ان الاسر الجاهلية في مكة وغيرها كانت ترتكب اعمالاً تتناسب مع الوضع الجاهلي السائد من عبادة للاصنام وشرب للخمر وانتهاك للحرمات. بينما كانت اسرة رسول الله (ص) واجداده من بني هاشم من الاسر الموحدة التي لم تلوثها الجاهلية بأعرافها وتقاليدها ومعتقداتها.

التعلم في الصغر

سمعنا آنفاً قوله (ع) وهو يشير الى معلمه الاول رسول الله (ص): «... ولقد كنت اتبعه

اتباع الفصيل اثر امه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه...». فماذا نستقرأ من ذلك؟

من الطبيعي ان ذهن الصبي صفحة بيضاء مستعدة لالتقاط العلم والمعرفة. والتعلم في الصغر يغير سلوك الانسان تغييراً نهائياً، لان العلم ذاته يؤدي الى ترجمة عملية للمعلومات المخزونة عند الفرد منذ الطفولة. فاذا كان العلم الذي يستلمه الانسان في الصغر علماً الهياً، فان ذلك سوف يرفعه الى مستويات من الكمال والجمال عندما يبلغ مبلغ الرجال. وكان في شخصية الصبي العظيم (ع) بذور الاستعداد الاستثنائي للاخذ من رسول الله (ص) معاني التوحيد وطبيعة الخلق والوجود وخصوصية العبودية لله سبحانه.

١ - الاستعداد الذاتي:

وكان ذلك الاستعداد الهائل عند علي (ع) لتقبل العلم الالهي واستيعابه نابغاً عن شخصيته الفريدة (ع) ولم يكن مستنداً على الاسلوب التعليمي التقليدي في مجازاة الطفل ثواباً أو عقاباً. ولا شك ان انتقال علي (ع) الى بيت رسول الله (ص) وهو في ربيع صباه، يعني انه (ع) سوف يكون قادراً _ عبر التعليم النبوي _ على صقل دوافعه الدينية نحو الخالق عزّ وجل، وعلى تنمية مواقفه الفكرية مع الشريعة القادمة، وعلى ترسيخ الجمالية الدينية والاخلاقية السماوية التي كان يتمتع بها نبي الرحمة (ص) في شخصيته (ع). وكان لتلك التربية النبوية أثراً واضحاً في قدراته اللغوية في الفصاحة والبلاغة، وأثراً أوضح في مهاراته الذهنية والعقلية فيما يتعلق باستيعاب قضايا الخلق والايجاد والوجود والحياة استيعاباً لم يسبق له مثيل. فلا عجب ان نسمع رسول الله (ص) يقول عنه (ع) يوماً: «انا مدينة العلم وعلي بابها».

٢ - طرق التعلم الديني:

لو طالعنا وصايا رسول الله (ص) لعلي (ع) في كتاب «تحف العقول عن آل الرسول (ص)» لابن شعبة الحراني (من اعلام القرن الرابع الهجري) وهو من علماء الامامية الافذاذ ومن مشايخ الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، لاكتشفنا بعضاً من اساليب التعليم النبوي لعلي (ع). فهو يقول (ص):

«يا علي: ان من اليقين ان لا تُرضي احداً بسخط الله...»

يا علي: انه لا فقر اشد من الجهل...

يا علي: آفة الحديث الكذب...

يا علي: عليك بالصدق ولا تخرج من فيك كذبة ابداً...

يا علي: في التوراة اربع الى جنبهن اربع: من اصبح على الدنيا حريصاً اصبح وهو على الله

ساخط...

يا علي: قلة طلب الحوائج من الناس هو الغنى...».

وهذا الاسلوب في التعليم النبوي لعلي (ع) يختلف عن التعليم التقليدي لعامة الافراد،
بالامور التالية:

أ- ان التعلم النبوي لا يخضع لتعليمات الحوافز العادية التي يمارسها عامة الناس، ذلك
ان شخصاً كعلي (ع) يستلهم العلم الضروري في حياته الرسالية من رسول الله (ص). وهو مقدار
يزيد ولا ينقص. بينما يستند التعلم التقليدي على عملية الحافز- الاستجابة عند الصبي فمن
خلال الخبرة المتبادية خلال مراحل الطفولة والصبا، يتعلم الانسان الكثير من المعارف والعادات
الاجتماعية. وكلما يختبر الانسان حافزاً في عملية التعليم، يستجيب له عبر المحاكاة والتقليد.
فاذا رأى الفرد مجتمعه مؤمناً بالوثنية، وهذا هو الحافر، فانه يستجيب له بالايمان بالوثنية عبر
محاكاة القوم وتقليدهم وهذه هي الاستجابة. بينما يخضع العلم الالهي المكتسب من معصوم
كرسول الله (ص) لعملية استيعاب استثنائية وقدرة عظيمة. وتلك القدرة توفرت عند علي (ع)
فكان العلم بالرسالة السماوية والايمان بها من هذا القبيل. فلم يؤمن علي (ع) بالاصنام ولا
بالاوثان، لان علمه لم يكن مقتبساً من المجتمع. بل كان علمه (ع) مستلهماً من سلوك رسول
الله (ص) لفظاً وعملاً

ب- ان عملية التعلم التقليدي عملية تدريجية بطيئة. بينما تكون عملية التعلم السماوي
عملية استيعاب سريعة بحيث يسقط الحساب الزمني فيها. فما يأخذه الانسان العادي خلال
عمر طويل، قد يأخذه المعصوم (ع) خلال فترة زمنية قصيرة. وهذا يفسر لنا نطق عيسى (ع)
وهو المهد، وإيتاء يحيى (ع) الحكم صبيّاً، وامامة الامامين الجواد والمهدي (عليهما السلام)،
وهما في مرحلة الصبا.

وما أخذه علي (ع) خلال سبع سنوات قبل الاسلام، أي منذ كان عمره ست سنوات وحتى
بلوغه الثالثة عشرة، كان كافياً لاستيعاب مفردات الرسالة الجديدة عندما اسلم. فكان اسلامه
(ع) اسلام وعي وفهم لا اسلام تقليد ومحاكاة. والى ذلك أشار (ع) في مخاطبته معاوية:

سبقتكم الى الاسلام طراً
غلاماً ما بلغت أوان حلمي

ج- ان عملية التعلم التقليدية عند الاطفال تخضع لعملية جزائية ثواباً أو عقاباً. أي انها تخضع اما الى الشاء على الطفل واطراءه من قبل أبويه عند تعلمه امرأ ما، أو الى توبيخه وضربه عند اتضاح جهله وعدم نباهته. بينما تخضع عملية التعلم السماوي الى الاستعداد الخاص للمعصوم (ع) لاستيعاب كميّة واقعية هائلة من المعلومات عن الحياة والوجود والخلق والخالق والشريعة والقانون ؛ بل كل ما يتعلق بالحياة الدنيوية ومقدار عظيم من خفايا الحياة الأخروية.

وفي كل تلك الحالات تكون النتيجة ان المعصوم (ع) ينشأ مسلحاً بفهم شامل وكامل للأحكام الواقعية والقضايا الحقيقية، بينما ينشأ الفرد الذي لم يوهب تلك النعمة ناقصاً في ادراكه للواقع ومحدوداً في كمية المعلومات التي يتقبلها.

آليات التعليم النبوي

كان رسول الله (ص) جاداً في طلب علي (ع) وهو في ربيع الصبا، من اجل هدف خُطط له، وهو بناء شخصيته بناءً فيه مصلحة للاسلام الى يوم القيامة. وكان رسول الله (ص) مهتماً بعلي (ع) من اجل ان يبني في شخصيته الرسالية أربعة اركان هي: اللغة، والدين، والعاطفة، والاخلاق.

واجتماع تلك الاركان في شخصية واحدة كشخصية علي (ع) كفيلاً بصنع قدوة من الطراز الاول بعد رسول الله (ص). فهو الذي جمع كتاب الله المجيد وفسره وبيّن محكمه من متشابهه وظاهره من باطنه وناسخه من منسوخه، وهو الذي قام بجميع مهمات الولاية الشرعية من بعد رسول الله (ص). وبقي الفكر الرسالي لامير المؤمنين (ع) مُشعاً، فيما جُمع ابلغ ما قاله في كتاب «نهج البلاغة» يهدي للأجيال المتلاحقة نور الرسالة . وبقيت شجاعته مضرب الامثال ورمز انتصار الايمان على الشرك. وبقيت اخلاقه منار هداية للعالمين . وبقى زهده وتقواه وتعبده، المثل الذي يحتذى في كل عصر ومصر.

١- اللغة والالفاظ:

ان اهم المهارات التي يتعلمها الفرد في مرحلة الصبا هي اللغة والفصاحة التي ينبغي ان يمارسها خلال مراحل حياته الجديدة. ونظرة معمقة لبلاغة امير المؤمنين (ع) نلاحظ المسحة

النبوية في عباراته من إحكام العبارة، وقوة المضمون، ومقدار اليقين في منطوق الكلمات ومفاهيمها.

أ - اللغة والنفس:

فان أهم ما يولده حسن تعلم اللغة عند الانسان هو السلوك اللفظي النظيف، وجمال التعبير الذي ينقل المعنى الى المخاطبين بصورة دقيقة وسليمة وخالية من الاضطراب والتشويش. وهذا الامر ينطبق على صورتين: الخطابة والكتابة. فالالفاظ او الحروف حالة توسطة في الخطاب بين المخاطب والمخاطب.

فاذا تعلم الفرد كلمة «السيف» مثلاً فانه يستطيع ان يستبدلها في ذهنه ويتلفظ بكلمة «الحسام» لنفس المعنى المطلوب. واذا تعلم لفظة «اللبون» فانه يستطيع استبدالها بلفظة «الناقة». واذا تعلم كلمة «الآنة» فانه يستطيع استبدالها بكلمة «الشاة».

فهنا لعب التوسط دوراً في اختيار الالفاظ التي تشترك في نفس المعاني . فالاصل ان يدرك الانسان معاني الاشياء، ثم يتعلم الالفاظ المرتبطة بها حتى يستطيع لاحقاً ايصالها الى الناس عبر تراكيب متعددة بليغة في غاية الدقة والجمال.

وكان علي (ع) يتعلم طبيعة اللغة الدينية من رسول الله (ص) مستنداً على ابعاد ثلاثة، لمسناها بوضوح خلال مراحل حياته اللاحقة الخصبة بالمعاني والاحداث. وتلك الابعاد هي:

الاول: البعد التقييمي، وهو الذي يقيم المعاني ويميزها على اساس الخير والشر، والمصلحة والمفسدة. بل على اساس مطلق الملائكات الخاصة بالاحكام والوقائع. كما نلمس ذلك من مطاوي الذكر الحكيم. يقول تعالى: (... وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)، (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم...)، (إنَّ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)، (إنَّ الذين إِمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ).

يقول الامام (ع) في التفريق بين الإمرة الخيرة والإمرة الشريفة، في رده على الخوارج: «أما الإمرة البرّة فيعملُ فيها التقيُّ، وأما الإمرة الفاجرةُ فيتمتع فيها الشقيُّ الى ان تنقطع مدّته وتُدركه مَنيته».

ويقول (ع) في صفة خلق الله الانسان وإعطائه القدرة على التمييز بين الحق والباطل: «... ثم نفخ فيها من روحه فمثلتُ انساناً ذا أذهانٍ يُجبلُها، وفكرٍ يتصرفُ بها، وجوارحٍ يستخدمها، وأدواتٍ يقبّلها، ومعرفةٍ يفرقُ بها بين الحق والباطل».

الثاني: بُعد الفعالية والنشاط، وهو الذي يميز المعاني على اساس النشاط والخمول، والفعالية وغير الفعالية، والمقاومة والإذعان. يقول تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...)، (... فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً...)، (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...)، (... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...).

يقول الامام (ع) في التمييز بين فعالية «الاجر الآخروي» وعدم فعالية «الأجر الدنيوي»: «الناس في الدنيا عاملان: عاملٌ عمل في الدنيا للدنيا، فقد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلفه الفقر، ويأمنه على نفسه، فيُفني عمره في منفعة غيره.

وعاملٌ عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عملٍ، فأحرز الحظّين معاً، ومَلَكَ الدارين جميعاً، فأصبح وجهاً عند الله، لا يسأل الله حاجةً فيمنعه».

الثالث: بُعد الامكانية او الطاقة الكامنة، وهو الذي يميز المعاني على اساس القوة والضعف، والجدية والهزل، والمتانة والهزلة. يقول تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)، (... فخذها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا...)، (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...)، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلِكَانَهُمْ...)، (... ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً...).

ويقول الامام (ع) في التمييز بين: القوة (مثل تصغير الدنيا، والخروج من سلطان الشهوة، والجدّ، وعدم الشكوى) والضعف (مثل تعظيم الدنيا، وسلطان الشهوة، وعدم الجدّ، والشكوى): «كان لي فيما مضى أخٌ في الله، وكان يُعظّمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من

سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتاً فإن قال بَدَّ القائلين
ونَقَعَ غليل السائلين.

وكان ضعيفاً مستضعفاً! فإن جاء الجَدُّ فهو ليثٌ غابٍ، وصِلُّ وادٍ. لا يُدلي بحجةٍ حتى
يأتي قاضياً. وكان لا يلومُ أحداً على ما يجدُ العُدْرَ في مثله حتى يسمعَ اعتذاره. وكان لا يشكو
وَجَعاً إلاَّ عند بُرئيه. وكان يقولُ ما يفعلُ ولا يقولُ ما لا يفعلُ. وكان إذا غُلِبَ على الكلام لم يُغَلَبْ
على السكوت، وكان على ما يسمعُ أحرصَ منه على أن يتكلمَ. وإذا كان بَدَّه أمرانِ نظرَ أيهما
أقربُ الى الهوى فخالفه.

فعلیکم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا ان أخذ القليل
خير من ترك الكثير.»

ولا شك ان تلك الابعاد الثلاثة ساهمت في فهم معمق لفسحة الافكار الدينية. لان فهم
الفوراق بين الخير والشر، والنشاط والخمول، والقوة والضعف تؤدي بالانسان الى فهم أكثر
عمقاً للتكاليف الشرعية من حرمة ووجوب، وكراهية وندب. ولا شك ان ذلك الفهم غير منفصل
عن فهم آخر وهو ادراك ملاكات الاحكام ومقتضياتها واسسها، وهو ما نسميه بأساس الدين.

ب - اللغة والثقافة الدينية:

وتعتبر اللغة جزءاً من الثقافة الدينية، فالاتصالات اللفظية بين الدين والمكلفين من الناس
تحدد طبيعة فهم الأوامر والنواهي الشرعية.

ولا شك ان اللغة تتأثر تأثراً عظيماً بالثقافة الاجتماعية، ذلك لان الانسان يكتسب اللغة
عن طريق التعلم لا عن طريق الوراثة الجينية. واكتساب علي (ع) لغته من رسول الله (ص) في
سن الطفولة يعني ان نشاطه اللفظي في مقتبل حياته سيكون نشاطاً لفظياً شرعياً، ويعني ايضاً ان
ثقافته التي تعدّ جزءاً من تركيبته اللغوية هي ثقافة دينية سماوية لا ثقافة اجتماعية، كما كان حال
الرعيال الاعظم من المسلمين في ذلك الوقت.

فان اهمية اللغة في الرسالة الدينية تكمن في ضخامة مصادرها من حيث الكلمات
والمصطلحات والجمل التي تستطيع حمل مفاهيم عملاقة عن الحياة والكون والخلق والحياة

الآخرة. فالبلغ يستطيع ان يستخدم عدداً غير محدود من الكلمات والاصطلاحات لحمل المعاني الى جميع الناس مؤمنين كانوا بالرسالة او كافرين بها.

وبكلمة، فان رسول الله (ص) خلق في علي (ع) في تلك المرحلة من التربية اللغوية وما بعدها امرين:

الاول: القابلية على نقل المعاني الدينية في كلمات قليلة مضغوطة لكنّها ملوّنة مليئة بالمعاني، مثل قوله (ع): «وَأَيُّمُ اللَّهُ لِأُبْقِرَنَّ الْبَاطِلَ، حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ»، وقوله (ع): «لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ». وقوله (ع): «أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَعْذَرُ بِمَا أَنْذَرُ، وَاحْتَجُّ بِمَا نَهَجْتُ...» ونحوها.

الثاني: القابلية على اعطاء الافكار الدينية صيغة ثنائية، وهو تبين الأمر او النهي من وجه، وتبين الأثر الذي يترتب عليه من وجه آخر، مع رابط محكم بينهما. ومن ذلك قوله (ع): «لا تستح من إعطاء القليل، فان الحرمان أقل منه». فهنا أمر بالانفاق من جهة، ويبيّن الأثر الذي يترتب على عدم الاعطاء من جهة اخرى. ولكن الجهتين مترابطتان بشكل محكم. وشيبه ذلك قوله (ع): «... لا رأي لمن لا يُطاع». وهنا نفى الرأي عند العصيان وكأن الذي لا يُطاع لا رأي له، مع جودة رأيه. لكن الذي يُطاع يعدّ له رأي حتى لو كان قبيحاً.

ومن هنا فقد كان علي (ع) بعد بزوغ فجر الاسلام يتحرك باعتباره لسان الاسلام الناطق بالحق والقوة والبلاغة، وكانت كلماته البديعة تعيش عطرة في الوسط الاسلامي الجديد.

ولا شك ان البشرية تعيش في عالم اجتماعي يخضع لتأثير اللغة ومفرداتها كوسط لتعبير. فمفاهيم العالم الخارجي تنتقل الى الذهن — بطريقة غير واعية — عن طريق اللغة التي اعتاد الافراد على التحدث بها وفهم معانيها المتباينة. وهنا يأتي دور الدين لبناء حقائق ذهنية جديدة أو امضاء حقائق قديمة عن طريق اللغة الدينية. فقد أمضى الاسلام العقود مثلاً ووضع لها اطاراً شرعياً كعقود البيع والشراء والزواج، ولكنه جاء بحقائق جديدة عن العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج. فاللغة الدينية خلقت حقائق اجتماعية خارجية، في حين عجزت اللغة العرفية عن ايجادها فضلاً عن تطبيقها. وهذا واضح، لان اللغة الدينية تعاملت مع الأشياء الثابتة في الحياة

الانسانية الاجتماعية والفردية كالعقود والملكية والعقوبات والعبادات، وتعاملت مع المتغيرات الحياتية كالمعاملات والعلاقات الانسانية.

وهنا لعبت الالفاظ دوراً في بناء ثقافة اجتماعية دينية جديدة، وكان رائد تلك الثقافة الجديدة: القرآن الكريم وهو كلام الله الجيد، ثم رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى، ثم علي بن ابي طالب (ع) بلغته الدينية الفريدة. وبذلك خلقت تلك الافكار التي حملها الدين الجديد ثقافة اجتماعية ودينية متميزة.

٢- الدين:

ان تأثير رسول الله (ص) على التركيبة الذهنية لعللي (ع) وهو في مقتبل العمر انعكس على فهم يفصح عن ان الخالق عزّ وجلّ هو الذي يضع الطبيعة النهائية للحقيقة على شكل مجموعة من الافكار والتصورات تسمى ديناً، بحيث تهدي الانسان الى حياة سعيدة عن طريق الاحكام والالزامات. فلا شك ان الدين السماوي يصور للانسان طبيعة النظام الكوني بما فيه من صور غاية في الدقة والصنع والنظام _ في المجرات والكواكب والنجوم _ وبصور له الحياة الآخرة، ويصنع له حياة دنيوية آمنة. وبكلمة، فان الدين يصمم للانسان حياة تعبدية واجتماعية اخلاقية نظيفة، ويكثفه لتقبل فكرة الموت والآخرة بما فيها من نعيم او جحيم.

ونظرة الى فكرة الامام (ع) عن الدين تؤكد لنا ما ذهبنا اليه، فقد قال (ع) بخصوص الدين: «لا دين الا بمعرفة، ولا معرفة الا بتصديق، ولا تصديق الا بتجريد التوحيد، ولا توحيد الا بالاخلاص...»، و«ان مالك الموت هو مالك الحياة وان الخالق هو المميت وان المُفني هو المُعيد وان المُبتلي هو المعافي، وان الدنيا لم تكن لتستقيم الا على ما خلقها الله تبارك وتعالى عليه من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد او ما شاء مما لا نعلم...».

ومن هنا كان فهم الدين على اساس انه حقيقة من الحقائق التي تحيط بالفرد، وتؤثر تأثيراً بالغاً على حياته الشخصية والاجتماعية. فالدين لا يمثل معرفة مجردة كالفلسفة مثلاً، ولا يمثل عملاً مجرداً كاداء الحركات في العبادات مثلاً، بل انه يمثل ايماناً واحساساً يسيطران على جوارح الانسان. فهو معرفة، وعمل، وشعور، وعقلانية.

والاصل في الالهام الديني عند المعصوم (ع) هو الفهم الداخلي الذاتي للخصوصيات الدقيقة، او ما يعبر عنه بفهم ملاكات الاحكام والمصالح والمفاسد وطبيعة الحقوق والواجبات ورتب التكليف ومقتضياتها.

واذا آمنا بذلك، فلا بد ان نؤمن بأن تأثير التعليم النبوي على علي (ع) في قضايا الدين تضمنت مساحتين:

الاولى: المعاني. وهي معاني الخلق والوجود، والموت والحياة، والبقاء والفناء، والخير والشر، والمعاناة والألم، والالتزامات الدينية من اوامر ونواهي. ومن الطبيعي فان المشاكل التي تحملها تلك المعاني لا يفك رموزها ولا يحل غوامضها الا الدين. وقد كان رسول الله (ص) القمة في فهم معاني الوجود والحياة والموت من أي من الأنبياء السابقين (عليهم السلام). وكان علي (ع) يرى ذلك ويستلهم منه المعاني والعبر، ويتعلم مفردات ذلك من الدين الجديد عبر شخصية رسول الله (ص) وما نزل عليه من القرآن العظيم.

الثانية: القدسية والقدرة الخارقة، وهما من متعلقات الانبياء (ع). ومعنى القدسية هو الارتباط بالغيب بشكل من الاشكال. ومعنى القدرة الخارقة هي قابلية النبي (ص) على خرق قوانين الطبيعة. وكان علي (ع) يرى معجزات رسول الله (ص) في تلقيه الوحي وفي الاسراء والمعراج، وفي استنزال النصر من عند الله عزّ وجلّ. وكان يرى ارتباط رسول الله (ص) بالخالق عزّ وجلّ عبر جبرئيل (ع). فكان لا بد ان تخشع جوارحه لتلك الاحداث، وتترك تأثيرها الصاعق على شخصيته الاجتماعية والدينية، في وقت كانت مكة بازلامها تغطّ في عبادة الاوثان والتماس شفاعة الاحجار.

وصفات مثل القدسية والقدرة الخارقة اذا امتلكهما الانسان، كان لا بد ان تجعله متميزاً عن الآخرين متفوقاً عليهم. ذلك لان الذي يمتلك تلك القدسية في الارتباط بالغيب وتلك القدرة الخارقة على صنع الاحداث يجعل توقعات الآخرين لافعاله واقواله فوق التوقعات الطبيعية، فيكون متميزاً عنهم. أي ان الذي يدعي النبوة لا بد ان يقدم لنا قدراته الخارقة التي تجعلنا نصدق ونؤمن به وبرسالته. وبكلمة، فان اهم اهداف القدرة الخارقة التي يمتلكها النبي (ص) هو ان يصدّق الناس انه صادق فيما يدعيه. وان اهم اهداف القدسية هو الكمال في ايصال الرسالة من

السما إلى الأرض وأهلها. وعندها يكون النبي (ص) قد امتلك كل أدوات التبليغ من بشارة أو انذار، وحاول استعمالها في عمله الشاق.

وقد كان علي (ع) يعيش تلك الأجواء العطرة الحبلية بالاحداث العظيمة مع رسول الله (ص) يستلهم منه كل ما يمكن استلهامه والانقياد له والتأسي به.

٣ - العاطفة: التنمية الاخلاقية والعاطفية

ان التنمية الاخلاقية لشخصية الانسان مرتبطة بشكل وثيق بالدين. فالدين يربي الانسان على التعاون الاجتماعي ونبذ العدوان، ويربيه على سلوك طريق الخير ونبذ طريق الشر، ويربيه على التفكير دائماً في الخالق والاعتبار بما خلق وصور.

وبصورة أعم، فان العافة اذا هذبت بطريقة دينية فان الانسان سوف يستفيد من ثمار ثلاثة ابعاد في شخصيته:

الاول: السلوك الصحيح. وهو السلوك المستند على دوافع الخير ومقاومة اغراءات الدنيا ومفاسدها. وهنا يصبح سلوك الانسان معبراً عن الشخصية الاخلاقية التي يحملها. بمعنى ان الشخصية التي تحمل مجموعة كاملة من الفضائل اقلها مقاومة الاغراء لكسر القواعد الشرعية، تستطيع ان تستند على دوافع الخير دائماً.

الثاني: العاطفة السلمية النقية من الرذائل. وهي العاطفة التي تُنمي ارادة النفس اللوامة في ذات الانسان، وتجعل في مواجهة التفكير بالذنب طرماً انتقادية ذاتية. فالانسان يفكر بمعاينة نفسه ان هي تجرأت على مولاها وسلكت في طريق المعصية. هنا يصبح التفكير بالذنب ولوم الانسان ذاته من اهم القواعد الاخلاقية للشخصية الدينية. وهذا البعد على جانب عظيم من الاهمية. فقد اقسام القرآن المجيد بتلك النفس اللوامة، فقال: (... ولا أقسم بالنفس اللوامة).

الثالث: الحكم على الاشياء ضمن اطار الاخلاق الدينية. وهي قابلية لا تنمو عند الانسان ما لم يمر بمراحل تربوية على فهم قضايا الخير والشر، والمصلحة والمفسدة، وملاكات الاحكام التي أنشأها الباري عز وجل. واعلى مستويات الاخلاق هو ان تؤدي الاعمال دون النظر الى حجم المكافأة او العقوبة التي تنتظر العامل. بل ان الطاعة والتذلل للمولى سبحانه، ومقاومة

اغراءات المعصية هو اهم ثمار الحكم على الاشياء ضمن الاطار الاخلاقي للدين. وقد اشار علي (ع) الى ذلك المعنى بالقول: «عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك وانما وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك».

ولا شك ان العلم بالقيم الاخلاقية في الصغر له تأثير بالغ على السلوك الاخلاقي للانسان عندما يشبّ ويكبر، خصوصاً عندما يلمس اهمية العلاقة بين العلم النظري للاخلاق والمصاديق التي تمثله. وهذا ما رأيناه في شخصية علي (ع) المقاتل، العابد، الخليفة، الزاهد.

وبكلمة، فقد كانت عملية تنمية الاخلاق عند الامام (ع) منذ الصغر نافذة لترسيخ قيم الخير في شخصيته في نواحي الصدق والامانة والاستقامة والاخلاص للمبدأ الذي يعتنقه. ولم تقتصر العاطفة الانسانية على القضايا المعنوية التي كانت تعيش في ذهن الامام (ع)، بل تعدت الى قضايا جسدية كالشجاعة والبطولة والاقدام. فالعواطف تشمل الامور النفسية كالخوف والغضب والفرح. وتشمل الامور الجسدية، التي هي اثر من آثار القضايا النفسية، مثل مصاديق الشجاعة والتضحية بالنفس.

والمتفق عليه بين علماء النفس ان عواطف الانسان مكتسبة عن طريق التعلم. فالطفل الرضيع لا يخاف الظلام، ولكن الخوف من الظلام مكتسب عن طريق محيط الانسان ؛ فقد يتعلم الطفل الخوف من امه التي تخاف من الظلام مثلاً. وفي ضوء ذلك نفهم ان علياً (ع) تعلم الشجاعة والاقدام من مربيه الاول رسول الله (ص). فقد كان رسول الله (ص) لا يهاب الموت، فلا غرابة ان نسمع علياً (ع) يقول: «كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ (ص)، فلم يكن أحدٌ مِنَّا أقربَ الى العدوِّ منه». فشجاعة الامام (ع) كانت امتداداً لشجاعة رسول الله (ص) التي غيرت وجه العالم الى ابد الدهر.

٤ - الاخلاق:

والصعيد الاخلاقي في مجهود النبي (ص) التربوي اكتسب علياً (ع) صفاتاً في ابعادٍ ثلاثة، ايضاً، هي: العبد المتعلق بالسلوك، والبعد المتعلق بالصفات كالخصال والشهامة والشجاعة، والبعد المتعلق بالحكم على الاشياء عبر التمييز بين الخير والشر والمصلحة والمفسدة.

أ- البعد السلوكي: وهو يعني تربية علي (ع) على تنمية دافع الخير في شخصيته (ع)، وتهذيب نفسه على مقاومة اغراءات الدنيا من مال وجاه وحب للغرائز الجسدية. وبذلك اصبحت شخصية علي (ع) _ بفضل تربية رسول الله (ص) _ شخصية اسلامية تُستلهم منها مبادئ الفلسفة الاخلاقية في الاسلام.

والشخصية الاخلاقية تعني الكيان الذي يحمل جميع القيم الدينية ويطبقها، كالصدق والامانة والشهامة والشجاعة والتعفف والتعبد والزهد والتقوى. ولذلك فان الشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تعبد الصنم مثلاً، لانها تعلمت على مقاومة اغراءات التقليد الاجتماعي. والشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تظلم الناس، لانها بُنيت على اساس قيم العدالة الدينية والاجتماعية. والشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تتمتع بملذات الدنيا المادية، لانها تنظر ابداً الى السماء والحياة الآخرة حيث ترى فيها وجودها الحقيقي.

ب- البعد الصفاتي: وتعني قيام شخصية علي (ع) على اصل الخصال السماوية التي وضعته على سلم العصمة، فقولته (ع): «يا دنيا غري غيري...» يعني انه كان (ع) يرى مجرد الطموح والنظر الى ملذات الدنيا على اساس انه عمل لا اخلاقي. ولذلك فانه يريد ان يعلمنا طرد شبح تلك الذنوب قبل ان تصل الى مخيلتنا. فان الاغترار بالدنيا مرتبة سابقة لمرتبة الوقوع في الذنب وما يلحقه من آثار.

ج- الحكم على الاشياء: ان القابلية على ربط الاشياء بالحكم الشرعي في الحلية والحرمة والخير والشر والمصلحة والمفسدة، نابع من تمتع علي (ع) بمعيار شرعي سماوي نطلق عليه لفظ «العصمة». وقد اثبتت الايام بعد وفاة رسول الله (ص) معرفته بشروط الحكم الشرعي وظروف انشائه وملاكاته، ومعرفته ايضاً بواقعية الربط بين الحكم والموضوع في مواقع التطبيق. ولا شك ان العلم بالاخلاق الدينية عند علي (ع) كان له تأثير حاسم على سلوكه الاخلاقي بين الناس. ولذلك فقد اخذ بطريق الزهد والتواضع ومساعدة الضعفاء والمحرومين وتثبيت اساس العدالة في المجتمع ومحاربة الظالمين، لان الاخلاق السماوية التي تعلمها من معلمه الاصيل (ص) كانت ترشده الى ذلك.

فترة التحصيل مع رسول الله (ص)

ان الفترة الفريدة التي قضاها علي (ع) في بيت رسول الله (ص) تعتبر من اخصب فترات التحصيل العلمي في حياته الشريفة (ع). فتلك الفترة علمته:

أولاً: عبادة الخالق الواحد عزّ وجلّ عبر الانعزال عن المجتمع الوثني في مكة، والمكوث اياماً في المغارات والجبال المنعزلة للتأمل في آثار الخالق من اجل معرفته والتدلل بين يديه.

ثانياً: اجتناب الوثنية وعبادة الاصنام. فعلي (ع) _ على خطى رسول الله (ص) _ لم يعبد صنماً قط. واذا اردنا التعبير الفلسفي فاننا نقول بالصيغة الفلسفية: ان الطبيعة الانسانية لانسان كعلي (ع) مستقلة عن تأثيرات الثقافة الاجتماعية. أي ان المعصوم (ع) لا يخضع في ادراكه وتفكيره للمؤثرات الاجتماعية كالفقر والغنى، والشرك والوثنية فيقتبس منها. بل ان ادراكه الديني والاجتماعي مستقل عن تلك التأثيرات، ولذلك فان ما نتلقاه عن المعصوم (ع) _ نبياً كان او اماماً _ هو نبع صافي مستمد من السماء لم يلوث بأفكار الناس او فلاسفتهم او مفكريهم. فعلي (ع) اجتنب عبادة الاوثان، لان طبيعته الفكرية كانت مستقلة عن تأثيرات الثقافة الاجتماعية، وخاضعة فقط لتأثيرات رسول الله (ص) الذي كان خاضعاً لتأثيرات الوحي.

ثالثاً: تحصيل المعرفة الاساسية عبر التمييز الابتدائي بين الحق والباطل، والمعبود والعابد، والخالق والمخلوق. فالمجتمع الانساني _ ويسبب اختلاف الدوافع والنيات والرغبات _ يعيش حالة تناقض وصراع بين قوى الخير والشر.

١ - اهتمامات المعلم والتلميذ:

وقد كان رسول الله (ص) قبل المبعث مريباً قضى جلّ وقته في تربية تلميذ واحد. فلا بد ان يحمل ذلك التلميذ كل اهتمامات الاستاذ الكبير ويجعلها حقلاً للتطبيق. والشاب الذي انهى تلك المرحلة من التعليم وهي مدة سبع سنوات، لا بد وانه تمتع بآثار تلك المراحل من التنمية الفكرية والروحية والجسدية، فاصبح يملك جسداً قوياً وعقلاً قوياً. وتلك العلاقة الثابتة بين قوة الجسد وقوة العقل تطرد الرغبات الدنيوية التي يتمتع بها عادةً عامة الناس. فقوة جسد الامام (ع) لم تكن تعني انه يحتاج الى طعام اكثر من اجل إبقاء تلك القوة. بل كان يضع الحجارة على

بطنه من الجوع ولم يشنه ذلك عن القتال، ولم يفت عضده من تدمير حصون خيبر، ومبارزة فرسان العرب. وقوة عقل الامام (ع) لم تكن تعني انه يحتاج الى الاقتباس من الآخرين في العلم الديني والقرآن والتفسير والشريعة، بل كان هو مصدر العلم الديني بعد وفاة رسول الله (ص).

ومن الطبيعي فان من ملامح التعليم النبوي لامير المؤمنين (ع) هو نقل ثقافة الرسالة الجديدة الى جيل علي بن ابي طالب (ع) الشاب. خصوصاً اذا ما عرفنا ان الفارق بين رسول الله (ص) وعلي (ع) كان ثلاثين عاماً. وكان علي (ع) رائد ذلك الجيل الذي حمل الرسالة بعد وفاته (ص).

ان التعليم النبوي لعلي (ع) كان امراً حتمياً لا بد منه. لان الرسالة السماوية جاءت من اجل ان تبقى علي وجه الارض، لا ان تذهب مع قائدها. ولذلك كان تعليم علي (ع) اوليات الايمان والفكر الديني ومبادئ الامامة، وهو في باكورة عمره، امراً في غاية الاهمية.

فعندما نقرأ «نهج البلاغة» المتضمن لخطب امير المؤمنين (ع) ومواعظه ورسائله فكأنما نقرأ فكر رسول الله (ص) وخطبه ومواعظه. وعندما ندرس عدالة الامام (ع) فكأنما ندرس عدالة رسول الله (ص). وعندما ندرك شجاعة امير المؤمنين (ع) فكأنما تتمثل لنا شجاعة رسول الله (ص). وبكلمة، فان رسول الله (ص) صاغ في شخصية علي (ع) منذ السادسة من عمره الامامة والعدالة والفصاحة والشجاعة والحلم والتقوى.

٢- علي (ع) والتربية النبوية الحققة:

ان قابلية علي (ع) على استيعاب التعاليم النبوية تعني قابليته على استثمار تلك التعاليم عملياً عندما تتطلب الحاجة ذلك، خصوصاً عندما يغيب شاخص النبوة عن الحياة الاجتماعية الدنيوية. بمعنى ان الصبي الذي كان يرعاه رسول الله (ص) رعاية علمية دينية لا بد ان يشعر بالتكليف في شغل موقع رسول الله (ص) بعد وفاته. فهو (ع) من خلال تلك العملية التعليمية التأديبية الكبرى له الحق اولاً وأخيراً في شغل موقع قيادة الامامة اكثر من اولئك الذين كانوا يعيشون خارج بيت رسول الله (ص). فعلي (ع) كان كفوءاً لخلافة رسول الله (ص) بفضل تلك التربية وذلك التحصيل الذي قضاه الامام (ع) في كنف محمد (ص) قبل البعثة وبعدها.

وبتعبير آخر، فإن المسؤولية الاخلاقية لاميير المؤمنين (ع) كانت تقتضي ان يحمل الرسالة الدينية بعد رحيل رسول الله (ص)، لانه (ع) كان يعي معنى العبودية لله عزّ وجل يوم كان تحت رعاية اعظم مخلوق عبّد الله سبحانه، ولانه (ع) كان اعلم من في الارض بأحكام الرسالة السماوية ومبادئها وعقائدها بعد رحيل النبي (ص).

وبفضل تلك التربية كان علي (ع) يلتذ بعبادة الله في الحرب والقتال، والزهد والتقوى، والخطب والمواعظ، وتلاوة القرآن وصيانيته من يد التحريف، والحلم والصفح، ومقارعة الظالمين والمشركين والمنافقين، واحقاق الحق وازهاق الباطل، وتثبيت اركان العدالة بين الناس. وبكلمة، فإن التربية النبوية للامام (ع) كانت تربية اخلاقية دينية اكثر منها مجرد إطعام أو إيواء أو إكساء.

ان رسول الله (ص) لم يعلم علياً (ع) في مرحلة الصبا: عناصر الأعداد، والاشكال، والكتابة، لانه (ص) لم يكن يعرف الكتابة ولا القراءة. فقد كان (ص) أمياً، لكن الله سبحانه اكرمه بنعمة الادراك النبوي والالهام والوحي. وهي نعمة عظيمة بدون شك، لانها تتضمن مراحل متكاملة من فهم الدين بما فيه من اوامر والزامات ونواهي واخلاق. وهذه اهم من المعارف البشرية التي تأتي عن طريق الكتابة والقراءة. فان العلم المكتسب من الكتابة والقراءة محدود بطبيعته بحدود الطاقة البشرية التي تمدّه. ولكن العلم الالهي الوارد عن طريق الالهام والوحي فيض من العلم السماوي الذي لا ينضب ولا يقتر.

فكان من اهداف التعليم النبوي لعلي (ع) تنمية القوى الجسدية والعقلية والروحية الهائلة التي كان يحملها. وتقوية انسجام تلك القوى مع بعضها البعض، ومع الخالق عزّ وجلّ، وتوجيهها نحو المجتمع الانساني الذي يكلف بدعوته الى الاسلام. فلم يكن علي (ع) مجرد خازن معلومات عن الحياة والعناصر التي تتحكم فيها، بقدر ما كان مجمعاً لقوى هائلة تريد نشر الاسلام وتطبيقه على وجه الارض.

ولم يكن التعليم النبوي عرضاً مجرداً للأفكار، بل كان عملية بناء شخصيته (ع) في جوانب: العاطفة، والمشاعر، والشريعة، والعقل، والتفكر في الله سبحانه، والبلاغة، والشجاعة، والحلم، والتقوى، والاخلاق.

وهذه كلها لبنات في شخصية امير المؤمنين (ع). فشخصية علي (ع) كانت تقتضي ان يكون التعليم النبوي لها متكاملًا. وهذا اللون من التعليم لا يتم الا لمن كان له استعداد هائل لذلك. وقد كان هو المرشح الاوفر حظاً لتلك المهمة الصعبة، ولذلك اجتباه رسول الله (ص) من ابي طالب يوم الشدة التي اصابته قريشاً.

وإذا كان هناك من يضع خطأ فاصلاً بين المعرفة والايمان. باعتبار ان المعرفة لا تؤدي دائماً الى ايمان. فيزعم بأن معرفة الدين قد لا تؤدي الى الايمان به. نقول: ان تربية رسول الله (ص) لامير المؤمنين (ع) في المراحل الاولى من حياته كانت تلغي ذلك الخط الفاصل بين المعرفة والايمان. لأن المعرفة النبوية تؤدي الى اكتشاف الحقائق اليقينية. واليقين يؤدي الى ايمان راسخ بالخالق عزّ وجلّ. ولذلك كان امير المؤمنين (ع) يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». بمعنى ان حجم التعليم الذي تلقاه من رسول الله (ص) ومن الكتاب المجيد اوصلاه الى معرفة الحقائق اليقينية بما هي حقائق. فلا يحتاج الى كشفها الى اثباتات اضافية ولا يطلب بعدها دلائل أخرى. وهنا اثمر التعليم النبوي لعلي (ع) انضج ثمراته الشرعية والعقلية.

(تليها ص ١٩٧ - ٢١٦)

١ «ذخائر العقبى» - رواه محب الدين الطبري باسناده عن مجاهد بن جبير ص ٥٨. و«نور الابصار» - رواه الشبلنجي ص ٨٩. و«المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ١٧.

٢ الكلاكل: الصدور، وعُبر بها عن الاكابر.

٣ النواجم من القرون: الظاهرة الرفيعة أي الاشراف.

٤ العرف: الرائحة الزكية.

٥ «نهج البلاغة» - خطبة ١٩٢ ص ٣٧٦.

٦ الخطللة: واحدة الخطل. وهو الخطأ ينشأ عن عدم الروية.

٧ «نهج البلاغة» - خطبة ١٩٢ ص ٣٧٦.

- ٨ «مطالب السئول في مناقب آل الرسول» رواه عن محمد بن طلحة بن ص ٢٨ . مخطوطة.
- ٩ جِراء: غار في جبل ثور بين مكة ومنى وكان (ص) يتعبد فيه.
- ١٠ «نهج البلاغة» خطبة ١٩٢ ص ٣٧٦.
- ١١ «كشف الغمة» - الاريلي ج ١ ص ٨٦.
- ١٢ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٥٠ هامش ٤.
- ١٣ «شرح نهج البلاغة» ج ٤ ص ٣١٥.
- ١٤ «الانساب» للكليبي. ص ٢ . مخطوط.
- ١٥ «الاغاني» ج ٨ ص ٤ . و«تاج العروس» ج ٥ ص ٢٩٥ مادة «جدع».
- ١٦ «حياة الحيوان» ج ١ ص ١٩٤.
- ١٧ «حياة الحيوان» ج ١ ص ١٩٤.
- ١٨ «النهاية» لابن الاثير ج ١ ص ١١٩ . و«القاموس» في صفحة ٣٦٤ مخطوط تحت كلمة «المبرطش».
- ١٩ «تاج العروس» ج ٤ ص ١٠٧.
- ٢٠ «الانساب» للكليبي ص ٤ . رواه ابو عبيدة بن سلامة.
- ٢١ «انساب الاشراف» ج ٥ ص ٢.
- ٢٢ «تطهير الجنان واللسان» - ابن حجر الهيثمي. ص ٨.
- ٢٣ «المغازي» للواقدي ج ٢ ص ٨٠٧.
- ٢٤ «السيرة الحلبية» ج ٣ ص ١٨.

- ٢٥ «النزاع والتخاصم» - المقرئزي ص ٢٠.
- ٢٦ «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» - ابن الققططي ص ١٠٣.
- ٢٧ «نهج البلاغة» خطبة ١٩٢ ص ٣٧٦.
- ٢٨ «تذكرة الخواص» - سبط ابن الجوزي ص ٤٨.
- ٢٩ «تحف العقول» - ابن شعبة الحراني ص ٦ - ٤٢.
- ٣٠ «نظم درر السمطين» ص ٨٢. و«منتخب كنز العمال» - المتقي الهندي ج ٥ ص ٤٠.
- ٣١ سورة الانبياء: آية ٣٥.
- ٣٢ سورة آل عمران: آية ١٨٠.
- ٣٣ سورة البينة: آية ٦.
- ٣٤ سورة البينة: آية ٧.
- ٣٥ «نهج البلاغة» خطبة ٤٠ ص ٨٣.
- ٣٦ يخدمها: يجعلها في خدمة مآربه.
- ٣٧ «نهج البلاغة» خطبة ١ في صفة آدم ص ٢٩.
- ٣٨ سورة فصلت: آية ٤٦.
- ٣٩ سورة النساء: آية ٩٥.
- ٤٠ «سورة النحل: آية ٧١.
- ٤١ سورة الزمر: آية ٩.
- ٤٢ وجيهاً: ذا منزلة عليّة من القرب الى الله عزّ وجل.

٤٣ «نهج البلاغة» - المختار من حكم امير المؤمنين (ع) ومواعظه. حكمة ٢٦٠ ص ٦٦١.

٤٤ سورة الطارق: آية ١٣ - ١٤.

٤٥ سورة الاعراف: آية ١٤٥.

٤٦ سورة الانفال: آية ٦٠.

٤٧ سورة محمد: آية ١٣.

٤٨ سورة الروم: آية ٥٤.

٤٩ بَدَّ القائلين: سبقهم وغلبيهم.

٥٠ نَقَع غليل السائلين: أزال عطشهم.

٥١ لَيْثٌ غَابٍ: اسدٌ غابة يستوكُرُ فيها الاسد.

٥٢ الصلّ: الحية.

٥٣ لا يُدلي بحجّة: أي لا يُحضر الحجّة الا...

٥٤ بدهة الامر: فجأه وبغته.

٥٥ «نهج البلاغة» - المختار من حكم امير المؤمنين (ع) ومواعظه. حكمة ٢٨٠ ص ٦٦٥.

٥٦ «نهج البلاغة» خطبة ١٠٣ ص ١٨٢.

٥٧ م. ن. - المختار من حكم امير المؤمنين (ع). حكمة ٣٦ ص ٦١٠.

٥٨ م. ن. - خطبة ٨٢ ص ١٢٦.

٥٩ م. ن. حكمة ٦٢ ص ٦١٤.

٦٠ «تحف العقول» - خطبة الامام (ع) في التوحيد ص ٤٥.

٦١ م. ن. من وصايا امير المؤمنين (ع) ص ٤٩.

٦٢ سورة القيامة: آية ٢.

٦٣ «نهج البلاغة» - من غريب كلامه حديث ٩ ص ٦٥٨.

٦٤ «شرح بن ميثم البحراني على كلمات الامام علي (ع)» ص ٥٢.

(ص ١٩٧ - ٢١٦)

الفصل الخامس

الايمان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص)

علي (ع): الايمان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص). الجمع بين روايتين حول اسلام علي (ع).
الدلالات العلمية للنصوص: ١- الاسبقية في الاسلام: أ- مغزى الاسبقية في الاسلام. ب-
الاسبقية في الاسلام: الجنية الفلسفية. ٢- مغزى اختلاف الروايات في سنه (ع) عند اسلامه:
أ- الهدف من تزوير سن علي (ع) عند اسلامه. ب- علي (ع) و«زمن فترة الوحي». ٣-
الاحتجاج في فضل علي (ع): استدلال مدرسة المأمون. ٤- خلاصة المطلب . الايمان
بالرسالة.

علي (ع): الايمان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص)

روت الكثير من كتب الحديث ان علياً (ع) كان: «اول من اسلم مع رسول الله (ص)». ويؤيده قول رسول الله (ص): «اولكم وارداً عليّ الحوض اولكم اسلاماً علي بن ابي طالب (ع)». والمروي عن عمر بن الخطاب قال: «كنت انا وأبو عبيدة وابو بكر عند النبي (ص) اذ ضرب علي منكب علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه)، فقال: يا علي، انت اول المؤمنين ايماناً، وانت اول المسلمين اسلاماً، وانت مني بمنزلة هارون من موسى». وروى البلاذري في «انساب

الاشراف» عن معاذة العدوية، قالت: «سمعت علياً علي منبر البصرة يقول: أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر واسلمت قبل أن يسلم». وروى النسائي في «الخصائص»: «قال علي (رضي الله عنه) أنا عبد الله وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب، آمنت قبل الناس سبع سنين».

وكان (ع) أول من أسلم من الذكور، فقد «آمن برسول الله (ص) معه وصدق ما جاء من الله». وكان عمره عندما أسلم «ثلاث عشرة سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال أبو عمر ابن عبد البر: هذا أصح ما قيل في ذلك». و«لم يعبد الاوثان قط، ومن ثم يقال (كرم الله وجهه)...»، دون غيره من الصحابة.

وقد أشار رسول الله (ص) عند مخاطبته ابنته فاطمة الزهراء (ع) إلى فضائل علي (ع) التي كان علي رأسها قدم إسلامه، فقال (ص): «أما ترضين اني زوجتك اقدم امتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلاً». وروى المتقي الهندي قول رسول الله (ص) لعلي (ع): «يا علي اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي. وتخصم بسبع ولا يُحاجك فيها احد من قريش: (١) انت اولهم ايماناً بالله، (٢) واوفاهم بعهد الله، (٣) واقومهم بأمر الله، (٤) واقسمهم بالسوية، (٥) واعدلهم في الرعية، (٦) وابصرهم بالقضية، (٧) واعلمهم عند الله مزية».

ولا شك ان الايمان بالاسلام كان يقتضي اداء الصلاة خشوعاً لله سبحانه وتعالى. فكان هو «أول من صلى مع النبي (ص)». وقد ورد في الروايات عن احد شهود العيان واصفاً صلاة علي (ع) وخديجة (رض) ورسول الله (ص) فيقول: «كنتُ امرءً تاجراً فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة وكان امرءً تاجراً. فوالله اني لعنده بمنى اذ خرج رجل من خباء قريب منه فنظر الى الشمس فلما رآها مالت قام يصلي. قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلي. قال: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن ابي طالب. فقلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة ابنة خويلد. قلت: من هذا الفتى؟ قال: هذا علي بن ابي طالب ابن عمه. فقلت: فما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي وهو يزعم انه نبي ولم يتبعه علي امره الا امرأته وابن عمه هذا الفتى وهو يزعم انه سيفتح عليه كنوز

كسرى وقيصر». والظاهر ان ذلك كان بعد دعوة عشيرته الاقربين. والا، فقد كانت الدعوة سرية قبل ذلك. ووجه الدلالة انه (ع) كان يعبد الله _ وهو على ابواب البلوغ _ مع محمد (ص) يوم كان الناس، وبضمنهم الكثير من الذين تصدوا لولاية الامر لاحقاً، غارقون في عبادة الاصنام والايمان بالوثنية.

وكان رسول الله (ص) اذا اراد الصلاة خرج الى شعاب مكة مستخفياً ويُخرج علياً (ع) معه «فيصليان ما شاء الله. فاذا قضيا صلواتهما وأمسيا، رجعا الى مكة...». وروي ايضاً انه صلى (ع): «مستخفياً قبل ان يصلي مع النبي (ص) احد، سبع سنين واشهر...». ولا تنافي بين الصلاة جهراً او الصلاة خفية، فلكل موضعه التاريخي. فقد صلى في الغار مستخفياً قبل البعثة وبعدها، وبعد دعوة العشيرة الاقربين ادى صلاته جهراً. وروي الحضومي باسناده عن حبة العرنبي قال: «رأيتُ علياً (رضي الله عنه) على المنبر يقول: اللهم لا اعرف لك عبداً من هذه الامة عَبْدَكَ قبلي غير نبيك (ص). لقد صليت قبل ان تصلي الناس».

الجمع بين روايتين حول اسلام علي (ع):

يمكن الجمع بين رواية النسائي الناطقة عن علي (ع): «آمنت قبل الناس سبع سنين»، وبين رواية الشنقيطي القائلة بأن علياً (ع) اسلم وهو «ابن ثلاث عشرة سنة» عبر ثلاثة احتمالات:

الاول: انه اسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فيكون عمره عندما اسلم بقية الناس عشرين سنة. أي بعد عشر سنوات من بدء الدعوة. ولا شك ان الدعوة الى الاسلام في مكة استمرت ثلاث عشرة سنة. وهذا الاحتمال ضعيف. ذلك انه لا يمكن ان تنحصر دعوة رسول الله (ص) بشخصين هما: خديجة (رض) وعلي (ع) خلال فترة طويلة نسبياً وهي عشر سنوات. اضيف الى ذلك ان علياً (ع) قال: «آمنت قبل الناس سبع سنين». ولم يقل (اسلمت قبل الناس سبع سنين). نعم، قال في موضع آخر: «اسلمت قبل الناس». ولم يحدد الفترة الفاصلة بين اسلامه واسلام بقية الناس.

الثاني: انه (ع) اراد من قوله: آمنت قبل الناس سبع سنين، هو التكثير اللفظي للسنين، لا بمعنى عدد محدد من السنين. وهذا الوجه ضعيف ايضاً لان التكثير اللفظي يستدعي المبالغة في الفترة التي سبقت ايمانه او اسلامه عن بقية الناس. ولا وجه له.

الثالث: انه آمن بالتوحيد والعقيدة الابراهيمية عندما ضمه رسول الله (ص) وهو ابن ست سنوات، فيكون اظهار اسلامه بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ أي عندما كان ابن ثلاث عشرة سنة. ولا شك ان الايمان غير الاسلام. فقد كان علي (ع) مؤمناً بالله الواحد الاحد منذ نعومة اظفاره من خلال ما درسناه من تعليم رسول الله (ص) له في المرحلة الحساسة من عمره. وعندما بُعث رسول الله (ص) بالاسلام اعلن اسلامه ونطق بالشهادتين لفظاً وقلباً. خصوصاً خلال الدعوة السرية التي استمرت ثلاث سنوات.

ولا شك انه (ع) اول من صلى بعد رسول الله (ص) وخديجة (رض) بعد البعثة. ولكن رسول الله (ص) كان يصلي لله سبحانه في غار حراء بتمجيده وحمده وذكره، وهذا لا يتنافى مع قوله (ع) انه صلى مستخفياً «قبل ان يصلي مع النبي (ص) احد، سبع سنين واشهر...». وهذا الوجه اقرب احتمالاً. ذلك لان الله عزّ وجل عندما أمر نبيه (ص) باظهار دينه بعد ثلاث سنين من مبعثه بالقول: **(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)**، **(وأندر عشيرتك الأقرين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)** بدأ رسول الله (ص) بدعوة الناس للدين الجديد علناً. وبدأ الاسلام ينتشر بين الناس. فأقرب الآراء اذن ان علياً (ع) آمن بالله سبع سنين قبل ان يعلن اسلامه. آمن وهو في السادسة من عمره، واعلن اسلامه وهو في الثالثة عشرة من العمر.

ويقوي ما قلناه من ان هناك تمييزاً بين الايمان والاسلام في رواية الحضرمي التي ذكرت بأن رسول الله (ص) قال لعلي (ع): «يا علي انت اول المؤمنين ايماناً، وانت اول المسلمين اسلاماً...». ووجه الدلالة ان علياً (ع) كان اول المؤمنين ايماناً بالله وبالعقيدة التوحيدية يوم كان اغلب الذين اسلموا لاحقاً يتعبدون بالوثنية آنذاك. وهو (ع) اول المسلمين اسلاماً يوم اعلن اسلامه بعد مجيء الوحي على رسول الله (ص)، فكان اولهم من حيث الاسبقية الى اعلان اسلامه. وقد فرّق القرآن المجيد بين الايمان والاسلام على لسان قول الاعراب: **(قالت الأعراب**

آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...). الا ان المشهور بين العلماء انه (ع) اسلم وهو ابن عشر سنوات.

وتذكر المصادر التاريخية المشهورة انه بعد اظهار علي (ع) اسلامه على الملاء بفترة لا نعرف مدتها بدقة، اسلم الناس. فاسلم زيد بن حارثة، وابو بكر، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. وبعد هؤلاء اسلم عدد آخر من الافراد كأبي عبيدة بن الجراح، وابو سلمة، والارقم ابن ابي الارقم وغيرهم. وما كان (ص) يدعو أحداً من هؤلاء الى الاسلام الا كان عنده نظر وتردد وكبوة، أي تأخير وقلة اجابة عدا علي (ع) الذي لمسنا مقدار يقينه برسالة محمد (ص). ثم دخل الناس في الاسلام أرسالاً من الرجال والنساء.

الدلالات العلمية للنصوص

عصفت بفكرة اسبقية علي (ع) للاسلام رياحٌ شديدةٌ قادها بعض الرواة في مدرسة الصحابة، وهو أمرٌ يدعو الى الاسف والاسى. والانصاف ان علياً (ع) اسلم في سنٍّ قريب من البلوغ يجوز عليه الحكم، وكان كاملاً راشداً. وسوف نلمس ذلك باذنه تعالى في المباحث التالية:

١- الاسبقية في الاسلام:

للاسبقية في الاسلام اهمية عظيمة، ولذلك نرى احتدام الادعاءات باسبقية فلان علي فلان ومحاولة اثبات ذلك بطرق تاريخية وروائية مختلفة. ولا نستطيع ادراك اهمية اسبقية علي (ع) الى الاسلام. الا بدراسة مغزى الاسبقية من الناحيتين الشرعية والفلسفية.

أ - مغزى الاسبقية في الاسلام:

ان اهمية اسبقية علي (ع) في الايمان بالرسالة تعني انه بقي صافي الفكر والروح ولم يتشرب بالفكر الوثني. فقد كان طاهراً منذ البداية ولم تنجسه الجاهلية بمدلهمات ثيابها على الصعيدين الروحي والفكري. وقد اشار تعالى الى ذلك في كتابه المجيد بالقول: **(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)**. وقد استند العلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) الى ما رواه احمد بن حنبل

في مسنده ابن عباس من عدة طرق «ان علياً (ع) اول من اسلم» في اثبات امامة امير المؤمنين (ع).

والاصل في الاسبقية للاسلام ان طهارة السابق تبقى ملازمة له طول حياته، ولذلك فهو لا ينحرف لاحقاً اذا تعرض لظروف قاسية. وقد لاحظنا ان علياً (ع) بقي ثابتاً راسخاً في الايمان بعد وفاة رسول الله (ص) رغم المحن والمصاعب العظيمة التي تعرض لها. في حين عصى البعض النبي (ص) في مواطن كثيرة مثل: واقعة أحد وحنين ومخالفة وصية النبي (ص) عند الاجتماع في سقيفة بني ساعدة.

ب- الاسبقية في الاسلام: الجنبه الفلسفية

تعُدُّ الشخصية الانسانية نظاماً مفتوحاً تدخل فيه الطاقة وتخرج منه باستمرار، وما يبقى من طاقة يُحفظ في الذاكرة ثم يخرج ببطء أيضاً على مر السنين. ونقصد بالطاقة: المعرفة والعلم. وما يصبُّ في ذهن الانسان من علوم او ملاحظات يراها في الخارج تترجم لاحقاً على شكل صور ذهنية، وأقوال وأفعال لفظية أو مكتوبة، وحركات معبّرة، ومواقف اجتماعية، وفهم ذاتي واجتماعي، ومواصفات شخصية عامة اكتسبت صفة الفضيلة او الرذيلة ، وفهم ذاتي واجتماعي، ومواصفات شخصية عامة اكتسبت صفة الفضيلة او الرذيلة. ومن خلال تلك الطاقة يصوغ الانسان انبساط تعامله مع الاخرين او انقباضه، ويصوغ ايضاً قوة الارتباط بمعتقده او يقدر ضعف ذلك الارتباط، وكونه صالحاً كي يكون قدوة للآخرين او عدم صلاحه لذلك. وكل انسان يستطيع ان يحمل القلم بيده، ولكن القدرة على الكتابة لا تتوفر لكل فرد ما لم يكن متعلماً. وحتى الذين يعرفون الكتابة فإن عمق مؤلفاتهم يختلف من واحد لآخر بالدرجة لا بالرتبة. فالصحبة مع رسول الله (ص) قضية شبيهة بالقلم الذي يمسكه صاحبه ممن يعرف الكتابة ممن لا يعرفها.

ومن هنا نفهم مغزى الاسبقية في الاسلام. فالذي يشبَّ على الايمان بالله سبحانه ورسوله (ص) وبكتابه المجيد منذ نعومة اظفاره، فكأنما يمتلىء من طاقة العلم والمعرفة الدينية حدّاً بحيث لا تخرج منه الا الحكمة والعلم. وتكون صورته الذهنية غنية بأجواء الوحي وكلام الله سبحانه والرسالة التي يحتكُّ بمصداقها وصاحبها (ص) كل يوم. فعلي (ع) عندما يتكلم لا يخرج

من فمه الشريف الا جواهر الافكار الدينية. وعندما يخطب تنزل الكلمات الشرعية النقية كالزلال العذب بين شفثيه الشريفتين. فهو لا يخلط الصور الذهنية للوثنية بالصور الذهنية للاسلام كما كان يفعل بعض المسلمين، لانه عاش (ع) مع رسول الله (ص) يتلقى منه العلم والمعرفة عن النبع الصافي المتصل بالسماء. وعندما كان يتصرف مع الآخرين، فقد كان سلوكه نابعاً من السلوك الديني النظيف الذي علمه اياه رسول الله (ص). وبذلك فقد كان سلوكه (ع) وعواطفه وافكاره نابعة من تأثيرات النبي (ص) قبل البعثة وبعدها، ومن كتاب الله المجيد، وما اوتي من نعمة ادراك الاسلام بصورته الواقعية.

والاسبقية في الاسلام والتعلم من رسول الله (ص) لم تقتصر على السلوك الفكري او الذهني، بل تعدت الى الدوافع الانسانية مثل الحاجات الجسدية الضرورية كالطعام والشراب والنوم. فقد كان طعام علي (ع) يشبه طعام رسول الله (ص) من حيث الزهد والتعفف عن ملء البطن، وكان اهل بيت النبوة (ع) قليلاً من الليل ما يهجعون، وكانوا بالاسحار يمارسون العبادة ويستغفرون، وكانوا يتلون كتاب الله ليل نهار. وقد كان شد الحجر على البطن من الجوع، والحرمان من النوم بسبب العبادة سمة من سمات اولئك «السابقون السابقون».

ولا شك ان الاسبقية في الاسلام اعطت علياً (ع) شخصية دينية ناضجة تشعر بامتداد عمق التكليف وانتشاره في كل مساحة من مساحات ذهنه وجسده، وعلاقة خشية وخوف من الله عزّ وجلّ، واطمئنان عاطفي وروحي بتقبل التضحيات والخسارة في سبيل الله، وثقة مطلقة ويقين قاطع بالمولى عزّ وجلّ، وادراك واقعي للاحكام والعقائد، وذاتية مملوءة تعرف موقعها في الحياة والمجتمع والكون. وتلك كانت فلسفة حياة كاملة عند علي (ع).

وبالجمال، فان الاسبقية في الاسلام حددت لعلي (ع) حاجاته الدينية والدينية، وتصوراته الذهنية عن الخلق والوجود، وموقفه الثابت من الاحداث والقضايا الخارجية، وخطه في العقيدة والحكم والقرار وخطط العمل لنصر الاسلام ضد الشرك والنفاق والقسط والنكوث والمروق.

لقد منحت الاسبقية لعلي (ع) علماً، وجعلته عبداً وسيداً في نفس الوقت: عبداً لله سبحانه بكل ما تعنيه العبودية من معنى، وسيداً على نفسه بكل ما تعنيه كلمة السيادة من سيطرة على الشهوات والرغبات. واصبح علي (ع) مكتفياً ذاتياً لا يحتاج الى مساعد او مستشار

يستشيريه في الاحكام الشرعية، كما كان الخلفاء الاوائل مثلاً يعانون منه. واصبح لا يطمع الا في مرضاة الله سبحانه كما كان يقول: «الله لو ادخلني الله النارَ وله في ذلك رضى، ما قلت انها النار ولكن قلت انها الجنة، لان جنتي رضاه». بينما كان الآخرون من بني امية وغيرهم يطمعون في السلطة والمنزلة الاجتماعية واللذائذ الدنيوية.

٢- مغزى اختلاف الروايات في سنه (ع) عند إسلامه:

اختلفت الروايات في سنه (ع) عندما اسلم. فقد روى احمد بأن علياً (ع) اسلم وعمره خمس عشرة سنة او ست عشرة سنة، وقال الكلبي: اسلم وهو ابن سبع سنين، وقال مجاهد وابن اسحاق: اسلم وهو ابن عشر سنين. وروى الهيثمي: اسلم علي وهو ابن ثمان سنين. وروى ابن عساکر: انه اسلم وهو ابن تسع سنين. وفي رواية اخرى: انه اسلم وهو ابن احدى عشرة سنة. وروى الشنقيطي: انه (ع) اسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وبذلك فقد ترواح الزعم في سنه عندما اسلم: بين سبع، وثمان، وتسع، وعشر، واحدى عشرة، وثلاث عشرة، وخمس عشرة، وست عشرة سنة. وهذا الاختلاف الشاسع المزعوم في عمر امير المؤمنين (ع) عندما اسلم له دلالة مهمة.

أ - الهدف من تزوير سن علي (ع) عند اسلامه:

فالهدف في تزوير سن علي (ع) عندما اسلم هو ان يقال: ان علياً (ع) اسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وابو بكر اسلم وهو مستكمل العقل يجوز عليه الحكم. وبمعنى اخر ان علياً (ع) اسلم وهو لا يعي ما كان يفعل لانه صبي، بينما اسلم ابو بكر وهو في كامل وعيه لانه كان راشداً. فيكون ايمانه اشد تماسكاً من ايمان علي (ع). ولذلك فان خلافته كانت شرعية وصحيحة.

ولكن ذلك يرد من وجوه:

ان قول الامام علي (ع): «... آمنت قبل ان يؤمن ابو بكر واسلمت قبل ان يسلم»، و«... آمنت قبل الناس سبع سنين»، و«... ما اعرف احداً من هذه الأمة عبدَ الله بعد نبينا (ص) غيري. عبدت الله قبل ان يعبده احد من هذه الامة...»، يدل على ان ايمانه كان ايمان تكليف لا ايمان صبيان كما كانوا يزعمون. فالاسلام والايمان والعبادة تعني كلها انه (ع) كان واعياً تماماً

لمقتضياتها، وهو الامام المعصوم (ع) الذي لا يجاربه احد من الصحابة في ادراكه لاحكام
الشريعة السماوية الخاتمة.

فعندما يشير رسول الله (ص): ان علياً (ع) كان اول الناس ايماناً واسلاماً، يعني ان علياً
(ع) كان محكوماً بالتكاليف الشرعية _ بالمقدار الذي نزل منه ذلك الوقت _ لا انه (ع) كان
مجرد صبي قاصر لا يعي ما يفعل. وهو زعم ينتهك _ على اقل التقادير _ حرمة رسول الله
(ص). فكيف يصح ان يقول الذي لا ينطق عن الهوى (ص) بان علياً (ع) كان اول الناس
اسلاماً، وهو يقصد ذلك الصبي القاصر؟ فلا بد ان يكون علياً (ع) عند اسلامه على وعي كامل
بمقتضيات ذلك الايمان واحكامه وتكاليفه الشرعية.

والعصمة تقتضي ان يعبد الله سبحانه في أي سن كان. فالتصديق حتى لو كان في سن
مبكرة، فانه تصديق وعي وادراك والهام بالنسبة للمعصوم (ع). وقد قال عيسى (ع) وهو في
المهد: (... **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ إِتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**)، بعد ان اشارت اليهم امه مريم (ع) بتكليمه:
(**فَأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً**)، ووصف يحيى (ع) بالقول: (**يا يحيى**
خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاْتِينَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا). وفي ذلك روى الخوارزمي: «كان اول ذكر من الناس
آمن برسول الله (ص) معه وصدق ما جاء من الله: علي بن ابي طالب... وكان مما انعم الله به
على علي بن ابي طالب انه كان في حجر رسول الله (ص) قبل الاسلام».

وعن الزرندي: «قال سلمان (رضي الله عنه): اول هذه الامة وروداً على رسول الله (ص)
اولها اسلاماً، وان علي بن ابي طالب اولنا اسلاماً... وقال: والصحيح انه اسلم قبل البلوغ كما
ورد في شعره حين فاخر معاوية وقال:

سبقتكم الى الاسلام طراً
غلاماً ما بلغت أوان حلمي

وان تم ذلك، فقد كان علي (ع) غلاماً ليس كبقية الغلمان. بل غلام رباه رسول الله (ص)
سبع سنين. وقوله (ع)، غلاماً ما بلغت أوان حلمي يؤيد انه كان على مشارف البلوغ. وذلك لا
يقدر في ان يكون علي (ع) كامل الادراك عندما اسلم. فان بعض الانبياء بعثوا في دور الصبا.
فقد أتى الله يحيى الحكم صبياً وعيسى الذي تكلم في المهد صبياً، كما المحنا الى ذلك
سابقاً.

ب - علي (ع) وزمن «فترة الوحي»:

قال ابو عبيدة في فضائل القرآن (صحيح البخاري _ باب بدء الوحي الى رسول الله (ص)): حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن ابن ابي نجيح عن مجاهد، قال: «ان اول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) و(ن والقلم)...».

ولم تنزل بعد نزول آية (اقرأ باسم ربك) الى ثلاث سنوات آية من القرآن، وتسمى تلك المدة بـ «زمن فترة الوحي». ثم اخذ القرآن ينزل على النبي (ص) منجماً وكان ذلك مثار تشكيك المشركين، فاجاب عنه تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً).

وبالاجمال فان روح القرآن وأهدافه الكلية قد تجلّت في قلب رسول الله (ص) (إنا أنزلناه في ليلة القدر)، و(إنا أنزلناه في ليلة مباركة...)، (نزل به الروح الأمين . على قلبك...)، ولكنه (ص) اخذه عن الوحي منجماً على مدى سنين: (وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً).

قال ابن اسحاق: «ثم فتر الوحي عن رسول الله (ص) فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه ؛ فجاءه جبريل بسورة الضحى، يقسم له ربه، وهو الذي اكرمه بما اكرمه به، ما ودّعه وما قلاه، فقال تعالى: (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى). يقول: ما صرّمك فتركك، وما ابغضك منذ احبك. (وللاخرة خير لك من الاولى) أي: لما عندي من مرجعك اليّ خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا...».

ووجه الدلالة هنا ان عدم نزول الوحي منذ نزول آية: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) لمدة ثلاث سنوات، يقوّي الرأي القائل بان الذين اسلموا في تلك الفترة كانت زوجته خديجة (رض)، ولاحقاً ابن عمه علي بن ابي طالب (ع)، ثم مولاه زيد بن حارثة الذي اصبح بعد وفاة رسول الله (ص) عثمانى الهوى. وكانت الدعوة خلال تلك السنوات الثلاث سرية. والظاهر ان الذين اسلموا من غير ما ذكر خلال تلك الفترة قد اسلموا في الاشهر الاخيرة من السنة الثالثة، لان اسلامهم كان قطعاً بعد اسلام علي بن ابي طالب (ع) حيث دعاه رسول الله (ص) خلال تلك الفترة من عمر الدعوة السرية عندما تجاوز العاشرة من عمره بفترة زمنية، بعد ان اعدّه اعداداً كاملاً

لمستلزمات الاسلام. وقد اثبتنا ان اسلام الآخرين كان بعد اسلام علي (ع)، فقد كان اول الناس اسلاماً. ولا شك ان علياً (ع) كان مؤمناً بالله الواحد عزّ وجلّ منذ ان ضمّه رسول الله (ص) اليه وهو في الربيع السادس من عمره المبارك.

وعلى أي تقدير، فقد كان اسلامه (ع) اسلام وعي وتفكر بحيث يستطيع ان يعبد الله سبحانه في حالة من حالات الادراك والكمال.

٣ - الاحتجاج في فضل علي (ع): استدلال مدرسة المأمون

احتج المأمون العباسي على الفقهاء في فضل علي (ع). ولم يكن المأمون من اتباع مدرسة اهل البيت (ع)، ولكن الظرف السياسي الموالي للتشيع في زمانه كان يستدعي ان يحتاج اصحاب المدارس الأخرى بأفضلية اهل البيت (ع) ومظلوميتهم. وكان هدف ذلك هو امتصاص النقمة السائدة على خلفاء بني العباس من قبل الامة.

قال المأمون لاسحاق بن ابراهيم القاضي: «يا اسحاق، أي الاعمال كانت افضل يوم بعث

الله رسوله؟

قلت: الاخلاص بالشهادة.

قال: اليس سبق الى الاسلام؟

قلت: نعم.

قال: اقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أولئك المقربون) انما

عنى من سبق الى الاسلام، فهل علمت احداً سبق علياً (ع) الى الاسلام؟

قلت: يا امير المؤمنين، ان علياً اسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وابو بكر

اسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

قال: اخبرني ايهما اسلم قبل؟ ثم اناظرک من بعده في الحداثة والكمال.

قلت: علي اسلم قبل ابي بكر على هذه الشريطة.

فقال: نعم، فاخبرني عن اسلام علي حين اسلم لا يخلو من ان يكون رسول الله (ص) دعاه

الى الاسلام او يكون الهاماً من الله؟

قال: فاطرقت.

فقال لي: يا اسحاق، لا تقل الهاماً فتقدمه على رسول الله (ص)، لان رسول الله (ص) لم يعرف الاسلام حتى اتاه جبرئيل عن الله تعالى.

قلت: اجل، بل دعاه رسول الله (ص) الى الاسلام.

قال: يا اسحاق، فهل يخلو رسول الله (ص) حين دعاه الى الاسلام من ان يكون دعاه بأمر الله او تكلف ذلك من نفسه؟

قال: فاطرقت.

فقال: يا اسحاق، لا تنسب رسول الله الى التكلف، فان الله يقول: (... وما أنا مِنَ

الْمُتَكَلِّفِينَ).

قلت: اجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله.

قال: فهل في صفة الجبار جلّ ذكره ان يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم؟

قلت: أعوذ بالله.

فقال: أفتراه في قياس قولك يا اسحاق ان علياً اسلم صبيّاً لا يجوز عليه الحكم، وقد كلف رسول الله (ص) دعاء الصبيان الى ما لا يطيقونه فهو يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء ولا يجوز عليهم حكم رسول الله (ص) أترى هذا جائزاً عندك ان تنسبه الى الله عزّ وجلّ؟

قلت: أعوذ بالله.

قال: يا اسحاق، فارك انما قصدت لفضيلة فضل بها رسول الله (ص) على هذا الخلق

أبانه بها منهم ليعرف مكانه وفضله ولو كان الله تبارك وتعالى امره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا علياً؟

قلت: بلى.

قال: فهل بلغك ان رسول الله (ص) دعا احداً من الصبيان من اهله وقربته، لئلا تقول ان

علياً ابن عمه؟

قلت: لا اعلم، ولا ادري فعل او لم يفعل.

قال: يا اسحاق، أرايت ما لم تدري ولم تعلمه هل تُسأل عنه؟

قلت: لا.

قال: فدع ما قد وضعه الله عنا وعنك».

تحليل استدلال المأمون:

وفي احتجاج المأمون افكار لا بد من عرضها بالشكل التالي:

أ _ انه (ص) دعا علياً (ع) للاسلام بأمر الله.

ب _ ان علياً (ع) عندما اسلم لم يكن صبيّاً لا يجوز عليه الحكم.

ج _ ان دعوة علي (ع) للاسلام كان لفضيلة تخصه (ع).

د _ ان رسول الله (ص) لم يدعُ احداً من الصبيان من اهله وقرابته الى الاسلام.

ولكن هذا الاحتجاج _ على متانته _ لا يمكن ان يؤخذ على تلك الصورة ما لم يهذب تهذيباً علمياً. فعلي (ع) وقت البعثة ليس كبقية الصبيان، بل كان انساناً على اعتاب الرجولة قد امتلأ من علم رسول الله (ص)، ورضع من بيت النبوة، واستنشق من عبير الوحي، وكان يسمع الصوت ويرى الضوء قبل الرسالة وجبرئيل في الغار يعلم رسول الله (ص) معاني التوحيد. وتلك فضيلة عظيمة من فضائل علي (ع) التي اختص بها دون غيره من الناس. وبكلمة، فقد كان امير المؤمنين (ع) مؤهلاً _ بفضل التربية النبوية _ لتقبل الاسلام والايمان به لانه كان مؤمناً في الاصل بالتوحيد والعقيدة الابراهيمية. بينما كان الامر يتطلب مع بقية الناس مرحلتين. الاولى: الكفر بالوثنية وترك عبادة الاصنام. والثانية: الايمان بالله الواحد الاحد وبرسالته السماوية الجديدة.

٤ _ خلاصة المطلب:

نستنتج مما ذكر ان علياً (ع) كان قد ضمّ الى رسول الله (ص) يوم كان في ربيعته السادس، وآمن بالله عزّ وجلّ عن وعي وادراك فور انضمامه الى النبي (ص). وهو يطابق قوله: «آمنت قبل الناس سبع سنين». فبقي مع رسول الله (ص) سبع سنين فكان اول المؤمنين ايماناً. واسلم عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وهو اصح ما قيل في ذلك، فكان اول المسلمين اسلاماً. وكان (ع)

الصديق الأكبر، آمن قبل ان يؤمن ابو بكر، واسلم قبل ان يسلم. ويؤيد ما ذكرناه رواية الخوارزمي في «المناقب» من انه (ع) صلى «مستخفياً قبل ان يصلي مع النبي (ص) احد، سبع سنين واشهر...». والمشهور ان خديجة (رض) كانت تصلي معهم بعد البعثة. بينما نفهم من منطوق رواية الخوارزمي ان علياً (ع) كان يصلي مع النبي (ص) ولا احد معهما نفس تلك الفترة التي قضاها في بيت رسول الله (ص) قبل البعثة. وخير المؤيدات ايضاً رواية سلمان (رض) التي قال فيها: اسلم (ع) قبل البلوغ كما ورد في شعره الذي فاخر فيه معاوية بأنه اسلم عندما كان غلاماً ما بلغ اوان حلمه.

اجملاً، فقد كان النبي (ص) يصلي لله عزّ وجلّ قبل الاسلام. فكان علي (ع) اول من صلى معه. وهذا يعني ان علياً (ع) كان مهيباً ومعدداً لدخول الاسلام من اوسع ابوابه. فقد مارس مع رسول الله (ص) شتى الوان التعبد والتذلل والخشوع للخالق عزّ وجلّ قبل البعثة. وما ان صدع رسول الله (ص) بالرسالة حتى آمن بها علي (ع) بكل جوارحه.

الايمان بالرسالة

ان معنى الايمان - باطلاقه اللفظي - هو ان يضع الانسان ثقته بالشيء او القضية التي اعتنقها واعترف باحقيتها. فالايمان يعني بناء جسر من الثقة والاطمئنان بين المؤمن والرسالة التي آمن بها. ومن هذا المنطلق فان الايمان بالرسالة يبتني على اربعة اساس:

الاول: الاعتقاد بالحقائق المنزلة عن طريق الوحي، والتي ليس لنا سبيل الى معرفتها الا عن طريق نبي مرسل يوحى اليه من قبل السماء. وقد كان ايمان علي (ع) بحقائق التنزيل ايماناً راسخاً، ولذلك كان رسول الله (ص) يخاطبه قائلاً: «انت اول المؤمنين ايماناً وانت اول المسلمين اسلاماً...». أي انك اول من اعتقد بالحقائق السماوية المنزلة عليّ وانك اول من وضع ثقته بالرسالة السماوية التي جئت بها. وبتعبير ثالث، ان علياً (ع) عندما آمن برسول الله (ص)، فانه (ع) آمن بكل ما كان يحمله نبي الرحمة (ص) من احكام وعقائد ومفاهيم وقيم واخلاق.

الثاني: ان اعلى درجات الايمان هو ان يصل الى مرحلة اليقين والقطع لا مجرد المعرفة او الرأي. وقد كان ايمان علي (ع) في قمة سلم اليقين والقطع لانه ايمان المعصوم المدرك لرسالة الدين في الحياة الانسانية. بينما كان ايمان البقية من قريش وغيرها يتراوح بين المعرفة والرأي. فاذا ارتفع في سلم المعرفة اقترب من ايمان اهل البيت (ع) كايما ن ابي ذر وعمار وسلمان والمقداد، واذا ارتفع في سلم الرأي الشخصي ابتعد عن اهل البيت (ع) كايما ن الطلقاء ونحوهم. ولكن درجة اليقين التي كان قد وصلها ايمان علي (ع) جعلته اوفى الناس بعهد الله، واقومهم بأمر الله، واقسمهم بالسوية، واعدلهم في الرعية، وابصرهم في القضية، واعظمهم عند الله مزيةً، كما عبّر عن ذلك رسول الله (ص) في مخاطبته امير المؤمنين (ع).

ولا شك ان ارتفاع الايمان بالرسالة الى درجة اليقين يعني اجتيازاً لحدود المعرفة العقلية من اجل الدخول الى عالم آخر يتجرد عن كل الشكوك والالهام والمخاوف من العقوبة. فالايما ن اليقيني بالله وبرسالته السماوية لا يرتفع فوق الرأي الشخصي فحسب، بل يرتفع فوق حدود المعرفة العقلية التي يجهد الافراد العاديون امثالنا في استيعابها. بينما يستقر الايمان المستند على الرأي الشخصي في القعر، لانه ايمان لا يستند الى ادنى درجات القطع. ولذلك ما كان رسول الله (ص) يدعو احداً من الناس الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة (أي تأخير وقلة اجابة) ونظر وتردد، كما المحنا الى ذلك اكثر من مرة. ولكنّ علياً (ع) كان قمةً في اليقين والقطع بصحة رسالة محمد (ص).

وفي ضوء ذلك، نقرر بأن الايمان له مراتب ثلاث:

١ _ مرتبة الايمان السطحي المستمد من الرأي الشخصي المجرد عن المعرفة. وامثلته ايمان اولئك الذين لم يكن لهم مفر الا الايمان الظاهري، كايما ن الطلقاء والذين استسلموا عندما استشعروا قوة الاسلام، ولكنهم رجعوا الى الجذور الجاهلية عندما حانت الفرصة لذلك لاحقاً.

٢ _ مرتبة الايمان المستند على المعرفة الحقة المبنية على مصادر الدين. وهو ايمان النخبة الصالحة من صحابة رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) كابي ذر وعمار وسلمان والمقداد وامثالهم.

٣ _ مرتبة الايمان المستند على اليقين. ولا ايمان بعد ذلك يستطيع الانسان حمله، على الصعيد الذهني او القلبي. وهذا هو ايمان علي بن ابي طالب وائمة الهدى (ع) برسالة رسول الله (ص). وهو القائل (ع): «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

الثالث: ان معرفة الحقيقة شيء والايمان بها شيء آخر. فقد يحصل للفرد علم بان الله عز وجل واحد، ولكنه لا يؤمن بتلك الحقيقة. وقد يحصل للانسان علم بأن محمداً (ص) رسول الله حقاً، ولكنه يظل كافراً بتلك الحقيقة. وربما تواجد اكثر من صحابي في وقائع تاريخية اثبت فيها رسول الله (ص) على علي (ع) ومنحه فيها مقعد الولاية الشرعية، ولكنهم لم يؤمنوا بها مع انها كانت حقيقة.

فالايمان بالحقيقة الدينية اذن هو الذي يُثقل الميزان، لا معرفة الحقيقة معرفة مجردة. وعندما كان علي (ع) يرى الحقائق السماوية النازلة على نبي الرحمة (ص) ناصعة امامه، لم يقف منها موقف الحياد، بل آمن بها بقوة. فمعرفة الحقيقة الدينية عند علي (ع) كان يعني الايمان بها.

الرابع: ان ايمان علي (ع) برسالة محمد (ص) لا بد ان يكون جزءاً من التصميم الالهي للحياة. فشخصية بهذا الوزن وذاك الحجم في الصورة الاسلامية، لا بد ان تُخلق مع الاسلام من أجل اكتمال تلك الصورة. فايما علي (ع) لم يكن قراراً عشوائياً، او حكم صبي كما يزعمون، بل كان جزءاً من التصميم الالهي لمستقبل هذا الدين. وهذا لا يقلل من فضائله (ع)، بل كان في علم الله عز وجل ان تكتمل صورة الاسلام بوجود علي (ع) بعد رسول الله (ص).

ولا شك ان الامام (ع) _ على الرغم من حداثة سنه _ لم يكن ليؤمن برسالة لولا انه رأى دليلاً حاسماً على صدقها. والمعجزات التي ظهرت على النبي محمد (ص) وانجاز ما وعده الله سبحانه، وقدسيتها الرسول والرسالة، كلها تعطي شخصية عظيمة كشخصية علي (ع) الدليل على التصديق الكامل بها. ويؤيده قوله (ع) عندما سأله السائل: هل رأيت ربك؟ فأجابه (ع): او اعبد ما لا ارى؟ ثم عاد السائل: وكيف تراه؟ فرد عليه: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان...». فقد ادرك علي (ع) بقلبه الخافق حقائق الرسالة الجديدة وآمن بها.

ومن الطبيعي فان ايمان الامام (ع) برسالة السماء كان مستنداً على قطعية الدليل الذي رآه في شخصية رسول الله (ص)، وعلى يقينية الدليل في رسالة القرآن المجيد. وهذا يدعونا للايمان بأن علياً (ع) عندما آمن بالاسلام لم يكن صبيّاً يقلّد الآخرين. بل كان مسلّحاً بالمعارف التي تعلمها من النبي (ص). فكان على وعي تام بمقتضيات الايمان بالرسالة الجديدة على الصعيدين العقلي والروحي. ولم يكن يُعهد عن رسول الله (ص) انه كان يدعو الصبيان والاحداث الى الاسلام، بل كان يدعو من يجد فيه الكفاءة والاهلية لتقبل الدين الجديد بأفكاره وتكاليفه. فيكون ايمان علي (ع) المسلّح بالمعارف التوحيدية، بوابة من بوابات الخير المنهمر على البشرية، كما سنلمس ذلك لاحقاً.

- ١ «المستدرک علی الصحیحین» ج ٣ ص ١٣٦. و«سنن الترمذی». ج ٥ ص ٣٠٦. و«مسند احمد» ج ٤ ص ٣٧١. و«تاریخ مدينة دمشق» - ترجمة الامام علي بن ابي طالب (ع) ج ١ ص ٦٣، حديث ٩٩.
- ٢ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع. ص ١٧. و«المستدرک علی الصحیحین» ج ٣ ص ١٣٦.
- ٣ «وسيلة المال في عدّة مناقب الآل». رواه الحضرمي باسناده عن عمر بن الخطاب. الباب الرابع ص ٢١١
- ٤ «انساب الاشراف» - البلاذري باسناده عن معاذة العدوية. ج ٢ ص ١٤٦. و«تاریخ مدينة دمشق» ج ١ ص ٥٣ حديث ٩٠ و«منتخب كنز العمال» ج ٥ ص ٤٠.
- ٥ «الخصائص» - رواه النسائي باسناده عن عمرو بن عبادة بن عبد الله ص ٣.
- ٦ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ١٧.
- ٧ «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر ص ٩.
- ٨ «الصواعق المحرقة» - ابن حجر ص ٧١.
- ٩ «مفتاح النجاء» - البدخشاني. ص ٣٥.
- ١٠ «منتخب كنز العمال» باسناده عن معقل بن يسار ج ٥ ص ٣١.
- ١١ «المصدر السابق» باسناده عن معاذ. ج ٥ ص ٣٣ - ٣٤.

- ١٢ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ٢٠ باسناده عن زيد بن ارقم. و«الخصائص»
رواه النسائي ص ٢. و«انساب الاشراف» - البلاذري ص ٩٣. و«الفضائل» رواه احمد ج ١
ص ١٢١.
- ١٣ «مسند احمد» - رواه احمد باسناده عن اسماعيل بن أياس بن عفيف الكندي عن ابيه عن
جده. ج ١ ص ٢٠٩. ورواه النسائي في «الخصائص» ص ٣.
- ١٤ «مطالب السنن» ص ٢٨. و«سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٥٩، ٢٦٣.
- ١٥ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ٢١.
- ١٦ «وسيلة المآل» - رواه الحضرمي باسناده عن حبة العرني. الباب الرابع ص ٢١١.
- ١٧ «الخصائص» - رواه النسائي باسناده عن عمرو بن عباد بن عبد الله ص ٣.
- ١٨ «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر ص ٩.
- ١٩ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ٢١.
- ٢٠ سورة الحجر: آية ٩٤.
- ٢١ سورة الشعراء: آية ٢١٤ - ٢١٥.
- ٢٢ «وسيلة المآل» رواه الحضرمي باسناده عن عمر بن الخطاب. الباب الرابع ص ٢١١.
- ٢٣ سورة الحجرات: آية ١٤.
- ٢٤ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٦٩.
- ٢٥ سورة الواقعة: آية ١٠ - ١١.
- ٢٦ «مسند احمد» ج ٤ ص ٣٧١.
- ٢٧ «نهج الحق وكشف الصدق» - العلامة الحلي. باب الاخبار المتواترة عن النبي (ص) الدالة
على امامة علي (ع) - حديث ٢ ص ١٠١.
- ٢٨ «الفضائل» ج ١ حديث ١١٩، رواه احمد باسناده عن قتادة عن الحسن. و«العقد الفريد»
- ابن عبد ربه ج ٤ ص ٣١١.
- ٢٩ «تفسير الثعلبي» ص ٤٢٠ مخطوط.
- ٣٠ «تأريخ مدينة دمشق». ج ١ ص ٣٢، رقم ٦١. رواه الهيثمي عن عروة بن الزبير.
- ٣١ «المصدر السابق» ج ١ ص ٣٣ حديث ٦٢. رواه ابن عساكر باسناده عن الحسن بن زيد
بن الحسن بن علي بن ابي طالب.
- ٣٢ «المصدر السابق» ج ١ ص ٣٥ حديث ٦٥. رواه ابن عساكر باسناده عن محمد بن عبد
الوهاب عن الحسين بن الوليد.

- ٣٣ «كفاية الطالب» ص ٩. رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر.
- ٣٤ «انساب الاشراف» ج ٢ ص ١٤٦.
- ٣٥ «الخصائص» - عن النسائي باسناده عن عمرو بن عبادة بن عبد الله ص ٣.
- ٣٦ «الخصائص» ص ٣.
- ٣٧ سورة مريم: آية ٣٠.
- ٣٨ سورة مريم: آية ٢٩.
- ٣٩ سورة مريم: آية ١٢.
- ٤٠ «المناقب». الفصل الرابع ص ١٧. رواه الخوارزمي باسناده عن محمد بن اسحاق.
- ٤١ «نظم درر السمطين». ص ٨٢. و«منتخب كنز العمال». ج ٥ ص ٤٠.
- ٤٢ يقال: نَجَمْتُ المال، إذا أَدَيْتَهُ نجوماً. والنَجْمُ: الوقت المضروب.
- ٤٣ سورة الفرقان: آية ٣٢.
- ٤٤ سورة القدر: آية ١.
- ٤٥ سورة الدخان: آية ٢.
- ٤٦ سورة الشعراء: آية ١٩٣ - ١٩٤.
- ٤٧ سورة الاسراء: آية ١٠٦.
- ٤٨ سورة الضحى: آية ١ - ٣.
- ٤٩ سورة الضحى: آية ٤.
- ٥٠ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٥٨.
- ٥١ سورة العلق: آية ١.
- ٥٢ سورة الواقعة: آية ١٠ - ١١.
- ٥٣ سورة ص: آية ٨٦.
- ٥٤ «العقد الفريد» - ابن عبد ربه. ج ٥ ص ٩٤.
- ٥٥ «الخصائص» - عن النسائي باسناده عن عمرو بن عبادة بن عبد الله ص ٣.
- ٥٦ «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر ص ٩.
- ٥٧ «انساب الاشراف» - البلاذري باسناده عن معاذة العدوية. ج ٢ ص ١٤٦.
- ٥٨ «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ٢١.
- ٥٩ «نظم درر السمطين» ص ٨٢ عن الزرندي.
- ٦٠ «وسيلة المآل». الباب الرابع ص ٢١١.

- ٦١ «منتخب كنز العمال» باسناده عن معاذ. ج ٥ ص ٣٣ - ٣٤.
٦٢ «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٦٩.
٦٣ «شرح ابن ميثم البحراني على كلمات الامام علي (ع)» ص ٥٢.

(ص ٢١٧ - ٢٣٤)

الباب الثاني

الدفاع عن الاسلام: الجهاد السلمي

الفصل السادس

حديث العشيرة والدار

«وأندر عشيرتك الأقرين»: حديث العشيرة والدار الدلالات العلمية للنصوص: ١ - سند حديث العشيرة والدار. ٢ - المدلول العلمي لآية انذار العشيرة: أ - كلمة «أندر». ب - كلمة «عشيرتك». ج - كلمة «الأقرين». ٣ - التلاعب التاريخي برواية انذار العشيرة. ٤ - صعوبة موقفه (ص). العشيرة في الدين والمجتمع: ١ - مباني انذار العشيرة. ٢ - الاسلام وتفكيك جاهلية العشيرة.

«وأندر عشيرتك الأقرين»: حديث العشيرة والدار

عندما أمر رسول الله (ص) باعلان الاسلام للملأ بعد ثلاث سنين من الدعوة السرية، كان اول من دعاهم (ص) عشيرته الاقربين من بني عبد الملب. فكانت الدعوة في دار عمه ابي طالب، وفيها أمر علياً بأن يصنع لهم طعاماً من طعام ذلك الزمان، لحمًا وخبزاً ولبناً. او كما كانوا يعبرون عنه: فخذ شاة، مع صاع من الطحين وُعساً من لبن. وتسلسل الرواية تم بالشكل التالي:

لما نزلت آية: **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)** على رسول الله (ص)، قال (ص) لعلي (ع): «يا علي، ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين... فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واجعل لنا عساً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وأبلغ ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به رسول الله (ص) ثم دعوتهم وهم يومئذ اربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون، فيهم اعمامه: ابو طالب، وحمزة، والعباس، وابو لهب. فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به، فلما وضعته تناول النبي (ص)... جذبة من اللحم، ثم قال: كلوا بسم الله، فأكل القوم حتى نهلوا منه ما نرى الا آثار اصابعهم، وأيم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم. ثم قال: اسقي القوم يا علي، فجئتهم بذلك العسّ، فشربوا منه حتى رويوا جميعاً وأيم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما اراد النبي (ص) ان يكلمهم بدرّ أبو لهب بالكلام، فقال: لقد سحركم صاحبكم فتنفرك القوم، ولم يكلمهم النبي (ص). فلما كان الغد قال: يا علي سبقني الى ما سمعت من القول فتنفرك القوم قبل ان اكلمهم، فعد لنا مثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي، ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعا لي بالطعام. فقربته، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا حتى نهلوا، ثم تكلم النبي (ص) فقال: «يا بني عبد المطلب، اني والله ما اعلم انساناً من العرب جاء قومه بأفضل ما جئتمكم به، اني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله ان ادعوكم فأيكم يوازرنني على امري هذا؟ فقلت: انا - وأنا أحدثهم سناً، وأرضهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً - أنا يا نبي الله أوازرك عليه فأخذ برقبتي. فقال: هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب: قد أمرك ان تسمع وتطيع لعلي».

وفي صيغة أخرى ورد قوله (ص): «وأنا أدعوكم الى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهم العرب والعجم، وتنقاد لكم بهما الامم، وتدخلون بهما الجنة، وتنجون

بهما من النار: شهادة أن لا إله إلا الله، واني رسول الله. فمن يجيبني الى هذا الامر ويؤازرنني...».

وفي صيغة ثالثة نقلها السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ)، انه (ص) قال عندما فرغوا من طعامهم: «يا بني عبد المطلب، اني نذيرٌ لكم من الله جلّ وعزّ. اني أتيتكم بما لم يأت به أحد من العرب، فان تطيعوني ترشدوا وتفلحوا وتنجحوا. ان هذه مائدة أمرني الله بها، فصنعتها لكم، كما صنع عيسى بن مريم (ع) لقومه. فمن كفر بعد ذلك منكم، فان الله يعذبه عاباً لا يعذبه احداً من العالمين. واتقوا الله، واسمعوا ما أقول لكم، واعلموا يا بني عبد المطلب، أن الله لم يبعث رسولاً الا جعل اخاً له ووزيراً ووصياً ووارثاً من اهله. وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء قبلي. وان الله قد ارسلني للناس كافة، وأنزل عليّ: (وأندر عشيرتك الأقرين)، ورهطك. وقد _ والله _ أنبأني ان ادعوكم وانصح لكم وأعرض عليكم، لئلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وأنتم عشيرتي وخالص رهطي. فأيكم يسبق اليها على ان يؤاخيني في الله، ويؤازرنني في الله عزّ وجلّ، ومع ذلك يكون لي يداً على جميع من خالفني، فأتخذه وصياً، وولياً، ووزيراً، يؤدي عني، ويبلغ رسالتي، ويقضي ديني من بعدي، وعداتي». لم يستجب له أحدٌ من الحاضرين.

وبعدها قام علي (ع)، فأمضى قوله (ص) بالقول: «يا ابا الحسن أنت لها، فُضي القضاء، وجفّ القلم. يا علي اصطفاك الله بأولها، وجعلك وليّ آخرها». ولعلّ هذا امتن ما في الباب من روايات وأقرب الى واقع النبوة. خصوصاً وان السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) من المدققين في سند الروايات ومتونها.

وقد ورد حديث العشيرة والدار بأشكال وصيغ أخرى متعددة، لكنها كلها تكشف عن الحقائق التالية:

١- دعوة بني عبد المطلب بن هاشم للاسلام من قبل رسول الله (ص) بأمر الله سبحانه وتعالى. وهم عشيرته الاقربون.

٢- رفضهم الايمان بالاسلام وتنكرهم لدعوة رسول الله (ص) ما عدا علياً (ع) بالرغم من حداثة سنّه - ربما كان على مشارف السنة الرابعة عشرة من عمره- وحضور والده ابي طالب (رض) معهم.

٣- اعلانه (ص) ان علياً (ع) وصيه وخليفته من بعده، وعليهم السمع والطاعة.

٤- نستلهم من الواقعة انه لم يكن مع علي (ع) مسلم آخر، والا لذكر اسمه خصوصاً وان وليمة بتلك الدسامة لاربعين نفرأ تقتضي مشاركة المسلمين في اعداد الطعام وخدمة الضيوف. وهذا يؤكد ان علياً (ع) كان المسلم الذكر الوحيد بعد رسول الله (ص) لحد ذلك التاريخ، أو على الأقل انه كان المسلم الوحيد الذي يُعتمد عليه في موطن من هذا القبيل.

الدلالات العلمية للنصوص

ومن الطبيعي، فان من المهم دراسة حديث العشيرة والدار من حيث السند والدلالة اللغوية والقرآنية. ولا بد من التعرض بالنقد للمحاولات السياسية لمحو اسم علي (ع) من شرف الوزارة لرسول الله (ص) في تلك الواقعة التاريخية المهمة.

١- سند حديث العشيرة والدار:

أخرج الحديث بالمتن الذي ذكرناه او قريباً منه العديد من الفقهاء والمحدثين كالمجلسي (ت ١١١١ هـ) في «بحار الانوار»، والشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في مجالسه، وفيات بن ابراهيم (من اعلام القرن الثالث الهجري) في تفسيره، والطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) في «مجمع البيان» في تفسير (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ).

ومن المدرسة السنية رواه الفقيه برهان الدين محمد بن ظفر الملكي المغربي (ت ٥٦٥ هـ) أو ٥٦٧ هـ) في «أنباء نجباء الابداء»، وابن الاثير في «الكامل في التاريخ»، وأبو الفداء عماد الدين الدمشقي في تاريخه.

ورجال السند كلهم ثقة الا ابو مريم عبد الغفار بن القاسم حيث ضعفوه لتشيعه!! بينما اثنى ابن عقدة عليه وأطراه وبالع في مدحه في «لسان الميزان». وأخرجه احمد في مسنده بسند رجاله كلهم من رجال الصحاح، وهم شريك الاعمش والمنهال وعباد بن عبيد الله الأسدي.

وأخرجه في مكان آخر عن عفان بن مسلم (الثقة)، عن ابي عوانه (الثقة)، عن عثمان بن المغيرة (الثقة)، عن ابي صادق مسلم الكوفي (الثقة)، عن ربيعة بن ناجذ (التابعي الكوفي الثقة)، عن امير المؤمنين (ع).

والذين عرضوا هذا الحديث على اختلاف مشاربهم هم من أساتذة الحديث، وأئمة الاثر، والمرجع في الجرح والتعديل، بل والرفض والاحتجاج.

٢- المدلول العلمي لآية إنذار العشيرة:

ان المدلول العلمي لآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) يكمن في تحليلها لغوياً وقرآنياً، واستخلاص نتائج التحليل في الصورة التالية: ان معنى الآية هو انحصار الانذار ببني ابيه الأدين دون قريش، وهم - دون غيرهم من قريش - بنو عبد المطلب بن هاشم.

أ- كلمة (أنذر):

لغوياً: معنى كلمة أنذر هو: «وأنذر بالأمر إنذاراً، ونذراً، ويضم، وبضمتين، ونذيراً: أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه».

قرآنياً: هناك موارد يتناول فيها القرآن معنى كلمة الانذار، منها: (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ...)، (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ...)، (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ). ووحدة السياق في لفظ الانذار ظاهرة، وهو الابلاغ القائم على اساس التخويف والتحذير.

الدلالة العلمية: مقتضى الامر ان خطاب الانذار كان مخصوصاً بالعشيرة الاقربين.

ب- كلمة (عشيرتك):

لغويًا: عشيرة الرجل: «بنو أبيه الاذنون او قبيلته...». فهذا لفظ «العشيرة» مشترك لفظي بين: بني الأب الأذنين، وبين ما يشملهم مع غيرهم من القبيلة.

قرآنيًا: ورد لفظ «العشيرة» في موارد عدة في القرآن الكريم. يقول تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ...)، (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ...)، (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُوا لَمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ). والعشير هو صاحب المعاشر، وهذه الآية خارجة عن موضوع البحث.

الدلالة العلمية: لا نجد في تلك الآيات الشريقات مدلولاً خاصاً في لفظ «العشيرة». بل ان المدلول العام للفظ هو ان عشيرة الرجل هم قبيلته، او بنو ابيه اذا ضمنا اليه المعنى اللغوي.

ج - كلمة (الأقربين):

لغويًا: قُرب الشيء بالضم يقربُ قُرباً، أي دنا. والاقربون: الاذنون.

قرآنيًا: ورد لفظ «الاقربون»، و«ذوي القربى»، و« اولوا القربى »، و«مقربة» في موارد عديدة في القرآن الكريم. منها: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...)، (... قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ...)، (واعلموا أنّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى...)، (ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى...)، (أو إطعامٌ في يَوْمِ ذِي مَسْعَبَةَ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)، (... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...).

ولا شك ان المراد من لفظ «الاقربون»: الاذنون. والمراد من المودة في القربى في الآية الاخيرة هو مودة قرابة النبي (ص) وهم عترته من اهل بيته (عليهم السلام). وهذه الآية مدنية

خوطف به المسلمون. وانما أطلق لفظ الاجر بحسب الدعوى، واما بحسب الحقيقة فالمراد القرب من تعاليمهم (ع)، وجعلهم القدوة في الدين والدنيا عن طريق المحبة.

وقد قيل «ان ذوي القربى لفظ عام خُصَّ بني هاشم والمطلب» فقد كان «بني هاشم وبني المطلب اثتلافاً سرى في اولادهما من بعدهما، ولهذا لما كتبت قريش الصحيفة بينهم وبين بني هاشم حصروهم في الشعب دخل بنو المطلب مع بني هاشم، ولم يدخل بنو نوفل وعبد شمس». ولكن ذلك الائتلاف لا يمكن ان يكون مبرراً في دمج النسب. ولذلك فان ذوي القربى او العشيرة الاقربين منحصرة في بني هاشم دون بقية اولاد عبد مناف.

وكان بنو عبد المطلب بن هاشم هم الشريحة الاخص التي وُجِّهت لها الدعوة. ولا بد من الائتلاف هنا الى ان بني المطلب هم غير بني عبد المطلب بن هاشم.

الدلالة العلمية: ان قريشاً وان كانت قريبة لرسول الله (ص) بالنسبة لسائر العرب، الا ان اهل بيته من بني عبد المطلب بن هاشم اقرب اليه من بقية قريش. وهنا يكون لفظ «الاقربين» واصفاً العشيرة الهاشمية بمعناها الخاص، ومانعاً من ان يكون المقصود: العشيرة القرشية بمعناها العام أي قريش.

اشارة: لقد كُلف النبي (ص) بتبليغ الدعوة الى عشيرته الاقربين في مرحلة سابقة على امره بتبليغها الى قومه من قريش ثم من عداها من بقية العرب، ثم بقية الناس على وجه الارض.

وبذلك كانت مرحلة الدعوة الى الاسلام هي:

١ _ الدعوة السرية للاسلام، حيث استمرت ثلاث سنوات.

٢ _ الدعوة العلنية ومدتها عشر سنوات في مكة وعشر سنوات في المدينة. وهي على

ثلاث مراحل:

أ _ العشيرة: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ).

ب _ قريش بجميع بطونها: (... لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...).

ج _ العالم: (... لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...).

٣- التلاعب التاريخي برواية إنذار العشيرة:

رويت رواية انذار العشيرة بطرق أخرى، كان محورها اسقاط اسم علي (ع) من شرف الاخوة والوصاية والخلافة بعد رسول الله (ص). ونعرض هنا نموذجاً، وهو ما رواه البخاري عن ابي هريرة قال: قام رسول الله (ص) حين انزل الله: **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)** قال: يا معشر قريش (أو كلمة نحوها) اشتروا انفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا ابن عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمه رسول الله لا أغني من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله».

وعلق عليه ابن حجر في «فتح الباري» بالقول: «هذا من مراسيل الصحابة وبذلك جزم الاسماعيلي. [أولاً] لان أبا هريرة انما اسلم بالمدينة وهذه القصة وقعت بمكة. و[ثانياً] ان ابن عباس كان حينئذ لم يولد، واما طفلاً». وهذا يكفي في الاستدلال على ان امثال تلك الروايات كانت موضوعة للتقليل من دور علي (ع) في واقعة إنذار العشيرة.

ومن اعجب الروايات في ذلك ما رواه ابن حجر عن الطبراني قال: «لما نزلت: **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)** جمع رسول الله بني هاشم ونساءه وأهله، فقال: يا بني هاشم اشتروا انفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم، يا عائشة بنت أبي بكر، يا صفية بنت عمر، يا ام سلمة...». والغريب انه لم يكن قد تزوج حينئذ الا بخديجة بنت خويلد. ولم تكن أي من المذكورات من زوجاته (ص) ولم بين (ص) بأي منهن الا في المدينة. وحادثة انذار العشيرة كانت في مكة لا في المدينة كما هو معروف.

والطبري (ت ٣١٠ هـ) عندما يذكر حديث انذار العشيرة ويصل الى قول علي (ع): أنا يا نبي الله اكون وزيرك، يقول على لسان علي (ع): «... فأخذ برقبي ثم قال: ان هذا أخي وكذا فاسمعوا له...». وهذا تحريف لاصل الحديث الذي ذكره الطبري في مكان آخر من تأريخه، فيقول: «فأخذ برقبي ثم قال: ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم...». وفيه دلالة على ان الحذف والتبديل كانت له اهدافاً سياسية. فان في اتحاد السند والتمن جزماً وبقيناً بانه انما غير

من اجل التوهين بولاية علي (ع). وهي المسألة التي وقع فيها الصراع الاجتماعي والسياسي بعد وفاة رسول الله (ص).

٤ - صعوبة موقفه (ص):

ان جمع عشيرته القريين وفيهم الشيوخ وكبار القوم وفيهم الاخيار مثل ابي طالب وحمزة والعباس، وفيهم الاشرار امثال ابي لهب وغيرهم امرٌ كان فيه الكثير من المشقة النفسية لرسول الله (ص). خصوصاً إذا لحظنا تقاليد تلك البيئة القبلية المغلقة في صحراء الجزيرة العربية. ولذلك عانى رسول الله (ص) من ردود فعلهم المملوءة بالسخرية والتهكم على ابي طالب (رضوان الله عليه). ولا شك ان سكوت القوم عن الاستجابة لرسول الله (ص) وقيام علي (ع) - وهو في أوائل بلوغه - متحدياً القوم، وفي المجلس ابوه واعمامه: حمزة والعباس وأبو لهب يحتاج الى وقفة تأمل.

لقد كان علي (ع) شجاعاً مقداماً متفانياً في ذات الله عزّ وجلّ. وكان تحديه الاعظم يكمن في الاستجابة التامة الرائعة لرسول الله (ص) في وقت كان (ص) يحتاج الى دعم معنوي من ذاك القبيل. وقد دفع علي (ع) ثمن ذلك الدعم بعد وفاة رسول الله (ص) خصوصاً عند سقيفة بني ساعدة وما بعدها من احداث.

العشيرة في الدين والمجتمع

قال تعالى مخاطباً نبيّه (ص): (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). فالقراية تعتبر من الكليات الثابتة في المجتمع الانساني. ولذلك فهي تلعب دوراً مهماً في تنظيم السلوك وفي تشكيل المجاميع البشرية المتميزة في المجتمع. فالقراية او النسب تعتمد على الاعتراف الاجتماعي بها واقرارها واحترامها. واحترام القراية - اجتماعياً - يعني احترام العملية الزوجية وآثارها المترتبة على انجاب البنين والبنات من ارحام مترابطة.

ولا شك ان شبكة العلاقات النسبية في المجتمعات الصحراوية كمجتمع مكة قبل الاسلام، لها تأثير فعال على مجمل التركيبة الاجتماعية لتلك المدينة العريقة. فشبكة القراية

لعبت دوراً مهماً في تماسك افراد العشيرة وتضامنهم، وكان نظامها يصوغ لوناً من الحقوق والواجبات المشتركة بين اعضائها.

١ - مباني انذار العشيرة:

لقد كان الخطاب الالهي لرسول الله (ص) بانذار عشيرته الاقربين مبنياً على عدّة أمور:

الاول: ان بني هاشم، كعشيرة، كانت من اشرف عشائر مكة على الاطلاق. فكان فيهم هاشم «عمرو العلاء» الذي هشم الطعام وثرثد الثريد عندما اصابت مكة السنة الجذباء، وكان فيهم عبد المطلب الذي حفر بئر زمزم فسقى الحجيج الاعظم ووقف بوجه ابرهة عام الفيل من اجل حماية الكعبة، وكان فيهم ساقى الحجيج ابو طالب، وكان فيهم حمزة سيد فرسان العرب وأشرفهم. فدعوتهم الى الرسالة الجديدة كان له تأثير كبير على قبائل العرب وأشرفها. والى ذلك اشير الى ان «السر في الأمر بالانذار للاقربين اولاً، ان الحجة اذا قامت عليهم تعدت الى غيرهم، والا كانوا علةً للبعد في الامتناع».

الثاني: ان قريشاً كانت تعترف ببني هاشم كعشيرة لها جذورها النسبية وعلاقتها الرحمية الممتدة الى اعماق التاريخ. فهي العشيرة التي تمتد جذورها الى ابراهيم الخليل (ع)، وقد اشار تعالى الى نسل رسول الله (ص) بقوله: **(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ)**. فقبل ان معناه هو: وتقلبك في الساجدين الموحدين من نبي الى نبي حتى اخرجك نبياً.

الثالث: ان الاعراف السائدة في تلك البقعة من الارض في ذلك الزمان كانت تقرُّ بأن لافراد العشيرة حقوقاً وإلزامات. وقد اقر الاسلام بعضاً من تلك الاعراف لانها كانت متناغمة مع المباني العقلية. فكان من الازام العرفي الاخلاقي ان يدعو (ص) عشيرته الى افضل ما جاء به رجل لقومه وهو الاسلام. ولذلك فانه (ص) قال لهم مخاطباً: «يا بني عبد المطلب، اني والله ما اعلم انساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد امرني الله ان ادعوكم...». وفي صيغة ثانية انه (ص) قال: «... وقد - والله - أنبأني به وسماه لي، ولكن امرني أن أدعوكم، وأنصح لكم، وأعرض عليكم، لئلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وانتم عشيرتي وخالص رهطي...».

ولكنهم، في تلك الواقعة، لم يراعوا حقوق العشيرة بالاستجابة له عداً علياً (ع) وأبا طالب (رض). بل تنكروا له وخرجوا مستخفين بدعوته اليهم. ولكنهم خضعوا له - بعد سنين - مدعين مستسلمين. فكان (ص) في ضوء اعراف العرب هو المتفضل عليهم.

الرابع: ان عمه ابا طالب الذي رعاه في الصغر وحماه بعد نزول الوحي، يمكن أن يُعدّ بمثابة ابيه من الزاوية الاجتماعية بعد وفاة ابيه عبد الله وجده عبد المطلب (رضوان الله تعالى عليهم). والفرق بين الاب الفسلجي او البيولوجي والاب الاجتماعي هو ان الاب الاجتماعي يتحمل مسؤوليات اجتماعية ويتوقع منه الزامات معينة. فالتيم الذي حُرِمَ من الابوة البيولوجية يحتاج خلال خروجه الى المجتمع الى ابوة اجتماعية يقوم بها ولي امره الموكّل بتربيته.

يقول تعالى واصفاً موقف ابراهيم (ع) من «آزر»: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً...)، (واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صديقاً نبيّاً إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغني عنك شيئاً). وقيل ان هذا الذي كان يخاطبه ابراهيم (ع) بقوله: (يا أبتِ) لم يكن والده، وانما كان عمه او جده لأُمّه أو زوج أمّه بعد وفاة والده. ذلك ان والده كان موحداً غير مشرك، لما تضافر من الروايات على ان آباء النبي محمد (ص) كانوا جميعاً موحدين غير مشركين.

وعندما يعبر القرآن الكريم عن «آزر» عم ابراهيم (ع) بالاب، فانه ربما يقصد - والله اعلم - بالاب الاجتماعي لانه راعيه ومربيه. وهنا، فيما نحن فيه، كان ابو طالب (رض) الاب الاجتماعي لرسول الله (ص) لانه وقف امام المجتمع الجاهلي كما يقف الاب مع ابنه حامياً ومدافعاً ومنافحاً عنه. فكان من ثمرات انذار العشيرة هو ايمان ابي طالب وتثبيت ولاية علي (ع). وهذا بحد ذاته انجازٌ ضخم.

ولا شك ان سلوك الافراد الذي يسيطر على تركيبة العشيرة يكشف عن تكامل النظام العشائري المحدود بحدودها. فللعشيرة رئيسها واشرافها واعضاءها الذين يساهمون جميعاً في حفظ تلك الرابطة التي تجمعهم وتجعلهم كتلة واحدة امام الصراعات الاجتماعية.

ولا شك ان العشيرة المؤلفة من عوائل، تهتم كل منها بأفرادها ايضاً. ولكن العائلة تذوب في محيط العشيرة الواسع. فالعائلة، وهي اصغر وحدة في العشيرة، تقوم بالاهتمام بأعضائها عن طريق منحهم الحب والعناية اللازمة التي يحتاجونها. وتعلمهم ايضاً طرق الادارة الاجتماعية والسلطة المحدودة، بالتدرج. اما العشيرة فتبقى الاسم الكلي الذي يربط مجموعة كبيرة من الافراد تحت عنوان وحدة النسب وتضافر العوامل الوراثية الطبيعية.

٢- الاسلام وتفكيك جاهلية العشيرة:

وإذا كان ابو طالب رئيس بني هاشم وزعيمهم، فهو مكلف _ حسب العرف العربي _ بقيادة العشيرة. وعلى باقي الافراد فيها الطاعة والاذعان. واذا حصل خلاف في العشيرة، فان حلّه يرجع الى سيدها وزعيمها، حيث ان له القول الفصل في تسوية المشكلة. وفي ضوء تلك الافكار نلمس:

أولاً: مشقة الدور الذي قام به رسول الله (ص) وشاركه علي (ع) يوم نزول آية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). فقد كانت دعوة العشيرة بسادتها الى مآدبة طعام، ثم دعوتهم الى الايمان بعقيدة جديدة فيه خروج عن العرف العشائري الذي كان يقرر بأن زعيم العشيرة هو الذي يدعوها الى مناسبة كتلك. ولكن نور النبوة وجلالها وجمالها الذي كان طاغياً على رسول الله (ص) هو الذي جبر تلك العملية الشاقة.

ثانياً: قيام علي (ع) _ وهو أصغر القوم سنّاً _ بالاستجابة لمطالب رسول الله (ص) بالايمان والمؤازرة خروج ثاب عن عرف العرب، وفيهم أبوه الشيخ الكبير جالس بينهم وأعمامه كبار القوم ومستوهم. ولذلك فانهم سرعان ما استنكروا ذلك وسخروا وقالوا لابي طالب: قد أمرك ان تسمع لابنك علي وتطيعه.

ثالثاً: عدم استنكار ابي طالب ذلك _ وهو زعيم العشيرة وسيدها _ له مغزى عظيم، فهو على اقل التقادير سكوت يكشف عن رضاه بالدعوة. ولكننا اذا آمننا بصحة الرواية التي قالت بأنه تكلم في المقام وقال متحدياً أبا لهب: «ما احب الينا معاونتك، واقبالنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وانما انا احدهم، غير اني اسرعهم الى ما تحب،

فامض لما امرت به فوالله لا أزال أحوطك وامنعك...»، فاننا نكون قد فهمنا اسرار دفاعه المستميت عن محمد (ص) امام قريش. وفيها دلالة على انه كان قريباً من الاسلام إن لم يكن قد استجاب فعلاً لنداء رسول الله (ص) في تلك المأدبة الكريمة.

وهنا كسر الاسلام بشخصي رسول الله (ص) وعلي (ع) أول حواجز العشيرة في العصر الجاهلي، الا وهو حاجز الطاعة العمياء لسلطة العشيرة. فاصبح علي (ع)، منذ ذلك اليوم، سيد القوم بعد رسول الله (ص) وهو لا يزال احدتهم سنّاً وارمضهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً. ومنذ ذلك اليوم، اصبحت الطاعة للدين ومن يمثله لا لسادة العشيرة ولا لزعمائها.

وهذا المعنى وضع فكرة العشيرة في الموضع الصحيح. فرابطة الدم والرحم لا غبار عليها، بل ان الدين يؤكدها ويشدد على اخلاقيتها، ولكن لا طاعة ينبغي ان تكون لمن له الشرف والرفعة والمنزلة في الدين. فلا اثر ديني لزعيم العشيرة اذا كان بعيداً عن الدين. اما اذا كان الزعيم متديناً وشريفاً في دينه، فانه سوف يجمع بين حسنات الدين والدنيا، وهو ما جمعه ابو طالب. ولذلك فقد كان نداً قوياً لجاهلية قريش وعنجهيتها.

ان دعوة رسول الله (ص) لعشيرته للايمان بالله سبحانه وبرسالة التوحيد كانت _وبعنوان ثانوي _ من اجل تغيير موقع العشيرة من الواقع العرفي اللاديني الى واقع الضمير الديني. فلا بد انه (ص) وضعها راسخة في ضمائرهم بأنه لم يهملهم ولم يخرج عن اعرافهم التي بنوا حياتهم عليها. ولكنه، في الوقت نفسه، عرض رسالته السماوية الجديدة وضرب اعرافهم الجاهلية اللادينية عرض الحائط. فالشريف في الدين _ حتى لو كان صغيراً في العمر كعلي (ع) _ لا بد ان يُطاع من قبل عشيرته حتى من قبل سيدها ابي طالب، وغيره من وجهاء العشيرة واكابرها.

(تليها ص ٢٣٥ - ٢٥٠)

العُس: العساس ككتاب: الأقدام العظام. الواحد عسٌّ بالضم، والعسس بضمين... الآية الكبار. «القاموس المحيط فصل العين باب السين». فيكون معنى العُس: الاناء الكبير.

سورة الشعراء: آية ٢١٤.

«أسنى المطالب» - الوصافي باسناده عن امير المؤمنين (ع). الباب الثالث ص ١٢ .
و«منتخب كنز العمال» ج ٥ ص ٤١ . و«كفاية الطالب» - الكنجي ص ٢٠٦ .

«منهاج الكرامة» - العلامة الحلبي . المنهج الثالث . الدليل الاول .

سورة الشعراء: آية ٢١٤ .

«سعد السعود» - السيد ابن طاووس ص ١٠٥ - ١٠٦ ، نقلاً عن تفسير محمد بن العباس بن مروان بن مهيّار (الثقة) في تفسيره .

المصدر السابق

«بحار الانوار» ج ١٨ ص ١٩١ .

فرات بن إبراهيم الكوفي (من المحتمل وفاته في القرن الرابع الهجري) صاحب التفسير المعروف المقصور على الروايات المروية عن الائمة (ع) . ص ١٠٨ - ١٠٩ .

«أبناء نجباء الأبناء» - المغربي . ص ٤٦ - ٤٨ .

«الكامل في التأريخ» ج ٢ ص ٢٤ .

«تأريخ ابي الفداء» ج ١ ص ١١٦ .

«لسان الميزان» - ابن عقدة . ج ٤ ص ٤٣ .

«مسند احمد» ج ١ ص ١١١ .

«المصدر السابق» ج ١ ص ١٥٩ .

سورة الشعراء: آية ٢١٤ .

«القاموس المحيط» - الفيروز ابادي . باب الرء فصل الهمزة .

سورة إبراهيم: آية ٤٤ .

سورة الانعام: آية ٥١ .

سورة غافر: آية ١٨ .

«القاموس المحيط» للفيروز ابادي.

سورة التوبة: آية ٢٤ .

سورة المجادلة: آية ٢٢ .

سورة الحج: آية ١١ - ١٣ .

سورة النساء: آية ٧ .

سورة البقرة: آية ٢١٥ .

سورة الانفال: آية ٤١ .

سورة التوبة: آية ١١٣ .

سورة البلد: آية ١٤ - ١٥ .

سورة الشورى: آية ٢٣ .

«فتح الباري» - ابن حجر ج ٦ ص ١٨٨ .

المطلب احد ابناء عبد مناف . فقد كان لعبد مناف اربعة اولاد: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل . وينحدر رسول الله (ص) وعلي (ع) من هاشم بن عبد مناف .

«فتح الباري» - ابن حجر ج ٦ ص ١٨٧ .

سورة الشعراء: آية ٢١٤ .

سورة الشورى: آية ٧ .

سورة إبراهيم: آية ١ .

«فتح الباري» ج ٨ ص ٤٠٨ ، قال البخاري: حدثنا ابو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرنا سعيد بن المسيب وابو سلمة بن عبد الرحمن عن ابي هريرة.

«فتح الباري» ج ٨ ص ٤٠٦ .

«فتح الباري» - ابن حجر عن الطبراني. ج ٨ ص ٤٠٦ .

«تأريخ الطبري» ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢١ .

م. ن. - ج ٢ ص ٢١٦ .

سورة الشعراء: آية ٢١٤ .

«فتح الباري» - ابن حجر. ج ٨ ص ٤٠٨ .

سورة الشعراء: آية ٢١٨ - ٢١٩ .

«كفاية الطالب» - الكنجي ص ٢٠٦ .

«سعد السعود» - ابن طاووس. ص ١٠٦ .

سورة الانعام: آية ٧٤ .

سورة مريم: آية ٤١ - ٤٢ .

«الكامل في التأريخ» - ابن الاثير ج ٢ ص ٦٠ - ٦١ .

الفصل السابع

مرحلة القدى

علي (ع): اول مراحل القدى * الدلالات العلمية للنصوص: ١- الفداء: الدليل اللغوي. ٢-
الاحتجاج على الفقهاء: استدلال مدرسة المأمون. ٣- فلسفة الايثار عند علي (ع): أ- مقدمة
حول حب الذات والطبيعة الانسانية. أولاً: حب النفس. ثانياً: حب الغير. ثالثاً: حب الله. ب-
الايثار: المقتضيات. ج- الايثار: النطاق الفلسفي: أولاً: نكران الرغبة البشرية في البقاء. ثانياً:
نكران المصالح الذاتية. ثالثاً: الايثار ودوافعه الاخلاقية.

علي (ع): أوّل مراحل القدى

كان علي (ع) مستعداً للذود عن رسول الله (ص) وافتداء نفسه الزكية رخيصةً من اجل المصطفى (ص) في كل وقت، وكان علي (ع) على درجة من التضحية والايتار في جميع مواطن ملازمته لخاتم الانبياء (ص). ولكن المصادر التاريخية تذكر واقعتين لهما خصوصية عظيمة فدى بهما علي (ع) نفسه من أجل رسول الله (ص).

الاولى: المبيت في الشعب مكان رسول الله (ص). فقد «كان ابو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله (ص) البيات اذا عرف مضجعه وكان يقيمه ليلاً من منامه ويضع ابنه علياً مكانه...». فكان علي (ع) يقدم نفسه للموت، فداءً لرسول الله (ص).

الثانية: المبيت ليلة الهجرة. والرواية مشهورة عند الفريقين، فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: **(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ...)** قال: «تساورت قريش ليلاً بمكة فقال بعضهم: اذا اصبح فاثبتوه بالوثاق _ يريدون النبي (ص) _ وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل اخرجوه، فاطلع الله عزّ وجلّ نبيه على ذلك. فبات علي (ع) على فراش النبي (ص) تلك الليلة، وخرج النبي (ص) حتى لحق بالغار. ويات المشركون يحرسون علياً (ع) يحسبونه النبي (ص) فلما اصبحوا ثاروا اليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم. فقالوا: اين صاحبك هذا؟ قال: لا ادري. فافتصوا اثره. فلما بلغوا الجبل خلّط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا علي بابة نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابيه، فمكث (ص) فيه ثلاث ليال».

قال الشبلنجي في «نور الابصار» عارضاً فضائل أمير المؤمنين (ع): «فمن شجاعته نومه على فراش رسول الله (ص) لما أمره بذلك وقد اجتمعت قريش على قتل النبي (ص) ولم يكثرث علي (رضي الله عنه) بهم، قال بعض أصحاب الحديث: اوحى الله تعالى الى جبرئيل وميكائيل (عليهما السلام) ان انزلا الى علي واحرساه في هذه الليلة الى الصباح فنزلا اليه وهما يقولان: بخّ بخّ من مثلك يا علي؟ قد باهى الله بك ملائكته. واورد الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان ليلة

[مبيت] علي (رضي الله عنه) على فراش رسول الله (ص) أوحى الله تعالى الى جبرئيل وميكائيل: اني آخيت بينكما وجعلت عمر احدكما اطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة وأحباها، فاوحى الله اليهما: أفلا كنتما مثل علي بن ابي طالب آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة. اهبطا الارض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه ينادي ويقول: بخّ بخّ من مثلك يا ابن ابي طالب؟ يباهي الله بك الملائكة فانزل الله عزّوجل: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ). وفي تلك الليلة انشأ علي (رضي الله عنه):

وقيتُ نفسي خيراً من وطأ الحصى واكرم خلق طاف بالبيت والحجر
وبتّ اراعي منهم ما يسوءني وقد صبرت نفسي على القتل والاسر
وبات رسول الله في الغار آمناً وما زال في حفظ الاله وفي الستر

وكان مما نزل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا اجمعوا عليه: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)، (أم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)، وفي علي (ع) نزل: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ...).

الدلالات العلمية للنصوص

لابد هنا من فهم مقتضب لمعاني الفداء والتضحية والايثار، وادراك دلالاتها التاريخية والشرعية والفلسفية. وبدون ذلك، فاننا قد لا نستطيع تقييم حجم تلك الفضيلة التي رافقت علياً (ع) خلال مراحل حياته وحتى استشهاده.

١ - الفداء: الدليل اللغوي

معنى الفداء والفدى. قال الجوهري: «الفداء اذا كسر اول يمد ويقصر، واذا فتح فهو مقصور. يُقال: فم فدى لك ابي... وفداه بنفسه، وفداه تَفْدِيَةً اذا قال له: جعلت فداءك». فيكون المراد بالفداء: التعظيم والاكبار، لان الانسان لا يفدي الا من يعظمه فيبذل نفسه له.

وقال الراغب الاصفهاني: «حفظ الانسان عن النأبة بما يبذله عنه... يقال فديته بمال وفديته بنفسه وفاديته بكذا» وهو اقامة شيء في دفع المكروه. وكان امير المؤمنين (ع) يعرف مقام النبي (ص) فكان يفديه بنفسه في المبيت. ويتعبر آخر، فان فدى علي (ع) نفسه لرسول الله (ص) كان بدافع التعظيم والاكبار الذي كان يكتنه له (ص) ولرسالته السماوية.

٢- الاحتجاج على الفقهاء: استدلال مدرسة المأمون

استدل علماء السنة على فضل ابي بكر بن ابي قحافة بمصاحبه النبي (ص) في الهجرة؛ نستفيد ذلك في الاحتجاج الذي جرى بين المأمون العباسي والفقهاء من بقية الزاهب في عصره. ولكن الخليفة العباسي يحتاج هنا احد فقهاء المذاهب بنوم علي (ع) على فراش النبي (ص) ليلة الهجرة كدليل على افضلية الامام (ع) على من سواه.

قال اسحاق بن إبراهيم: وان لابي بكر فضلاً.

قال الخليفة العباسي: أجل. لولا ان له فضلاً لما قيل: ان علياً افضل منه، فما فضله الذي قصدت اليه الساعة؟

قلت: قول الله عز وجل: (... ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا...) فنسبته الى صحبته.

قال: يا اسحاق، اما اني لا احملك على الوعر من طريقك، اني وجدت الله تعالى نسب الى صحبته من رضيه ورضي عنه كافراً وهو قوله: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقت من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكننا هو الله ربّي ولا أشرك برّبّي أحداً).

قلت: ان ذلك صاحب كان كافراً، وابو بكر مؤمن.

قال: فاذا جاز ان ينسب الى صحبة من رضيه كافراً جاز ان ينسب الى صحبة نبيه مؤمناً،
وليس بأفضل المؤمنين ولا الثاني ولا الثالث.

قلت: يا امير المؤمنين ان قدر الآية عظيم ان الله يقول: (ثانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعنا...).

قال: يا اسحاق تأبى الآن الا ان اخرجك الى الاستقصاء عليك، اخبرني عن حزن ابي
بكر، أكان رضى ام سخطاً؟

قلت: ان ابا بكر انما حزن من اجل رسول الله (ص) خوفاً عليه، وغمماً ان يصل الى رسول
الله شيء من المكروه.

قال: ليس هذا جوابي، انما كان جوابي ان تقول: رضى ام سخطاً؟

قلت: بل رضى الله.

قال: فكأن الله جل ذكره بعث الينا رسولاً ينهى عن رضى الله عزّ وجلّ وعن طاعته.

قلت: أعود بالله.

قال: او ليس قد زعمت ان حزن ابي بكر رضى الله؟

قلت: بلى.

قال: او لم تجد أن القرآن يشهد ان رسول الله (ص) قال له: (... لا تَحْزَنْ...) نهياً له عن

الحزن.

قلت: أعود بالله.

قال: يا اسحاق، ان مذهبي الرفق بك لعلّ الله يردّك الى الحق ويعدل بك عن الباطل،

لكثرة ما تستعيد به. وحدثني عن قول الله: (... فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ...) من عنى بذلك: رسول

الله ام ابا بكر؟

قلت: بل رسول الله.

قال: صدقت. فحدثني عن قول الله عزّ وجلّ: (... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ...) إلى قوله: (تَمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...) اتعلم من المؤمنين الذين اراد الله في هذا الموضع؟

قلت: لا ادري يا أمير المؤمنين.

قال: الناس جميعاً انهزموا يوم حنين، فلم يبق مع رسول الله (ص) الا سبعة نفر من بني هاشم: علي يضرب بسيفه بين يدي رسول الله (ص)، والعباس آخذ بلجام بغلة رسول الله، والخمسة محدقون به خوفاً من ان يناله من جراح القوم شيء، حتى اعطى الله لرسوله الظفر، فالمؤمنون في هذا الموضع علي (ع) خاصة، ثم من حضره من بني هاشم. قال: فمن افضل: من كان مع رسول الله (ص) في ذلك الوقت، ام من انهزم عنه ولم يره الله موضعاً لينزلها عليه؟

قلت: بل ما انزلت عليه السكينة؟

قال: يا اسحاق من افضل: من كان معه في الغار، ام من نام على فراشه ووقاه بنفسه حتى تم لرسول الله (ص) ما اراد من الهجرة؟ ان الله تبارك وتعالى امر رسوله ان يأمر علياً بالنوم على فراشه وان يقي رسول الله (ص) بنفسه، فأمره رسول الله (ص) بذلك فبكى علي (رضي الله عنه) فقال له رسول الله (ص): ما يبكيك يا علي، أجزعاً من الموت؟ قال: لا، والذي بعثك بالحق يا رسول الله، ولكن خوفاً عليك. أفتسلم يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفداء لك يا رسول الله. ثم أتى مضجعه واضطجع وتسجى بثوبه. وجاء المشركون من قريش فحفّوا به، لا يشكون انه رسول الله (ص). وقد اجمعوا ان يضربه من كل بطن من بطون قريش رجل ضربة بالسيف، لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطناً بدمه. وعليّ يسمع ما القوم فيه من تلف نفسه ولم يدعه ذلك الى الجزع كما جزع صاحبه في الغار، ولم يزل عليّ صابراً محتسباً فبعث الله ملائكته فمنعته من مشركي قريش حتى أصبح، فلما أصبح قام، فنظر القوم اليه فقالوا: اين محمد؟ قال: وما علمي بمحمد اين هو؟ قالوا: فلا نراك الا كنت مغرراً بنفسك منذ ليلتنا. فلم يزل علي افضل ما بدأ به يزيد ولا ينقص حتى قبضه الله اليه».

الاستنتاج:

هذه الرواية التاريخية! ارادت اثبات اربعة امور، كانت مدار حديث الساعة في زمن المأمون، وهي:

١ _ ان الصحبة يمكن ان تُنسب للمؤمن ولغير المؤمن، فلا يمكن الاستدلال بها على الافضلية.

٢ _ ان الذي صحب رسول الله (ص) في الغار قد انهزم في حُنين من المعركة.

٣ _ ان حُزن ابي بكر لم يكن في محله، لان رسول الله (ص) نهاه عن ذلك.

٤ _ ان موقف علي (ع) يوم حُنين دفاعاً عن رسول الله (ص) وحمائته له وللرسالة، حيث انهزم من انهزم، هو الذي يجعله (ع) افضل من بقية المسلمين. وكذلك موقفه (ع) ليلة الهجرة وميته في فراش رسول الله (ص)، هو الذي حدد افضليته.

ولكن الذي يضعف هذا العرض من جانب المأمون، هو قضية بكاء علي (ع) ليلة الهجرة خوفاً على رسول الله (ص). وهو لا يختلف كثيراً عن حزن ابي بكر خوفاً عليه (ص) وغمماً ان يصل اليه (ص) شيءٌ مكروه. فكلاهما يعبران عن عدم يقين بالله سبحانه. وقد لمسنا في البحوث السابقة ان علياً (ع) كان على اعلى درجات اليقين. فكيف نقبل ذلك التناقض؟

وبالاجمال، فان احتجاج المأمون على افضلية علي (ع) وميته في فراش رسول الله (ص) احتجاجٌ سليم وقوي، عدا ما أقحم من قضية بكاء علي (ع). فاننا، وبلحاظ المنهج العلمي، نرفضها قطعاً. لانها متناقضة مع الخط الفكري والايماني للامام (ع).

٣- فلسفة الايثار عند علي (ع):

لماذا يحبّ انسانٌ كعلي (ع) ان يقدم مصلحة رسول الله (ص) على مصلحته الشخصية؟ وكيف يستطيع علي (ع) ان يتغلب على عاطفته التي ينبغي ان تأمره بالمحافظة على نفسه اولاً؟ وما هو الخط الفاصل بين الايثار والانانية؟ أو بتعبير ثانٍ: ما هو الخط الفاصل بين حب الغير وحب النفس؟ ان الاجابة على تلك الاسئلة تتطلب دراسة عقلية ودينية ونفسية للطبيعة الانسانية.

أ- مقدمة حول حبّ الذات والطبيعة الانسانية:

لاشك ان الطبيعة الانسانية تحب الذات حباً مفرطاً، والى ذلك ذهب مذهب «الأنوية»
الفلسفي القائل بان مصالح الفرد الذاتية هي اساس الانسان وسلوكه، وحب الذات هو محور
اهداف الحياة. ولكن القرآن الكريم حطم تلك النظرية وقال بان للانسان طبيعة ثلاثية تتضمن:
حب النفس او الذات، وحب الغير، وحب الله عزّ وجلّ.

أولاً - حب النفس:

يقول تعالى: (لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا
تُحسبنّهم بمفازةٍ من العذابِ...)، أي لا تحسبن الذين انعم الله عليهم بالمال والدنيا بالنجاة من
العذاب ولازمه حب النفس. ويخاطبهم ايضاً: (بل تؤثرون الحياة الدنيا) وهو خطاب الى عامة
الناس، سيق للعتاب، على ما يدعوا اليه طبعهم الانساني من التعلّق التام بالدنيا والانشغال
بتعميرها.

ويعتب عليهم في مورد ثالث: (وتُحبّون المال حباً جَمّاً) وفيه تقريع شديد لهم لحبهم
المال حباً شديداً وعدم اطعامهم للمساكين. وحب المال يعكس مقدار حب النفس.

ويشير الى طائفة من الناس يحبون انفسهم حباً عظيماً: (... وطاقفةٌ قد أهمتهم أنفسهم
يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية...)، وهؤلاء ليس لهم همّ الا حفظ حياتهم الدنيا وحذرهم
الشديد في عدم الوقوع في فخ القتل في الحرب. فهم يتظاهرون بالتدين حتى لا تُقطع رقابهم.
فالتدين عندهم عاملٌ غير مغلوب، ولذلك فانهم لا يريدون التظاهر بالتدين الا من اجل الانتفاع
بالملاذات التي يجلبها الدين لهم في الحياة الدنيا. وتلك مصاديق من حب الذات حباً مفرطاً الى
درجة التعلق بالباطل من اجل ارضائها.

ثانياً - حب الغير:

وهنا ينشطر حبّ الغير الى احد قسمين: اما حب الباطل، واما حب الحق. فمن حب
الباطل والشر: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله...) وهو حب
الاصنام من دون الله سبحانه. (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)، قيل ان الخير هنا معناه المال. ولكن لا

يُعد ان يكون المراد بالخير مطلقه، فحب الخير فطري عند الانسان. فيرى عرض الحياة الدنيا وزينتها خيراً فينجذب اليها وينسيه ذلك ذكر ربه. ومن حب الخير والحق: (... وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...). وهؤلاء هم الانصار الذين وصفهم الله بأحسن وصف، لانهم كانوا يقدمون غيرهم على انفسهم حتى لو كان بهم فقر وحاجة. وهو وصف رائع لحب الخير.

ثالثاً- حب الله:

يقول تعالى: (... يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...)، وهذه الآية ادانت بعضاً من الناس من الذين يحبون آلهتهم من الاوثان ويعبدونها. وأشارت الى ان المؤمنين اشدَّ حُبًّا لله. ذلك: انهم يحبونه عن علمٍ ودرايةٍ بانه المنعم ابتداءً، وانهم يخلصون العبادة والتسبيح له، وانهم يعلمون ان له الصفات العليا والاسماء الحسنى وانه الحكيم الخبير. وفي آية أخرى: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)، فالمراد بحبه في هذه الآية، اشتياق النفس للطعام لشدة حاجتها اليه.

وهنا حدد الاسلام مقدار ما يُدين به الفرد لنفسه ومقدار ما يُدين به للآخرين ولخالقه عزّ وجلّ. وشدد على الايثار كقيمة اخلاقية ينبغي ان يكتسبها المؤمن في حياته العامة والخاصة.

لقد كانت الرسالة السماوية في البداية بحاجة الى جهد جماعي متضافر من اجل تبليغ فحواها واهدافها الى البشرية كي تؤمن بها وتدافع عنها. وتركيبية دينية تضمُّ افراداً على رأسهم رسول الله (ص) وعلي بن ابي طالب (ع) ونخبة طيبة من الموالين لرسول الله (ص) واهل البيت (ع) لا بد ان تنتصر على اعدائها. ذلك لان التضافر والتآزر الذي كان يشدّ تلك التركيبة اوصلها الى درجات عليا من الايثار وتفضيل الغير على الذات. فقد كان علي (ع) مثال الفداء والتضحية والايثار من اجل رسول الله (ص). والى ذلك يفسر مكوثه في مكة ليلة هجرة رسول الله (ص) وميئته في فراشه، وهو يعلم تماماً المخاطر التي كانت تنتظره تلك الليلة والليالي القادمة التي سبقت هجرته (ع) مع الفواطم الى المدينة.

ب - الايثار: المقتضيات

ان فداء علي (ع) بنفسه لرسول الله (ص) كان يكشف عن انه (ع) قد وهب نفسه للدعوة الاسلامية وقائدها (ص). فقد كان (ع) لا يكثر لذاته أوقعت على الموت أو وقع الموت عليها.

وهنا اظهر الامام (ع) بايثاره ذلك ثلاث خصال على درجة كبيرة من الاهمية، وهي:
الاولى: الاقرار بنبوة محمد (ص) والتضحية من اجلها من اجل الحفاظ على قائدها (ص).
الثانية: انه كان الدافع الحقيقي عن رسول الله (ص)، وأقصى ما يفعله المؤثر ان يقدم للمؤثر له نفسه وجسده.

الثالثة: ان طبيعة علي (ع) كانت ترى الموت والحياة في الله على وتيرة واحدة وحد سواء. فاذا كان في الموت رضى لله سبحانه فمرحبا بالموت. واذا كان في الحياة _ بخشونتها وآلامها _ رضى لله عز وجل فمرحبا بها وسيلة من وسائل نشر الدين. والى ذلك يشير (ع) ضمن كلام له لما قبض رسول الله (ص): «... والله لابن ابي طالب انس بالموت من الطفل بثدي امه...».

فالايثار عند علي (ع) لم يكن حبا للذات، بل كان حبا لله سبحانه وذوبانا في القيم العليا والصفات الاسمي.

ان تضحية علي (ع) في المبيت ليلة الهجرة انقذت النبي (ص) من موت محقق على يدي ازلام قريش. فقد قرأنا قبل لحظات ان رسول الله (ص) عندما أمره بالمبيت، قال (ع): سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفداء لك يا رسول الله. وهذا يعني ان الفداء كان من اجل سلامة النبي (ص) وحفظ حياته الشريفة.

وتلك اللغة المملوءة حبا وأدبا وتضحيةً وايثاراً تعكس طبيعة علي (ع) الانسانية الدينية التي لا تمتلك الا دوافع الايثار والتضحية، والفهم الكامل للدين، والادراك الشامل لمعاني الحياة والموت والبعث. فلا ريب ان يكون تخلي الانسان عن غريزته في البقاء وحب الحياة من اجل عقيدته، ممثلاً لاقصى درجات الايثار.

ومن هنا نفهم ان الايثار عند المعصوم (ع) قاعدة أخلاقية من قواعد شخصيته الرسالية. فالمعصوم (ع) لا يصنع الايثار من اجل قناعة ذاتية او مصلحة شخصية. بل انه صمّم شخصيته

الدينية على اساس ان تكون المثل الاعلى في الدين. ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى المعصومين (ع) في محكم كتابه بصفات كمالية مثل: (... وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)، (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)، (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) وغيرها من الصفات الكمالية المحمودة. والطبيعة الانسانية لانسان مثل علي بن ابي طالب (ع) تكشف عن ان دوافعه جميعاً تخضع لطاعة الله سبحانه واحكامه الدينية التي هي احكام اخلاقية بالدرجة الاولى. فهو (ع) لا يرى لنفسه مصلحة ذاتية غير مصلحة الدين والحفاظ على افكاره وشخصياته من الدرجة الاولى كشخصية رسول الله (ص). وبمعنى آخر ان مصلحة علي (ع) الذاتية ذابت تماماً في مصلحة الدين وملاكاته واهدافه العليا في الحياة الانسانية.

والفرق هنا بين علي (ع) وغيره من الذين دخلوا الاسلام ظاهراً هو ان اولئك كانوا يرون ان مصلتهم الذاتية ينبغي ان تتقدم في اغلب الاحيان على الآخرين، ولذلك تراهم يؤخرون الاجابة الى الاسلام تارةً، ويفرون من المعارك تارةً أخرى، ولا يتقدمون عندما يناديهم رسول الله (ص) ثالثةً، ويشبعون ويتركون الفقراء يئنون من الجوع رابعةً. وهنا انكسرت عندهم قواعد الايثار، بشعور او دون شعور. فالفرد _ في الحالات الغالبة _ ينظر لمصلحته الذاتية اولاً قبل ان يتقدم الآخرين. والايثار حالة استثنائية عند الناس.

ولكننا لو تأملنا في حياة علي (ع) لرأينا ان الايثار هي الحالة الغالبة في حياته التي ختمها بالشهادة في سبيل الله تعالى. فنظرة معمقة لفلسفته في التضحية ترى ان عملية الايثار بالنسبة له (ع) لا تعني خسارة للنفس والمال، او فقدان للملكية بعنوانها العام. بل ان كل ما يملكه (ع) هو ملك لله سبحانه وادوات للدين وللرسالة السماوية، فايثاره يعني انه امين على نفسه يحاول ارجاع الامانة الى صاحبها عزّ وجلّ وارجاع ما بيده الى الناس.

فكانت مشاعر علي (ع) تجاه رسول الله (ص) في التضحية والايثار تشبه مشاعر «الاندماج» بين التلميذ المخلص واستاذه، فهو (ع) خليفته (ص) ووزيره وحامل لوائه الا انه لا نبي بعده. فتلك المشاعر تعكس حجم الانعكاس الانسجام الفكري والروحي بين النبوة والامامة. فليس هناك مسائل فردية في حب الذات، أو الخوف من الموت، او الحفاظ على المصالح

الشخصية بقدر ما هو اندماج واندكك في الرسالة وقائدها واهدافها. وذلك الاندماج يفرز شعوراً بالسعادة في التضحية من اجل رسول الله (ص). والرغبة في التضحية تنبع من الرغبة المطلقة في التعلق بالله تعالى وبالوجود الكامن وراء الغيب.

ج - الايثار: النطاق الفلسفي

وهنا يمكن بحث ثلاث نقاط فلسفة في فلسفة الايثار عند علي (ع) تكشف عن: عمق شخصية الامام، وطبيعة ارتباطه بالدين، وخطورة الظرف الذي كان يتم فيه الايثار، وعمق الانسجام الفكري والعقائدي بينه (ع) وبين خاتم الانبياء (ص).

أولاً: نكران الرغبة البشرية في البقاء:

عندما يريد الانسان شيئاً، كالبقاء على قيد الحياة مثلاً، فان مجرد البقاء قد لا يمنحه لذة ولا يقدم له سعادة مرجوة. ولكن تحقيق ما يريده من البقاء على قيد الحياة قد يُشبع عنده رغبة من رغباته النفسية والجسدية. وعندما لا يُشبع الانسان رغباته في الحياة والوجود، فانه سيبقى باحثاً عن اشباعها. فليس من الضروري ان يرتبط التشبث بالبقاء على قيد الحياة باللذة الجسدية. فقد يفضل الانسان الفقير او المعذب الحياة مع الفاقة والحاجة، على الموت. وبذلك فان الرغبة في البقاء على قيد الحياة ليست مرتبطة بمقدار اللذة التي يجنيها من بقائه حياً. بل ان تلك الرغبة شعور غريزي لا يمكن الا للقلّة او النخبة الافلات منه. وهذا الشعور الغريزي في التشبث بالحياة الدنيا له منشأ مرتبط برغبة الانسان الغريزية نحو البقاء على قيد الحياة.

الا ان ذلك لم نلحظه في حياة امير المؤمنين (ع)، فقد كانت رغبته في الحياة الدنيا صفرًا. ذلك ان حياته كانت وفقاً للدين، لا رغبة في الحياة والتمتع بلذائدها ومتعتها. ويتجلى هذا المعنى عند التأمل في تضحياته (ع) واستعداده الكامل نحو حماية النبي (ص) على فراشه، او في القتال في ساحات الوغى، او الاقتحام الجريء في المعارك الطاحنة. فرغباته الشخصية (ع) كانت متطابقة مع آمال الدين في التضحية والشهادة من اجل نشر العدالة السماوية على الارض.

ثانياً: نكران المصالح الذاتية:

لو تسائل متسائل: هل ان تحقيق العدالة مع المحكومين انفع للحاكم من ظلمه لهم؟ لكان جوابنا هو: ان الجواب يعتمد على طبيعة الحاكم الذي يُوجّه اليه السؤال، فلو كان عادلاً لآمن بان تحقيق العدالة بين الناس انفع له كحاكم. ولو كان ظالماً لآمن بان ظلم الآخرين انفع له كحاكم. فهنا اختلف الجواب لان المصالح الذاتية اختلفت من حاكم الآخر.

ولا شك ان المصلحة الذاتية تحدد الدافع نحو العمل في ظروف معينة. فعندما يأكل الانسان طعاماً طيباً في بلد يفيض بالخيرات والطيبات، فانه يتصرف بوحى مصلحته التكوينية، ولا ضير في ذلك ما دام الخير كثيراً. ولكنه لو أكل نفس نوعية ذلك الطعام في وقت مجاعة يتضور فيها ارحامه وجيرانه جوعاً وألماً، لعدّ ذلك اهتماماً بمصلحته الذاتية وتكريساً لفكرة الانانية.

ولو كان رسول الله (ص) أمر علياً (ع) بالمبيت على فراشه وهو بالمدينة وقت سلم وامان لما انطوى ذلك العمل على شيء مهم، لانه لا يبرز انكاراً لمصلحة ذاتية. ولكن الامر حصل في ظرف خطير، حيث تجمع ممثلو بطون العرب ليقتلوا رسول الله (ص). فنام علي (ع) في فراش النبي (ص) تحت ظل السيوف، لا يدري أيسفكُ دمه وهو على فراش النبي (ص). هنا تجلى عند علي (ع) انكار الذات والترفع عن المصالح الذاتية بأجلى صورها.

ففهم من تلك الافكار ان المصلحة الذاتية مرتبطة بالظروف اكثر مما هي مرتبطة بمقدار العمل الذي يقوم به المضحّي. بمعنى ان ما ميز ايثار علي (ع) ليلة الهجرة هو ان الظرف الذي كان يمرُّ به رسول الله (ص) والرسالة التي كان يحملها كان صعباً للغاية، وكانت التضحية جسيمة جداً، ولذلك كان انكار الذات او الترفع عن المصلحة الذاتية عند علي (ع) في ذلك الموقف ضخماً وعملاقاً.

ثالثاً: الايثار ودوافعه الاخلاقية:

ان الايثار _ بمعناه الحقيقي _ لا يتم ما لم يكن هناك انسجام فكري وعقائدي وروحي بين المؤثر والمؤثر له. ولو لم يكن هناك انسجام فكري لبرزت المصلحة الذاتية في المقدمة، وانتفى الايثار. ولا شك ان الانسجام الفكري والعقائدي والروحي بين رسول الله (ص) وعلي (ع) كان تاماً. فاليقين بالرسالة، والقطع بالنبوة، والثقة بنصر الله سبحانه، جعلت من قضية ذلك الايثار امراً

حتمياً. ودوافع محمد (ص) وعلي (ع) في نشر الاسلام مندمجة ومندكة، لا يفصلها شيء. وما كان يميزها ان علياً (ع) كان ينقاد لرسول الله (ص) وينفذ اوامره. فكان ايثار علي (ع) في المواقف الصعبة تلك منحصرأ في انقاذ حياة رسول الله (ص). وفي ضوء هذا المعنى نفسر رواية الشبلنجي في «نور الابصار» في قصة المؤاخاة بين جبرئيل وميكائيل ومباهاة الله سبحانه الملائكة بتضحية علي (ع) من اجل رسول الله (ص). فذلك اليثار ودوافعه دلّ على انسجام فكري تام بين المؤثر والمؤثر له.

(تليها ص ٢٥١ - ٢٦٨)

«شرح نهج البلاغة» ج ١٤ ص ٦٤.

سورة الانفال: آية ٣٠.

«مسند احمد» باسناده عن ابن عباس ج ١ ٣٤٨. و«أسد الغابة» ابن الاثير ج ٤ ص ٢٥. و«الفصول المهمة» - ابن الصباغ ص ٣٣.

سورة البقرة: آية ٢٠٧.

«نور الابصار» - الشبلنجي ص ١٠٠.

سورة الانفال: آية ٣٠.

سورة الطور: آية ٣٠ - ٣١.

سورة البقرة: آية ٢٠٧.

«الصحاح» ج ٤ ص ٢٤٥٣.

«النهاية» - ابن الاثير ج ٣ ص ٤٢٢.

«المفردات في غريب القرآن» - الراغب الاصفهاني ص ٣٧٤.

«تاج العروس» ج ١ ص ٢٧٨.

سورة التوبة: آية ٤٠.

سورة الكهف: آية ٣٧ - ٣٨.

سورة التوبة: آية ٤٠.

سورة التوبة: آية ٢٥.

سورة التوبة: آية ٢٦.

«العقد الفريد» ج ٥ ص ٩٧.

سورة آل عمران: آية ١٨٨.

سورة الاعلى: آية ١٦.

سورة الفجر: آية ٢٠.

سورة آل عمران: آية ١٥٤.

سورة البقرة: آية ١٦٥.

سورة العاديات: آية ٨.

سورة الحشر: آية ٩.

سورة البقرة: آية ١٦٥.

سورة الانسان (الدهر): آية ٨.

«نهج البلاغة» - طبعة حجرية. ص ٢٨.

«العقد الفريد» ج ٥ ص ٩٧.

سورة الحشر: آية ٩ .

سورة الانسان: آية ٨ - ٩ .

سورة البقرة: آية ٢٠٧ .

«نور الابصار» ص ١٠٠ .

(ص ٢٥١ - ٢٦٨)

الفصل الثامن

الهجرة الى المدينة

طبيعة الهجرة الى المدينة ومقتضياتها * الهجرة في القرآن الكريم: آيات الهجرة: ١ - الطائفة الاولى: في صفة المهاجرين. ٢ - الطائفة الثانية: نفي ولاية غير المهاجرين وادانتهم. ٣ - الطائفة الثالث: الهجرة الى الله ورسوله. ٤ - الطائفة الرابعة: مساعدة المهاجرين في سبيل الله * الهجرة: الابعاد الدينية والاجتماعية: ١ - الهجرة الى المدينة: الهجرة الحقيقية. ٢ - التكيف بعد الهجرة * اخلاقية رد الامانات الى الناس.

طبيعة الهجرة الى المدينة ومقتضياتها

هاجر رسول الله (ص) من مكة الى المدينة غرة ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة من المبعث، وفي تلك الليلة بات امير المؤمنين (ع) على فراش النبي (ص)، كما اشرفنا الى ذلك آنفاً. وكان علي (ع) « يجهز النبي (ص) حين كان بالغار، ويأتيه بالطعام [بعد ان] استأجر له ثلاث رواحل، له (ص) ولابي بكر ودليلهم عبد الله بن أرقط، وخلفه النبي (ص)... وأمره أن يؤدي عنه امانته ووصايا من كان يوصي اليه، وما كان يؤتمن عليه من مال [فانما كان يسمى الامين]، فأدى امانته كلها... وأمر النبي (ص) علياً (ع) ان يلحقه بالمدينة، فخرج علي (ع) في طلبه بعد ما أخرج اليه فكان يمشي من الليل، ويكمن بالنهار حتى قدم المدينة. فلما بلغ النبي (ص) قدومه قال: ادعوا لي علياً، فقالوا: انه لا يقدر ان يمشي فأتاه النبي (ص) فلما رآه النبي (ص) اعتنقه وبكى رحمة له مما رأى بقدميه من الورم وكانتا تقطران دماً...». ثم « دعا له بالعافية ومسح رجله فلم يشتكهما بعد ذلك».

و«روى الثعلبي في تفسيره قال: لما اراد النبي الهجرة خلف علياً لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده». وعلق السيد ابن طاووس في طرائفه: «ثم العجب انه ما كفاه ذلك كله حتى يقيم ثلاثة ايام بمكة بعد النبي (ص) يردّ الودائع، ويقضي الديون ويجهز عياله ويسدّ مسده، ويحمل حرمه الى المدينة بقلب راسخ ورأي شامخ». وهاجر (ع) الى يثرب وله ثلاث وعشرون سنة، وللنبي (ص) ثلاث وخمسون، ولفاطمة (ع) ثمان سنين.

واول ما نزل النبي (ص) حين هاجر من مكة الى المدينة في قباء. واول مسجد بُني في الاسلام وهو مسجد قباء يبعد عن المدينة، بالحساب المتري، ثلاث كيلو مترات ونصف. وبقي رسول الله (ص) في قبا مدة عشرين ليلة ينتظر قدوم امير المؤمنين (ع). ومدة بقائه في قبا كان (ص) يصلي قصراً.

الهجرة: في القرآن الكريم

الهَجْرُ في اللغة: ضد الوصل. يقال هَجَرَهُ هَجْرًا وهَجْرَانًا. والاسم: الهِجْرَةُ. والهَجْرَتَان: هجرة الى الحبشة، وهجرة الى المدينة. والمهاجرة من أرض الى أرض: ترك الوطن.

ومع ان القرآن الكريم تعرض الى موضوع الهجرة في مواطن عديدة، الا انه لم يعرفها، بل ترك تحديدها تعرفها الى العرف الاجتماعي. فما يعرفه العرف من الهجرة ينطبق على منطوق الآية الشريفة، كما هو الحال في قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...)، فترك تعريف معنى العقد الى العرف الاجتماعي. وكذلك ترك تحديد معنى الهجرة الى العرف.

والملاحظ ان الآيات القرآنية التي تناولت الهجرة انما قصدت الهجرة الى المدينة، ولم تشر الى هجرة الحبشة. ولذلك فاننا نميل الى اعتبار اطلاق لفظ «الهجرة» على «الخروج الى الحبشة» اطلاقاً مجازياً. والا فلم تكن تلك هجرة دائمية. بل كانت هجرة مؤقتة باذن من الله ورسوله من اجل الامن والراحة من أذى مشركي مكة وعذابهم وفستهم. ولذلك يطلق على الهجرة الاولى الى ارض الحبشة الخروج الى الحبشة. ولا يطلق على الهجرة الثانية الى المدينة الخروج الى المدينة.

وقد خرج جعفر بن ابي طالب (رض) الى الحبشة، ولكن علياً (ع) لم يخرج اليها، بل بقي مع رسول الله (ص) يحميه ويحمي الرسالة ضد الشرك. وكان مجموع الذين ذهبوا الى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً.

ولكن الهجرة الى المدينة كانت هجرة حقيقية، لان رسول الله (ص) كان عازماً على تأسيس دولته الدينية هناك. وكان مصمماً على التعامل مع الاحداث تعاملًا عالمياً لا ينحصر بأمر القرى او قريش او العرب، بل الدنيا كلها. فكانت الهجرة الى المدينة دائمية ولم تكن عملية مؤقتة.

آيات الهجرة:

ويمكننا تصنيف الآيات القرآنية التي وردت في الهجرة الى اربع طوائف هي: في صفة المهاجرين المؤمنين، وادانة الذين لم يهاجروا من دار الشرك او حرمانهم من بعض حقوقهم، وتقييد الهجرة بكونها في سبيل الله، وضرورة مساعدة المهاجرين.

١ - الطائفة الاولى: في صفة المهاجرين

لقد انحصر المسلمون في تلك الفترة بالخصوص بطائفتين، هم: المهاجرون الذين هاجروا من مكة الى المدينة، والانصار وهم الذين آووا النبي (ص) واحتفوا بالمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله (ص). وعدا ذلك، كان هناك قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر.

فجعل الله بين المهاجرين والانصار ولاية شرعية: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...). ووصف أعمالهم بأنها اثر من آثار الايمان الحق: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)، ثم وصف الذين هاجروا لاحقاً بالقول: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ...). وفضل الله عز وجل المهاجرين ورفع درجاتهم: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

فمن صفات الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووهم ونصروهم:

١- ولاية بعضهم على بعض، أي التولي بين المهاجرين والانصار، عدا ولاية الارث لانها مختصة بالارحام والقرباة.

٢- انهم مؤمنون حقاً. فقد اثبتوا في اعمالهم وافعالهم انهم اتصفوا بالصفات الحقيقية للايمان. فوعدهم الله بالمغفرة والرزق الكريم.

٣- ان الهجرة كانت من لوازم الايمان، فكان يسبق الكلام عن الهجرة كلام عن الايمان بصيغة: الذين آمنوا وهاجروا... فنستفيد مفهوماً ان الاعمال من غير ايمان بالله عز وجل _ وبضمنها الهجرة _ لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله.

٤- اظهار صفة التفاضل بين المهاجرين وغير المهاجرين من المؤمنين. فالمؤمن المهاجر اعظم درجة عند الله، لانه بذل ما استطاع في سبيله عز وجل، من الايمان والهجرة والجهاد.

٢ - الطائفة الثانية: نفي ولاية غير المهاجرين وادانتهم

وهي على قسمين:

الاول: نفت فيه الولاية بين المؤمنين المهاجرين والانصار من جهة وبين المؤمنين غير المهاجرين الباقين في مكة من جهة أخرى، الا ولاية النصره اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق. وفي ذلك قال تعالى: (... والذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...)). وما نزل في قوم من المشركين اظهروا الايمان للمؤمنين ثم عادوا الى مقرهم وشاركوا المشركين في شركهم: (... فلا تتخذوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...)) فنهاهم عن ولايتهم الا ان يهاجروا في سبيل الله، فان تولوا فليس عليهم فيهم الا اخذهم وقتلهم. فكان على المؤمنين ان يكلفوا هؤلاء المعنيين بالآية بالمهاجرة، فان اجابوا فليوالوهم. وان تولوا فليقتلوهم.

والثاني: ادانت الذين ظلموا انفسهم بالاعراض عن دين الله وترك اقامة شعائره من جهة وجودهم في بلاد الشرك ولم يهاجروا الى بلاد الله الواسعة التي يُعبد فيها الله سبحانه دون خوف. فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَقَّأُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا). وفي الآية استثناء منقطع بالمستضعفين الذين لا يتمكنون من الهجرة: (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا).

ونستلهم مما ذكر من آيات هذه الطائفة مما يلي:

١- حرمان المؤمن غير المهاجر من حق الولاية على المؤمن المهاجر. ذلك لان المؤمن في مجتمع الشرك لا يستطيع ان يمارس امور الدين بوحى ارادته، بل ان الاكراه والضغط من قبلهم يستوجب التقية احياناً.

٢- ان امتحان المشركين الذين اظهروا الايمان في البداية وعادوا الى شركهم، كان عن طريق تكليفهم بالمهاجرة الى دار الاسلام. فإن أجابوا كان على المؤمنين موالاتهم. وإن لم يستجيبوا كان على المؤمنين قتلهم. ولكنهم لم يستجيبوا الى ذلك، ففشلوا في الامتحان، وحق عليهم القتل لانهم مشركون.

٣- ان الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام حيث يعبد الله هي الطريق الوحيد للتخلص من عذاب الله. ففي دار الاسلام يكمن المجال الحقيقي للايمان والعمل والقدرة على نشر الاسلام وتطبيق مصاديق الدين في العدالة بين الناس.

٣- الطائفة الثالثة: الهجرة الى الله ورسوله

وهي كناية عن المهاجرة الى ارض الاسلام حيث يتمكن فيها المهاجر من العلم بكتاب الله وسنة رسوله (ص) والعمل بهما. قال تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)، (والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئِنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَاجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)، (والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)، (فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). والمراد بالمهاجرة الى الله هنا هو هجرة الوطن والخروج الى بلد ليس للمشركين فيه دخل فيمنعونه من عبادة الله. والمهاجرة الى الله من المجازات العقلية.

وقد قيد تلك الآيات: الهجرة، بكونها في الله أو في سبيل الله، لان المثوبة تترتب على صالح العمل. ولا يكون العمل صالحاً ما لم يثبت خلوص النية لله سبحانه، وما لم تنتف المصالح الدنيوية والمصالح الشخصية.

ونفهم من آيات هذه الطائفة:

١- وقوع الاجر على الله للمهاجر إذا ادركه الموت من وفاة أو قتل، وهو استعارة لفظية بالكناية عن لزوم الاجر والثواب له تعالى واخذه ذلك في عهده. والرزق الحسن هو الاجر العظيم.

٢- ان الهدف من الهجرة الى دار الايمان وترك دار الشرك هو طلب مرضاة الله وتقوية المجتمع الاسلامي عبر الانسجام والاتحاد والتعاون على البر والتقوى، واعلاء كلمة التوحيد، ونشر العدل بين الناس. بينما كانت الطائفة التي لم تهجر في سبيل الله تنصر الشرك. ولو أخذنا

الآيات على اطلاقها لاستنتجنا بان على المسلم ان يقيم اقامة دائمية في دار الايمان حيث يتمكن فيها من تعلم احكام الدين، ويقدر على اقامة شعائره والعمل باحكامه.

٣- قيدت الهجرة في الله بقيد الظلم الذي تعرض له المسلمون في مكة. ويفهم من تقدير آية (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...): الذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا فيه. أي ان المبرر الذي دعى المؤمنين للهجرة هو: ظلم الظالم في دار الشرك، وحاجة الاسلام الى المسلمين المهاجرين في دار الاسلام.

٤- ان اقامة احكام الدين في دار الاسلام تساعد بشكل حاسم على اقامة المجتمع الذي يُعبد فيه الله سبحانه، ولا يحكم فيه الا بالعدل والاحسان. ولذلك ذُيِّلت الهجرة بالقول: (لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...) وهو الوعد الجميل بالمجتمع الديني الصالح المستقر.

٥- الملازمة بين الهجرة والمحن التي تلازم المهاجر، ولذلك نلحظ توصيف المهاجرين بانهم اناس يتحلون بالصبر والتوكل: (... وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

٤- الطائفة الرابعة: مساعدة المهاجرين في سبيل الله

فقد حثت الآيات الكريمة الاثرياء على عدم التقصير في ايتاء اولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...). وهذه الآية وردت في معرض حديث الافك، وحثت أولئك الذين أرادوا قطع الايتاء ان يستمروا على ادامة المساعدة. وآية أخرى تقول: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاًً مِنَ اللَّهِ وَرِضواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ). وهذه الآية بينت وجه صرف الخمس في هؤلاء الفقراء المهاجرين ؛ وإعطائهم ايتاه يعدُّ صرفاً له في سبيل الله. قيل ان النبي (ص) قسم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الانصار شيئاً الا رجلين من فقراءهم أو ثلاثة. والمراد من المهاجرين هم من هاجر من المسلمين من مكة الى المدينة قبل الفتح وهم الذين اخرجهم كفار مكة بالاكراه فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا الى دار الاسلام.

ونستفيد من ظواهر آيات هذه الطائفة:

١- ان المهاجرين اصبحوا من الفقراء، وامسوا مصداقاً من مصاديق صرف الخمس في سبيل الله. ذلك لانهم اضطروا للهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام وهي مدينة رسول الله (ص)، وتركوا أموالهم ومساكنهم، تضحيةً منهم في سبيل الله.

٢- الحثّ على مساعدة المهاجرين في سبيل الله _ على سبيل الاستحباب _ لانهم فقراء ضحوا بأموالهم ومتعلقاتهم الاجتماعية من اجل الدين. وورود الآية في معرض حديث الافك لا يخصص المورد، بل يمكن أخذ الآية على اطلاقها.

الهجرة: الابعاد الدينية والاجتماعية

تعني الهجرة حركة الافراد بصورة نهائية الى مكان جديد، بعد ان يقطعوا مسافة طويلة بواسطة أو مشياً على الاقدام. فالافراد الذين ينتقلون من قريتهم الى قرية مجاورة لا يُعتبر تحركهم هجرة، ولا الذين ينتقلون الى منطقة بعيدة بشكل مؤقت مع انه قد يطلق على ذلك «هجرة» مجازاً. ولكن الهجرة تتلب: الابتعاد عن الوطن مسافة بعيدة، والبقاء في الوطن الجديد بصورة دائمية ونهائية. وقد كانت الهجرة من مكة الى يثرب في غرة ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة من المبعث النبوي الشريف هجرة حقيقية، لانها كانت تعني الابتعاد عن الوطن مسافة طويلة، ولان النية كانت استحداث مدينة دائمية لعاصمة الاسلام. وقد تحقق ذلك. ولكن الذهاب الى الحبشة من قبل جعفر بن ابي طالب وعدد من المسلمين تسمى هجرة مجازاً. فهي ليست هجرة حقيقية لان النبي (ص) لم يكن يفكر ببناء دولته في الحبشة، ولا الاستقرار فيها.

١- الهجرة الى المدينة: الهجرة الحقيقية

ولا شك ان الذهاب الى يثرب من قبل المسلمين لم يكن مجرد انتقال عابر من مدينة الى اخرى، بل كانت حركة مخطط لها وكانت هجرة في سبيل الله. وقد أشار القرآن المجيد الى ذلك بالقول: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ...).

وفلسفة الهجرة من مكة الى المدينة _ التي نورها رسول الله (ص) بوجوده فيها _ تستبطن فكرة تصرح بانه كانت هناك فرصة لتثبيت الاسلام في موقع آمن ونشره في العالم، بعد ان كان

محصوراً في بيوت معدودة في مكة. فلم تكن تلك الهجرة اذن اقتصادية او اجتماعية بل كانت دينية وجهادية بكل ما تعنيه الكلمة. وعندما نتحدث عن الهجرة وندرسها، فان ما يعيننا منها هو المهاجر، فهو أصل الهجرة، ومن أجله ومن اجل الفكرة التي يحملها تمت تلك العملية الشاقة.

والمحور في شخصية المهاجر هو شعوره بالطموح نحو المستقبل، وامتلاء نفسه بالامل في التغيير والبناء. فالفرد الذي لا يقتنع بدوره الاجتماعي والديني في بلده، يبدأ بالتفكير بالهجرة الى مكان جديد من اجل غد مشرق ومستقبل أفضل. وقد كان المهاجرون المسلمون الى المدينة يحملون بتحدي المشركين ومقاتلتهم بالسيف حتى تنتشر كلمة التوحيد في جميع أنحاء الارض. وكان طموحهم يتجاوز اطار الصحراء العربية ليصل الى العالم كله.

ولا شك ان الاضطهاد الديني يُعدّ من اهم العوامل التي تدفع الانسان للهجرة من بلده. وقد عانى رسول الله (ص) وعلي (ع) وبقية المسلمين من ظلم قريش ومحاربتها للدين الجديد. ولذلك فقد كانت الهجرة عملية حتمية. لان التقية مقيدة بعدم القدرة على مواجهة الظالم، ولا يمكن ان تؤدي وظيفتها في ظرف كان يتطلب الانطلاق والتحرك والجهاد في سبيل الله ومقاتلة المشركين. وقد استخدمت التقية على نطاق ضيق في قضية عمار بن ياسر ومسلمين مستضعفين آخرين. ولكن استثمار رخصة التقية لا يمكن ان يستمر هكذا فيختنق الدين، فكان لابد من التحرك باتجاه المدينة.

وكان ذلك التحرك الجماعي للمسلمين في السنة الثالثة عشرة من المبعث قد غير الخريطة السكانية والسياسية لمكة والمدينة. ذلك ان المهاجرين المسلمين كانوا اصحاب عقيدة يطمحون من هجرتهم تحقيق اهدافهم في نشر الدين الجديد، ولم يكونوا مجرد مهاجرين من اجل مصالح شخصية محدودة وأمل بالاسترخاء، خصوصاً اهل بيت النبوة (ع) ابتداءً برسول الله (ص) وعلي (ع) وبقية بني هاشم كحمزة وجعفر الذي كان في الحبشة، مروراً بأصحاب رسول الله (ص) كعمار وسلمان وأبي ذر والمقداد وغيرهم، وانتهاءً ببقية المسلمين.

فالهجرة المباركة تلك يمكن تشخيص ملامحها عبر تشخيص اهدافها والقوة التي كانت تضعها في المؤمنين بالدين الجديد. فقد كان الجو الايماني الملتهب ضدّ المشركين، والامداد المعنوي الذي كان يمدّه نزول القرآن المجيد على النبي (ص)، وقيادة رسول الله (ص) للمواجهة

بين الايمان والكفر من العوامل الحاسمة في شحن شخصيات المهاجرين. ولم يكن رسول الله (ص) ليهاجر في البداية ليأمن أذى المشركين، بل كان (ص) من أواخر من هاجر. وكان علي (ع) آخر من هاجر من المسلمين مع الفوطم. وبذلك فقد ضرب رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) أروع الامثلة في القيادة الدينية وعدم الاكتراث بالموت.

وفي ضوء ذلك فاننا عندما ننظر الى تلك الهجرة التاريخية العظمى، فاننا لا ننظر الى حجم المهاجرين وطبيعة شبكتهم الاجتماعية والانسانية، بل ننظر الى النوعية التي هاجرت مع رسول الله (ص) وغيّرت وجه التاريخ وأصبحت قدوة للأجيال الانسانية المتلاحقة. وفيهم اهل بيت النبوة (ع).

ومن اللافت للنظر ان المسلمين هاجروا بشكل مجموعات وجماعات صغيرة وكبيرة، فكان سلوكهم سلوكاً جمعياً يحمي بعضهم بعضاً عدا علي (ع). فقد هاجر علي (ع) مع الفوطم وكان حاميه الوحيد من أعداء جمعوا كل قواهم المعنوية لمحاربة بطل الاسلام. وكان لحوقهم لعلي (ع) وهو على اطراف مكة ماشياً نحو المدينة خير دليل على ذلك. ولكن علياً (ع) وشجاعته الاستثنائية المستمدة من الايمان بالسماء، جعلتهم يرجعون عن مطاردته فضلاً عن مقاتلته.

لقد كان الايمان الذي دفعه (ع) للهجرة بتلك الطريقة العلنية المتحدية لقريش هزيمة نفسية للمشركين وانتصار للاسلام وأبطاله. فقد نام على فراش النبي (ص) فادياً نفسه، ومكث ثلاثة ايام يردّ الودائع الى اصحابها، وأخذ الفوطم في هجرته (أمه فاطمة بنت اسد ، وفاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص)، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وقيل انها فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) ودافع عنهن دفاع الابطال عندما ارادت قريش مهاجمتهم. فأى اهانة وجهها علي (ع) لقريش، وأي تمريغ بالتراب مرّغ أنف قريش؟

وأهم من ذلك ان أخطر ما في الهجرة التاريخية من مكة الى المدينة كان: حفظ شخصية رسول الله (ص)، وبذلك حُفظت بيضة الاسلام. وتمت صيانة النبوة والامامة الى أجل مرسوم، حتى تحقق أهدافهما على الارض.

وكانت الهجرة تقتضي تكييفاً انسانياً واجتماعياً مع البلد الجديد وأهله. وقد استقبلت المدينة المهاجرين من مكة واحتضنتهم، ولكن بقيت شريحة من اهل يثرب تعمل ضدّ الاسلام، وهم الذين اتخذوا صفة النفاق والكيد ضد الدين الجديد. وكان في مقدمتهم عبد الله بن ابي سلول، رأس النفاق. وقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: **(وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا . قَالُوا لَوْ نَعَلِمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)**، (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). فهؤلاء المنافقين خذلوا المسلمين لاحقاً قبل ان تبدأ المعارك الكبرى، وثبطوا الناس عن القتال فكانوا اقرب الى الكفر منهم الى الايمان. فليس غريباً ان يعادي هؤلاء المنافقون المهاجرين ويعتبرونهم ثقلاً جديداً على مدينتهم.

لقد رافقت عملية الهجرة مشقة عظيمة انحصرت بشخصيات المهاجرين كالبعد عن الاهل وصعوبة التكيف وضنك العيش، الا ان طبيعة المبادرة بقيت بيد النبي (ص). فهو الذي كان يقود مجتمع المدينة وينظم شؤون الدولة والافراد بما كان يوحيه اليه وحي السماء. فقد آخى (ص) بين المهاجرين والانصار، وآخى (ص) بينه وبين علي (ع)، وهو الذي كان يدعوهم جميعاً للقتال فيساهموا فيه ويشتركوا في تحمّل أعبائه الباهضة عدا ما يكون عند بعض الذين في قلوبهم مرض. ولا شك ان المؤاخاة التي أعلنها رسول الله (ص) بين المهاجرين والانصار كان لها هدفان. الاول: اعادة تأهيل المهاجرين نفسياً واجتماعياً. والثاني: دمج مجتمع المهاجرين بمجتمع الانصار وتوحيدهم عقائدياً تحت راية الاسلام.

بينما كانت مؤاخاته (ص) مع علي (ع) تهدف الى تثبيت موقع علي (ع) منه (ص) ومن الرسالة ايضاً، حتى لا يفقد الذين اعماهم الحقد الجاهلي نظرتهم الواقعية لشخصيته الرسالية (ع) في خصم مشقة الهجرة وواقع المجتمع الجديد.

«قال ابن اسحاق: وآخى رسول الله (ص) بين اصحابه من المهاجرين والانصار... ثم اخذ بيد علي بن ابي طالب، فقال: هذا اخي» ثم علق ابن اسحاق قائلاً: «فكان رسول الله (ص) سيد المرسلين، وامام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلي

بن ابي طالب (رضي الله عنه) أخوين»، بينما كان حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله (ص) وعم رسول الله (ص)، وزيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) أخوين.

وعلق السهيلي على ذلك على ما في هامش «سيرة ابن هشام»: «أخى رسول الله (ص) بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربية، ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض. فلما عزّ الاسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة انزل الله سبحانه: (... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...) يعني في الميراث. ثم جعل المؤمنين كلهم اخوة فقال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...) يعني في التوادد، وشمول الدعوة».

وقد كانت تلك الهجرة فريدة من نوعها، لان المهاجرين كانوا بحاجة الى تكيف اجتماعي ؛ بينما كان المهاجرون والانصار معاً بحاجة الى تكيف عقلي ونفسي مع العقيدة الجديدة. ولذلك كان دور علي (ع) الفكري والحربي البطولي والروحي وزهده في الحياة _ في دار الهجرة الجديد _ مهماً في تثبيت اسس الاسلام ورسالته الخالدة. وبالخصوص من خلال كفاحه مع جيش النبي (ص)، وجهاده في نشر مباني تلك العقيدة وتعليم القرآن، وضربه المثل الأعلى في القدوة.

ولم يكن التكيف الاقتصادي للمهاجرين سهلاً، فقد بقي اغلبهم فقراء من أهل الصفة والفاقة، لا يملكون ما ينفقون. يروى ان صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك! فقال لهم صهيب: أرايتم ان جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فاني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله (ص). فقال: ربح صهيب ربح صهيب.

وكان المهاجرون يصحبون رسول الله (ص) ويشتركون في قتال المشركين في الحروب التي خاضها (ص). وبقي علي (ع) زاهداً في معاشه وحياته. فقد كان يقاتل قتال الابطال ويشد علي بطنه الحجر من الجوع.

ولكن التكيف الاجتماعي والنفسي السريع كان مصحوباً بنزول القرآن المجيد على النبي (ص) وايصاله الى المسلمين جميعاً. وكان القرآن وسّنة رسول الله (ص) تخلق وضعاً قانونياً

جديداً للمجتمع الاسلامي الحديث، خصوصاً فيما يتعلق بالعقود، والنكاح، والارث، والتعامل مع المؤمنين، والعبادات الجماعية. فكانت الاحكام الشرعية تثري المجتمع الجديد بقوانين النظام والحركة والعمل المشترك.

ان التكيف السريع الذي تم بين المهاجرين والانصار كان متوقفاً على المدى القصير. لان الطرفين كانا يحملان تشابهاً وانسجاماً في التركيبة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ولكن ظهر الاختلاف واضحاً جلياً يوم السقيفة بعد وفاة رسول الله (ص) عندما نادوا: منّا امير ومنكم امير. ولكن علياً (ع) الذي آخاه رسول الله (ص) مع نفسه أول الهجرة لم يكن يفكر بذلك الفصل بينه وبين رسول الله (ص)، كما كان بعض الانصار والمهاجرين يفكر بعد وفاته (ص). فقد كان الانسجام الديني تاماً بينهما (عليهما السلام)، بل كان علي (ع) جزءاً من رسول الله (ص) يحمل هم العقيدة، وينظر الى ما بعد فترة المصاعب والمشاق، وكان (ع) يرى اهداف الاسلام المستقبلية بنور الله عز وجل.

لقد كانت حياة علي (ع) مبنية على الهجرة في سبيل الله، والحركة من موضع الى آخر من أجل اعلاء الاسلام. فقد انتقل من مكة الى المدينة، ومن المدينة الى الكوفة، وانتقل في معاركه من المدينة الى البصرة، ومن الكوفة الى الشام. وبكلمة، فلم يركن الى العيش الرغيد في منطقة آمنة يسترخي فيها، كما كان البعض يتوقع. بل كان يتحرك – بيقين – حيث ما يُرضي الله تعالى ويُرضي رسوله (ص).

اخلاقية رد الامانات الى الناس

أقام علي (ع) بمكة بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة يرد الودائع ويقضي الديون. وكان وضعه (ع) الامني مع المشركين في مكة خطيراً للغاية، فما الذي دعاه لذلك؟ ان الحديث عن رد الامانات الى الناس يقودنا الى الحديث عن الاخلاقية الدينية عند علي (ع) والتي تعلمها من رسول الله (ص).

فلا شك ان اهم ثمار الشخصية الاخلاقية التي كان يحملها (ع) هو ان سلوكه بين الناس كان ترجمة عملية لمفاهيم الدين. فهو الاسلام المتحرك في المجتمع، ومن هنا كان سلوكه الاخلاقي متطابقاً مع النظرية الاخلاقية للسماء. ومن الطبيعي فان السلوك الاخلاقي في رد الامانات والودائع وقضاء الديون يساهم في نشر الانسجام الديني والاخلاقي بين الناس. ومع ان مجتمع مكة كان مشركاً، الا ان العديد من افراده كانت عندهم القابلية على اعتناق الاسلام اذا لمسوا من أحكام الدين تغييراً في حياتهم الاجتماعية والاخلاقية.

فكان رد الامانات التي كانت بعهدة رسول الله (ص) الى الناس مهمة _ من الناحية الاخلاقية _ الى درجة ان تلك الاهمية كانت متناسبة مع حجم الخطورة التي كان يواجهها علي (ع) وهو في مكة دون مناصر. ورد الامانات تعدُّ من القيم الاخلاقية التي يحنُّ لها المجتمع الانساني ايّاً كان منشأه وائياً كانت اهدافه وطموحات اعضائه ومنتسبه. ولا شك ان فضيلة الوفاء برد الامانة كان قد أمضاها الدين الحنيف، بينما اوكل رسول الله (ص) علياً (ع) بتنفيذ تلك المهمة الصعبة. ومن هنا نفهم امضاء الدين الاتفاق الاجتماعي حول الوفاء برد الامانة، لانها عمل خير يؤدي _ عاجلاً أو آجلاً _ الى استتباب الامن الاجتماعي والاقتصادي بين الناس، وازهار الروحانية المثلى للمسلم الملتزم بتعاليم الاسلام. وبذلك فقد عمل الاسلام في انارة الامور التالية:

اولاً: ان الوفاء برد الامانات كان عملاً اخلاقياً امضى فيه الاسلام عمل رسول الله (ص) قبل البعثة وبعدها. حيث اؤتمن (ص) على اموال الناس وحاجاتهم، ولذلك شاع عنه (ص) بانه الصادق الامين.

ثانياً: لم تؤخذ في قضية الوفاء برد الامانة حجم الخسارة والربح من حيث احتمالية مقتل علي (ع) من قبل مشركي قريش او انزال مطلق الاذى به (ع). وبذلك يعدُّ الوفاء برد الامانة من الاعمال الاخلاقية التي تنظر الى قيمة العمل، لا الى حجم الربح والخسارة.

ثالثاً: ان الوفاء برد الامانات طُبّق على المجتمع الوثني الكافر. حيث ان اغلب الذين ائتمنوا محمداً (ص) بعد البعثة ولم يهاجروا الى المدينة وبقوا في مكة كانوا من الذين لم يسلموا بعد. ولذلك بقي علي (ع) في مكة لردّها. ولو أسلموا لهاجروا. نعم بقي عدد قليل من

المسلمين في مكة في الخفاء. ولكن لسان دليل الروايات المتعلق بهذه المسألة لا يخص تلك القلّة، بل ان ظهور اللفظ يدل على اطلاقها على المسلمين وغيرهم. وفيه قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...) . وردّ الامانة الى الكافر فضلاً عن المسلم تعدُّ قيمة أخلاقية مُثلى تبناها الاسلام، وحثّ اتباعه والمؤمنين به على تطبيقها في حياتهم.

رابعاً: متانة الرابط بين الاخلاق والدين. فالاسلام هو الذي امر برد الامانات الى اهلها، حتى لو كان اصحابها من المشركين. فيكون الوفاء برد الامانات من القيم الدينية الاجتماعية. ذلك ان الدين واحكامه الشرعية تدعوان الى القيم الاخلاقية الفاضلة، وحثية تطبيقها على النظام الاجتماعي.

خامساً: كان الوفاء برد الامانات من قبل الدين احتراماً للفرد المؤمن، ولا يمثل احتراماً لسلطة المشركين من قريش. وبذلك فقد كان الحكم هنا تحكيمياً للحق على الباطل على مستوى شريحة خاصة من الافراد من الذين وضعوا تقتهم برسول الله (ص).

وبكلمة أخيرة، فان الوفاء برد الامانات الى اهلها كشف عن قدرة الدين الفعالة على التمييز بين الابعاد الموضوعية والذاتية للقيم الاخلاقية. فقد كانت تضحية الامام (ع) في البقاء ثلاثة ايام متواصلة في مكة تضحية ذاتية، رغم المخاطر المحيطة به، من اجل ان يبقى موضوع الوفاء برد الامانات حكماً ثابتاً يلتزم به المؤمنون الى يوم القيامة.

(نهاية ص ٢٦٨)

«تاريخ مدينة دمشق» ترجمة الامام علي بن ابي طالب (ع) - ابن عساکر ج ١ ص ١٣٨،
الحديث ١٨٩.

«اعلام الوری» - الطبرسي ص ١٩٠.

نقلها المجلسي في «بحار الانوار» ج ١٩ ص ٨٦ الطبعة الحديثة، ج ٦ ص ٤٢٢ الطبعة
القديمة.

الطرائف - ابن طاووس ج ١ ص ٣٤.

«الصحاح». مادة (هجر) ج ٢ ص ٨٥١.

سورة المائدة: آية ١.

«سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٣٥٣.

سورة الانفال: آية ٧٢.

سورة الانفال: آية ٧٤.

سورة الانفال: آية ٧٥.

سورة التوبة: آية ٢٠.

سورة الانفال: آية ٧٢.

سورة النساء: آية ٨٩.

(سورة النساء: آية ٩٧.

سورة النساء: آية ٩٨.

سورة النساء: آية ١٠٠.

سورة النحل: آية ٤١ - ٤٢.

سورة الحج: آية ٥٨.

سورة العنكبوت: آية ٢٦.

سورة النحل: آية ٤١.

سورة النحل: آية ٤٢.

سورة النور: آية ٢٢ .

سورة الحشر: آية ٨ .

هذا المعنى منتزع من استقراء موسع لتأريخ البشرية.

سورة التوبة: آية ٢٠ .

سورة آل عمران: آية ١٦٧ .

سورة آل عمران: آية ١٦٨ .

«سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ١٥٠ .

ليس له خطير: أي ليس له نظير .

«سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ١٥٠ .

م. ن. - ج ٢ ص ١٥٠ .

سورة الانفال: آية ٧٥ .

سورة الحجرات: آية ١٠ .

«سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ١٥٠ هامش رقم ٤ .

«سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ١٢١ .

«نهج البلاغة» - مقدمة خطبة ٦٢ . ص ١٠٣ .

«الطرائف» - ابن طاووس ج ١ ص ٣٤ .

سورة النساء: آية ٥٨ .

الفصل التاسع

في المدينة

- علي (ع) في المدينة: المهمات الجديدة * الدلالات العلمية للنصوص * مقدمات حول كتابة القرآن الكريم * علي (ع) وجمع القرآن الكريم: ١- كاتب الوحي (ع). ٢- كتاب آخرون. ٣- العلة في تعدد كتاب الوحي. ٤- فنية كتابة القرآن. ٥- فلسفة كتابة الوحي.
-

علي (ع) في المدينة: المهمات الجديدة

اهتم امير المؤمنين (ع) وهو في المدينة بالقرب من رسول الله (ص)، بالقرآن الكريم أيما اهتمام. وقد كان ذلك الاهتمام غير منفك عن اهتمام آخر وهو اهتماماته الحربية في المعارك والغزوات التي ابقت شوكة الدين قوية فعالة عجز المشركون عن كسرها . ولكن الاهتمام بالقرآن الكريم كان اهتماماً استثنائياً، فلا عجب ان يقول (ع): «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت وأين نزلت، وأن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً». واهتم بالخصوص بـ «جمع القرآن على عهد رسول الله (ص)» حتى يُصان من التحريف بعد وفاة خاتم الانبياء (ص).

وقد كان النبي (ص) يبذل الوقت والجهد لتعليم علي (ع) معاني القرآن الكريم وأسراره وخفاياه. وكان الامام (ع) يجهر بذلك مصرحاً: «ما نزلت على رسول الله (ص) آية من القرآن الا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله عزّ وجلّ ان يعلمني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله عزّ وجلّ ولا علماً أملاه عليّ فكتبته وما ترك شيئاً علمه الله عزّ وجلّ من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى، وما كان او يكون من طاعة او معصية الا علمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري ودعا الله تبارك وتعالى، بأن يملأ قلبي علماً وفهماً، وحكمةً ونوراً، ولم أنس من ذلك شيئاً ولم يفتني من ذلك شيء لم أكتبه...».

وكان علي (ع) يعلم الناس القرآن وأحكام الدين، ويؤيده رواية عن الامام ابي جعفر (ع) يقول فيها: «كان علي (ع) اذا صلى الفجر لم يزل معقّباً الى ان تطلع الشمس. فاذا طلعت اجتمع اليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ليعلمهم الفقه والقرآن». والظاهر ان ذلك كان في عهد خلافته. ولكن لا يتنافى انه حصل في عهد النبي (ص) أيضاً. فكان الناس يسمعون من رسول الله (ص) نصوص القرآن الكريم، وكانوا يسمعون من علي (ع) تفسيرها في مسجد المدينة. ولا يتنافى ايضاً أن علياً (ع) كان يجهد في تحفيظ الناس آيات القرآن المجيد . ويؤيده

قول عبد الله بن مسعود: «قرأت سبعين سورة من في رسول الله (ص). وقرأت البقية على اعلم هذه الامة بعد نبينا (ص) علي بن ابي طالب (ع)».

الدلالات العلمية للنصوص

١- كان الامام (ع) مستوعباً لمفردات القرآن الكريم استيعاباً تاماً من حيث الايمان والفهم والادراك والتأويل والتفسير، بالاضافة الى الحفظ والكتابة. فكان القرآن محور حياة علي (ع)، في العمل والجهاد والخطاب والتبليغ.

٢- لم ينقل لنا التأريخ ان صحابياً أدرك فهم علوم القرآن الكريم وتعلمها من رسول الله (ص) كما أدركها علي (ع) وتعلمها منه (ص). فقد تعلم (ع) الناسخ والمنسوخ، والتأويل والتفسير، والمحكم والمتشابه، والحلال والحرام، والعام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، والرخص والعزائم، والاداب والسنن. وهذا العلم الرباني بكتاب الله من قبل علي (ع) كانت له آثار خطيرة على مجمل حياته مع رسول الله (ص)، وبعد وفاته (ص)، وخلال فترة الانتظار، وفي فترة الخلافة وحتى استشهاده.

٣- لم يحفظ علي (ع) القرآن لمجرد الاستظهار، بل كان يتعلمه من النبي (ص) من اجل تعليمه للمسلمين ايضاً. ولا شك ان تجمع الفقراء والمساكين في المسجد بعد طلوع الشمس ، وتعليمهم الفقه والقرآن له مغزى كبير، وهو: ان هؤلاء المستضعفين كانوا يرون في احكام الدين بريق أمل ، يحقق لهم العدالة والكرامة وعبادة الخالق عزّ وجلّ بحرية. أي انهم كانوا يرون في الدين الجديد بريق أمل في الحياة المملوءة بالمعاني الجليلة السامية.

مقدمات حول كتابة القرآن الكريم

لا شك ان الثقافة المكتوبة لم تكن متداولة بشكل واسع قبل الاسلام، بل كانت الثقافة الاجتماعية ثقافة شفوية. ولذلك فقد أُشير الى المعلقات السبعة التي علقها العرب على جدار

الكعبة قبل الاسلام، بشيء من الاهتمام والاكبار. لانه كان من النادر كتابة المواد الثقافية أو قرائتها. وعندما جاء الاسلام أحدث ثورة حقيقية في الثقافة المكتوبة، خصوصاً عند كتابة القرآن زمن رسول الله (ص). ومن اجل فهم الاجواء التي كانت سائدة زمن كتابة القرآن الكريم لابد من ترتيب النقاط التالية:

١- ان الذين كانوا يعرفون الكتابة في الصدر الاول من الاسلام قليلون. وكان منهم علي بن ابي طالب (ع)، وأبي بن كعب الانصاري، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن ابي سفيان «بعد عام الفتح»، وعبد الله بن سعد بن ابي سرح «الذي ارتد في حياة النبي (ص) وأمر (ص) بقتله»، وعثمان بن عفان، وآخرون.

٢- انتشرت الكتابة في المدينة بعد هجرة رسول الله (ص). فعندما وقعت غزوة بدر الكبرى وتمّ تأسير سبعين رجلاً من مشركي قريش وكان فيهم عدد من الكتاب، قَبِلَ رسول الله (ص) من الاميين الفدية بالمال، وجعل فدية الكاتبين منهم تعليمهم المسلمين القراءة والكتابة. فكلف كل أسير بتعليم عشرة من الافراد. وبذلك انتشرت الثقافة المكتوبة للقرآن في تلك المرحلة. وازدهرت الامصار الاسلامية بنعمة الثقافة الاسلامية، وبقيت الأمية الصرفة بين الاعراب من البدو في الصحراء العربية.

٣- لابد من التمييز بين من كان يكتب الرسائل والعهود زمن النبي (ص) وبين من كان يكتب الوحي ويجمع القرآن. فان في كتابة القرآن وجمعه أثراً عظيماً في حفظ الاسلام وعدم تحريف الكتاب المجيد. بينما لم يكن ذلك الاثر في كتابة الرسائل. فهذا عبد الله بن أرقم كان كاتباً للرسائل فقط، ولم يرد انه كان كاتباً للقرآن. قال في «الاستيعاب» في ترجمة عبد الله بن أرقم: «انه كان من المواظبين على كتابة الرسائل عن النبي (ص) عبد الله بن أرقم الزهري...».

وقد وقع في خطأ عدم التمييز بين كتابة الرسائل وكتابة القرآن بعض كبار المؤرخين. ومنهم اليعقوبي في تاريخه حيث أطلق الكلام حول كتاب الوحي ولم يقيده بكتابة الوحي او الرسائل او العهود، فقال: «وكان كتّابه الذين يكتبون الوحي، والكتب، والعهود، علي بن ابي طالب، وعثمان بن عفان، وعمرو بن العاص بن أمية، ومعاوية بن ابي سفيان، وشرحبيط ابن حسنة، وعبد الله بن

سعد بن أبي سرح، والمغيرة بن شعبة، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وحنظلة بن الربيع، وأبي بن كعب، وجهيم بن الصلت، والحصين النميري».

٤- ان الكتابة اذا كانت مجردة من مضامينها الرسالية، فانها لا توجب شرفاً ولا منزلة ولا تشمر في صيانة كتاب الله المجيد. فقد كان عبد الله بن سعد كاتباً لكنه ارتد وبات يشهر بالنبوة لعدم ايمانه بعمله الذي كان يؤديه. وكان معاوية قد اعلن اسلامه قبل وفاة رسول الله (ص) بخمسة أشهر فقط وطرح نفسه الى العباس ليشفع له الى رسول الله (ص) فيعفو عنه. ومع ذلك فقد زعم بانه كان من كتاب الوحي. نعم، ربما كتب شيئاً من الرسائل للنبي (ص) في اواخر حياته، ولكن لم تتفق الاخبار انه كان كاتباً للوحي.

علي (ع) وجمع القرآن الكريم

كان موضوع كتابة القرآن المجيد زمن رسول الله (ص) أمراً في غاية الاهمية. ذلك ان القرآن اذا لم تتم كتابته وامضائه من قبل النبي (ص) في حياته، فانه سيكون عرضة للاخذ والرد واختلاف المسلمين عندما يرحل (ص) الى العالم الآخر. فكان من اهتمامات علي (ع) الرئيسية كتابة القرآن المجيد في المدينة خلال حياة رسول الله (ص).

١ - كاتب الوحي (ع):

تعلم امير المؤمنين (ع) القراءة والكتابة في مكة، ولكن المصادر التاريخية لم تذكر لنا طريقة التعلم ولا اسلوبها. وعلى أي تقدير، فان الذي يهمننا من قدرة علي (ع) على الكتابة والقراءة هو كتابة القرآن الكريم وجمعه في حياة رسول الله (ص). وحسبما يساعد عليه الدليل فقد ثبت ان علياً (ع) كان كاتب الوحي لرسول الله (ص). فقد نقل العلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) عن «بصائر الدرجات»: «عن ابي جعفر (ع) قال: كان جبريل يُملي علي النبي (ص) وهو يُملي علي علي (ع)...». وكتب ابن شهر آشوب في «المناقب» قائلاً: «افلا يكون علي (ع) اعلم الناس وكان مع النبي (ص) في البيت والمسجد يكتب وحيه، ومسائله، ويسمع فتاواه،

ويسأله. وروي ان النبي (ص) كان اذا نزل عليه الوحي ليلاً لم يصبح حتى يخبر به علياً (ع) واذا أنزل عليه نهاراً لم يمسه حتى يُخبر به علياً».

والى ذلك أشار ابن عبد ربه في فصل صناعة الكتاب: «فمن أهل هذه الصناعة علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وكان مع شرفه ونبله وقربته من رسول الله (ص) يكتب الوحي». والغريب استغرابه بالقول: وكان مع شرفه ونبله وقربته من رسول الله (ص) يكتب الوحي. وهل كتابة الوحي الا شرف لا يستحقه الا علي (ع)!

وقد احتج (ع) حول معرفته بالقرآن المجيد وعلومه على جماعة من المهاجرين والانصار فقال: «يا طلحة ان كل آية انزلها الله تعالى على محمد (ص) عندي باملاء رسول الله (ص) وخط يدي وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد (ص) وكل حلال وحرام أو حد ، أو حكم، أو شيء تحتاج اليه الامة، الى يوم القيامة فهو عندي مكتوب باملاء رسول الله (ص) وخط يدي حتى إرش الخدش». ويمكن عطف ما ورد عنه (ع) على ما تقدم: «ما دخل رأسي نوم ولا غمض [جفني] على عهد رسول الله (ص) حتى علمتُ من رسول الله (ص) ما نزل به جبرئيل في ذلك اليوم من حلال أو حرام، أو سنة أو أمر، أو نهى، وفيما نزل، وفيمن تنزل...». وما ورد في كتاب «سليم بن قيس»: جلستُ الى علي (ع) بالكوفة في المسجد والناس حوله، فقال: «سلوني قبل ان تفقدوني ، سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله الا وقد أقرأنيها رسول الله (ص)، وعلمني تأويلها، فقال ابن الكواء: فما كان ينزل عليه وانت غائب؟ فقال: بلى ، يحفظ علي ما غبتُ، فاذا قدمتُ عليه قال لي يا علي، أنزل الله بعدك كذا وكذا فيقرأني، وتأويله كذا وكذا فيعلمني».

فنستنتج من كل ما تقدم ان علياً (ع) كان يكتب الوحي في كل مرة ينزل فيه، وكان يحفظ آياته عن ظهر قلب، وكان يدون القرآن مع هامش يذكر فيه العام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والرخص والعزائم، والآداب والسنن.

قال الرافي في «اعجاز القرآن»: «واتفقوا على ان من كتب القرآن وأكمله، وكان قرآنه أصلاً للقرآنات المتأخرة : علي بن ابي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن

مسعود». وبذلك، فلم يكن علي (ع) وحده كاتباً للوحي، بل كان معه آخرون ممن كتبوا الوحي بدقة، وفي ذلك نكتة مهمة وخطيرة نتعرض لها بعد قليل.

٢- كتاب آخرون:

كتب القرآن المجيد بأمر رسول الله (ص) افراد آخرون بجانب علي (ع) منهم: زيد بن ثابت، وأبي بن كعب الانصاري، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

والكتابة في ذاتها ليست منقبة اذا لم تكن نابعة من الايمان بقيمة المكتوب وقداسته. فهذا «عبد الله بن سعد بن ابي سرح» أخو عثمان من الرضاة نزلت فيه آية: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى اليّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأُنزلُ مثلَ ما أنزلَ الله...).

فعندما اسلم عبد الله بن ابي سرح «قدم المدينة، وكان له خط حسن، وكان اذا نزل الوحي على رسول الله (ص) دعاه فكتب ما يمليه عليه رسول الله (ص)، فكان اذا قال له رسول الله (ص): سميع بصير، يكتب سميع عليم. واذا قال له: والله بما تعملون خبير، يكتب بصير. ويفرق بين التاء والياء. وكان رسول الله (ص) يقول: هو واحد فارتد كافراً ورجع الى مكة»، وقال لقريش: «والله ما يدري محمد ما يقول، انا اقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ ذلك وأنا انزل مثل ما ينزل». فأنزل الله على نبيه (ص) في ذلك: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى اليّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأُنزلُ مثلَ ما أنزلَ الله...).

فلما فتح رسول الله (ص) مكة أمر بقتله. فجاء به عثمان بن عفان فأخذ بيده _ ورسول الله في المسجد _ فقال: يا رسول الله اعفو عنه. فسكت رسول الله (ص). ثم أعاد، فسكت. ثم أعاد، فقال: هو لك. فلما مر، قال رسول الله (ص) لاصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال رجل: عيني اليك يا رسول الله ان تشير اليّ بقتله فأقتله. فقال رسول الله (ص): ان الانبياء لا يقتلون بالاشارة. فكان من الطلقاء.

ثم اورد عن «معاني الاخبار» حديثاً قال الصدوق في ذيله: وانما كان النبي (ص) يقول له فيما يغيره: «هو واحد». لانه لا يكتب ما يريد عبد الله بن ابي سرح، انما يكتب ما كان يمليه

(ص). فقال (ص): هو واحد غيّرت أم لم تغيّر لم يكتب ما تكتبه، بل يكتب ما امله عن الوحي، وجبرئيل يصلحه. وفي ذلك دلالة للنبي (ص) على صدق نبوته.

وقال الصدوق: وجه الحكمة في استكتاب النبي (ص) الوحي معاوية وعبد الله بن سعد بن ابي سرح، وهما عدوان، هو ان المشركين قالوا: ان محمداً يقول هذا القرآن من تلقاء نفسه، ويأتي في كل حادثة بآية... الى ان قال: فاستعان في كتب ما ينزل عليه في الحوادث الواقعة بعدوين له في دينه عدلين عند أعدائه، ليعلم الكفار والمشركون ان كلامه في ثاني الامر كلامه في الاول غير مغير، ولا يزال عن جهة فيكون ابغ للحجة عليهم. ولو استعان بوليين مثل سلمان وابي ذر وأشباههما لكان الامر عند أعداءه غير واقع هذا الموقع، وكان يتخيل فيه التواطى والتطابق. فهذا هو وجه الحكمة في استكتابهما.

٣- العلة في تعدد كتاب الوحي:

وكانت العلة الرئيسية في تعدد كتاب الوحي هو ان لا تختلف الامة بعد رسول الله (ص) في قضية القرآن، كما اختلفت في قضية الولاية الشرعية والامامة. وقد وعد الله سبحانه وتعالى بحفظه من كل تحريف، كما نستظهر من قوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

لقد كان رسول الله (ص) أمياً لا يقرأ ولا يكتب بدلالة نص القرآن المجيد: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...)، (وما كُنتَ تتلوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ، وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ). وكان (ص) لا يستطيع كتابة ما ينزل اليه من وحي، بل كان بعد نزول الوحي اليه يحفظ القرآن النازل من آية او سورة ويبلغها الناس، ثم يُقرئ علياً (ع) ونخبة من الفائزين بشرف صحبته (ص)، ويستحفظهم اياها.

وكانوا اذا نقلوا عن النبي (ص) شيئاً من القرآن ترددوا عليه غير مرة، يتلونها امامه حتى يزداد تشبههم من حفظها. ثم يذهبون وعلى رأسهم علي (ع) فيكتبونها ثم يعلمون الناس الآيات الجديدة النازلة عليه (ص).

وبسبب تعدد كتاب الوحي، فقد حُفظ القرآن الكريم من التحريف والتزييف. وقد كانت كل العوامل الاجتماعية خلال القرن الاول الهجري مهياًة للتلاعب بالكتاب الكريم، ولكن وعد الله

تعالى بحفظه جنب الامة تلك الجريمة. وكان تعدد كتاب الوحي من اهم العوامل التي حفظت القرآن.

٤ - فنية كتابة القرآن:

ومن شدة اهتمام النبي (ص) بكتابة القرآن الذي كتب في عهده وفي حضرته انه كان يُنسخ على الصحف. وفي رواية اسلام عمر بن الخطاب دلالة بليغة على ذلك: قال له رجل من قريش: ان أختك قد صبأت (أي خرجت عن دينك) فذهب الى بيتها ولطم اخته لطمه شج بها وجهها. فلما سكت عنه الغضب نظر فاذا صحيفة في ناحية البيت فيها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، واطلع على صحيفة أخرى فوجد فيها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى... لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى). واذا صحت الرواية، فهذا يعني ان القرآن كان متداولاً بين المسلمين مستنسخاً على شكل صحف.

وكان علي (ع) يكتب القرآن على جرائد النخل، واكتاف الابل والصحف والحبر والقراطيس وما تيسر من ادوات للكتابة والتصنيف. وكان (ص) يأمره بوضع الآيات في مواضعها في القرآن. وبكلمة، فان نص القرآن وترتيبه كان أمراً توقيفياً منه (ص) بأمر الوحي. فقد روى العياشي (ت ٣٢٠ هـ) _ وهو من كبار محدثي الامامية _ في تفسيره في ذيل رواية له: قال علي (ع): ان رسول الله (ص) أوصاني اذا واريته في حفرتة ان لا اخرج من بيتي حتى اؤلف كتاب الله، فانه في جرائد النخل، وفي اكتاف الابل. وفي رواية علي بن إبراهيم (ت ٣٠٧ هـ) _ وهو من ثقات المحدثين _ عن الامام جعفر الصادق (ع) قال: ان رسول الله (ص) قال لعلي (ع): يا علي ان القرآن خلف فراشي في الصحف والحبر والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، وانطلق علي (ع) فجمعه في ثوب اصفر ثم ختم عليه.

وما روي ان علياً (ع) قد جمع القرآن بعد وفاة النبي (ص) مباشرة يُردّ عليه بأنه لم يكن جمعاً اصطلاحياً، بل أمر تدقيق وحفظ وصيانة وعناية.

ففي كتاب «سليم بن قيس» عن سلمان (رض): ان علياً (ع) بعد وفاة النبي (ص) لزم بيته واقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه، وكان في الصحف والشظاظ، والاسيار والرقاع... الى ان قال: فجمعه في ثوب واحد وختمه.

وقد أوصى رسول الله (ص) علياً (ع): يا علي هذا كتاب الله خذه اليك. فجمعه علي (ع) في ثوب ومضى الى منزله، فلما قبض النبي (ص) جلس (ع) فألفه كما انزل الله وكان به عالماً. والخلاصة، أن علياً (ع) كان قد كتب القرآن الكريم في حياة رسول الله (ص) آية آية، وكان يُعرض ذلك عليه (ص) فيُمضيه. وكان علي الامام (ع) بعد وفاة رسول الله (ص) ان يقوم بجمع تلك الصحف وتدقيقها من اجل الاطمئنان على سلامتها، مصداقاً لوعده تعالى بحفظ الكتاب المجيد من التلاعب والتزييف.

وكانت ادوات تدوين القرآن الكريم المستخدمة في ذلك الوقت:

- ١- الرقاع: جمع رقعة، وتكون من جلد او ورق.
- ٢- العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص يكتب على الطرف العريض منه.
- ٣- اللخاف: جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة الرقاق.
- ٤- الاكتاف: جمع كتف، وهو العظم العريض من عظام البعير او الشاة، اذا جفّ كتبوا عليه.
- ٥- الاقتاب: جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليحمل عليه. حيث كانوا ينقشون عليه الحروف والكلمات.
- ٦- الحرير: وكان يكتب عليه.

٥- فلسفة كتابة الوحي:

عندما نستخدم لفظ «القراءة» أو «الكتابة»، فاننا لا بد ان نستخدم معهما القرينة ونحدد نوع القراءة والكتابة. فالقراءة أو الكتابة حقيقة ثقافية من حقائق الدين. وذلك لسببين:

الاول: ان الكتاب السماوي الذي يأتي به الدين، هو الطريقة المكتوبة لمخاطبة اهل الارض. والا، فلا يصحّ تسمية الخطاب الشفهي كتاباً.

الثاني: ان المبادئ الدينية لا بد ان تُحفظ مكتوبة او مخطوطة من اجل ان تستعملها الاجيال اللاحقة مصنونة من أي تغيير او تزيف.

والقاعدة ان الكتابة متلازمة مع القراءة، فلا قيمة للمكتوب اذا لم يُقرأ. فالعلاقة غير قابلة للتفكيك هنا بين الخطاب السماوي _ المكتوب _ وبين المكلف القادر على قراءة ذلك الخطاب. وهذا هو الذي دعا رسول الله (ص) _ وهو النبي الامي _ الى حثّ المسلمين على تعلّم القراءة والكتابة، خصوصاً في غزوة بدر عندما اشترط على اسراه الذين يجيدون ذلك الفن تعليم المسلمين القراءة والكتابة مقابل اطلاق سراحهم. فما لم تكن الامة متعلمة، تقرأ وتكتب، فانها لا تستطيع فهم معاني القرآن العظيم. ذلك لان الكتاب _ بمعناه التركيبي _ يعني مجموعة من الكلمات والحروف المنظمة التي لا تفهمها الا الشريحة التي درست وتعلّمت انطباق الالفاظ اللغوية على معانيها الفكرية عبر الحروف والكلمات.

وفي ضوء تلك الافكار نقرر ان من ميزات الكتاب المخطوط:

١- القابلية على استنساخه وتكثيره بكميات أكبر ونشره على مساحة أوسع في الولايات والامصار، بشرط ان تكون الامة مثقفة ومتدينة وقادرة على القراءة.

٢- قابلية الكتاب المخطوط على حفظ المادة المخطوطة من الضياع والتحريف.

وكتابة الوحي هنا مقيّدة تماماً بالنقل الامين لالفاظ القرآن الكريم على الورق أو على ادوات الكتابة السائدة في ذلك الزمان على شكل حروف وكلمات. فهي لا تتضمن ابداعاً للافكار والآراء، او تبادلاً للقيم بين الكاتب والقارئ، ولا تتضمن أحكاماً يصدرها المؤلف. فالكتابة هنا مختصة فقط بالامانة القصوى والدقة المتناهية في نقل الخطاب الشفهي الى مادة مكتوبة. فكاتب الوحي يحتاج - ضمن خصائصه - الى ملكة في التقوى والخوف من الله وبقين تام بالدرجة الاولى، وقدرة على القراءة والكتابة بالدرجة الثانية. وقد كان افضل المرشحين لذلك العمل على الاطلاق: علي بن ابي طالب (ع). وكان البقية من الافراد من اتجاهات ومشارب

شئى مثل: زيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن ابي سرح وغيرهم من الذين كتبوا القرآن، انما سمح لهم رسول الله (ص) بالكتابة كان من اجل اتمام الحجة على الاعداء. والا فان خط علي (ع) كان كافياً لحفظ القرآن الكريم.

ولا شك ان التسلح بالسلح اللفظي والعقلي من اجل نقل المادة الشفهية الى مادة مكتوبة، ينبغي في حالة كتابة الوحي ان يكون خالياً من أي تعبير شخصي أو رأي فردي. وهو ما قصدناه للتوّ بالتقوى واليقين عند الكاتب. فالكاتب هنا موظف فقط لاتمام تلك العملية الامينة وهي نقل المادة الشفهية الى مادة مكتوبة. فهنا لا يحق للكاتب مطلقاً التلاعب بأفكار الكتاب الالهي من خلال اضافة كلمة أو حذف آية او تبديل معناها. ولذلك فعندما حاول عبد الله بن ابي سرح التلاعب بالفاظ القرآن الكريم عند تدوينه عبر تبديل (سميع بصير) بـ (سميع عليم) أو تبديل (والله بما تعملون خبير) بـ (والله بما تعملون بصير) نزل فيه قرآن يُدينه واستحق القتل على ذلك، لانه اضاف من هواه وعقله الفاسد اضافات الى اقدس كتاب سماوي موجّه بلغة الخالق عزّ وجلّ الى المخلوقين المكلفين.

وفي اغلب الحالات يكون الكاتب - الذي توفرت فيه شروط التقوى واليقين- هو القارئ الاول للكتاب. فما بالك بعلي (ع) والقرآن، فلم يكن علي (ع) كاتب الوحي فحسب، بل كان أكثر الناس قراءةً لكتاب الله المجيد، وأكثرهم استلهاماً لمعانيه وأفكاره واحكامه بعد رسول الله (ص).

وليس غريباً ان نجزم بان الحفاظ على القرآن المجيد مصوناً بين الدفتين عبر التدوين، ساهم دون شك في حفظ أفكار القرآن، ومفاهيمه، وكلماته، ورسالته السماوية في الهداية. وبذلك اصبح الكتاب السماوي المجيد يعيش فيما وراء حدود الاجيال، والثقافات، والعلوم، والمعرفة الحقة المتجددة مع تغيير المجتمعات الانسانية.

وبكلمة فان القرآن عندما دُوّن، فانما أُريد له ان يكون الكتاب الاول المقروء عند اهل الارض. فهو كتاب السماء الخالد لهداية البشر الى خالقهم وبارئهم عزّ وجلّ. ذلك ان الثقافة الرسمية للاسلام ودولته مستمدة بشكل مباشر من مفاهيم القرآن الكريم وأفكاره واحكامه. وهنا اصبح القرآن الكريم، كتاب الامة الاول الذي تعني به وتقرأه، فكان الجهد الذي بذله علي (ع)

بالدرجة الاولى وبعض الصحابة في الدرجة الثانية في كتابة القرآن الكريم موفقاً في تحمل مسؤولية حفظ كتاب الله المجيد وصيانته من كل تحريف في وقت كان المجتمع العربي الاسلامي يعيش حالة استثنائية مريرة من حالات تزوير احاديث النبي (ص) وسنته الشريفة بما يخدم السلطة وأهدافها.

ولا شك ان كتابة الوحي كانت متعلقة بقطين هما: القراءة والمجتمع. فتدوين القرآن الكريم انما تمّ من اجل ان تقرأ الامة كتابها السماوي وتهتدي بهديه. ف«القراءة والمجتمع» تعني هنا انه يمكن للدين تحديد حجم المخاطبين ومقدار تماسكهم الاجتماعي وتركيبهم الطبقي وقلوبهم وضمائرهم عبر الخطاب الالهي الموجّه لهم. ويتعبّر آخر، فان القرآن المكتوب يصل الى جميع طبقات المجتمع القادرة على القراءة من أغنياء وفقراء، وتجار وعمال، ومزارعين وكسبة، وعلماء ومفكرين، وفقهاء ومحدثين، ويخاطب كل مجموعة باللغة التي تفهمها. ف«القراءة والمجتمع» تعبّر عن حجم الرباط العقلي والروحي الذي يقوم القرآن الكريم بشدّ المجتمع به، افراداً وجماعةً. وبالتالي يقوم القرآن بشدّ الفرد والجماعة بالله سبحانه وتعالى وباحكامه وتشريعاته. ولذلك كان على الملايين من الامة الاسلامية في كل لحظة من لحظاتها وعلى مدى الزمن ان تقرأ ذلك الكتاب العظيم.

وهنا ينبغي ملاحظة نقطة مهمة أخرى وهي ان القرآن الكريم يخاطب العقل البشري. فهو ليس كتاباً دُونَ في زمن معين فخالط الوضع الاجتماعي في ذلك الزمان مشاعر الناس، وليس كتاباً دُونَ في مكان معين فانبهر الناس بمؤلفه واسلوبه الفكري ومشاعره القومية. بل ان القرآن الكريم يمثل الكليات التي ارادت السماء أن تنقلها الى الارض. فهو كتاب لم يقيّد بحدود القومية ولا اللغة والزمن والتاريخ والثقافة. بل هو أكبر من حجم القومية واللغة والزمن والتاريخ والثقافة. لان هذا الكتاب المجيد ينقل قارئه الى عالم السماء والآخرة والتوحيد والعظمة والجبروت.

ولذلك كان تدوينه وصيانته من اعظم الاعمال التي قام بها علي (ع) جنباً الى جنب بطولاته المشهودة وزهده وتعفّفه. ذلك ان القرآن _ الذي يعبّر عن كلام الله سبحانه _ كتابٌ حيٌّ كُتبت له الحياة الى الابد. والموت الثقافي للكتب يحصل فقط لتلك التي يخطها الانسان

بيمينه. فمن المعلوم ان ٩٩% من الكتب التي تُكتب تندثر بعد فترة زمنية معينة، ويبقى منها اقل من ١% فقط تتداوله الاجيال. وحتى ان ما تتداوله الاجيال يندثر رويداً رويداً بسبب اختلاف كليات الازمنة المتلاحقة. فتلك الكتب تفقد نكهتها واسلوبها ومشاعر مؤلفيها بعد عدد غير محدد من السنين. اما كلام الله عزّ وجلّ وكتابه القرآن المجيد فانه محفوظ ومصان الى يوم القيامة. وهذا يفسّر لنا الاهتمام البالغ للامام (ع) بكتابة القرآن الكريم وجمعه في حياة رسول الله (ص)، والاهتمام الشديد بتدقيقه والاعتناء به بعد وفاته (ص).

(تليها ص ٢٨٥ - ٣٢٢)

«المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص ٤٦.

«توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل» - الايجي ص ٤١٨.

«بحار الانوار» - رواه المجلسي باسناده عن سليم بن قيس الهلالي. ج ١٩ ص ٢٦ الطبعة القديمة.

«شرح نهج البلاغة» ج ٤ ص ١٠٩.

«ينابيع المودة» - المودة الثالثة ص ٢٤٧. رواها مير سيد علي الهمداني باسناده عن هاشم بن البريد.

«الاستيعاب» - القرطبي. ترجمة عبد الله بن أرقم.

«تأريخ اليعقوبي» ج ٢ ص ٦٤.

«نهج الحق وكشف الصدق» - العلامة الحلبي ص ١١.

«بحار الانوار» الطبعة الجديدة ج ١٨ ص ٢٧٠. نقلها عن «بصائر الدرجات» عن العباس بن معروف عن حماد بن عيسى عن ربعي بن زرارة عن ابي جعفر (ع).

«المناقب» - ابن شهر آشوب ج ٢ باب المسابقة الى العلم.

«العقد الفريد» - ابن عبد ربه ج ٣ ص ٥ فصل صناعة الكتاب.

مقدمة «تفسير مرآة الانوار» عن ابي خالد الواسطي عن زيد بن علي (ع).

«كتاب سليم بن قيس» ص ١٧١.

«اعجاز القرآن» - الرافي. ص ٣٥.

سورة الانعام: آية ٩٣.

سورة الانعام: آية ٩٣.

«بحار الانوار» الطبعة القديمة ج ١٩ باب ٣. و«تفسير القمي» سورة الانعام: آية ٩٣.

سورة الحجر: آية ٩.

سورة الاعراف: آية ١٥٧.

سورة العنكبوت: آية ٤٨.

سورة الحديد: آية ١ - ٨.

سورة طه: آية ١ - ٨.

«تفسير القمي» - علي بن إبراهيم بن هاشم القمي. رواها عن ابي بكر الحضرمي عن الامام الصادق (ع).

شظاظ: خشبة عقفاء تدخل في عروتي الجواليق «الوعاء».

السيار: مجمع السير وهو القدة المستطيلة من الجلد. والقُدُّ هو جلد المعز المشقوق طولاً.

كتاب «سليم بن قيس» ص ٦٥.

التأليف: الجمع، ومنه قوله تعالى: (... فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

الفصل العاشر

الحياة العائلية

- علي (ع): الحياة العائلية * الدلالات العلمية للنصوص * الحياة الزوجية لامير المؤمنين (ع):
- ١- الخصائص المستقاة من رسول الله (ص). ٢- وظائف الزواج العلوي. ٣- التركيبة العلوية.
 - ٤- الاسرة الشريفة: قمة القيم الاخلاقية * كفاح الاسرة العلوية: ١- معنى الجوع في العائلة.
 - ٢- الطعام وأساليب استهلاكه في العائلة. ٣- مشقة فاطمة الزهراء (ع) * زي فاطمة الزهراء
 - (ع): ١- أسلوب الحجاب الشرعي. ٢- وظائف الحجاب الشرعي * تعدد الزوجات بعد وفاة فاطمة (ع): ١- زواج الأماء: أ- معنى العبودية والتحرر. ب- الفوارق بين الرق في الاسلام والعبودية الحديثة. ٢- مغزى تعدد الزوجات: أ- الاقتداء برسول الله (ص). ب- زوجات امير المؤمنين (ع).
-

علي (ع): الحياة العائلية

تبدأ حياة امير المؤمنين (ع) الزوجية باقترانه بسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع). وكان علي (ع) يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، وكانت فاطمة بنت عشر. فقد ولدت فاطمة (ع) بمكة بعد النبوة بخمس سنين، وزوجه اياها رسول الله (ص) في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة. وبنى بها الامام في شهر ذي الحجة من السنة ذاتها، أي بعد حوالي اربعة أشهر من اتمام العقد. والى مجمل ذلك اشار رسول الله (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي». ودعا (ص) الله بجمع شملهما وسعادة جدّهما وبمباركته عليهما وان يخرج منهما كثيراً طيباً. والمشهور ان مهرها كان اربعمائة مثقال فضة. وهو مبلغ زهيد، بالمقارنة مع الاموال التي كانت تُبذل في مكة في مناسبات مشابهة. وكان متاع البيت الجديد عبارة عن فراش من خيش مصر (وهو من أردأ الكتان) محشواً بالصوف، وقطعاً من آدم (وهي جلود الحيوانات المدبوغة)، ووسادة من آدم حشوها ليف النخل، وعباءة خيرية، وقربة للماء، وكيزان (أوعية ماء)، وجرار، ومظهرة للماء، وستر صوف رقيق اشتراه علي (ع) من صداقها (ع). ومع قلة المتاع والزاد، الا ان علياً (ع) كان كفواً لها في الدين. وقد نُقل عنه (ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفاءاً».

وفي المأثور انه «لما جهز رسول الله (ص) فاطمة الى علي (رض) بعث معهما بخميل. قال عطاء: ما الخميل؟ قال: قطيفة (وهو دثارٌ مَحْمَلٌ)، ووسادة من آدم حشوها ليف واذخر (نوع من النبات) وقربة، كانا يفترشان الخميل ويلتحفان بنصفه».

وكانت حياتهما المنزلية شاقّة للغاية يشهد لهما تعففهما وزهدهما في الدنيا. فهذا ابو نعيم يروي ان فاطمة بنت رسول الله (ص) طحنت «حتى مجلت يدها (أي تُخن جلدتها) ورئي اثر قطب الرحي في يدها». وفي موضع آخر: «ان فاطمة كانت حاملاً، فكانت اذا خبزت اصاب حرف التنور بطنها، فأنت النبي (ص) تسأله خادماً فقال: لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع، أو لا أدلك على خير من ذلك؟ اذا أويت الى فراشك تسبّحين الله تعالى ثلاثاً وثلاثين وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين وتكبرينه أربعاً وثلاثين». ويؤيد ما كانت عليه من المشقة ما رواه

أحمد: «ان بلائاً بطأ عن صلاة الصبح، فقال له النبي (ص) ما حبسك؟ فقال: مررت بفاطمة وهو تطحن والصبى يبكي، فقلت لها: ان شئيت كفيتك الرحي وكفيتني الصبي، وان شئت كفيتك الصبي وكفيتني الرحي، فقالت: أنا أرفق بابني منك، فذلك حسني . قال (ص): فرحمتها رحمك الله.»

وكانت (ع) تطوي الايام بلا طعام. كما تحكي الرواية بأن علياً قال لها يوماً: هل عندك شيء تطعميني؟ قالت: لا والله يا ابا الحسن ما عندنا منذ ثلاث شيء الا شيء أترك به على نفسي وعلى ابني قال لها: فهلاً أعلمتيني؟ قالت: اني لاستحيي من ربي أن أكلفك ما لا تقدر عليه...». يقول امير المؤمنين (ع): «كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق اذ جاءته فاطمة بكسرة من خبز فرفعتھا اليه، فقال: ما هذه يا فاطمة؟ قالت: من قرص اختبزته لابني جئتك منه بهذه الكسرة، فقال: يا بنية أما انها لأول طعام دخل فم أيبك منذ ثلاث.»

وكان رداؤها الحياء والحجاب الشرعي. ومع ان بيتها كان ملحقاً بمسجد رسول الله (ص)، الا ان الروايات لم تذكر ان أحداً رأى وجهها. وحتى عندما خطبت الخطبة المشهورة في مسجد رسول الله (ص) بعد وفاة ابيها (ص) كان الحجاب ضارباً أطنا به على وجهها فضلاً عن جسدها. وكان ملبسها في غاية التواضع.

ولدت فاطمة (ع): الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم (زينب الصغرى). وسقط محسن عندما أقتحمت دارها بعد وفاة ابيها (ص) فاحتمت بالباب فكُسر ضلعها (ع) واسقطت جينيتها. وبعد ذلك قضت نحبها (ع) وسنها ثمانى عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً. واختلفت اقوال المؤرخين حول مدة حياتها بعد النبي (ص)، فقيل: اربعين يوماً، وقيل: شهرين، وقيل: ثلاثة أشهر، وقيل: ستة أشهر.

وعلى أي تقدير، فان فاطمة (ع) كان غاضبة على ابي بكر وعمر اللذين غصباها حقها وآذاها. فكان البيت النبوي فيما بعد وفاة رسول الله (ص) يعيش حالة من حالات الحزن الشديد والالام بفقدان النبي (ص) ونكث العهد. ولا نعرف على وجه الدقة تاريخ وفاتها او موضع قبرها لحدّ اليوم. ولم يتزوج علي (ع) عليها في حياتها اجلالاً لها وتكريماً لعصمتها حتى استشهدت صلى الله عليها وعلى ابيها وعلى زوجها وبنيتها.

استمرت الحياة الزوجية بين علي وفاطمة (عليهما السلام) حوالي ثمان سنوات، ثم انتهت باستشهادها (ع). وبعد انتقالها الى عالم الجوار الابدي (ع)، بقي الامام (ع) وحيداً مع ابنه الحسن والحسين (ع) وابنتيه زينب وام كلثوم الى ان تزوج بعددٍ من النساء، منهن:

١- (امامة بنت ابي العاص)، وامها زينب بنت خديجة بنت خويلد، وولدت له محمداً الاوسط الذي استشهد في كربلاء.

٢- (خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية) وولدت له: محمداً الاكبر (ابا القاسم).

٣- (ام حبيبة بنت ربيعة) وولدت له توأماً: عمر، ورقية.

٤- (ام البنين بنت حزام بن خالد الكلابية) وولدت له: العباس، وجعفر، وعثمان، وعبد الله الشهداء مع اخيهم الحسين (ع) بكربلاء.

٥- (ليلي بنت مسعود الدارمية) ولدت له: محمداً الاصغر (ابا بكر)، وعبيد الله الشهيدان مع اخيهما الحسين (ع) بكربلاء.

٦- (أسماء بنت عميس الخثعمية) وولدت له: يحيى الذي توفي صغيراً قبل ابيه، وعوناً.

٧- (ام سعيد بن عروة بن مسعود الثقفي) وولدت له: ام الحسن، ورملة.

(وأمهات اولاد شتى) ولدن: نفيسة (ام كثوم الصغرى)، وزينب الصغرى، ورقية الصغرى، وام هانيء، وام الكرام، وجمانة (ام جعفر)، وامامة، وام سلمة، وميمونة، وخديجة، وفاطمة.

وبكلمة، فقد كان لعلي (ع) ٢٧ ولداً، منهم اربعة عشر من الذكور، والباقي من الاناث. وكان عنده يوم استشهاده من النساء اثنتان وعشرون، منهن اربع زوجات: امامة بنت اخت فاطمة الزهراء (ع) من امها، وليلي بنت مسعود، وأسماء بن عميس، وأم البنين الكلابية، و١٨ امهات اولاد.

الدلالات العلمية للنصوص

١- تشير جميع الدلائل العلمية والتاريخية الى ان زواج علي (ع) بفاطمة (ع) كان امراً من الله عزّ وجلّ. وقد كان ابو بكر وعمر يطمحان في التزوج من فاطمة الزهراء (ع)، ولكن

رسول الله (ص) كان يعرض عنهما ويقول مرة: ان أمرها الى ربها، واخرى كان يقول لهما: حتى ينزل القضاء. وكلا الجوابين يفضيان الى ان رسول الله (ص) كان ينتظر امر السماء فيها. وفي ذلك دلالة على فضل علي (ع) وكفائته حيث انتخب لها.

علماً بأن رسول الله (ص) تزوج ابنتي ابي بكر وعمر وهما عائشة وحفصة.

٢- ان ما ميز حياة علي (ع) العائلية ومن قبله رسول الله (ص) أنهما ساوى نفسيهما مع افقر فقراء بلاد الاسلام، بل حتى الفقير المدقع لا يتحمل حرماناً كلياً من الطعام ثلاثة ايام بلياليها. ولم يكن الحرمان مقصوداً على الطعام والشراب، بل كان يمتد الى اغلب المباحات الحياتية من اثاث ومتاع تقتضيه مستلزمات العيش الاجتماعي في الاسرة. ومن هنا ندرك بساطة متاع فاطمة (ع) وخشونة ملبسها وملبس زوجها. فقد روي ان علياً (ع) عندما اشترى بصدوق فاطمة الزهراء (ع) متاع بيته نظر اليه رسول الله (ص) فبكى ثم رفع رأسه الى السماء وقال: اللهم بارك لقوم جُلَّ أوانيهم الخزف - . والواني المصنوعة من الطين المفخور هي اقل ما يستطيع الزوج ان يقدمه لاسرته الجديدة. وكانت نساء مكة في ذلك الزمان يفترشن الحرير ويلبسن ما تنتجه الصين والهند من ملابس تنقلها لهم القوافل العابرة الى الشام. فلا شك ان وضع فاطمة الزهراء (ع) كان وضعاً استثنائياً تحدثت عنه نساء مكة انذاك.

٣- ان فاطمة (ع) لم تكن لتسأل رسول الله (ص) خادماً لولا انها كانت لا تطيق عمل البيت وهي على ما هي عليه من طهارة النفس والروح والجسد مشغولة بذكر الله عز وجل. وقد كان علاجها متناسباً مع شخصيتها الدينية الرسالية، لقد كان علاجها التسبيح والتكبير والتحميد. فكان سؤالها أباهما عمن يساعدها في ادارة أعمال البيت مبرراً على الصعيدين العرفي والاخلاقي، لان تلك التكاليف كانت تمنعها بعض الوقت عن تمام الانشغال بالله سبحانه، واداء حق الزوجية والأمومة. وقد كانت الواجبات البيتية في ذلك الزمان تقتضي الخدمة والمساعدة من الغير، لان الجهد كان يبذل من اجل اتمام اعمال البيت باليد، فلم تكن هناك غسالة تعمل بالبرق لغسل الملابس، ولم يكن هنا طبّاخ غازي أو نفطي لطهي الطعام، ولم تكن هناك انابيب لنقل المياه المصفاة. فكان غسل الملابس وطهي الطعام ونقل المياه يتطلب جهداً ووقتاً لا يطيق الفرد القيام

به لمفرده. وكانت فاطمة الزهراء (ع) يتيمة من طرف الام وليس لها عم أو عمّة، ولا خال أو خالة على الأرجح. وليس لها اخ أو اخت من أبيها تركن اليهم وقت الشدة.

٤- كانت الفترة التي عاشها علي (ع) تستدعي تأليف القبائل، فكان (ع) يتزوج من سائر القبائل العربية من اجل تثبيت الاسلام. في حين كانت القبائل تتشرف بالانتساب اليه (ع) عن طريق الزواج . ولاشك ان قضية الاماء أو ملك اليمين كانت منتشرة في ذلك العصر، فكان اشرف المسلمين يشترونهن من اجل تثبيتهن على الاسلام ثم يطلق سراحهن، فكنّ يفضلن البقاء مع ازواجهن (سادهن) المؤمنين في مرحلة الحرية. فلم يكن غريباً ان نرى امير المؤمنين (ع) قد تزوج بهذا العدد من الزوجات. فقد كان العرف الاجتماعي يقتضي ان يتزوج القائد من اطراف القبائل العربية. يضاف الى ذلك ان بعضهن كن ارامل يعشن حياة الفقر مع ابنائهن اليتامى، فكان يشار اليه بأبي الارامل والايتام. وملك اليمين على الاغلب من الارامل اللاتي فقدن ازواجهن في الحروب، او اليتامى اللاتي فقدن آبائهن في الحروب ايضاً.

الحياة الزوجية لامير المؤمنين (ع)

يتطلب الزواج تنظيمًا جديدًا للعلاقات الاجتماعية، بما فيها السكن الجديد للزوج والزوجة والعلاقات السببية الناتجة من آثار الزواج. ويُعدُّ الزواج في العرف العلمي تحالفاً بين مجموعتين من الافراد ستربطهما لاحقاً رابطة الدم والرحم. فالمجموعة الاولى تمثل الزوجة وأرحامها، والمجموعة الثانية تمثل الزوج وأرحامه. ولا شك ان الزواج يقوي الآصرة القائمة بين عائلتي الزوجين. ومن هذا الاطار ننظر الى زواج امير المؤمنين (ع)، فقد اقترن بنت خاتم الرسل والانبياء (ص). وهذا الاقتران يحمل دلالات دينية واجتماعية وفكرية لا يمكن المرور عليها من دون دراستها دراسة علمية دقيقة. فان من مقتضيات اقترانهما ان بيت النبوة والامامة بات مركز اهتمام المسلمين جنباً الى جنب مع القرآن الكريم. ذلك لان اهل بيت النبوة (ع) كأسرة مكونة من رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهما السلام) كانت مصدر العطاء الفكري العملي بعد القرآن الكريم. وكانت القدوة الاخلاقية العليا للامة على مر الزمن.

وبالاجمال، فان من آثار زواجهما كان تهيئة نسل طاهر معصوم يحفظ رسالة الاسلام الى يوم القيامة بعد ان كان ذلك الاقتران تحالفاً قدسياً بين النبوة والامامة، أي بين محمد رسول الله (ص) وعلي وصي رسول الله (ص) من اجل الاسلام واعلاء كلمة الله سبحانه.

وتشكيل عائلة عن طريق الزواج الشرعي يتبلور من عمل مشترك وتعاون متضافر يقوم به الزوجان، وصورته الكلية: وظيفة الزوجة داخل البيت ووظيفة الزوج خارج البيت. وفي ضوء ذلك تتوضح صورة الحقوق والواجبات داخل الاسرة. وليس هناك من حاجات مادية كثيرة في اسرة النبي (ص) والاسرة العلوية (ع). فقد كان الخبز هو المصدر الرئيسي لرزق العائلة، وكان التبعيد والخشوع وقراءة القرآن اهم ما يشغل البيت وأعضاءه. وكانت فاطمة (ع) تعمل ضمن حدود بيتها بما يستلزم الامر من خدمات، وكان (ع) يعمل ويكدح من اجل سد رمق عائلته. ولكن اساس العائلة العلوية قائمٌ على طاعة الله سبحانه وعبادته والجهاد في سبيله مهما كلف ذلك من تضحيات.

١- الخصائص المستقاة من رسول الله (ص):

ضمت اسرة علي وفاطمة (عليهما السلام) ثلاث خصائص مستقاة من رسول الله (ص) وهي: الارث، والخلافة «الولاية»، والنسب. فالارث كان متمثلاً بانتقال ملكية رسول الله (ص) الى ابنته الوحيدة (ع) من خديجة بنت خويلد. والخلافة او الولاية كانت متمثلة بانتقال المنصب الالهي الى علي (ع) بالامامة، لانه لا نبي بعد رسول الله (ص). والنسب كان متمثلاً بانتقال العوامل الوراثية النبوية من رسول الله (ص) الى ابنته الطاهرة فاطمة (ع)، ومن فاطمة وعلي (ع) الى ذريتهما الطيبة الطاهرة. فكانت الذرية الطاهرة تحمل صفات جدها (ص) وخصاله الحميدة في الكرم والشجاعة والاخلاص والتضحية والتفاني والعلم والتقوى والتعب.

ولا شك ان انتقال الملكية، والمنصب الالهي، والعوامل الوراثية بشكلٍ متوازٍ في اسرة واحدة، يشكل ظاهرة فريدة في الاسلام. فلم توفق اسرة رسالية الى مثل ذلك التوفيق العظيم. فلا بد ان تكون حياة علي (ع) الزوجية ظاهرة فريدة لم تتكرر في التأريخ الديني على الارض.

والخصوصية في ذلك تكمن في ان التزاوج بين فردين من اشراف القوم يعني استمرار الفكرة او الرسالة التي يحملانها الى الجيل الجديد عبر ذريتهما. ولذلك فان اقترانهما يعني انتصاراً للفكرة التي يحملانها. بمعنى ان عملية التزاوج تلك تعكس مبدأ الحفاظ على الرسالة الدينية أكثر مما تعكس مجرد اشباع العواطف والرغبات المشروعة.

وتوكفاً على عكازة تلك الفكرة نفهم ان عملية الزواج العرفية تقوم على اساس انها علاقة بين رجل وامرأة اعترف بها المجتمع واقرها. بينما نفهم ان لزواج علي وفاطمة (عليهما السلام) _ اضافةً الى الاقرار الاجتماعي به _ إقراراً آخر، وهو اقرار السماء وايمان الملائكة بملاكه ومصلحته. ويؤيده قول رسول الله (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي».

ومعناه ان شرعية زواج علي (ع) من فاطمة (ع) لم تكن حسبما يقتضيه العرف الاجتماعي والديني على الارض فحسب، بل كانت لشرعية ذلك الزواج قدسية معينة في السماء، ذلك لان للزوجين خصائص روحية وعقلية وطاقت كامنة لا يعدلها شيء. فالمرأة التي لها منزلة دينية كفاطمة بنت رسول الله (ص) لابد ان تقترب من رجل له منزلة دينية كعلي بن ابي طالب (ع)، حتى يكون الزواج متكافئاً في عالمي الشهادة والغيب. والتكافؤ كان مخصوصاً في العصمة في فهم احكام الدين وادراك معانيه العظيمة. ومع ان للنسب دوراً وشرفاً ايضاً، الا انه ليس الاصل. لان جعفر بن ابي طالب كان ينبغي ان يكون كفوفاً لفاطمة (ع)، لو اخذنا بنظرية النسب. ولكنه لم يكن كفوفاً لانه لم يكن يمتلك تلك العصمة في ادراك الدين كما كان يمتلكها علي (ع).

ولا شك ان الموافقة المتبادلة بينهما على الاقتران دون شروط مادية دنيوية، تكشف عن ان الزوجين كانا يرتضيان الحياة الجديدة بما فيها من قدسية وتعبد لله سبحانه، وبما فيها من قدوة طيبة ومنار هداية للمجتمع الاسلامي. فالاقتران بالاسرة النبوية _ العلوية كان مثار فخر للمسلمين على طول الدهر لانها كانت تمثل الاسرة الامثل والاتقى والاطول بقاءً في تاريخ القيم والمثل السماوية.

واذا كان الزواج الشرعي _ بشكله العام المطلق _ يعطي المرأة زوجاً يعترف به المجتمع، فان زواج فاطمة (ع) من علي (ع) بالخصوص اعطاها كفوفاً في فهم الدين وادراك الشريعة السماوية. ولم يسبق اننا قرأنا في التأريخ الديني ان السماء قد صممت زوجاً بين فردين طاهرين

كما تذكره الروايات بالنسبة لعلي وفاطمة (عليهما السلام)، كما اشار (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي».

واذا كان الزواج يشكل عند الملوك انشاء عائلة سياسية شابة جديدة، وعند التجار يشكل انشاء عائلة تجارية جديدة، وعند العمال يشكل انشاء عائلة عمالية جديدة، فان عائلة فاطمة وعلي (عليهما السلام) اصبحت تشكل عائلة دينية لها قدسية فريدة. فقد بسط الوحي النازل على ابيها (ص) جناحيه السماويتين في بيتهما، وكان عقب النبوة وعطر العصمة واريح الامامة يشع من ارجاء ذلك البيت الطاهر. وبكلمة، فان وظيفة اهل بيت النبوة (ع) _ الاسرة الاولى في المجتمع الاسلامي _ كانت تتلخص بحمل المسؤولية الاخلاقية والشرعية من جل الحفاظ على الرسالة الالهية حية الى يوم القيامة.

ان اختيار الرجل زوجته، او المرأة زوجها، له علاقة مباشرة بالدور المتوقع الذي سوف تقوم به الزوجة او الذي سيقوم به الزوج في المستقبل. فالاختيار الزوجي هنا مرتبط بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهما. فالمَلِكُ مثلاً يختار زوجته لتصبح السيدة الاولى في المجتمع، ورئيس الدولة يختار قرينته لتشاركه همومه في الادارة الاجتماعية. ومن هذا المنطلق نتوقع من تزواج الاشراف ثمرات على صعيد الدين والفكر والاجتماع والقدوة والمثل العليا. وكلما كانت درجة الشرف عالية، كانت المسؤولية المتوقعة تحملها من قبل الزوجين اثقل.

فكان تكافؤ الاسرة العلوية يُصبُّ في هذا المصبِّ. فمعدن علي (ع) الرسالي يتكافأ مع اخلاقية فاطمة (ع) ومعدنها الطيب الطاهر المتصل بسلالة النبوة في التأريخ. والاصل في فكرة الزواج تلك انها كانت مبينة على تكافؤ عصمة علي (ع) مع عصمة فاطمة (ع). ومن هنا كان قول رسول الله (ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفو». ولذلك، فانه (ص) لم يزوج فاطمة (ع) لابي بكر او عمر بن الخطاب، مع انهما كانا يترددان عليه (ص) ويسألانه عن فاطمة (ع). فكان يجيبهم ان امرها عند الله سبحانه. وهو جواب نبوي في غاية الادب يكشف عن انهما ليسا كفوؤاً لسيدة نساء العالمين (ع) في العصمة في الدين، والطهارة في النسب.

لقد كان من ثمار بناء الاسرة العلوية هو انجاب ثلثة طيبة من ائمة الهدى (ع) حفظت رسالة الدين حية نابضة الى يوم القيامة. لقد كان الدور المتوقع لاسرة علي (ع) هو حفظ الدين من تلاعب الظالمين والطغاة وطلاب الدنيا، وصيانتته من كل تحريف.

٢- وظائف الزواج العلوي:

حمل زواج علي وفاطمة (عليهما السلام) وظائف مهمة على صعيدي الدين والحياة، يمكن اجمالها بالنقاط التالية:

الاولى: الحفاظ على ذرية المصطفى (ص) حية نابضة على طول التاريخ. فكانت فاطمة الزهراء (ع) البنت الوحيدة لرسول الله (ص). وعن طريقها حُفظ نسل النبي (ص).

الثانية: تثبيت هوية الانتماء لاهل بيت النبوة (ع)، وتثبيت المنزلة الدينية والجمع بين النبوة والامامة في بيت واحد وهو بيت رسول الله (ص). فقد كانت حجرة فاطمة (ع) في مسجد رسول الله (ص) تأخذ منه (ص) العلم والحكمة والقرآن، وتستلهم من اخلاقه الفاضلة أكمل الفضائل والخصال الدينية، وتشاركه كل يوم في العبادة والنقاء والطهارة الروحية. لقد سرت في شرايين الاسرة العلوية دماء رسول الله (ص) ودماء الامامة. فالابناء أخذوا من آبائهم علوم الدين وأخلاقية الرسالة، والبنات تعلمن الصفاء الروحي والثقافة الدينية من امهاتهن. وكل سدّد الآخر في تقواه وزهده وفصاحته وشجاعته.

الثالثة: بقيت أسرة آل البيت (ع) القدوة والمثل الاعلى في المجتمع الاسلامي. فهي العائلة المتكافئة في القيم الدينية، والعصمة، والممارسات التعبدية، والاخلاق، والصدق، والجهاد، وتحمل المشقة، والقناعة، وكل ما يحمله العلوّ الديني والشرف الاجتماعي من معانٍ سامية وأهداف عظيمة.

ولاشك ان الاختلاف السلوكي للمعصومين مثل علي (ع) وفاطمة (ع) ينبع من اختلافهما في الفلسفة والتركيبة الجسدية. ففاطمة (ع) كانت تمر بفترات الحمل والولادة والرضاعة وكانت تقوم بانجاز الاعمال المنزلية وتربية الصغار، بينما كان علي (ع) يحرق الارض ويسقي الزرع وينقل الماء من اجل لقمة العيش. وكانت فاطمة (ع) تقوم بالمواعظ البليغة التي وصلتنا منها

شذرات قليلة. بينما كان علي (ع) يعلم القرآن واحكام الشريعة ويجاهد في سبيل الله ويقاتل المشركين . وهذا الاختلاف في وظيفتهما الفسلجية لا يعكس اختلافاً في درجة عصمتها وادراكهما لاحكام الدين واهداف الشريعة. ولو كان هناك اختلاف لاختل ميزان التكافؤ الذي تحدث عنه رسول الله (ص) بينهما قبل الزواج.

والوظيفة الفسلجية للذكورة تقتضي القوة الجسدية، والتحرك السريع من مكان لآخر، والغياب عن الاسرة لفترة قد تقصر او قد تطول في الحروب والمعارك مع الشرك . بينما تقتضي الوظيفة الفسلجية للانوثة طاقة تحمل وصبر، وطاقة للمكث الطويل مع الاسرة من اجل الاهتمام بشؤون القاصرين وتربيتهم وتعليمهم، وقوة جسدية اقل من قوة الرجل. ولذلك كانت وظيفة القوامه على الرجل لا على المرأة، كما اشار تعالى: **(الرجال قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ...)**.

والوظيفتان، على الصعيد الاجتماعي، تكمل احدهما الأخرى. فالمجتمع يتوقع من المرأة أداء دورها، كما يتوقع من الرجل ذلك. ولكن المجتمع العربي البدوي كان مجتمعاً عسكرياً محارباً يعتمد على القوة العضلية للرجل، ويعتمد على حجم قدرته على الاداء في ساحات المعارك. وكان علي (ع) القمّة في ذلك. ومع ذلك كان الدور الديني الرسالي لفاطمة الزهراء (ع) دوراً عظيماً لم تقلله قاعدة تحمل الرجل مسؤولية القيمومة على المرأة.

بمعنى آخر، ان فاطمة الزهراء (ع) كانت تطيع زوجها علي (ع) وتنتظر منه القيام بمسؤوليته المالية التي حددتها قاعدة القيمومة الشرعية، ولكن تلك الطاعة وتلك القاعدة لم تقلل اصلاً من العظمة الرسالية لفاطمة الزهراء (ع). وهنا يكمن الدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من سلوكها الرسالي (ع). فطاعة الزوج والامتثال لقاعدة القيمومة لا يتقاطع مع عظمة المرأة دينياً ومع شرفها وعلمها وعصمتها في فهم احكام الشريعة.

وقد حارب الاسلام التطرف البدوي الذي كان يهين المرأة ويضعها في الدرجة الثانية من السلم الاجتماعي. وقدم لنا مثلاً رائعاً للمرأة المؤمنة التي وهبت ادراكاً دينياً كاملاً، وهو مثال فاطمة الزهراء (ع). ولم ينقل لنا التاريخ الاسلامي حتى رواية كاذبة عن صراع الانوثة والذكورة في الاسرة العلوية. فقد كانت فاطمة (ع) مطيعة لزوجها، وكان علياً (ع) يكنّ لها الاحترام اللائق بها.

وعندما تكلمت (ع) حول ارث ابيها (ص) بعد وفاته (ص)، في المسجد وبحضور ابو بكر وعمر، لم يمنعها (ع) من ذلك. ولم يعارضها عندما رفضت مقابلة الخليفة الاول بعد وفاة ابيها (ص).

٣- التركيبة العلوية:

لا شك ان للزواج اهدافاً اجتماعية ودينية وفلسفية. فالبناء بين الرجل والمرأة لابد ان يتم ضمن الضوابط الشرعية، والذرية تحتاج الى فترة طويلة نسبياً من العناية الشخصية والاهتمام من قبل الابوين، وتحتاج ايضاً الى عملية تهيئة دينية للدخول في المعترك الاجتماعي لاحقاً.

ان العصمة التي جمعت علياً وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين (عليهم السلام جميعاً) في اسرة واحدة، تعدّ رابطة دينية لم يسبق لها مثيل في الاديان التوحيدية. فالمجتمع الانساني يعيش فترة أطول من حياة العائلة الواحدة. ولكن اسرة امير المؤمنين (ع) عاشت وستعيش بعمر المجتمع البشري على الارض. ولذلك فاننا نقول بأن اهل بيت النبوة (ع) أكبر من التاريخ وأكبر من الحياة التي يحيونها في اطار الزمن وقيده المحدود.

فاننا بعد اربعة عشر قرناً نكتب عن حياة أمير المؤمنين (ع) وأسرته كما لو كانت تعيش بيننا اليوم. وسوف يفعل احفادنا كما فعلنا ان شاء الله تعالى. وقد فعل اجدادنا ذلك في الماضي ايضاً، جزاهم الله خيراً. وبكلمة، فان تركيبة الاسرة العلوية لم تنشأ لتعيش مثلاً لزمانها، بل انما انشأت لتعيش مثلاً للاجيال المتلاحقة الى يوم القيامة.

وقد كانت حياة الاسرة شاقة فيما يتعلق لسد الحاجات الجسدية من طعام وكساء، لان الاسرة العلوية كانت مصممة لكي تكون مثلاً تاريخياً للاجيال، وهو (ع) القائل: «ان الله تعالى فرض على ائمة العدل ان يُقدِّروا انفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيح بالفقير فقْرُهُ!».

وكانت عائلة سامية من ناحية العلاقات الانسانية. فقد حكمت الحياة العائلية للاسرة العلوية ضوابط اخلاقية دينية، منها: علاقة علي (ع) بفاطمة (ع)، وهو القائل (ع): «الغريب من لم يكن له حبيب». وعلاقة فاطمة (ع) بالحسين (ع) واختيهما زينب (ع) وام كلثوم، وهو القائل (ع): «البشاشة حباله المودة». وعلاقة الحسين (ع) واختيهما فيما بينهم، وهو القائل

(ع): « التوؤدُ نصفُ العقلِ ». وعلاقة النبي (ص) والامام (ع) بهم جميعاً، وهو القائل (ع):
«مودة الاباء قرابة بين الابناء، والقرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة».

واذا اضفنا الى تلك العلاقات الحميمة: الادراك الكامل لمعاني الدين واحكامه وملاكاته،
لتبين لنا ان آل البيت (ع) اختبروا العلاقات الانسانية من حيث تعاملهم مع الاخ او الاخت او
الام او الاب خصوصاً بالنسبة للحسنين (عليهما السلام). نعم عاش رسول الله (ص) يتيماً وليس
له اخ او اخت، ولكنه كان ملهماً يتصرف بما يمليه عليه الوحي. اما ائمة الهدى (ع) فكان
علمهم مستلهماً من تعاليم رسول الله (ص). ولقد تبلور فضلهم من خلال قدرتهم على استيعاب
ذلك العلم والعمل به.

وتلك العلاقات داخل الاسرة كانت تعبّر عن عقب النبوة واخلاقية الامامة والعصمة، وعن
دور الدين واحكامه في بناء مستوى راقٍ من الاخلاق والفضيلة والتقوى والتعبد والاتصال
بالخالق عزّ وجل عبر الصلاة والصيام والدعاء وترك الملذات الدنيوية. لقد كانت العلاقة الاسرية
في ذلك البيت المبارك نظاماً للاحكام الشرعية، ولم يكن تجمع اولئك الطاهرين مجرد تجمع
عشوائي لافراد جمعتهم العلاقة الجسدية ورابطة الدم. بل ان اجتماعهم كان اجتماع العلم
والحكمة والقرآن. فكان اهل الكساء، وهو تعبير عن الكساء الذي جمعهم، تعبيراً رمزياً من
الاختبار الالهي لتلك النخبة الطيبة من الاطهار الذين لا يعرفون غير عبادة الله والجهد في سبيله
والتضحية من اجل نصرته دينه. وكان المعادلة تقول ان كلمة: «اهل البيت (ع)»، تعادل: «
العبادة، والجهد، والتضحية».

وكانت فاطمة (ع) لا تلعب دور الام الحنون التي تظهر حنانها لاطفالها فحسب، بل كانت
تغذيهم احكام الدين والاخلاق وضوابط العصمة. وكان علي (ع) يربي الحسنين (ع) على الامامة
ودور الدين في المعترك الاجتماعي. بينما كان رسول الله (ص) يمدّ الاسرة الشريفة بمختلف
وسائل الامداد الروحي السماوي وينقلهم الى عالم الاخلاق المثلى في كل لحظة من لحظات
وجوده.

٤ - الاسرة الشريفة: قمة القيم الاخلاقية

وبكلمة، فقد كانت تلك الاسرة الشريفة محطة لانظار علماء الكلام، والقانون، والشريعة، والاخلاق، والفلسفة. لانه لم تشهد الانسانية عائلة تجمعت فيها كل صفات الشرف والكمال والنبوة والامامة كأسرة أصحاب الكساء وهم النبي (ص) وعلي وفاطمة والحسنان (عليهما السلام). خصوصاً وان تلك الاسرة المتكاملة كانت تسكن على ارض مسجد واحد وهو المسجد النبوي.

ولا شك ان التضامن الروحي الذي كان يشد افراد الاسرة المعصومة لم يكن تضامناً عضوياً بحتاً يدور حول «عقد الزواج» المبرم بين علي وفاطمة (عليهما السلام) تحت نظر والدها رسول الله (ص)، بل كان تضامناً في اصل الدين وتضافراً بين النبوة والامامة من اجل الاسلام. أي ان الدعم السماوي لزواج علي (ع) وفاطمة (ع) والذي اعلنه رسول الله (ص) في غير مرة، كان دعماً من اجل منصب الامامة. فقد كان «عقد الزواج» الذي باركته السماء كان من اجل دعم تلك المنزلة الرفيعة التي نالها علي (ع). وحتى الواجبات البيئية، والحقوق، والالزامات الشرعية والاخلاقية بين اعضاء الاسرة كانت تمثل القيم الدينية بأعلى صورها.

ففاطمة الزهراء (ع) كانت تقضي الليل في العبادة والدعاء والاستغفار، وكان علي (ع) يقضي الليل في الصلاة والدعاء والتهجد أيضاً. وبينما كانت (ع) تعمل جاهدة من اجل ترتيب القضايا المنزلية، كان (ع) يعمل ويكدح خارج البيت من اجل كسب لقمة العيش. وكانت فاطمة (ع) تقبل بالقليل من الطعام والشراب، وزوجها (ع) زاهد لا يتعدى طعامه الخبز اليابس، وأولادها يطون الليل جوعاً وهم ساجدون لله سبحانه وينظرون الى طعامهم يسلم الى المسكين والفقير والاسير وهم مطمئنون راضون بقدر الله، وابوها (ص) خاتم الانبياء وأفضل البشر على وجه الارض يأكل من خبز ابنته (ع) ولم يدخل في فمه طعام منذ ثلاثة ايام. فأي قدوة وأي مثل أعلى تقدمه لنا عائلة رسول الله (ص)؟

لقد كان بالامكان تبديل تلك الحياة العائلية الى حياة الطبقة الوسطى على الاقل، الا ان رسول الله (ص) وعلياً (ع) وفاطمة (ع) لا يقبلون بذلك. لان اهل بيت النبوة (ع) ارادوا ان يكونوا مثلاً ابدياً للنزاهة والطهارة والعفة والزهد والتقوى. وقد اكرمهم الله تعالى لانهم كانوا اتقى الناس وأفضلهم وأقربهم الى السماء.

ومن نافلة القوم ان نذكر ان البيت النبوي كان مثلاً للسلام الديني والوثام الاجتماعي، فلم يكن هناك صراع على ملك زائل او صراع بين الانوثة والذكورة او صراع على ملذات الدنيا كالذي رأيناه بين هند وابي سفيان، حيث زعمت بأنها لم تسرق في عمرها شيئاً الا ما كانت تأخذ من مال زوجها ابي سفيان. او الذي رأيناه بين عمر بن الخطاب قبل اسلامه وبين اخته، حيث لطم وجهها لطمه فشجّه وأدماه. ونحوها كثير من اساليب الصراع العضلي والفكري بين الرجال والنساء.

وليس غريباً أن نستوعب الفارق اذا فهمنا بان الاسرة العلوية كانت تمثل قيم الدين بانصع صورها واجلى معانيها في التعاون والحب والتعبد والزهد والتقوى والجهاد في سبيل الله. بمعنى ان تلك الاسرة عكست السلوك المثالي الذي ينبغي ان يُحتذى من قبل المؤمنين بالاسلام وبرسوله (ص) وبولاية امير المؤمنين (ع).

وما كان يميز تلك الاسرة العلوية انها كانت تعيش اجواء الشراء الروحي والارتباط بالله تعالى في الوقت الذي كانت تعيش فيه الغربة الاجتماعية. فعندما كان آل الرسول (ص) يحاربون نظرياً الظواهر الجاهلية العالقة في المجتمع الجديد، كانوا في الوقت ذاته يخوضون جهاداً عملياً مبرراً ضد مجتمع تربي على الاعراف الجاهلية القبليّة. ولذلك كانت مهمتهم الاجتماعية والدينية صعبة وشاقة.

ولكن الذي خفف من مشقة الصراع على الساحة الاجتماعية هو ان الارضية الدينية للانسجام النفسي والاجتماعي في الاسرة العلوية كانت ارضية صالحة، تحقق اهدافها في بناء مجتمع اسلامي مصغّر يذوب تماماً في المثاليات الدينية.

كفاح الاسرة العلوية

يمثل الطعام وطريقة تحصيله وتناوله اهم اساليب الكفاح في الحياة الدنيوية. فالاسرة الزاهدة قد لا تكثرث لالوان الطعام عدا ما يسد رمقها ويمدد في مسيرتها اللاحبة نحو العبادة وذكر الله تعالى. وكان جوع العترة الطاهرة جسدياً يقابله امتلاءً روحي، وطمأنينة بقضاء الله سبحانه، ورضى بحسن التوجه اليه.

١ - معنى الجوع في العائلة:

ان النقص في المواد الغذائية للعائلة يؤدي الى حرمان افرادها من حقهم الطبيعي في التغذية وتناول الطعام. والجوع الطبيعي قد يؤدي الى حالات مرضية تنتهي الى الموت. ولكن جوع العترة الطاهرة (عليهم السلام) كان من نوع آخر. ولنطلق عليه بـ « الجوع التعبدي ». فقد كان جوعاً بالاختيار، او حرماناً من اكل الطعام بالارادة لانشغالهم بقضية اهم وهي العبادة او الجهاد في سبيل الله او الشوق للحياة الآخرة. وتلك الحالة الجسدية النفسية ينبغي ان تُفهم على اساس انها لوّن من الوان التقوى، وحب التقرب الى الله عزّ وجلّ عبر الزهد من ملذات الدنيا ومطايبيها.

وعلى أي حال، فان الجوع يُضعف الانسان ويقعده عن القيام بمهامه، فكيف كانت العترة الطاهرة (عليها السلام) تشدّ الاحجار على بطنها في الوقت الذي كان تجاهد فيه الظواهر الوثنية والجاهلية؟ والمشهور عن رسول الله (ص) وعلي (ع) ان الجوع لم يشهما عن الدخول في ساحات الوغى وقتال المشركين دون ان يدخل في جوفهما قطعة خبز يابس او حفنة تمر زهيدة لايام.

لا شك ان هذا الامر من الامور الخارقة للعادة التي لا نجد لها تفسيراً غير تعلق العترة بالله سبحانه وتعالى. فهو تحمل ما لا يطاق بالنسبة الى عامة الناس. فلا يستطيع الانسان العادي _ مهما اوتي من قوة الصبر _ ان يصبر على طعام، اختياراً، عدة ايام دون ان يتناول شيئاً. ثم يفتحم جبهات القتال ليقاتل المشركين بضرواة وشجاعة لم يسبق لها مثيل.

ومن زاوية أخرى، نقول ان الجوع عند الفرد العادي يؤدي الى الخمول والضعف والكسل. بينما كان جوع اهل البيت (ع) _ الذي كان اثراً من آثار الزهد _ باعثاً للعبادة والعمل والنشاط والجهاد في سبيل الله وحمل السلاح ومقاتلة اعداء الدين.

ولم يكن الزهد في طعام الاسرة العلوية مؤقتاً أو منحصرأً بفترة معينة، بل استمر في جميع مراحل حياته (ع) وبضمنها فترة الخلافة العvisية. فكان زهده (ع) مثار اعجاب الدنيا. فكيف يستطيع امام الحق (ع) تحقيق العدالة ما لم يسحق ذاته بمرارة الجوع والحرمان. وهو الذي قال

لاحقاً: «... او بيتَ مبطاناً وحولى بطونٌ غرثى (جائعة) واكبادٌ حرّى (عطشى)، او اكونَ كما قالَ القائلُ:

وحسبكَ داءٌ أن تبيتَ بِبِطْنَةٍ وحوْلَكَ اكبادٌ تحنُّ الى القِدِّ

أقنعُ من نفسي بأن يقال: امير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو اكون أسوةً لهم في جشوبة العيش (أي خشونته)...».

بينما لم نلمس ذلك في بقية حكام المسلمين وامرائهم الذين كانوا يشبعون انفسهم وعوائلهم ومتعلقينهم وذويهم بالطعام على اقل التقادير، خصوصاً اولئك الذين نازعوا علياً (ع) ولايته وسلبوها منه ظلماً. ولكن امام الحق (ع) ابى الا ان يساوي نفسه مع افقر فقراء المجتمع الاسلامي. فكان يصنع لهم الطعام، ويمنح لهم العطاء، ويبقى وعائلته يشدون الاحجار على بطونهم.

٢- الطعام وأساليب استهلاكه في العائلة:

ان طريقة استهلاك الطعام ليست طريقة فلسجية او بيولوجية، بل هي سلوك ثقافي ديني بالدرجة الاولى، حيث يلتزم الفرد بممارسته على ضوء احكام الرسالة التي يؤمن بها. فالافراد في مجتمع غير متدين يأكلون كل شيء قابل للاكل، وفي كل مكان، ومع أي فرد، وفي كل موقف. ولكن الدين حدد طبيعة الطعام في الحلية والاستحباب، والمقدار الذي يسمح بتناوله عن طريق الاعتدال، وما يقال قبل تناول الطعام وما يقال بعده من بسملة ودعاء وتمجيد لرازق الطعام عزّ وجلّ.

ومن هنا اصبح الطعام في عوائل الانبياء والاصياء (ع) _ نوعيةً وحجماً _ يمثل لوناً من ألوان الزهد والتقوى وقوة الاتصال بالله عزّ وجلّ. ذلك ان السيطرة _ بهذا الشكل الصارخ _ على شهوة البطن تفتح بوابة القلب على الخالق تعالى، فُتسْتَمِر بالعبادة وطاعة الله سبحانه، والعائلة التي تأكل الخبز وتأتدم بالملح والحل، وهي ما عليه من منزلة سماوية واجتماعية رفيعة، لا بد ان تمثل رمزاً دينياً ومثلاً اعلى للمشاعر الانسانية حيث كانت تكتفي غالباً بالغذاء الروحي دون الغذاء الجسدي.

ان علياً (ع) عندما كان يجوع ليشبع الآخرين، كان ملاك حكمه ان الطعام ينبغي ان يشبع الجميع فلا يبقى فقير يتضور جوعاً وبجنبه غني يئنُّ من التخمة. فالفقر هنا، اذا وُجد، فانه يعكس الفشل الاخلاقي الذي يتحمل مسؤوليته النظام الاجتماعي والسياسي الحاكم على الناس.

الا ان الاسلام _ الذي كان جوهر نظام دولة امير المؤمنين (ع) _ لا يرضى ان يبيت القائد مبطناً وحوله بطون غرثي. فكان دستور حكومته (ع) يصرّح بان يشبع الناس اولاً عبر توزيع الثروة الاجتماعية بالعدالة والانصاف. وكان شدّ الحجر على البطن من الجوع تمريناً قاسياً في عائلة امير المؤمنين (ع) من البداية. ونفس المنطوق ينطبق على الحسين (ع). ذلك ان تربية الحسين (عليهما السلام) على الاكتفاء الروحي دون النهم الجسدي هو تهيئتهما لمنصب الامامة الروحية للمسلمين لاحقاً.

ولا شك ان طريقة فاطمة (ع) في توزيع طبق خبز الشعير لزوجها واولادها يكشف عن العلاقة المثالية بين الزوجة التقية العابدة تجاه اعضاء أسرتها. فاجتماع الاسرة الطاهرة على طعام بتلك البساطة يعبر ايضاً عن احترامهم للنعمة التي انعمها الله سبحانه عليهم واشتراكهم جميعاً في تناول ذلك الطعام البسيط. فكانت المائدة تهيأ ويوضع عليها الخبز والملح، وكان (ع) يفتح باسم الله ويختتم باسم الله ويحمد الله ويشكره على النعمة. ويمثل قوله (ص): «اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرّق بيننا وبينه، فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا ادينا فرائض ربنا».

ولا يوجد في المجتمعات، كما يقول علماء الانثروبولوجيا والاجتماع، انسانٌ يعطي كل شيء يملكه الى الآخرين دون ان يُبقي لديه شيء. لان غريزة الانسان تدعوه لاشباع نفسه اولاً، او لابقاء شيء من الطعام على الاقل يسدّ به رمقه. ولكن علياً (ع) اعطى كل طعامه وطعام عائلته ثلاثة ايام متوالية للمسكين والفقير والاسير، ومنح خاتمه وهو راعع للفقير الذي جاء يسأل في مسجد رسول الله (ص) وهو لا يملك غيره، وأشبع الفقراء ايام خلافته ونام جائعاً يشدّ الحجر على بطنه. فأى مثالية اخلاقية تلك التي مارسها امير المؤمنين (ع)؟

ان القوة الدينية التي تدفع الانسان وهب طعامٍ لا يملك غيره للآخرين دون ابقاء شيء له او لعائلته هي قوة عظيمة دون شك. والاقوى منها ان الواهب كانت لديه القدرة على اقتناء شتى الوان الطعام، ولكن تعلقه الروحي بالخالق عزّ وجلّ كان اقوى من غريزته في الشبع والامتلاء.

فكان (ع) يفضل الجوع اختياراً من اجل ان يساوي نفسه بأضعف الرعية، وكان يشدّ الحجر من اجل ان يبقى الرابط بينه وبين ربه متصلاً قوياً لا تزغزه الرغبات ؛ وهو القائل (ع): «ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ، الى مُصَفَى هذا العسلِ، ولُبَابِ هذا القمحِ، ونسائجِ هذا القُرْ (الحريِرِ). ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني جسعي (حرصِي) الى تخيّر الاطعمة، ولعل بالحجاز، أو باليمامة من لا طمع له في القرصِ (الرغيف) ولا عهد له بالشبع...».

ومن هنا كانت طريقته في تناول الطعام والتعفف عن الامتلاء والزهد فيه، تحمل رمزاً دينياً يفصح عن ضرورة اشباع الناس جميعاً في المجتمع الديني، وعن احترام النعمة التي انعمها الله تعالى عليهم، وعن حسن التخفف من ثقل اعباء الحاجات الجسدية، والتوجه بالمقابل نحو اشباع الحاجات الوحية.

٣- مشقة فاطمة الزهراء (ع):

تعني المشقة المنزلية: حالة من حالات تحمل ما لا يطاق، او الاقتراب من العجز عن اداء التكليف بشكله المرضي الكامل، تختبره المرأة في فترة من فترات حياتها. والمشقة تتعلق بالعمل الذي ينبغي انجازه اكثر مما تتعلق بحالة المرأة المكلفة بانجاز التكليف. فقد يتزاحم عمالان لابد من انجازهما سوياً، كأداء حق الله سبحانه وحق الزوج مثلاً. فهنا لا خيار للمرأة الا بتقديم احدهما على الاخر. فيكون تقديم حق الزوج على حق الله في العبادة إخلالاً لحقوق العبودية. فالمشقة هنا اكثر ارتباطاً بطبيعة العمل الذي ينبغي انجازه وكماله، مما هي مرتبطة بحالة المكلف. فقد تتحمل المرأة انجاز العمل مع تعبها، ولكنها قد لا تتحمل انجاز ذلك العمل ناقصاً. فتكون المشقة مرتبطة بنوعية التكليف وعدم القدرة على انجازه كاملاً.

وبكلمة، فان مشقة فاطمة (ع) عندما طلبت من ابيها (ص) خادماً، كانت متعلقة بالعمل المنزلي الذي تخاف عدم انجازه، مع ما هي عليه من العبادة والتسك والذكر. فقد كانت تخشى ان المشقة التي كانت تمر بها في الجمع بين التعب والاهتمام بشؤون الاسرة العلوية وقضايا الدعوة للاسلام قد تجعلها عاجزة عن اداء وظيفتها البيئية، وبذلك فقد يחדش ذلك حقوق زوجها علي (ع).

والمشقة تعني ايضاً اضطراباً في توقيت الاعمال البيتية وترتيبها، كما لاحظنا في رواية انس بن مالك عن بطاء بلال عن الاذان لصلاة الصبح . فقد كانت (ع) تشعر بالتراحم بين ان تطحن شعيراً كي تخبز لافطار الصباح، وبين ان تسقي صبيها حليباً. وهنا ازدحم المطلبان، فجاء بلال وطحن الشعير. ولا شك ان ذلك التضارب في التوقيت كان قد خلق وضعاً نفسياً وشعوراً بالأسف والاعتذار على عدم انجاز الاعمال في اوقاتها ترتيباً. ولذلك فقد حيا رسول الله (ص) بلالاً وقال له: رحمتها رحمتك الله.

وبالاجمال، فان مشقة فاطمة بنت رسول الله (ص) كانت حالة سلوكية، فضلاً عن كونها حالة فسلجية، بمعنى ان مشقتها كانت من آثار كمالها وعفتها وزهدا وحبا للمحافظة على حقوق زوجها (ع) وعائلتها كاملة دون افراط او تفريط. والجمع بين ذلك وبين العبادة المشهودة لاهل البيت (ع) أمرٌ صعب. ولذلك فقد كان أدائها الشرعي الطاهر في تأدية وظيفتها الشرعية والمنزلية نابعاً من حالة نفسية قوية هائلة في تحمل المصاعب والشدائد، والرضا بقدر الله سبحانه وتعالى، ومحاولة أداء الواجب كاملاً في احسن الاحوال.

زي فاطمة الزهراء (ع)

ان زي المرأة المقبول عقلاً وشرعاً هو الزي الذي يكسبها احتراماً اجتماعياً، ويحفظ لها جمالها وجلالها وعفتها. واللباس الديني للمرأة هو لباس ثابت التصميم لتغطية جسد المرأة عدا الوجه والكفين. وكل ما يضاف الى ذلك التصميم الاساسي، يتعلّق بدرجة رئيسية بالشعور والذوقية. وبدرجة أخصّ بأن كل قطعة تضاف الى ذلك الزي أو تحذف منه ترتبط بالذوق العام والثقافة الاجتماعية.

١- أسلوب الحجاب الشرعي:

ولا شك ان لحجاب المرأة جذوراً دينيةً شرعيةً راسخةً، لان زي المرأة قضية اجتماعية قبل ان يكون قضية شخصية محضة. ولذلك فعندما ننظر الى زي فاطمة الزهراء (ع) فاننا نفعل ذلك من اجل فهم صورة الزي الديني للمرأة المسلمة . فهي التي تمسّكت (ع) بأصل الحجاب الشرعي في قوله تعالى: **(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ**

اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ...)، بالرغم من اختلاف الزي المقبول شرعاً عن الزي العربي المقبول عرفاً. وسيبقى هذا الزي الشرعي قائماً الى يوم القيامة بالرغم من التغيرات الاجتماعية التي طرأت وسوف تطرأ على المجتمعات الانسانية عبر السنين. بمعنى ان المجتمع الاسلامي صُمم من اجل ان يكتف نفسه مع زي فاطمة الزهراء (ع) الذي يمثل الحجاب الشرعي الصحيح.

ونستلهم من الآية الشريفة التي ذكرناها آنفاً ان غضّ البصر يشمل الرجال والنساء بقوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) الآية، وإن حفظ الفروج يشمل الرجال والنساء أيضاً بقوله تعالى: (... وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...). بينما انحصرت الاحكام اللاحقة بالنساء وهي: عدم ابداء الزينة بشروط عبر قوله: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ...)، والحجاب بقوله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ). وبذلك يكون الحجاب مقروناً بغضّ البصر، وحفظ الفرج، وعدم ابداء الزينة الا بشروط . فقضية الحجاب اذن ليست منفصلة عن النية السليمة والسلوك الاخلاقي من قبل الرجال والنساء في المجتمع.

اذن، ان اهم مسألة في قضية الحجاب الشرعي هو ان المرأة ينبغي ان تتقبل نفسياً ذلك الزي. فلبس الزي الشرعي يعني تعبيراً عن مشاعر الطاعة والتسليم للشريعة، ويعني ايضاً تعبيراً عن مشاعر الحب للنظام الشرعي الذي اوجب الحجاب حفظاً لسلامة المرأة وعفتها.

ولا شك ان لبس الحجاب الشرعي يفرض على المرأة سلوكاً شرعياً متناسباً مع التكليف الدينية في العبادات والمعاملات . فهو بالاضافة الى كونه رمزاً تعبيرياً عن العفة والنظافة الاخلاقية والاجتماعية، فانه يحفظ المرأة من صراع الرغبات غير المشروعة التي لا يقرها الدين. ذلك ان الدين يفتح الباب للزوجين للتمتع بكافة صوره المشروعة ومنها: الزي الزوجي _ الذي يضفي على جمال النفس جمالاً اضافياً _ فانه يحق لهما ارتدائه من اجل التكامل واشباع ما تمليه رغبتها. وعندما تنزي المرأة بالزي الذي يجعلها امام زوجها ، فانه يخدمها _ في الواقع _ في اكتشاف ذاتها ومواطن جمالها ؛ أي ان ما يُعدُّ جميلاً ومثيراً بين الزوج والزوجة ينبغي ان لا يخرج

من اسوار البيت الزوجي. لان الشارع العام ملك المجتمع، وفيه يتعين على المرأة لبس الحجاب الشرعي.

فعندما نتحدث عن المرأة في المجتمع، فاننا نتحدث عن الحجاب الشرعي، وعندما نتحدث عن المرأة في الاسرة فاننا نتحدث عن ابقاء المشاعر الطيبة بين الزوجة وزوجها ضمن الدائرة الاسرية الضيقة. فلا يمكن شرعاً للمرأة التعبير عن عواطفها للعالم الخارجي، عبر انتهاك قانون الحجاب. وهذا المقدار كان متمثلاً في البتول (ع). فقد كان حجابها في غاية الدقة، فلم يرو ان احداً رأى وجهها او كفيها. ولا عجب فهي من سلالة بيت النبوة والوحي والتنزيل والقرآن المجيد: مع ان القاعدة جواز اظهار الوجه والكفين. ولكن اهل بيت النبوة (ع) لا يعملون الا بالمستحبات ويزيدون عليها.

اننا لو نظرنا الى الاسر الملكية الحاكمة في التاريخ، لرأينا ان نساءها يلبسن ارقى الازياء، وأفضل ما يُصمم من لباس. والاصل في ذلك انهم يريدون ان يبهروا الناس باسلوب حياتهم ونمطهم المعاشي المتميز. ولذلك فهم يبدلون ازياءهم في كل حين من الزمن. ولكن هؤلاء الملوك لا يمثلون لواجب ولا يتبعون ديناً، الا اللهم ما كان يصب في خدمة مصالحهم. ولذلك اشتهر في العلوم الاجتماعية: ان الملوك والامراء والملكات والاميرات حراس اوفياء لظاهرة تبدل الازياء.

ولكن الدين ورسالته الخالدة جعل من فاطمة الزهراء (ع) قدوة في ارتداء لباس التواضع، لباس العفة، لباس الفقراء وهي اغنى امرأة في الكون. فأبوها (ص) لو أراد تملك الارض لفعل. ولكنه الزهد والتقوى والتعفف عن حب الدنيا ومتعلقاتها. ولذلك كان ثوبها (ع) من ابسط ثياب الناس وأقلها كلفةً.

ان بساطة لباس المرأة المسلمة التي تأخذ من فاطمة الزهراء (ع) قدوة لها، يقلل من حجم الاستهلاك الاجتماعي للموارد الطبيعية. وهو بالتأكيد يفرز قضيتين:

الاولى: استمرارية الحجاب الشرعي باعتباره تكليفاً دينياً على المرأة، بالرغم من التغيير الاجتماعي الذي يصيب المجتمعات.

الثانية: انه لا تراحم بين اناقة المرأة في بيتها وامام زوجها، وبين الحجاب الشرعي عندما تخرج المرأة الى الساحة الاجتماعية. ولذلك فان فاطمة الزهراء (ع) عندما خرجت الى المسجد بعد وفاة أبيها (ص) بحضور الخليفة الاول اهتز لها المجلس وهي محجبة بحجاب الاسلام من أعلى رأسها الى أخمص قدميها.

٢- وظائف الحجاب الشرعي:

ولا شك ان الدور الاساسي للحجاب الشرعي هو حفظ المرأة من تيار العادات القبلية الجاهلية وصيانتها من التحلل الاخلاقي. وهو بذلك يقدم ثلاث وظائف:

الاولى: ان الحجاب الشرعي يعرض تجانساً نفسياً واجتماعياً بين النساء المسلمات في المجتمع. فالحجاب الشرعي يعكس التماسك الاخلاقي للتجمع النسوي داخل المجتمع الاسلامي. ولو اتبعت كل امرأة لباساً خاصاً بها بما تهوى نفسها لاضطربت الحياة الاخلاقية للمسلمين.

الثانية: ان الحجاب الشرعي يقدم مسيرة مستمرة للباس النسوي الاجتماعي. وصلة الحجاب بالماضي والمستقبل يذكرنا دائماً بحيوية الاسلام في الماضي والحاضر، ويعطينا الامل بان اجيالنا سوف تسترشد بهدي الاسلام وتتبع خطواته. والحجاب _ باعتباره واجباً شرعياً على النساء _ يعدُّ من الثوابت التي لا تقبل التغيير. وبذلك يكون التغيير الاجتماعي خاضعاً لمتطلبات الحجاب الشرعي للمرأة لا العكس. وبكلمة، فان حجاب المرأة المسلمة هو زي اليوم كما كان زي الامس، وكما سيصبح زي الغد باذنه تعالى.

الثالثة: كما ان الحجاب الشرعي يمنع الرغبات الغريزية غير المشروعة في الشارع الاجتماعي، فان زي التجميل الذي ترتديه المرأة امام زوجها يبقى اصل الذوق والاناقة والحركة بين الرجل والمرأة داخل الاسرة.

ان زي فاطمة الزهراء (ع) كان يتضمن شكلاً الزامياً للحجاب الديني، وكان يتضمن ايضاً ذوقاً شرعياً للزي النسوي. فالذوق الاسلامي العام في العفة والاخلاق والامانة والاخلاص والتقوى ينسجم مع مفردات ذلك الحجاب.

تعدد الزوجات بعد فاطمة (ع)

لاحظنا ونحن ندرس الحياة العائلية للإمام (ع) انه تزوج بعد استشهاد فاطمة الزهراء (ع) بالعديد من الإماء والارامل وغيرهنّ من النساء، فما مغزى التزوج بهذا العدد من الإماء او ملك اليمين؟ وما مغزى تزوج الامام (ع) من الارامل؟ وما مغزى التعدد بشكله العام؟ بحيث يكون عدد زوجاته اثنتين وعشرين زوجة: أربع زوجات وثمانية عشرة ملك يمين. نتحدث اولاً عن زواج الإماء ومعنى العبودية والتحرر. ثم نتحدث بعد ذلك عن تعدد الزوجات.

١- تزوج الإماء:

يعدّ التزوج من الإماء، انسب الطرق لتربية تلك الشريحة من الافراد التي أريد لها الدخول في المجتمع الاسلامي والاندماج في عقائده وافكاره. ومع ان صورة الرق تبدو موحشة للوهلة الاولى، الا ان آثارها في كشف رحمة الاسلام للعبد أو الأمة هي التي جعلت الإماء والعيبد من اكثر الناس تعلقاً بالاسلام.

أ- معنى العبودية والتحرر:

يمكن تعريف العبودية او الرقيّة بأنها وضع يكون فيه الانسان تحت سلطنة ونظر انسان آخر أقوى، خلافاً لطبيعة الاشياء القاضية بحرية كل فرد. ويسمى الاول بـ «العبد» أو «الأمة»، ويسمى الثاني بـ «السيد». ويكون السيد مالكا للعبد والأمة فهما «ملك يمين». ذلك لان العبودية تبطل حقوق الانسان القانونية او التشريعية في الحرية والاختيار. وبذلك يكون العبد مسلوب الاختيار والارادة تماماً فيما يتعلّق بالاشياء الخارجية غير القلبية. فهو مجرد ملك بيد انسان آخر أقوى. وسلب الشخصية الحقوقية من الانسان تفقد العبد او الأمة حرية اختيار الزوج، الا انها تُبقي الحياة الروحية منفتحة للتأثر والتغيير من اجل تحقيق الهدف الذي شُرعت من اجله عملية الرقّ.

ولكن في البداية لابد لنا من معرفة حقيقة مهمّة وهي ان الرقيق كانوا محاربين منهزمين اوتي بهم وبمتعلّقيهم من خارج حدود المجتمع الاسلامي خلال المعارك التي كانوا يخوضونها ضدّ الاسلام والمسلمين. والاسترقاق في الاسلام يعدّ محاولة جادة لقطع جذور الثقافة الوثنية

والاجتماعية التي يحملها المحارب ضدّ الاسلام رجلاً كان او امرأة. ولذلك فان الغاء الشخصية الحقوقية للعبد او الأمة هو الغاء للشخصية الوثنية او العلمانية التي يحملانها. ومن هذا المنظار فان تزويج الأمة عبر التملك هو افضل الطرق وانسبها لقطع جذور الالحاد والكفر والوثنية. بينما لا يمكن سلب الشخصية الحقوقية بالاسترقاق للفرد المنحرف المسلم داخل المجتمع الاسلامي لان هناك طرقاً اخرى للتعامل مع المنحرفين لا تقل جدية وحسماً مثل القصاص والقتل والقطع والتعزير.

ولاشك ان ألم انقطاع المرأة الكافرة خلال عملية الاسترقاق عن اقاربها وعشيرتها يجبر بالعلاقة العائلية الجديدة التي يحاول ان ينشأها سيدها وعائلته. وقد كان امير المؤمنين (ع) مثلاً رائعاً لمدى احترام المرأة التي كانت تمرّ بتلك العملية الانتقالية الشاقة حتى تنال الحرية الحقيقية بقبولها الاسلام.

ولذلك فقد جعل (ع) بيته مدرسة لتربية الإماء على الاخلاق الرفيعة. فهنا لا ينبغي ملاحظة عدد الإماء بدون ملاحظة وظيفة الامام علي (ع) في تربيتهنّ، خصوصاً وان بلاد الاسلام كانت تتوسع في تلك الفترة ويدخل في الدين الحنيف افواج من مختلف الشعوب والملل والمذاهب. ومن هذا اللحاظ يمكن اعتبار بيت الامام (ع) مدرسة للتقوى والزهد والتعبد لا مجتمعاً للعبيد والإماء والشهوات.

ولا شك ان للاسلام اهدافاً سامية في عملية الرقّ، ولذلك شجّع على تحرير الرقاب المؤمنة، بل مطلق الرقاب. ففي قتل الخطأ أمر تعالى بكفارة عتق رقبة فقال: (... وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وِدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ...)، (... فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ...)، (... وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ...). وفي حث اليمين المعقودة او الممضاة كفارة عتق رقبة مخيرة ضمن امور ثلاثة، فقال تعالى: (... وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْإِيمَانَ فِكْفَارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...). وفي حكم الظهار كفارة تحرير رقبة، قال تعالى: (والذين يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا...).

وفي استحباب نشر الرحمة والاحسان للمبتلين بنوائب الدهر، قال تعالى: (فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة فك رقبة)، وهو يبين كمال عناية الدين بفك الرقاب، وفيه أيضاً قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب...)، وجعل فك الرقاب من العتق ضمن موارد صرف الصدقات، فقال: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب...).

وبكلمة، فإن الرقية في الاسلام لها اهداف اخلاقية سامية، ولا يمكن اخذها بنفس المنظار الذي سارت عليه اوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين حيث كانت العبودية العرقية من اشع ما شهدته الانسان من علاقات انسانية ظالمة بين الاقوياء والضعفاء. ولاهمية الموضوع وارتباطه بحياة الامام (ع)، كان لابد من الاسهاب في مناقشته.

ب- الفوارق بين الرق في الاسلام والعبودية الحديثة:

هناك فوارق جوهرية بين الرق في الاسلام والعبودية الحديثة التي مارسها الرجل الاوروبي الابيض خلال القرنين الماضيين. ودراسة دقيقة لتلك الفوارق تبين لنا التباين الاخلاقي بين تعاليم السماء وقانون الانسان الظالم. وعندها نفهم مغزى تزوج علي (ع) بذاك العدد من النساء.

١- ان الاصل في الرقية في الاسلام هو ان يتخلص الانسان الذي يمر بتلك العملية، من آثار الشرك ويتهيأ للدخول في الاسلام باعتباره دين الحرية والتحرر من الظلم وعبودية الانسان للانسان. بينما كان الاصل في العبودية التي مارسها الرجل الغربي الابيض هو اعتصار الجهد البدني للعبد اعتصاراً كاملاً في الزراعة والصناعة، رجلاً كان او امرأة، كبيراً كان او صغيراً. خصوصاً عندما افتقد اصحاب رأس المال القوة العاملة الرخيصة، عندئذ اتجهوا نحو استرقاق العبيد من افريقيا السوداء. فالعبودية الاوروبية كانت من اجل استغلال الانسان لاهداف غير نبيلة.

والذي يؤيد ان الرقية في الاسلام هي عملية اخلاقية للتخلص من آثار الشرك ان الفرد الذي يولد مسلماً لا يمكن ان يختبر عملية الاسترقاق، بل ان هناك طرقاً اخرى لمعالجة

الانحراف عند المسلم اذا انحرف عن الجادة كالعقوبات او الغرامات او المقاطعة الاجتماعية في الحبس كما ذكرنا ذلك آنفاً

٢- ان الرقية في الاسلام لا علاقة لها بلون البشرة، فقد يكون العبد ابيض وقد يكون أسوداً وقد يكون أصفر. فالمهم ان يمر الانسان المشرك بمرحلة انتقالية الى الاسلام، وتلك المرحلة تسمى رقاً. اما العبودية التي قام بها الرجل الاوروبي الابيض فقد كانت مقيدة بلون البشرة وموجهة بالخصوص الى الأفارقة لان لون بشرتهم كان اغمق من لون بشرة الرجل الوروبي الابيض . فالعبودية الاوروبية كانت عبودية عرقية بالدرجة الاولى.

٣- ان عملية الرق في الاسلام يمكن ان تفهم على اساس انها عملية مؤقتة لان الاسلام شجع على عتق الرقاب ككفارة في قتل العمد، والافطار العمدي لاحد ايام شهر رمضان، وحث اليمين، وظهار الزوج لزوجته. بينما تستمر عملية العبودية عند الرجل الاوروبي الابيض بصورة دائمة ؛ فليس هناك امد محدود لانتهاؤ الرقية. وتلك الفكرة تدعم رأينا في ان للاسلام اهدافاً نبيلة من استحداث عملية الاسترقاق في الحروب، كما لمسنا في الآيات القرآنية الكريمة التي قرأناها للتو.

٤- ان الأمة في الاسلام اذا قاربها سيدها وولدت له ولداً، تصبح أمماً من الناحية القانونية تسمى «أم ولد» ويلحق الولد بالاب . وبعد استرداد حريتها تبقى العلاقات النسبية والسببية واضحة ومعترفاً بها. بينما يختلف الاسترقاق عند الرجل الاوروبي الابيض، فاذا قارب السيد امته فان المولود يكون وليداً غير شرعي. ويترتب على ذلك ان الوليد لا يمكن الحاقه بالاب. وهذا هو مغزى تسمية داعية الحقوق المدنية الاسود «مالكوم اكس» اسمه بهذا الاسم، لان حرف اكس بالانكليزية يعني مجهولية الانتساب. فأطلق على نفسه هذا الاسم من اجل ادانة العبودية الحديثة والتظلم بأنه لا يعرف اباه الذي قارب تلك المرأة التي ولدته وهي في العبودية.

٥- ان الرقية في الاسلام تعني ان الأمة تعيش في بيت سيدها كأى امرأة أخرى لها شخصيتها الانسانية، حتى تتعلم من افراد الاسرة العلاقات الشرعية وأخلاق الدين واحكام الشريعة بينما يعيش العبيد الذين استرقهم الرجل الاوروبي الابيض خارج بيت السيد، وعلى الاغلب في مرابض الحيوانات والاصطبلات.

٦- ان استمرار العبودية الاوروبية كان يؤدي الى معاناة جسدية ونفسية تؤدي احياناً الى التمرد والثورة والكفر بمعتقدات «السيد» الذي سبب تلك المعاناة للعبيد. واهم ثوراة العبيد هي ثورة سنة ١٧٩٣ م في سانت دومينكو «هايتي» حالياً، والشعور السلبي الذي يحسّ به السود في بلدان الغرب اليوم.

بينما يؤدي الرق في الاسلام في اغلب الاحيان _ وخصوصاً عند ائمة الهدى (ع) _ الى حالة عاطفية من الارتباط بين السيد والعبد كما نجد ذلك عندما كان الامام (ع) يقوم بتحرير الرقاب، او عندما تصدر هفوة من عبداً فيقول له (ع): انت خُر لوجه الله ونحوها.

ولم يرد في المتون التاريخية ان العبيد والامراء في الاسلام قد قاموا بتمرد او ثورة ضدّ الدين بل ان الذي حصل هو العكس تماماً. فقد آمنوا بالدين بعد انعتاقهم من الرقية، واحتلوا مكانهم الطبيعي في المجتمع، ورجعت اليهم شخصياتهم الحقوقية بعد ان سلبت مؤقتاً في المرحلة الانتقالية.

٧- ان العبودية الاوروبية كانت تقتضي حرمان العبد من ثمار جهده البدني، وحرمانه ايضاً من براءة ذريته من العبودية فالاولاد الذين يولدن للعبيد تكتب عليهم العبودية منذ رؤيتهم نور هذا العالم الواسع الفسيح. وهكذا فان العبودية التي مارسها الرجل الاوروبي الابيض ضدّ الأفارقة كانت عبودية أجيال لا عبودية جيل واحد. اما الرق في الاسلام فقد كان منحصرأ في تغيير الجيل الكافر، وكان الجيل الثاني مسلماً على الاغلب. فلم تكن رقية الاسلام رقية اجيال، بل ان هدفها تصحيح مسار الجيل المشرك حتى تؤمن بقية الاجيال بالواحد القهار عزّ وجلّ.

٨- بينما كان الاسلام يحاول جاهداً التخلص من الرقية عبر عتق الرقاب بشتى الوسائل من قبل المؤمنين ، كانت العبودية الاوروبية لا ترى نهاية لذلك النفق المظلم. فكان امداد العبيد _ كيد عاملة مجانية _ يأتي عن طريق الغارات على القبائل الافريقية. وكانت تجارة الرقيق اول مصادر الامداد. بينما كان المصدر الثاني اجبار العبيد على المخالطة ذكوراً واناثاً من اجل الانجاب. وكان الوليد من أب أو من أبوين من العبيد يُستعبد مباشرة بعد الولادة. اجمالاً، فقد كان الطفل يستلم مقعد امه في الحياة. فان كانت مستعبدة فانه يصبح عبداً. وبذلك فقد كان الطفل البريء يحاكي وضع امه القانوني في كل الاحوال.

٩- يقوم العبيد في المجتمع الاوروبي الابيض بتنشيط الاقتصاد لانهم أجراء دون مقابل في الزراعة والصناعة ونحوها. فالعملية اذن لها اهداف اقتصادية راسمالية بالدرجة الاولى. اما الرقية في الاسلام فهي عملية لا تنظر للهدف الاقتصادي، بل تنظر للمصلحة العليا للانسان في التهيئة للانعقاد من الشرك والعبودية لغير الله سبحانه.

١٠- ان الولاء القلبي عند العبد تجاه سيده في العبودية الاوروبية يكاد يكون معدوماً، فالعبد لا يتعاون مع سيده الا تحت الاكراه الشديد. ولو انتهت فترة العبودية _ افتراضاً _ فان الكره المتبادل سيستمر ونراه موجوداً لحدّ اليوم في المجتمعات الغربية. بينما لم نلاحظ ذلك في عملية الاسترقاق في التاريخ الاسلامي. فقد اعتنق اغلب الرقيق الاسلام، خصوصاً اولئك الذين عاشوا في كنف ائمة الهدى (ع).

وهنا كانت الأمة في بيت الامام (ع) تتخلص من آثار الشرك والوثنية، وتتهيأ للدخول في الاسلام باعتباره دين الفضائل والقيم الاخلاقية المثلى. خصوصاً وانها كانت تعيش في بيت سيدها كأبي امرأة أخرى لها شخصيتها الانسانية، تتعلم من افراد اسرة الامام (ع) العلاقات الشرعية واخلاق الدين واحكام الشريعة. ولا شك ان الولاء القلبي من قبل الاماء الثماني عشرة في بيت الامام قبل استشهاده (ع) كان محرراً. ومن المؤكد تاريخياً انهنّ جميعاً اعتنقن الاسلام.

٢- مغزى تعدد الزوجات:

يقول تعالى بشأن تعدد الزوجات: (... فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ...). فقد اعلن القران الكريم شرعية تعدد الزوجات، أربع كحد أقصى على شرط:

١- ان تمتلك الزوجات حقوقاً متساوية على الاصعدة الشخصية والمعاشية وعلى صعيد العلاقة الخاصة. اما الميول القلبية الداخلية من الزوج تجاه أي من الزوجات، فليس لها اعتبار على المسرح الحقوقي.

٢- ان يكون لكل زوجة شخصية حقوقية مستقلة من قبيل ان لكل زوجة استقلالية ذاتية في قضايا تربية الاولاد ونمط الحياة ضمن اطار قيمومة الرجل وطاعته شرعاً.

٣- ان يكونون من انساب مختلفة، فلا يجوز الجمع بين الاختين مثلاً.

ومن هنا نلاحظ ان تعدد الزوجات في الاسلام يصب لصالح المرأة لانه ينظر الى القضية الحقوقية التي حُرمت منها. خصوصاً وان التعدد ينشأ غالباً من التزوج بالنساء الارامل أو الثيبات او المطلقات او اللاتي خانهن التوفيق في زواج واحد ناجح. فالتعدد اذن أمرٌ أريد منه معالجة مشكلة اجتماعية تخص المرأة، ولم يُرد منه حل مشكلة الرجل. وإن كان للرجل مشكلة وتم حلها بهذا الطريق فأمر مستطاب، ولكن أريد من ذلك حل مشكلة المرأة بالخصوص. ولو أردنا البحث عن علة تعدد الزوجات لوجدنا ان هناك اسباباً وجيهةً نلخصها بالنقاط التالية:

١- ان الحروب التي كانت مستعرة في ذلك الزمان، وفي كل زمان، تقتضي ان تزيد نسبة الرجال على النساء نسبة قليلة. بسبب مقتل العديد من الرجال في كل معركة. تُخذ على سبيل المثال: معارك الجمل وصفين والنهروان حيث قُتل فيها عشرات الألوف. والحروب الضخمة في التاريخ حيث قُتل الملايين فيها. والحروب العالمية الحديثة حصدت ارواح عشرات الملايين من الرجال. فزيادة عدد النساء وقلة الرجال يستدعي حكم التعدد.

٢- ان الزواج في ظروف كتلك يُعيد الأمل الى المرأة بامكانية الحصول على حياة هائلة مع زوج يعترف به المجتمع. وذلك الأمل يبني تماسكاً في الحياة الاجتماعية الكلية للمجتمع الاسلامي.

٣- ان شروط الحياة الاجتماعية وكمية الغذاء المستهلك وشروط الحياة الصحية والنفسية ستكون افضل في اسرة كبيرة تجمع عدداً أكبر من الافراد، خصوصاً اذا كان على رأسها ولي مدبر حكيم كالامام (ع). فالإيتام يشعرون بأن لهم من يقوم مقام الاب، والارملة تشعر ان لديها زوجاً، والمطلقة تشعر ان شخصيتها المعنوية قد عادت الى وضعها الطبيعي، وهكذا.

٤- ان التعاون المفترض بين الزوجات لاداء الاعمال البيتية يرفع كاهل تلك الاعمال عن كتف واحد ويوزعها على عدة نساء. وعندها يكون توزيع الاعمال والتربية المنزلية عملية جماعية وليست عملية فردية يعجز عنها الفرد. وقد لاحظنا احتياج فاطمة الزهراء (ع) الى من يخدمها لان الاعمال المنزلية كانت شاقة، خصوصاً وان وسائل الخدمات كانت وسائل بدائية بالمقارنة

معها اليوم. فكانوا ينقلون الماء بالقرب من النهر، وكانوا يجمعون الحطب للطهي والتدفئة، وكانوا يطحنون الشعير ويعجنونه لخبزه، وهكذا.

٥- ان مشكلة وجود الارامل والمطلقات اللاتي شخونهن الحظ في الزواج من رجل اعزب مشكلة اجتماعية تسبب قهراً واحباطاً نفسياً للمرأة. مع ان هناك حاجات لا يقضيها الا الرجل. فتعدد الزوجات يحل تلك المشكلة حلاً جذرياً.

أ- الاقتداء برسول الله (ص):

وقد جمع رسول الله (ص) عدداً من الزوجات. ولا بد من المرور على موضوع زيجات النبي (ص) من اجل فهم مغزى تعدد الزوجات عند علي (ع).

لقد تزوج رسول الله (ص) بخديجة (رض) وعاش معها نيفاً وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة بعد نبوته قبل الهجرة من مكة الى المدينة.

وبعد الهجرة الى المدينة تزوج بعددٍ من النساء منهن البكر ومنهن الشيب، ومنهن اليافة ومنهن العجوز. فقد بنى بالثيب مثل ام سلمة بعد ان تزوج بكراً مثل عائشة . وبنى بالعجوز مثل زينب بنت جحش وسنها يومئذٍ يربو على الخمسين بعد ان تزوج شابة مثل ام حبيبة.

وتذكر كتب السيرة انه تزوج بعضاً منهن للقوة والعضد، وبعضاً لاستمالة القلوب والتوقي من الشر، وبعضاً للانفاق عليهن وادارة معاشهن حتى تكون سنة جارية بين المؤمنين في حفظ الارامل والمطلقات والمسنيات من الفقر والحاجة والمسكنة، وبعضاً لتثبيت حكم شرعي مثل تزوجه بزینب بنت جحش حيث كانت زوجة لزيد بن حارثة الذي كان يدعى ابن رسول الله (ص) على نحو التبني فطلقها زيد وتزوجها النبي (ص) من اجل ابطال حكم جاهلي يقول بأن زوجة المدعو ابناً عندهم كزوجة الابن من الصلب.

وتزوج النبي (ص) لأول مرة بعد وفاة خديجة بسودة بنت زمعة وقد توفي عنها زوجها بعد رجوعه من الحبشة. ولو رجعت سودة _ وكانت مؤمنة مهاجرة _ الى اهلها وهم يومئذٍ كفار لفتنوها بالكفر.

وتزوج بزینب بنت خزیمة _ وكانت تسمى بأُم المساکین لكثرة برّها بالفقراء _ بعد مقتل زوجها عبد الله بن جحش في أحد. فكان زواجه اياها تكريماً لها وحفظاً لماء وجهها.

وتزوج بأُم سلمة زوجة عبد الله ابي سلمة ابن عمه النبي (ص) وأخيه من الرضاعة، وهو اول من هاجر الى الحبشة. وكانت ذات دين وزهد وفضل، وكانت كبيرة في السن وذات ايتام. فلما توفي عنها زوجها تزوجها النبي (ص).

وتزوج بصفية بنت حيي بن اخطب سيد بني النضير قُتل زوجها يوم خيبر وقُتل أبوها مع بني قريظة. وقد اصطفاها رسول الله (ص) من سبايا خيبر وأعتقها وتزوجها فوصل سببه ببني اسرائيل.

وتزوج بجويرية «برة بنت الحارث» سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق. وقد اسر المسلمون منهم مائتي بيت من النساء والذراري. وعندما تزوجها رسول الله (ص) قال المسلمون هؤلاء أصهار رسول الله (ص) لا ينبغي اسرهم واعتقوهم جميعاً. فأسلم بنو المصطلق بذلك. وكان لذلك تأثير عظيم على العرب.

ثم تزوج بميمونة «برة بنت الحارث الهاللية» وهي التي وهبت نفسها للنبي (ص) بعد وفاة زوجها الثاني. وقد نزل فيها القرآن.

وتزوج بأُم حبيبة «رملة بنت ابي سفيان» وكانت زوجة عبيد الله بن جحش الذي هاجر معها الى الحبشة وتنصّر هناك بينما ثبتت هي على الاسلام. وكان ابوها أبو سفيان يؤلّب الناس على النبي (ص) ويجيش الجيوش على الاسلام. فتزوجها النبي (ص) وأحصنها.

وتزوج بحفصة بنت عمر بعد مقتل زوجها خنيس بن حذاقة ببدر، وبقيت ارملة. ثم تزوج بعائشة بنت ابي بكر وهي بكر.

وقد خير (ص) نسائه بين التمتع والسراح الجميل «وهو الطلاق» إن كنّ يردن الدنيا وزينتها، وبين الزهد في الدنيا وترك التزيين ان كنّ يردن الله ورسوله والدار الآخرة كما ورد في القرآن الحكيم: **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعَنَّ**

وَأَسْرَحَنَّ سَرَاْحًا جَمِيْلًا . وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِدْنَ اللّٰهَ وَرِسُوْلَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيْمًا).

وهكذا كان لتعدد الزوجات بُعد اجتماعي وديني عظيم. وقد سار امير المؤمنين (ع) على منهج مشابه لمنهج رسول الله (ص). فتزوج الاماء والاربع.

ب- زوجات امير المؤمنين (ع):

تزوج امير المؤمنين (ع) بنساء شتى أغلبهن من الارامل والمطلقات، أمثال: أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي، وأم حبيبة بنت ربيعة، وخولة بنت جعفر بن قيس الحنفيّة، وأم البنين بنت حزام بن خالد الكلابية، وليلى بنت مسعود الدارمية، وأسماء بنت عميس الخثعمية، وأمّامة بنت ابي العاص.

ومن ملاحظة تلك الاسماء نلمس مصداقية امير المؤمنين (ع) حيث يقول: أنا أبو الارامل والايّتام. وقد تأسى برسول الله (ص)، من حيث تثبيت السبب الزوجي بين القبائل. ولكن المؤسف ان التأريخ لم يحتفظ لنا بلائحة تفصيلية عن وضع زوجاته (ع) فيما يتعلّق بالفقر والاملاق، كما احتفظ بزوجات رسول الله (ص).

(نهاية ص ٣٢٢)

«مجمع الزوائد» - الهيثمي باسناده عن عبد الله بن مسعود ج ٩ ص ٢٠٤. وقال: ورواه الطبراني ورجاله ثقة.

«كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن انس بن مالك ص ٨٦.

«الصواعق المحرقة» - ابن حجر. ص ٨٤. و«ذخائر العقبى» - الطبري ص ٢٩. و«كفاية الطالب» ص ٢٩٨.

«المناقب» - الخوارزمي. الفصل العشرون ص ٢٤٧.

اذخر: نبت، الواحدة إذخرة.

«مجمع الزوائد» رواه باسناده عن عبد الله بن عمر ج ٩ ص ٢١٠.

مجلت: اذا ثخن جلدھا وتعجر وظهر فيها ما يشبه البشر من العمل بالاشياء الصلبة الخشنة ومنه حديث فاطمة (ع) انها اشتكت الى علي (ع) مجل يديها من الطحن (النهاية لابن الاثير ج ٤ ص ٣٠٠).

«حيلة الاولياء» - ابو نعيم باسناده عن الزهري ج ٢ ص ٤١.

«المصدر السابق» باسناده عن علي (ع) ج ٢ ص ٤١.

«مسند احمد» باسناده عن انس بن مالك ج ٣ ص ١٥٠.

«المعيار والموازنة» - الاسكافي رواه عن المقداد ص ٢٣٦.

«ذخائر العقبى» باسناده عن علي (ع) ص ٤٧.

«الطبقات الكبرى» ج ٨ ص ١٧.

«وسيلة المال» ص ١٧٩.

«نظم درر السمطين» ص ١٨١.

«المستدرک علی الصحیحین» ج ٣ ص ١٦٣.

«الطبقات الكبرى» ج ٨ ص ١٨.

«المستدرک علی الصحیحین» ج ٣ ص ١٦٢. و«مجمع الزوائد» ج ٩ ص ٢١١.

«المناقب» - الخوارزمي. الفصل العشرون ص ٢٤٧.

«مجمع الزوائد» ج ٩ ص ٢٠٤.

الخَرْفُ: لاجْرٌ، وهو اناء الماء من الطين المفخور.

«المناقب» - الخوارزمي. الفصل العشرون ص ٢٤٧.

المشهور ان فاطمة (ع) بنت رسول الله (ص) من خديجة، اما بقية بنات خديجة من غير النبي (ص) فكان يطلق عليهن مجازاً بنات رسول الله (ص).

«مجمع الزوائد» ج ٩ ص ٢٠٤ .

جعفر بن ابي طالب: هاجر الى الحبشة في مجموعة من المسلمين تقدر بثلاثة وثمانين. وفي العام الثالث للهجرة رجع جعفر الى المدينة فقال رسول الله (ص): «ما ادري بايهما افرح بقدم جعفر ام بفتح خيبر». ارسله رسول الله (ص) بقيادة جيش اسلامي الى مؤتة في السنة الثامنة، فابلى جعفر بن ابي طالب بلاءً حسناً، فقطعت يمينه فأخذ الراية بشماله ثم قطع شماله فضم الراية الى صدره حتى خرّ صريعاً شهيداً في سبيل الله. وصفه رسول الله (ص) بجعفر الطيار لان الله تعالى ابدله عن يديه بجناحين في الجنة مع الملائكة.

سورة النساء: آية ٣٤ .

يُقَدِّرُوا انفسهم: أي يقيسوا انفسهم.

يتبيغ: يهيج به الالم فيهلكه.

«نهج البلاغة». خطبة ٢٠٩ ص ٤٠٨ .

م. ن. - كتاب رقم ٣١ ص ٥١٣ .

م. ن. - باب المختار من حكمه (ع) رقم ٢ ص ٦٠٢ .

م. ن. - رقم ١٣٥ ص ٦٣٢ .

م. ن. - رقم ٢٩٩ ص ٦٦٨ .

«الخصال» - للشيخ الصدوق. ج ٢ ص ٥٥٠ .

«الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية» - ابن الطقطقي ص ١٠٣ .

البطنة: البطر والأشر.

القُدّ: سير من جلد غير مذبوغ.

«نهج البلاغة». كتاب ٤٥. الى عثمان بن حنيف ص ٥٣٣.

«الكافي» ج ٦ ص ٢٨٧.

«نهج البلاغة». كتاب ٤٥. الى عثمان بن حنيف ص ٥٣٢.

«مسند أحمد» باسناده عن انس بن مالك ج ٣ ص ١٥٠.

الخُمُر: القناع.

الجيب: الصدر.

سورة النور: آية ٣٠ - ٣١.

سورة النساء: آية ٩٢.

سورة النساء: آية ٩٢.

سورة النساء: آية ٩٢.

سورة المائدة: آية ٨٩.

سورة المجادلة: آية ٣.

سورة البلد: آية ١١ - ١٣.

سورة البقرة: آية ١٧٧.

سورة التوبة: آية ٦٠.

سورة النساء: آية ٣.

سورة الاحزاب: آية ٢٩.

الباب الثالث

الدفاع عن الاسلام: الجهاد المسلح

الفصل الحادي عشر

معركة بدر الكبرى

علي (ع) ومعركة بدر الكبرى * صور من معركة بدر * الدلالات العلمية للنصوص: ١- علي (ع): قتل النصف ممن قُتل ببدر. أ- المغزى العسكري. ب- المغزى النفسي. ج- آثار قتل النصف: الرُعب! د- دور الملائكة في المعركة. ٢- الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمعركة: أ- معركة بدر والظرف القانوني. ب- معركة بدر واقتصاد مكة. ج- معركة بدر: امتحان المسلمين.

علي (ع) ومعركة بدر الكبرى

بدر اسم بئر على بعد ١٦٠ كيلو متراً عن المدينة. وقت المعركة المسماة باسم ذلك البئر، في السنة الثانية للهجرة يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان المبارك. وقبل وقوع القتال انزل الله تعالى على نبيه (ص): **(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا...)**. فبعث (ص) الى المشركين ينهاهم عن القتال، فوافق عتبة بن ربيعة وقال: ما رد هذا قومٌ فافلحوا... يا معشر قريش انّ محمداً ابن عمكم فخلوه والعرب. فان يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. فأبى ابو جهل ولم يقبل بأقلّ من القتال.

وكان علي (ع) حامل الراية في اول حرب يشارك فيها مع رسول الله (ص)، وهي اول حروب النبي (ص) أيضاً. وكان عمره (ع) يومذاك خمساً وعشرين سنة. والظاهر ان المعركة وقعت بعد عقد علي (ع) على فاطمة (ع) وقبل البناء بها.

بداية المعركة يصفها لنا رافع مولى رسول الله (ص) قال: «لما اصبح الناس يوم بدر اصطقت قريش، امامها: عتبة بن ربيعة، واخوه شيبة، وابنه الوليد. فنادى عتبة رسول الله (ص): يا محمد اخرج لنا أكفءنا من قريش فبرز اليهم ثلاثة من شباب الانصار. فقال لهم عتبة: من أنتم؟ فانتسبوا. فقال: لا حاجة لنا في مبارزتكم انما طلبنا بني عمنا، فقال رسول الله (ص) للانصار: ارجعوا الى موافقكم. ثم قال: قم يا علي، قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قاتلوا على حقكم الذي بعث الله به نبيكم. فقاموا فصفوا في وجوههم وكان على رؤوسهم البيض فلم يعرفوهم، فقال عتبة: من انتم يا هؤلاء؟ تكلموا، فان كنتم اكفاءنا قاتلناكم. فقال حمزة بن عبد المطلب: انا حمزة بن عبد المطلب، انا اسد الله واسد رسوله. فقال عتبة: كفاءكريم. وقال علي: انا علي بن ابي طالب. وقال عبيدة: انا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب. فقال عتبة لابنه الوليد: قم يا وليد ابرز لعلي: وكان اصغر الجماعة ستاً. فاختلفا بضريبتين أخطأت ضربة الوليد ووقعت ضربة علي (رضي الله عنه) على اليد اليسرى من الوليد فأبانتها، ثم ثنى عليه باخرى فخرّ قتيلاً». وبارز

حمزة عتبة فقتله حمزة (رض). وبارز عبيدة شعبة، فأصاب سيف شعبة عضلة ساق عبيدة فقطعها فاستنقذه علي (ع) وحمزة (رض) وقتلا شيبه، وحُمِلَ عبيدة فمات بالصفراء.

وكان المهاجرون «يوم بدر سبعة وسبعين رجلاً وكان الأنصار مائتين وستة وثلاثين رجلاً، وكان صاحب راية رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (ع)». فيكون مجموع المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً. وكان معهم فرسان وسبعون بعيراً. فكان الرجلان والثلاثة يتعاقبون على بعير واحد. وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً بصحبة مائتي فرس وسبعمائة بعير.

من الناحية النفسية والعسكرية كانت معركة بدر الكبرى اعظم غزاة غزاها رسول الله (ص) وأشدّها نكابة في المشركين «قُتِلَ فِيهَا سَبْعُونَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ قَتَلَ عَلِيٌّ (ع) نِصْفَهُمْ وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَلَائِكَةُ النِّصْفَ الْآخَرَ...». وانجلت المعركة عن سبعين اسيراً من المشركين بالاضافة الى سبعين قتيلاً منهم وفرّ الباقون. واستشهد من المسلمين اربعة عشر رجلاً. قال تعالى مخاطباً المسلمين: **(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**.

وبالرغم من اختلاف الروايات في عدد الذين قتلهم علي (ع) يوم بدر، إلا ان المرجح تاريخياً ان امير المؤمنين (ع) قتل النصف ممن قُتِلَ بِبَدْرِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ، وكانوا من اكابر قريش وقادتهم. عندها نادى منادٍ من السماء يوم بدر: «لا سيف الا ذو الفقار، ولا فتى الا علي». يقول ابن شهر آشوب: «وجدت في كتاب المقفع قول هند:

أبي وعمي وشقيق بكري
أخي الذي كان كضوء البدر

بهم كسرت يا علي ظهري

وكان من جملة من قتلهم علي (ع) يوم بدر من بني امية:

١- حنظلة بن ابي سفيان اخو معاوية.

٢- العاص بن سعيد العاص.

٣- عقبة بن ابي معيط.

٤- الوليد بن عتبة اخو هند وخال معاوية.

وقتل (ع) ايضاً:

٥- ابا قيس بن الوليد أخا خالد بن الوليد.

واشترك في قتل:

٦- عتبة وهو جد معاوية وهو اموي ايضاً.

وبذلك فقد قتل الامام (ع) في بدر وحدها من المشركين جد معاوية وخاله واخاه وبعضاً من عشيرته. وكان لذلك اثر بالغ في نفس ابن ابي سفيان بالخصوص والأمويين عموماً ضد امير المؤمنين (ع)، كما سنلمس ذلك لاحقاً في الفصول القادمة باذنه تعالى.

صور من معركة بدر:

وقد تضمّنت واقعة «بدر» لقطات وصور وشواهد كثيرة تدلّ على المثل التي يستطيع ان يخلقها الاسلام، ومقدار التضحيات التي يستطيع ان يقدمها المؤمنون به، ومن ذلك:

١- كان الآباء يقاتلون أبناءهم، والاخوة اخوتهم. فكان حمزة مع رسول الله (ص) وكان اخوه العباس مع المشركين. وكان علي بن ابي طالب (ع) مع رسول الله (ص) وكان اخوه عقيل بن ابي طالب مع المشركين. وكان عبيدة بن الحارث مع رسول الله (ص) وكان اخوه نوفل بن الحارث مع المشركين. وكان ابو بكر مع المسلمين وابنه عبد الرحمن يقاتل مع المشركين. وكان ابو حذيفة مع المسلمين وابوه عتبة مع المشركين. وقد اوردت الكتب التاريخية ان العباس وعقيل ونوفل قد اسلموا، ولكن المشركين اكرهوهم على الخروج يوم بدر. قال العباس: يا رسول الله انني كنت مسلماً، ولكن القوم استكروهوني. فقال (ص) له: الله اعلم باسلامك، اما ظاهر امرك فقد كان علينا.

٢- ان علياً (ع) رأى أخاه عقيلاً مع اسرى المشركين، فتجاهله ولم يلتفت اليه. فقال له عقيل: يا ابن ام والله لقد رأيت مكاني. فتركه وحاد عنه، وهو اخوه لأمه وابيه.

٣- ان حارثة بن سراقة كان مع رسول الله (ص) فقتل، فجاءت امه وقالت: يا رسول الله اخبرني عن ابني حارثة، ان كان في الجنة صبرت، والا ملئت الدنيا نياحة، فقال لها رسول الله

(ص): «ويحك أهبلت؟ انها جنان ثمان، وان ابنك اصاب الفردوس الاعلى». فرضيت واطمأنت بقضاء الله سبحانه.

٤- لما تهيأ المشركون للقتال قال رسول الله (ص) لاصحابه: قوموا الى جنة عرضها السماوات والارض. فقال عمير بن الحمام الانصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والارض! قال (ص): نعم، قال: يخ بخ... قال (ص): وما حملك على قول بخ بخ. قال: رجاء أن اكون من اهلها. فقال له النبي (ص): انك من اهلها. ولما سمع البشارة بالجنة رمى من يده تمرات كان يأكلها، وقال: لئن انا حييت حتى اكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة. فبرز الى القتال وهو يقول:

ركضا الى الله بغير زاد
الا التقى وطلب المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد

وما زال يقاتل، حتى استشهد.

الدلالات العلمية للنصوص

كانت معركة بدر الكبرى تحمل دلالات عظيمة في المواجهة المتفاقمة بين الايمان والشرك. فقد كانت تلك المعركة تحمل مفاتيح الانتصار او الهزيمة لكلا الطرفين المتصارعين. وحتى ان الرعب الذي دبّ في صفوف المشركين من سيف رسول الله (ص) وسيف علي (ع) وسيوف بقية المسلمين، والملائكة التي ساهمت في تكثير عدد المسلمين، كانت له ظروفه النفسية والقانونية التي تفصح عن قوة الايمان الخارقة واستحالة التعايش السلمي بين الشرك والايمان.

١- علي (ع): قتل النصف ممن قُتل ببدر:

لقد افرغ الامام (ع) طاقته البطولية في اول معركة يخوضها ضد الشرك. فقد بثّ في ساحة المعركة رعباً نفسياً حقيقياً في قلوب المشركين. وكان (ع) اداة السماء في القاء الرعب في

قلوبهم. فغيّرت تلك البطولة سلوك المشركين وبدلته من هجوم وشيك ضد المسلمين الى فرار أكيد وهزيمة نكراء وتحطيم لادارة الشرك والوثنية.

أ- المغزى العسكري:

ان التوازن التسليحي بين جيشي المشركين والمسلمين _ على قلة عدد المسلمين _ يدعونا الى التأمل في اهمية الشجاعة الفردية ودورها الحاسم في نتيجة المعركة. فقد كان الفرس والسيف والرمح والدرع ادوات المعركة واسلحتها. وتلك الاسلحة كانت تعطي المعركة نوعاً من الثبات الاستراتيجي، وتكشف عن شجاعة المقاتلين وبراعتهم في خوض القتال ببسالة. وهنا كان دور علي (ع) في المعركة حاسماً، لان بطولته الفريدة كانت ركناً اساسياً في انتصار المسلمين.

فلا شك ان قتله ذلك العدد الكبير من ابطال المشركين، كان لا بد ان يقلب التوازن العسكري المتعارف بين الفريقين. ذلك لان تلك البطولة الفريدة ادخلت عاملاً جديداً على ساحة المعركة، وهو العامل النفسي. فالرعب النفسي الذي اصاب المشركين يوم بدر جعلهم يفرون من ساحة المعركة مذعورين.

وقد اشار القرآن الكريم في مواطن متعددة _ في بدر وغيرها _ عن انزال الرعب في قلوب المشركين من قبل الله سبحانه وتعالى. ولا شك ان لله جنوده في بثّ الرعب فيهم. فكان (ع) احد هؤلاء الجنود المكلفين بتلك المهمة الشاقة. فقال سبحانه وتعالى في خصوص غزوة أحد عندما حثهم على طاعته ونبههم على ان هزيمة المسلمين كانت من قبل انفسهم، لا منه عزّ وجلّ: (سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا...). وفي خصوص غزوة بدر: (... سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ...). وفي خصوص واقعة الخندق وما اعقبها من امر بني قريظة من اليهود: (... وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا). وفي خصوص اجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ومقاتلة المسلمين لهم: (... فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ...). فكان وعداً جميلاً من الله سبحانه بان المؤمنين سينصرون بالرعب، وقد كان رسول الله (ص) يذكر ذلك فيما حباه الله تعالى وخصه به من بين الانبياء (ع).

فغير ذلك العامل النفسي ميزان المعركة، مع ان جيش المسلمين لم يتجاوز ثلث جيش المشركين مع قلة العدة وشحّة الحديد. ولا شك ان تلك الشجاعة _ مضافاً الى عوامل أخرى كالوعد الالهي بالنصر، ونزول الملائكة لتكثير عدد المسلمين في عيون الاعداء _ ولّدت عند المقاتلين حماساً واندفاعاً نحو الاستمرار في القتال حتى النصر النهائي على الشرك في الارض. وقلة عدد المقاتلين في الطرف الاسلامي، والامداد الالهي عبر نزول الملائكة، لم يبلغ اهمية الحرب واحقيتها.

بل ان معركة بدر الكبرى كانت حرباً حتمية ضد المشركين كان لابد لها ان تقع. ذلك لانها كانت حالة دفاعية ضد هجوم وشيك من قبل قريش، وكانت عقوبة على جرائمهم في عبادة الاوثان، وكانت تعويضاً للمسلمين عما خسروه في مكة من مال ونفس وعرض. ولا شك ان انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى فتح البوابة لتثبيت دين التوحيد على الارض، واقامة العدالة في العالم.

وكانت اخلاقية رسول الله (ص) المستمدة من الدين كفيلاً بتحقيق ذلك، خصوصاً اذا ما علمنا بان رحمة الاسلام وتعاليمه واخلاقه في القتال كان قد سجلها التاريخ بكثير من الاكبار والاجلال.

فالتاريخ عندما يتحدث عن المعارك فانه يمرّ على عللها واسبابها وبيداتها ونهاياتها بشكل سريع عابر، ولكنه يتوقف عند اخلاقية الاطراف المتحاربة. فيدرس سلوك المتحاربين واخلاقيتهم على ساحة المعركة. فالعظمة في شخصية المقاتل تتبلور عندما يتصرف ذلك المقاتل بوحى عقيدته، تحت ظل السيوف. بمعنى ان السيف اذا كان مرفوعاً على اساس الحق، فانه يكون سيفاً عادلاً لا يظلم ولا يجحف ولا ينتهك حرّات الناس. وقد كان علي (ع) قمة في ذلك. فقد كان يرفع السيف عن مدبرهم، ولا يجهز على جريحهم، ولا يقاتل الا طغاتهم واعاظم مجرميهم.

ولذلك فان قتله (ع) للنصف ممن قُتل في بدر قد احدث ضجة نفسية عظيمة في صفوف المشركين وقلوبهم لم يخمد صداها ابداً. فقد كان ظهوره (ع) بتلك القوة الخارقة وهو في فورة الشباب، قد خلق صورة حقيقية من الرعب والقلق في نفوس المقاتلين عند عبدة الاوثان

والاصنام. وبقيت تلك الصورة المرعبة شاخصة في كل المعارك التي خاضها فيما بعد. فمن الذي يواجه علياً (ع) فيفري جلده ويدخله جحيم الدنيا قبل الآخرة؟

ب- المغزى النفسي:

ان الحرب النفسية ضد العدو في ساحة القتال او حولها لا تقتصر على الدعاية الاعلامية. فالهدف من الحرب النفسية هو التأثير على رأي العدو وسلوكه في المعركة دون استخدام الموارد العسكرية والسياسية والاقتصادية. وبتعبير آخر، ان هدف الحرب النفسية هو اشعار العدو بان الجيش المقابل يمتلك اسلحة مادية وغير مادية تستطيع ان تحقق نصراً حاسماً في تلك المعركة. فكيف يستطيع المسلمون في تلك اللحظات الحاسمة اشعار العدو بانهم يمتلكون سلاحاً خارقاً يستطيع ان يحقق نصراً حاسماً عليهم؟ لا شك ان ذلك يتطلب امرين:

الاول: سلاح غير منظور قادر على محاربة العدو حرباً نفسية شرسة، وذلك بتكثير عدد المقاتلين في اعين العدو. فكانت ملائكة الرحمن التي ارسلها الله سبحانه، و اشار لها الذكر الحكيم بالقول: (... **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**).

الثاني: سلاح منظور يراه العدو ويلمسه ويحسّ بعمق آثاره ومقتضياته، وهو علي بن ابي طالب (ع) البطل الذي ليس له مثيل.

فقد كانت البطولة الخارقة للامام (ع) احدى الوسائل المهمة لتلك الحرب النفسية. فقد قلبت بطولة الامام (ع) سلوك ابطال المشركين وجعلتهم يهزمون امامه كالنمور المجروحة الكسيرة.

فالبطولة تحت هذا العنوان، كانت عملاً رمزياً خارقاً قام به علي (ع) من اجل اقناع الطرف المقابل بالفرار من ساحة المعركة. وقد وقع ذلك فعلاً، فبدأت فرسان العرب من المشركين تسابق الريح حتى لا يمسه حسام علي بن ابي طالب (ع).

وهذه الحرب النفسية افضل من الدعاية المنظمة التي تستخدمها الجيوش بأمل تغيير سلوك العدو. ذلك لان الخطة التي استخدمها الامام (ع) لم تحتج الى عيون وجواسيس تنظر للعدو، ولم تحتج الى عمليات انتقام وحشية من اجل ارضائه، ولم تحتج الى عمليات لتنظيف

دماغه او غسله. بل كانت شجاعة فائقة لبطل واحد، وضعت المعركة النفسية في الاطار الصحيح. فتلك المعركة النفسية كانت بحاجة الى سيف واحد وهو سيف ذو الفقار، والى فتى شجاع واحد وهو علي (ع) وعندها كانت المعركة النفسية في بدر الكبرى تحاول افساد علل المشركين الذين خرجوا الى تلك الآبار وفي قناعاتهم انهم سيهزمون المسلمين هزيمة قاسية سوف تتحدث عنها العرب مئات السنين.

ولكن سيف الامام (ع) قلب المعركة النفسية ضدهم لانه (ع) بقتل النصف ممن قُتل ببدر قد حطم ارادتهم ودمر نظامهم العسكري عبر قتله النخبة من ابطالهم.

وبطبيعة الحال، فان للحرب النفسية دوراً مؤثراً وفعالاً في تغيير موازين المعركة وقلبها ضد العدو. وفي ضوء هذا الاصل نستطيع ترتيب النقاط التالية:

١- ان الحرب النفسية تعدّ اليوم السلاح الرابع بعد سلاح الجو والبحر والبر، لانها اثبتت فعاليتها في تغيير سلوك العدو ونفسيته بما يخدم مصالح الطرف المحارب.

٢- كانت البطولة الشخصية في ذلك الزمان اهم الاسلحة والادوات في الحرب النفسية الناجحة. اما اليوم، فبسبب تقدم وسائل الاتصالات، فان الحرب النفسية اصبحت تتخذ أشكالاً أخرى وانماطاً مختلفة. الا ان الهدف في كليهما ينحصر في دائرة واحدة وهي تغيير سلوك العدو. وهذا هو ما حققه سيف علي (ع) في بدر.

٣- يمكن قياس فعالية الحرب النفسية ضد العدو عن طريق احصاء حناجر الفارين من المشركين وصيحاتهم في ساحة المعركة في بدر. كما يمكن قياس فعالية الحرب النفسية الحديثة عن طريق تغير الرأي العام واحساسه بالاحباط والهزيمة النفسية.

وكانت الخصائص البطولية للامام (ع) في عموم الحرب النفسية ضد المشركين تتضافر في ثلاثة وجوه:

الاول: معرفته الدقيقة بأفراد العدو من النخبة، وضبطهم في ساحة المعركة لمصارعتهم. ولنطلق عليه اصطلاح «تحديد الهدف»، كما بارزته الوليد بن عتبة، والعاص بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن ابي سفيان وطعيمة بن عدي، ونوفل بن خويلد.

الثانية: الخب والمواعظ والاشعار التي كان يستخدمها (ع) في زعزعة ثقة العدو بنفسه، في مواطن أخرى بالاضافة الى بدر. مثل قوله لعمر بن عبد ود في وقعة الاحزاب:

لا تعجلنّ فقد اتا ك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نبهة وبصيرة والصدق منجا كل فائز

اني لارجو ان اقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائز

وقوله (ع) عند مبارزة مرحباً:

انا الذي سمّنتني امي حيدرة كليث غابات كربه المنظرة

أوفيهم بالصاع كيل السندرة

وقوله (ع) عند مبارزة ابي جرول يوم حُنين:

قد علم القوم لدى الصباح اني لدى الهيجاء ذو نصاح

ولنطلق عليه اصطلاح «زعزعة الهدف».

الثالث: الهجوم على العدو بكل بسالة، بدل الانتظار من اجل الدفاع. فالهجوم هو الذي يحقق الوصول الى الهدف وتحقيق المطلب بقتل العدو.

ففي «الارشاد» للشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ان امير المؤمنين (ع): «بارز العاص بن سعيد بن العاص بعد ان احجم عنه من سواه فلم يلبث ان قتله، وبرز اليه حنظلة بن ابي سفيان فقتله، وبرز اليه بعده طعيمة بن عدي فقتله. وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم وكانوا سبعين رجلاً، تولى كافة من حضر بدرًا من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم، وتولى امير المؤمنين (ع) قتل الشطر الآخر وحده.

وفي «الارشاد» ايضاً: قد اثبتت رواية العامة والخاصة معاً اسماء الذين تولى امير المؤمنين (ع) قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح. فكان ممن سمّوه:

الوليد بن عتبة كما قدمنا وكان شجاعاً جريئاً وقاحاً فتاكاً تهابه الرجال. والعاص بن سعيد وكان هولاء عظيمات تهابه الابطال، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب. وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس اهل الضلال. ونوفل بن خويلد وكان من اشد المشركين عداوة لرسول الله (ص)، وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه، وهو الذي قرن ابا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة وأوثقهما بحبل وعذبهما يوماً الى الليل حتى سُئل امرهما. ولما عرف رسول الله (ص) حضوره بدرأ سأل الله ان يكفيه امره فقال: اللهم اكفني نوفل بن خويلد، فقتله امير المؤمنين (ع).

وقتل (ع) ايضاً: زمعة بن الاسود، والحارث بن زمعة، والنظر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبد الله، وعثمان ومالك ابني عبيد الله اخوي طلحة بن عبيد الله، ومسعود بن ابي امية بن المغيرة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة، وحذيفة بن ابي حذيفة بن المغيرة، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة بن ابي سفيان، وعمرو بن مخزوم، وابا منذر بن ابي رفاعه، ومنبه بن الحجاج السهمي، والعاص بن منبه، وعلقمة بن كلدة، وابا العاص بن قيس بن عدي، ومعاوية بن المغيرة بن ابي العاص، ولوذان بن ربيعة، وعبد الله بن المنذر بن ابي رفاعه، ومسعود بن امية بن المغيرة، وحاجب بن السائب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوذان، وزيد بن مليص، وعاصم بن ابي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر، ومعاوية بن [عامر بن] عبد القيس، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن اسد، والسائب بن مالك، وابا الحكم بن الاخنس، وهشام بن ابي امية بن المغيرة.

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه او شرك امير المؤمنين (ع) فيه غيره.

وليس غريباً ان يقول اسيد بن ابي اياس شعراً يحرض مشركي قريش على علي (ع) كما

ذكره صاحب «الارشاد» و«المناقب»:

في كلّ مجمع غاية أخزاكم جزعُ أبرّ على المذاكي القرح

لله درّكم ألما تنكروا قد ينكر الحرّ الكريم ويستحي

هذا ابن فاطمة الذي أفناكم ذبحاً وقتلة قعصة لم تذبح

أعطوه خرجاً واتقوا تضريبه فعل الذليل وبيعة لم تريح

أين الكهول وأين كل دعامة في المعضلات وأين زين الابطح
أفناهم قعصاً وضرباً يفتري في السيف يعمل حدّه لم يصفح

ج- آثار قتل النصف: الرعب!!

قال سبحانه وتعالى وهو يتوعد الكافرين: (سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ). وهو وعدٌ جميل للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب.

وحالة الرعب تعدُّ سلوكاً دفاعياً من قبل الانسان اذا واجه موقفاً هائلاً، وعندها يتحفز فيه جهازه العصبي ويتزلزل. فالرعب هو حالة نفسية يختبرها الانسان الخائف لاجتناب الموت عبر الفرار او انهيار الاعصاب او الخلط على اقل التقادير. فالرعب في ساحة المعركة مرتبط بالاحساس بالخوف من المصير المجهول الذي سيواجه ذلك المرعوب.

وعندما يدبّ الرعب في طرف منكسر حربياً، فإنّ الدافع نحو القتال سينكسر ويتشتت الجمع وتحل فلوله. وأول ما يفكر به الجندي عند شعوره بالهزيمة النفسية، هو الفرار من ساحة المعركة. والفرار من الساحة يعني التخلي عن كل مستلزمات المقاتلة، وعندها تفتح ابواب الانتصار للطرف المقابل. وما حصل في معركة بدر هو صورة حقيقية لهذا المنظر الذي لا يتكرر غالباً في المعارك. فبعد مقتل سادة قريش وأبطالهم من قبل الامام (ع) وبقيّة المسلمين ومشاركة الملائكة في الحرب النفسية، تشتت جمع المشركين وانكسرت شوكتهم.

والقاعدة ان الرعب حالة نفسية مشروطة تترك آثارها على الانسان الخائف او المرعوب على مستويين:

الاول: ان الرعب او الخوف الشديد يغيّر الدوافع الثانوية الباطنية عند الانسان، فيغيّر عندها سلوكه على المدى البعيد. فعندما يكون الخوف دافعاً من دوافع السلوك، فان الخائف يكون اقرب الى سماع صوت الحق من الانسان الذي لا يعرف الا التحدي والطغيان والغطرسة.

الثاني: ان الخوف المشروط بشروط الظرف الخارجي، يغيّر سلوك الانسان الخائف وطبيعته عندما يكون الشرط قائماً. فاذا كان خوف المشركين هو احد آثار بطولة علي (ع)

الخارقة، فان رعبهم لا يزول الا بزوال ذلك الظرف الخارجي. ووجود هذا الشرط الخارجي _ أي بطولة علي (ع) _ على ساحة الحرب يدفع بالمقاتل المرعوب الى الهرب من ساحة المعركة. فان الرعب الذي اصاب المشركين من سيف علي (ع) وهو الذي دخل المعركة الكبرى لأول مرة، كان رعباً حقيقياً دفعهم تحت قساوة الظرف الخارجي، الى الهزيمة والفرار من ساحة المعركة. وهي اول معركة رئيسية ضد الدين الجديد.

ذلك ان الرعب في المعركة يجعل المرعوب يعيش حالة نفسية واحدة وهي الضعف التام والعقم والعجز عن انجاز أي مكسب. وعندها يكون الفرار من القتال، الاسلوب الامثل بالخروج من ذلك المأزق الذي وُضع فيه. وكان ذلك في بدر يعني انتصاراً للدين الجديد ضد قوى الشرك المتمرس في القتال والنهب والسلب وتسفيه عقيدة المستضعفين.

واذا ساور الرعب الانسان مرةً، فانه يبقى معه يتجدد كلما تجددت الظروف الخارجية التي أنشأته. بمعنى ان الذي خاف سيف علي (ع) وبطولته الخارقة في معركة بدر، فانه سيخافه في كل معركة لاحقة يلتحم فيها الطرفان. والرعب الذي اصاب المشركين المقاتلين في بدر، ترك آثاره على معركة أحد أيضاً. فما ان بدأت الحرب ورأى المشركون سيف ذي الفقار يلعب ساطعاً تحت وهج شمس المعركة حتى انكسرت جفون سيوفهم وأداروا مسار خيولهم، وفرّوا مسرعين يولون الدبر. ولكن ما حصل في أحد في المرحلة الثانية من المعركة من خسائر، كان بسبب عصيان الرماة لاوامر رسول الله (ص) كما سنرى في الفصل القادم بإذنه تعالى.

والذي حصل في الخندق لاحقاً، عندما برز علي (ع) لعمرو بن عبد ود وصرعه على مرأى من الجيشين يحكي نفس القصة، فانهزم عندها ابو سفيان وجنوده تحت جنح الليل بزعم انهم لا يستطيعون مقاتلة السماء التي تمثلت ب: سيف علي (ع)، والريح العاتية، ودعاء رسول الله (ص).

وبالاجمال، فان قتل ذلك العدد من المشركين في معركة بدر من قبل بطل واحد ترك روااسب الخوف والرعب في قلوب المشركين: (... سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)، وجعل المعركة بالنسبة لهم قضية لا يمكن ادارتها لصالحهم. فكان هروب المشركين وتوليهم عن الزحف وهزيمتهم القاسية، اهم آثار بطولة الامام

د- دور الملائكة في المعركة:

كان للملائكة دور كبير في معركة بدر، ذلك انها كانت الامداد الالهي للمسلمين المستضعفين قليلي العدة والعدد. فمع انهم لم يقتلوا احداً من المشركين، الا ان اختلاطهم بالمسلمين طمأن قلوب المقاتلين المؤمنين وبث رعباً اضافياً في قلوب المشركين.

مقدمة حول طبيعة الملائكة:

وصف لنا القرآن الكريم الملائكة بأنها كائنات كريمة أكرمها الله عزّ وجلّ، وجعلها واسطة بينه تعالى وبين العالم المشهود. ومن صفاتها المذكورة في القرآن المجيد ما يلي:

أ- الطاعة التامة لمولاهم الحق فيما يأمرهم، فليست لهم ذاتية مستقلة في الارادة، ولا يستقلون بعمل ولا يغيرون امراً امرهم الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى: (... لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون)، (لا يسئفونه بالقول وهم بأمره يعملون).

ب- انهم غالبون دائماً وغير مغلوبين لانهم يعملون بأمر الله واراادته: كما اشار الى ذلك: (... والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، (... إن الله بالغ أمره...)، (... وما كان الله ليُعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض...).

ج- ان لهم مراتب ومقامات مختلفة من العلو والآمرية. والى ذلك اشار الذكر الحكيم على لسانهم: (وما منا إلا له مقام معلوم)، (... قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق...)، (مطاع ثم أمين).

وتلك الصفات الفاضلة في الملائكة تجعلهم من اعظم المناصرين لدين الله. لان ارادتهم مرتبطة بشكل تام بارادة الله عزّ وجلّ.

ملائكة بدر في القرآن الكريم:

١- كان للملائكة دور كبير في نصر المؤمنين في معركة بدر كما يصورها قوله تعالى: (ولقد نصركم الله بديرٍ وأنتم أذلةٌ فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا

يُمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين. وما جعله الله إلا بُشراً لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم). فقد بين الله تعالى ما فعله بالمؤمنين من النصر يوم بدر بتقوية قلوبهم، وبما أمدهم به من الملائكة وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم. في حين كان المسلمون قليلي العدد ضعفاء عن المقاومة.

وفي تلك الآيات اخباراً بأن النبي (ص) قال لقومه يوم أحد مذكراً لهم بما حصل يوم بدر: ألن يكفيكم يوم بدر ان جعل ربكم ثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لكم. وكانت مهمة الملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بهم، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين. فيكون عدد الملائكة جميعاً يوم بدر: خمسة آلاف وكان ذلك تابعاً للمصلحة. فقد كان ضعف المسلمين يوم بدر يقتضي امدادهم بذلك العدد من الملائكة المسؤمين.

وبذلك تحقق النصر على الكافرين: (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) الآية، أي وما المعونة الا من عند الله القادر على الانتقام من الكفار. وبتعبير آخر «فان الحاجة الى الله تعالى لازمة في المعونة وان امدكم بالملائكة فلا استغناء لكم عن معونته طرفة عين في تقوية قلوبكم وخذلان عدوكم بضعف قلوبهم».

لقد كان حال المؤمنين يوم بدر: «أذلة» كما عبر القرآن الكريم، قبال ما كان عليه المشركون من القوة والشوكة. ولا ضير في التعبير، فقد اضاف الله سبحانه الذلة النسبية الى العزة، الى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: (... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ...).

ولم يقتصر نزول الملائكة كجنود يوم بدر، بل ان القرآن الكريم يصرح بنزول الملائكة يوم الاحزاب ويوم حنين. فقال في قصة الاحزاب: (... إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا...). وقال في يوم حنين: (... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ... وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا...).

واما نزول ثلاثة آلاف يوم بدر فلا ينافي قوله تعالى في سورة الانفال: (...فاستجاب لكم
أني ممدكم باللف من الملائكة مردفين). لمكان قوله: مردفين، أي متبعين لآخرين وهم الألفان
الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر في هذه الآيات.

وحقيقة الامر ان الملائكة الذي مدّهم الله اليكم ليس لهم من امر النصر شيء بل هم
أسباب ظاهرية يجلبون لكم البشرى وطمأنينة القلب، وانما حقيقة النصر من الله سبحانه لا يغني
عنه شيء، وهو الله الذي ينتهي اليه كل امر، العزيز الذي لا يُعَلَبُ كما قال: (وما جعله الله إلا
بُشْرَى لَكُمْ ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم).

فكان الهدف من الملائكة اذن، طمأننة القلب، وتضعيف قوة العدو بالقتل والاسر من قبل
المقاتلين المسلمين انفسهم: (ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين). وقطع
الطرف كناية عن تدمير عدتهم وتضعيف عددهم بالقتل والاسر، كما وقع يوم بدر.

٢- الآيات التالية أشارت الى قصة بدر بشكل مباشر. قال تعالى: (وإذ يعدكم الله إحدى
الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته
ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم
فاستجاب لكم أني ممدكم باللف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بُشْرَى ولتطمئن به
قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم... إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم
فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل
بان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يُشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم
فدوقوه وأن للكافرين عذاب النار).

وفي تلك الآيات الشريفات دلالات منها:

أ - ان الله عز وجل وعدهم بأن تكون إحدى الطائفتين لهم يستعملون عليها بنصر الله.
والطائفتان هما: العير والنفير. فكانت العير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها
اربعون رجلاً منهم ابو سفيان بن حرب. وكان النفير جيش قريش وهم زهاء الف رجل.

ب - كانت الغالبية من المسلمين تؤدّ أن تكون لها غير ذات الشوكة، وهي العير قافلة ابي سفيان حيث كانت أقل عدة وعدداً من النفير. فندب النبي (ص) اصحابه للخروج، ولم يظنوا ان رسول الله (ص) سيلقى كيداً ولا حرباً فخرجوا لا يريدون الا ابا سفيان والركب ولا يرونها الا غنيمة لهم. ولكن الله سبحانه كان يريد خلاف ذلك، وهو ان يلاقوا النفير فينتصروا عليهم ويستأصلوا الكافرين ويقطعوا دابرتهم.

ج - طلب رسول الله (ص) النصر من الله عزّ وجلّ. فعندما رأى كثرة عدد المشركين وقلة المسلمين استقبل القبلة، وقال: «اللهم انجز لي ما وعدتني. اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الارض». فما زال يهتف ويدعو ربه ماداً يده حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأنزل تعالى: (إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) الآية. وهذا الامداد الملائكي المتتابع يتلائم مع آية ١٢٣ في آل عمران: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ...). فتطابق تلك الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكة مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين، فينطبق الالف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين.

د - ان الغاية من نزول الآية هو لغرض البشرى وطمأنة نفوس المسلمين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، لا من اجل قتل المشركين كما يشير اليه قوله تعالى: (إِذ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...). فالملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم احداً. فقد قتل علي (ع) النصف ممن قُتل، وقتل النصف الآخر سائر المسلمين. وانما كانت مهمة الملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم، وتثبيت قلوب المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين.

هـ - ان حقيقة النصر منحصرة بالله سبحانه وتعالى، وليس بكثرة العدد والقوة. والكثرة والقوة المادية اسباب ظاهرية، بينما تكمن الاسباب الحقيقية بيد الله تعالى.

٢- الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمعركة:

وكانت الظروف القانونية والشرعية في العام الثاني للهجرة النبوية تسمح بصراع مسلح بين قوى الشرك وقوى الايمان. فالمسلمون كانوا مسلحين بالاذن الالهي لقتال المشركين، من اجل

إنشاء اجواء اجتماعية عالمية لطاعة الخالق عزّ وجلّ واقامة العدالة الحقوقية والاجتماعية بين الناس. وكان المشركون مقتنعين بان المسلمين لا يزالون أكلة رأس، يأكلها ابو جهل مع عبيدة.

أ - معركة بدر والظرف القانوني:

كانت معارك رسول الله (ص) تعبّر عن عمق الصراع بين الشرك والاسلام، وعمق الهوة بين النظام الاسلامي الجديد والكيان السياسي للمشركين في الجزيرة العربية. ولا شك ان الصراع بين الاسلام والشرك لم يكن محصوراً بالجانب العسكري، بل كان صراعاً في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والاعلامي والقانوني «العرفي» على اقل التقادير.

والحرب لا تقع ما لم تكن هناك ظروف تاريخية تستدعي وقوعها على مستويين: اجتماعي وديني.

فعلى المستوى الاجتماعي، فان رسول الله (ص) انما خاض معركة بدر، لان الظروف التي مرّ بها المسلمون كانت تقتضي قيام حرب من ذاك القبيل. ومن تلك الظروف: بقاء المشركين على شركهم، وانتهاك مجتمع المسلمين في المدينة من قبل قريش كالتلميح او التصريح بالهجوم، وعدم استجابتهم لعرض النبي (ص) بعدم القتال عبر قوله تعالى: **(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا...)**، واستفحال الروح العدوانية للمشركين، والظلم الصارخ الذي اصاب المسلمين في مكة. كل تلك العوامل كانت تبرر القيام بحرب.

اما على المستوى الرسالي الديني، فان المسلمين مكلفون بقتال المشركين حتى يؤمنوا بالله عزّ وجلّ. وقد قال تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا...)**.

وهذه الآية نزلت قبل بدر بشهرين بخصوص سرية عبد الله بن جحش حيث استأقت تلك السرية غير قريش وفيها تجارة من الطائف وقتلوا عمرو بن عبد الله الحضرمي. وكان ذلك في غرة رجب وهم يظنونهم من جمادى. فزعمت قريش ان محمداً (ص) استحل الشهر الحرام. فأجابتهم الآية الكريمة على ذلك.

وفي مجمل الامر بالقتال افصحت سورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة للهجرة بذلك،
فقال: (قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ .
وَيُدْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ المَصِيرُ)، (إنَّ اللهَ اشترى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
العظيم)، (... وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...).

ولذلك كانت معركة بدر والمعارك الاخرى الكبرى في الاسلام تحمل ظروفًا قانونية وشرعية
تسمح للصراع المسلح بين قوى الشرك وقوى الايمان. لانها كانت كفاحاً من اجل البقاء، وبوجه
أخصّ كانت كفاحاً من اجل بقاء الايمان على وجه الارض.

وفي رواية ان قريشاً لما نظرت الى قلة اصحاب رسول الله (ص) قال ابو جهل: ما هم إلا
أكلة رأس، لو بعثنا اليهم عبيدنا لاخذوهم اخذاً باليد. فقال عتبة بن ربيعة: أتري لهم كميناً او
مدداً؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حتى طاف على عسكر
رسول الله (ص) ثم رجع فقال : ليس لهم كمين ولا مدد. ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت
الناقع، اما ترونهم خرساً لا يتكلمون ويتلمظون تلمظ الافاعي ما لهم ملجأ الا سيوفهم. وما اراهم
يولون حتى يقتلوا، ولا يُقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم.

وكان وجود الشرك بقواه العاتية منذراً بمنع الامة المصغرة في ذلك الوقت من الاستسلام
والخنوع للحياة المادية. واستمرار الحرب يمنعها من الغط في سبات عميق او النوم على فراش
ناعم وثير الى امد غير محدود. فللامة لاحق في العيش متوثبة تدافع عن نفسها من ظلم الطغاة
والمشركين.

ولذلك فان معركة بدر الكبرى كانت قد حددت هوية المسلمين وكشفت عن ايمانهم
وصلابتهم. وحددت هوية المشركين أيضاً، وكشفت عن خوائهم وضعفهم. وكشفت معركة بدر
ايضاً دور الفتى (ع) وشخصيته الفريدة في الازمات. فقتله ذلك العدد الكبير من نخبة المشركين

شدّ الجماعة المقاتلة بحزام الفخر والتحدي والقوة، ولا عجب ان يفتخر رسول الله (ص) بوزيره الشاب (ع) وهو يقتحم الميدان ويحاول افناء العدو عن بكرة ابيه.

ان الحرب في الاسلام كانت ولا تزال من وسائل استقرار العالم دينياً وفكرياً وسياسياً. فالتسامح والاخلاق السامية التي ابدتها تعاليم الاسلام في الحروب من عدم التعرض للنساء والصبيان، وعدم التعرض للجرحى، وحرمة المثلة ولو بالكلب العقور، وحرمة العبث بالكائنات الطبيعية كقطع الاشجار وقتل الحيوانات، كلها تدل على ان الدين السماوي يطمح في انشاء ظروف اجتماعية ملائمة لطاعة الخالق عزّ وجلّ واقامة العدل واحقاق الحقوق. فالحرب الدينية التي كان يخوضها علي (ع) لم يكن شغلها سفك الدماء اصلاً، بل كان شغلها تثبيت اسس الامن والسلام الديني في العالم.

ولما كان التعايش بين الشرك والايمان مستحيلاً من الناحيتين النظرية والعملية، كانت الحرب بقيادة رسول الله (ص) الحل القانوني الوحيد لتثبيت الاسلام في العالم ذلك الزمان. ومجرد استحضار الموعظة ولادعوة للقيم والتوحيد على لسان رسول الله (ص) لا تكفي المشركين. فكان لابد من استخدام لغة القوة والسيوف التي يفهمونها. فالحرب اذن لابد ان تقع، اخلاقياً وقانونياً وعقلياً. لان المشرك يحمل دوماً روحاً ضد السماء في كل ظرف وحال. فكان لابد من استئصال شأفته من عالم يعيش فيه التوحيد والايمان.

ب - معركة بدر واقتصاد مكة:

كانت معركة بدر امتحاناً عسيراً لاقتصاد المشركين في مكة. فذلك الاقتصاد الرأسمالي وتلك التجارة الرائجة بين الشام واليمن والعراق تحتاج الى سلام دائم واطمئنان على سلامة الاموال والبضائع المنتقلة عبر القوافل المتعددة التي تدخل مكة وتخرج منها. ومع ان ابا سفيان رجع بقافلته التجارية سالماً، الا ان معركة بدر الكبرى كانت قد زعزعت قريش اقتصادياً، لانها - بالاضافة الى الخسائر المادية والبشرية التي لحقت بالمشركين - اربكت حركة الاموال والاستثمارات والعمالة في مجتمع مكة. ولكن ثراء قريش ورخاءها المالي وطبيعتها الجغرافية امتص تلك الحالة المضطربة التي خلّفتها معركة بدر الكبرى. ويؤيده انهم عندما خرجوا الى بدر، ما بقي احد من عظماء قريش الا اخرج مالا لتجهيز الجيش.

لقد كان التخطيط السماوي لمعركة بدر هو تدمير قريش اقتصادياً وانزال الهزيمة العسكرية بها واذلالها عبر مواجهة النفيير وترك العير. فهزيمة النفيير تجلب اموالاً أكبر من مجرد الاستيلاء على العير دون قتال. وكان تخطي قريش منصّباً على القضاء على الاسلام قضاءً تاماً، ولذلك كان ابو جهل مصرّاً على القتال باعتقاد انها معركة حاسمة واحدة وينتهي عندها الاسلام. فحتى لو ارتبك اقتصاد قريش، فان ذلك سيكون مؤقتاً ومرهوناً بتدمير الاسلام واجتثاثه من جذوره.

ان رسول الله (ص) بمعاركه العظيمة مع مشركي قريش استنزف عاصمة الاوثان آنذاك وحطم تجارتها. ولذلك، كان دور علي (ع) في تلك المعارك عظيماً في تسديد سياسة رسول الله (ص) وخططه في تدمير اقتصاد المشركين. لاننا لو تصورنا وجود المسلمين ضعفاء في المدينة، ووجود دولة مشركة قوية في مكة، وليس بينهما مواجهة عسكرية، لكان ذلك يحصر الاسلام _ على احسن التقادير _ في منطقة ضيقة محدودة ويمنع انتشاره في العالم.

ولذلك كانت استراتيجية رسول الله (ص) مهاجمة المشركين اينما كانوا، في الظروف المناسبة التي تخدم اهداف الرسالة. فكان الامام (ع) حربة رسول الله (ص) التي يصل بها ويجول ضد المشركين. وقد اثبتت تلك الاستراتيجية صحتها في فتح الطريق لتضعيف العدو ونشر الاسلام على وجه الارض.

ومع ان لمعركة بدر آثاراً اقتصادية على الطرفين الا ان المعركة كانت، أساساً، دينية. فالدين هو اساس الصراع بين الطائفتين: المؤمنة بالدين الجديد، والمتمسكة بالاوثنان. بينما كان المال والاقتصاد اثرًا من آثار تلك الحروب ومقتضىً من مقتضياتها.

ج _ معركة بدر: امتحان المسلمين

تعدّ الحرب جحيماً بالنسبة للمقاتلين في كل وقت، منذ بداية التأريخ ولحد اليوم. فهي صراع مسلح بين مجموعتين ذو تنظيم سياسي وعقائدي. فالحرب تقع نتيجة قرار سياسي مُتخذ من قبل قادة القوم _ الكبار في السن اغلب _ لزوج الشباب جنوداً في الحرب ووقوداً لها.

ولكن معارك الاسلام، وبضمنها بدر الكبرى، لم تكن كذلك. فقد قاتل رسول الله (ص) في بدر وهو في اواسط العقد الخامس من عمره الشريف جنباً الى جنب مع علي (ع) وهو في العقد

الثاني، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وهو في السبعين من عمره. وهكذا كان بقية المسلمين المقاتلين بين شيخ كبير طاعن في السن وشاب يافع. قاتلوا جميعاً في حربٍ دينية إلزامية بعد أن أُذن لهم بقتال المشركين الظالمين.

لقد كانت معركة بدر امتحاناً حقيقياً لاختبار ايمان المسلمين بالاسلام وبالقدرة الغيبية على صنع النصر. فقد كانت اول حرب بين الاسلام والشرك، وكانت اول اختبار لقوة المسلمين في الصمود امام المشركين المتمرسين على الحرب والسلب. ولم يكن معروفاً بعد طموحات المشاركين في المعركة نحو الغنائم والمكاسب الحربية، او قدراتهم على الصمود ومواجهة العدو، او الفرار من المعركة. ولكن المعركة افرزت حقيقة مهمة جداً، وهي ان المعارك القادمة ستكون اكثر شراسة وضراوة وأشدّ بأساً لان البطل الذي قتل النصف ممن قُتل من المشركين في بدر سيكون شاخصاً تحت امرة رسول الله (ص) يدافع عن دينه مضحياً بكل غالٍ ونفيس في ساحات القتال.

(تليها ص ٣٥١ - ٣٦٨)

سورة الانفال: آية ٦١.

البيض: الخوذ التي تقي الرأس سيوف الاعداء.

«نور الابصار» - الشبلنجي ص ١٠٠.

«نور الابصار» ص ١٠٠.

«تاريخ الطبري» ج ٢ ص ٤٣١.

«شرح نهج البلاغة» ج ١ ص ٨. ويُردّ عليه ان الملائكة لم تقتل مشركاً، وكان دورها بث الرعب بين المشركين.

سورة آل عمران: آية ١٢٣.

«كفاية الطالب» - الكنجي باسانيد متعددة عن الامام الباقر (ع) وذكر ان اسم الملك هو رضوان ص ٢٧٧. ورواه محب الدين الطبري في «ذخائر العقبى» ثم قال: «ذو الفقار اسم سيف النبي (ص) سُمِّي بذلك لانه كانت فيه حفر صغار. قال ابو عبيد: والمفقر من السيوف: الذي في متنه حروز» ص ٧٤.

«مناقب» ابن شهر إشوب ج ٣ ص ١٢١.

سورة آل عمران: آية ١٥١.

سورة الانفال: آية ١٢.

سورة الاحزاب: آية ٢٦.

سورة الحشر: آية ٢.

سورة الانفال: آية ٩.

«المستدرک علی الصحیحین» باسناده عن ابن اسحاق ج ٣ ص ٣٢ - ٣٣.

«مسند احمد» ج ٤ ص ٥٢ رواه احمد باسناده عن سلمة.

«الغزوات» - النقدي باسناده عن سعيد بن المسيب عن احد مشركي حنين ص ١٠٧. والرواية مشهورة، ولكن لم يتسن لنا العثور على مصدرها الاصيلي.

لم تقتل الملائكة احداً كما ذكرنا ذلك، وانما كانت وظيفتهم تكثير سواد المسلمين من اجل ارعاب العدو.

وهو اخو خالد بن الوليد. اما الثلاثة الذين قتلوا من آل «المغيرة» فهم ابناء اعمامه.

سورة آل عمران: آية ١٥١.

سورة الانفال: آية ١٢.

سورة التحريم: آية ٦.

سورة الانبياء: آية ٢٧ .

سورة يوسف: آية ٢١ .

سورة الطلاق: آية ٣ .

سورة فاطر: آية ٤٤ .

سورة الصافات: آية ١٦٤ .

سورة سبأ: آية ٢٣ .

سورة التكويز: آية ٢١ .

سورة آل عمران: آية ١٢٣ - ١٢٦ .

المسؤمين: المعلمين.

«مجمع البيان» - الطبرسي ج ٢ ص ٨٢٩ .

سورة المائدة: آية ٥٤ .

سورة الاحزاب: آية ٩ .

سورة التوبة: آية ٢٥ - ٢٦ .

سورة الانفال: آية ٩ .

سورة آل عمران: آية ١٢٦ .

سورة آل عمران: آية ١٢٧ .

سورة الانفال: آية ٧ - ١٤ .

سورة آل عمران: آية ١٢٣ .

سورة الانفال: آية ١٢ .

سورة الانفال: آية ٦١ .

سورة البقرة: آية ٢١٧ .

راجع الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب، تجد فيه بحثاً مفصلاً عن القتال في القرآن الكريم.

سورة التوبة: آية ١٤ - ١٥ .

سورة التوبة: آية ٧٣ .

سورة التوبة: آية ١١١ .

سورة التوبة: آية ٣٦ .

(ص ٣٥١ - ٣٦٨)

الفصل الثاني عشر

معركة أحد

علي (ع)، ومعركة أحد * صور من معركة أحد * الدلالات العلمية للنصوص: ١- معركة أحد:
الخصائص. ٢- معركة أحد: الآثار * علل الحرب وبدائلها: ١- هل يمكن النظر لكل الحروب
من زاوية واحدة؟ ٢- ما هو البديل الاخلاقي للحرب؟

علي (ع) ومعركة أحد

«أحد» اسم جبل يبعد عن المدينة ثلاثة أميال تقريباً. وكانت غزوة أحد في شوال يوم السبت لسبع ليالٍ خلون منه في سنة ثلاث من الهجرة. تألق علي (ع) في تلك المعركة وكان له دور حاسم، فقد قاتل قتال الأبطال، وحمى الدين الجديد بحيث ان رسول الله (ص) خاطبه (ع) كما رواه القندوزي: «يا ابا الحسن، لو وضع ايمان الخلائق واعمالهم في كفة ميزان ووضع عملك يوم أحد في كفة أخرى لرجح عملك على جميع ما عمل الخلائق، وان الله باهى بك يوم أحد ملائكته المقربين ورفع الحجب من السماوات السبع واشرفت اليك الجنة وما فيها وابتهج بفعلك رب العالمين، وان الله تعالى يعوضك ذلك اليوم ما يغبط كل نبي ورسولٍ وصديق وشهيد». و«قاتل رسول الله (ص) يوم احد قتالاً شديداً، فرمى بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت قوسه وانقطع وتره. ولما جرح رسول الله (ص) جعل علي (ع) ينقل له الماء في درقته من المهراس ويغسله، فلم ينقطع الدم. فأنت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي، واحرقت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم».

و«كسرت يد علي (رضي الله عنه) يوم أحد، فسقط اللواء من يده. فقال رسول الله (ص) ضعوه في يده اليسرى، فانه صاحب لوائى في الدنيا والآخرة». واصابت علياً (ع) ذلك اليوم ست عشرة ضربة سقط الى الارض في اربع منهن.

وقد ورد عن الامام الباقر (ع): أصاب علي (ع) يوم أحد ستون جراحاً، فأمر النبي (ص) بعد انتهاء المعركة بعض النساء بمداواة جراحه. فقلن: يا رسول الله لا نعالج منه جرحاً الا انفتق منه جرح آخر. فدخل عليه رسول الله (ص) وجعل يمسح الجراح بيده، ويقول: ان رجلاً لقي هذا في الله فقد ابلى واعذر. فكان القرع الذي يمسه النبي (ص) يلتئم لساعته. فقال علي (ع): الحمد لله، اذ لم افتر ولم اولّ الدبر. وكان (ع) هو المقصود من قوله تعالى: (... وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ). وتلك آية شريفة يقول صدرها: (وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

قصة المعركة:

والقصة في أحد هي ان قريشاً عندما اصيبت في بدر بتلك الهزيمة القاسية، رجعت فلولها المكسورة الى مكة، ورجع ابو سفيان بن حرب بقافلته التجارية وتنادوا ان رسول الله (ص) قد وترهم وقتل خيارهم، فما لهم الا الاستعانة بمال قريش المحمول على ابل ابي سفيان لتمويل الحرب القادمة. ف «اجتمعت قريش لحرب رسول الله (ص)»، وكان فيها ابو سفيان بن حرب واصحاب العير بأحاييشها ومن اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة. وكل اولئك قد استعروا على حرب رسول الله (ص). وبكلمة، فقد «خرجت قريش بحدّها وجدّها واحاييشها ومن معها من بني كنانة واهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يفروا».

وخرج ابو سفيان بن حرب وهو قائد المشركين ومعه هند بنت عتبة و غلام حبشي يقال له وحشي يقذف بحرية. وهي الحربة التي قتل فيها حمزة. فاقبلوا مع جيش المشركين بثلاثة آلاف رجل ومائتي فرس والظعن خمس عشرة امرأة، ونزلوا بمنطقة على شفير الوادي مما يلي المدينة. وخرج رسول الله (ص) الى أحد بألف رجل، ولكن المنافقين الذين خرجوا معه (ص) رجعوا الى المدينة في ثلاثمائة وعلى رأسهم عبد الله بن ابي سلول حيث كان لسان حالهم يقول: علام نقتل انفسنا. ارجعوا ايها الناس الى المدينة. فبقي مع رسول الله (ص) سبعمائة رجل. وكان في المشركين سبعمائة دارع، وكان في المسلمين مائة دارع ولم يكن معهم الخيل الا فرسان، فرس لرسول الله (ص) وفرس لابي بردة بن نيار الحارثي.

رسم النبي (ص) خطة المعركة والقتال واجلس (ص) خمسين رامياً على جبل خلف عسكر المسلمين وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا. أي احموا ظهورنا ولا تفارقوا مكانكم. إن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وان رأيتمونا نغتم فلا تشاركونا.

وكان لواء المشركين مع طلحة بن ابي طلحة الملقب بكبش الكتيبة وهو من بني عبد الدار، فأعطى النبي (ص) اللواء لمصعب بن عمر _ وهو من بني عبد الدار ايضاً _ لان ذلك كان عندهم من الاعراف الاجتماعية. ولما قتل مصعب دفعه النبي (ص) الى علي (ع).

و«قام طلحة صاحب لواء المشركين فقال: يا معشر اصحاب محمد، انكم تزعمون ان الله يعجلنا بسيوفكم الى النار، ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة. فهل منكم احد يعجله الله بسيفي الى الجنة، او يعجلني بسيفه الى النار؟ فقام اليه علي بن ابي طالب (ع)، فقال: والذي نفسي بيده، لا افارقك حتى اعجلك بسيفي الى النار، او تعجلني بسيفك الى الجنة. فضربه علي (ع) فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته، فقال: انشدك الله والرحم يا ابن عم، فتركه فكبر رسول الله (ص) وقال لعلي (ع): ما منعك ان تجهز عليه؟ قال: ان ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحيت منه». ولكن طلحة لم يلبث بعد الضربة الا قليلاً.

و«لما قتل علي بن ابي طالب اصحاب الالوية ابصر رسول الله (ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي، قال: ثم ابصر رسول الله (ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبه بن مالك... فقال جبرئيل: يا رسول الله، ان هذه هي المواساة. فقال رسول الله (ص): انه مني وانا منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً: لا سيف الا ذو الفقار، ولا فتى الا علي».

وفي كتاب «الارشاد» للشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ان اصحاب اللواء كانوا تسعة قتلهم علي بن ابي طالب (ع) عن آخرهم، وانهزم القوم، وكان على رأس المنهزمين: ابو سفيان، وعمرو بن العاص، وهند. قال الواقدي: «ما ظفر الله نبيه في موطن قط ما ظفروه وأصحابه يوم أحد».

ولما رأى الرماة انهزام المشركين قالوا: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: مهلاً، أما علمتم ما عهد اليكم رسول الله (ص)؟ فأبوا وتركوا مواقعهم الى الغنائم. ولم يبق مع ابن جبير الا عشرة رجال. ولما رأى خالد بن الوليد ان ظهر المسلمين قد خلا كراً في مئتي فارس على من بقي مع ابن جبير فأبادهم. وقُتل ابن جبير بعد ان قاتل قتال البطل المستميت. وتجمع المشركون من

جديد وأحاطوا بالمسلمين الذي كانوا مشغولون بالغنائم، واطبقوا عليهم من الامام والخلف وواقعوهم بين شقي الرحى.

وَقُتِلَ حَمْزَةُ عَمَّ النَّبِيِّ (ص) قَتْلَهُ وَحَشِي الْحَبَشِيِّ.

وَقَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَنِ النَّبِيِّ (ص) وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع)، وَأَبُو دَجَانَةَ، وَسَهْلُ بْنُ حَنْيَفٍ، وَقَدْ اسْتَمَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ (ص). ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ عَمْرًا وَعُثْمَانَ كَانَا مِنَ الَّذِينَ انْهَزَمُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ (ص).

وَجَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَكُسِرَ أَنْفُهُ وَرِبَاعِيَتُهُ السُّفْلَى، وَشُقَّتْ شَفْتُهُ، وَأَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ فِي جَبْهَتِهِ الشَّرِيفَةِ. فَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، وَأُغْمِيَ عَلَيْهِ. وَلَمَّا فَتَحَ عَيْنَيْهِ نَظَرَ إِلَى عَلِيٍّ (ع)، وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ لَا يَفَارِقُهُ، فَقَالَ (ص): يَا عَلِيُّ مَا فَعَلَ النَّاسُ؟ قَالَ (ع): نَقَضُوا الْعَهْدَ وَوَلَوْا الدَّبْرَ. فَقَالَ (ص) لَهُ: أَكْفَيْتَنِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَصَدُوا قَصْدِي، فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَكَشَفَهُمْ، فَعَادُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَقَالَ (ص) لَهُ: أَكْفَيْتَهُمْ. فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ وَكَشَفَهُمْ عَنْهُ.

وهكذا دفع علي (ع) عن رسول الله (ص) كل مكروه. ولما يبس المشركون من قتل النبي (ص) ففرت همتهم وعادوا القهقري بعد ان قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ مَقَاتِلًا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ رَجُلًا. ذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ الْإِنْدَلِسِيُّ (ت ٤٥٦ هـ) اثْنَيْنِ فَقَطْ قَتَلَهُمَا عَلِيُّ (ع) هُمَا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَمِيدٍ مِنْ بَنِي إِسْدٍ، وَأَبُو الْحَكَمِ بْنِ الْإِخْنَسِ مِنْ بَنِي زَهْرَةَ. وَلَكِنَّ الدَّلَائِلَ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْغَلْبَ الْقَتْلَى كَانُوا بِسَيْفِ عَلِيٍّ (ع) وَرَسُولِ اللَّهِ (ص) لِأَنَّهُمَا لَمْ يَنْشَغَلَا بِالْغَنَائِمِ.

إدانة المنهزمين:

ونزل الوحي فيما يخص معركة أحد يدين فيه المنهزمين الذين انهزموا وقت الشدة وتركوا رسول الله (ص) وعلياً (ع) مع قلة قليلة تقابل ثلاثة آلاف فارس من فرسان العدو. فانقلبوا على اعقابهم بعد ان سمعوا ان رسول الله (ص) قد قُتِلَ. يقول تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

فالمشهور تاريخياً ان المسلمين عندما سمعوا قائلاً يقول: قُتِل محمد، قُتِل محمد، فرّ أكثرهم، وشكّ بعضهم في دينه وقال: ليت لنا الى عبد الله بن ابي _ زعيم المنافقين _ طريقاً كي يأخذ لنا الامان من ابي سفيان، وقال الآخر: لو كان محمد نبياً لما قُتِل. فأدانهم القرآن الكريم بالارتداد والانقلاب عن رسول الله (ص). وقد تبين ان اسلامهم لم يصل الى درجة اليقين حيث يفترض ان يضحي المقاتل بحياته رخيصة في سبيل الله. ولو كانوا على درجة من الايمان لاستماتوا في القتال حين شاع الخبر بقتل نبيهم (ص). ولكن علياً (ع) بقي في المعركة يحمي عن رسول الله (ص)، وكان يفدي نفسه دفاعاً عنه (ص).

وآية أخرى نزلت في معركة أحد تقول: **(وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)**. وفي الآية موعظة مصطبغة بالعتاب للمسلمين الذين فروا من المعركة، وشوقهم تعالى للاهتمام بالربانيين الذين حكى الله فعلهم من الصبر وعدم الضعف والوهن في الله تعالى. قال الرازي (ت ٦٠٤ هـ) في تعرضه لهذه الآية: «اعلم من تمام تأديبه قال للمنهزمين يوم أحد: ان لكم بالانبياء المتقدمين وأتباعهم اسوة حسنة. فلما كانت طريقة اتباع الانبياء المتقدمين: الصبر على الجهاد وترك الفرار، فكيف يليق بكم الفرار والانهازم؟ [اما الحديث عن الذين ثبتوا ولم ينهزموا] فقد قال صاحب الكشاف: ما وهنوا عند قتل النبي، وما ضعفوا عن الجهاد بعده، وما استكانوا للعدو. وهذا تعريض بما اصابهم _ أي المهزومين _ من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسولهم، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم للكفار، حتى ارادوا ان يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن ابي، وطلب الامان من ابي سفيان».

ثم قال الرازي: «ومعنى قوله تعالى: والله يحب الصابرين. ان من صبر على تحمل الشدائد في طريق الله، ولم يظهر الجزع والعجز والهلع فان الله يحبه. ومحبة الله للعبد عبارة عن ارادة اكرامه واعزازة وتعظيمه، والحكم له بالثواب والجنة، وذلك نهاية المطلوب». يقول ابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ): «وانهزم قوم من المسلمين، فبلغ بعضهم الى الجلبع دون الاعوص. منهم: عثمان بن عفان، وعثمان بن عبيد الانصاري، غفر الله عزّ وجلّ ذلك لهم، ونزل القرآن بالعفو عنهم بقوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ**

ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ...». وقد كان العفو مخصوصاً بتلك الواقعة. اما في غيرها، فعلمه عند الله سبحانه.

صور من معركة أحد:

تضمّنت معركة أحد صوراً رائعة من ايمان القلّة التي كانت لا تكثرث بالموت وترجو لقاء الله تعالى. ومع ان الجوّ العام كان قد تأثّر بمعصية الرماة وانهزام المسلمين الذين لم يرسخ الايمان في قلوبهم، الا ان الشواهد الشخصية الفريدة في تلك المعركة دلّت على عمق الايمان لدى البعض الآخر القليل العدد.

١- من مصاديق اليقين:

أ- قال النبي (ص) لابي دجانة يوم أحد وبعد هزيمة الناس: «انصرف فأنت في حلّ من بيعتي». فبكى ابو دجانة ورفع رأسه الى السماء وقال: لا والله الى اين انصرف؟ الى زوجة تموت او ولد يموت، او دار تخرب، او مال يفنى، أو اجل قد اقترب! فكان يقاتل هو من ناحية، وعلي (ع) من ناحية. ولما أُنخِن بالجراح سقط على الارض فاحتمله علي (ع)...». وظاهر الرواية ان رسول الله (ص) اراد امتحان ايمانه، فوجده راسخاً. والا فان البيعة لا تنكث بانكسار او هزيمة عسكرية.

ب- لما رأى انس بن النضر المنهزمين صاح بهم قائلاً: ماذا تصنعون بالحياة بعد نبيكم؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله (ص)، وان كان محمد قد قتل فان ربّ محمد لم يُقتل. ثم قاتل قتال الابطال حتى استشهد رحمه الله.

٢- لما انصرف النبي (ص) من أحد الى المدينة استقبلته «حمنة» بنت عمته (ص). فقال النبي (ص) لها: احتسبي، قالت: من يا رسول الله؟ قال (ص): أخاك عبد الله، فاسترجعت واستغفرت له، وهنأته بالشهادة. ثم قال لها: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: حمزة بن عبد المطلب خالك. فاسترجعت، واستغفرت له، وهنأته بالشهادة. ثم قال (ص): احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال (ص): زوجك مصعب بن عمير. فقالت: وا حزنه، وولولت، وصاحت. فقال رسول الله (ص): ان زوج المرأة منها بمكان ما هو لأحد.

٣- عندما أقبلت صفيية بنت عبد المطلب لتنظر الى أخيها حمزة، قال النبي (ص) لابنها الزبير: ارجعها، حتى لا ترى ما بأخيها. فأعلمها الزبير بأمر رسول الله (ص)، فقالت: ولم، وقد بلغني انه مُثِّل بأخي. وهذا قليل في الله. فما أرضانا بما كان، لاحتسبن واصبرن.

٤- تزوّج حنظلة بن ابي عامر في الليلة التي كانت في صبيحتها معركة أحد. فاستأذن رسول الله (ص) في ان يبقى مع اهله، فنزل قوله تعالى: **(... إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ...)** فأذن له النبي (ص)، وتخلّف حنظلة عند اهله. لكنه حين اصبح وسمع هاتف الحرب اسرع الى ساحة المعركة والجهاد وكان لا يزال جُنْباً فقاتل حتى استشهد. قال رسول الله (ص): رأيت الملائكة تغسّل حنظلة بين السماء والارض بماء المزن في صحائف من ذهب.

٥- لما استشهد حمزة (رض) جاءت هند ام معاوية بن ابي سفيان فاستخرجت كبده ولاكته فلم تستطع اكله فلفظته وقطعت اذنه وجعلتها قلادة في عنقها وقطعت يديه ورجليه ومذاكيره ولذلك تسمى هند: «آكلة الاكباد». وكانت هند قد اعطت وحشياً الحبشي الذي قتل حمزة عهداً لان قتل محمداً (ص) او علياً (ع) أو حمزة (رض) لتعطيه رضاه. ولذلك اشارت زينب الكبرى في خطبتها: «وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه اكباد الاذكيا ونبت لحمه من دماء الشهداء». ودفن النبي (ص) حمزة بثيابه التي استشهد فيها وزاده برداً فقصر عن رجليه فدعا بأذخر حشيش من الارض وطرحه عليه وصلى عليه سبعين صلاة وكبر عليه سبعين تكبيرة، وما كان يوم أشدّ على رسول الله (ص) أشدّ من يوم أحد لما سمع (ص) النوح قال: «ولكن حمزة لا بواكي له» فبكته نسوة الانصار. وكانت فاطمة الزهراء (ع) تبكي حمزة وتزور قبره.

الدلالات العلمية للنصوص

كانت لمعركة أحد خصائص متميزة تستحق الدراسة والتأمل. كخروج نساء المشركين في المعركة، وعصيان بعض الرماة أوامر النبي (ص). وكانت للمعركة آثار قوية على مجرى المعارك اللاحقة في التاريخ الاسلامي.

١ - معركة أحد: الخصائص

أ- ان التوازن التاريخي بين جيشي المسلمين والمشركين لم يكن متكافئاً. تماماً كما كان الوضع في معركة بدرالسابقة. فقد كان في المسلمين في أحد سبعمائة مقاتل منهم مائة دارع وفرسان، بينما كان جيش المسلمين مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبعمائة دارع ومائتي فرس وثلاثة آلاف بعير. وكان البعير في ذلك الوقت اداة نقل المواد الثقيلة من الامتعة والاسلحة والافراد، بينما كان الفرس وسيلة الهجوم.

ب- ظاهرة جديدة في حروب المشركين مع المشركين وهي اخراج النساء معهم على الهوداج «الظعن» التماس الحفيظة وعدم الفرار. فقد اخرج ابو سفيان النساء وكن خمس عشرة امرأة ليحرضن الرجال على القتال، وحتى لا يفروا من ساحة القتال. فجاء عمرو بن العاص بزوجته «ريطة»، وأبو سفيان بزوجته «هند» آكلة الاكباد. وكان مع النساء « غمرة بنت علقمة الكنانية » وهي التي حملت لواء المشركين بعد مقتل التسعة الذين قتلهم علي (ع).

وتلك الظاهرة تدل على ان هزيمة المشركين كانت قضية محتملة جداً في تفكيرهم، على افتراض وجود علي (ع) مقاتلاً في المعركة. واخراج النساء كان مخالفاً لاعراف العرب، لان الهزيمة كانت تعني اسر النساء، وهو امر لا يمكن تحمله حتى من قبل المشركين انفسهم.

ج- كانت خطة النبي (ص) في حفظ عسكر المسلمين من الخلف مُحكمة، الا ان الرماة عصوا اوامر رسول الله (ص)، فكان ما كان من الجراح والخسائر التي اصابت المسلمين. ولا شك ان تلك القضية كانت ايضاً من خصائص معركة أحد. لان معصية بذاك الحجم لم تحصل في أي معركة من معارك الاسلام، إذا استثنينا الفرار من المعركة في حُنين. وهذا دليل على عدم عمق ايمان بعض الناس بالقتال فضلاً عن عدم ادراكهم لمعاني التضحية ودورها الحاسم في نصر الدين.

د- ان الفرار السريع الذي حصل من قبل المسلمين الذين صاحبوا رسول الله (ص) عند سماعهم بمقتل النبي (ص) له دلالات تثبت سطحية ايمانهم بالاسلام وعدم وصوله حدّ اليقين، مع ان ملازمتهم لرسول الله (ص) كانت تقتضي اليقين بصحة الرسالة وصدق قائدها.

٢- معركة أحد: الآثار

اختلفت معركة أحد في وظيفتها، واسسها، ومقدار الدمار الذي خلّفته على المشركين، وحجم الدرس الذي تعلّمه المسلمون منها عن غيرها من المعارك.

فهي على الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبّدها المسلمون لم تشهم عن الدخول في معارك أخرى. فالميزان العسكري المادي للقوى المتصارعة لم يكن هو المقياس في النصر أو الهزيمة بل كان المقياس: الايمان الحقيقي في القتال. وكان الامام (ع) يمثّل ذلك الايمان الحقيقي في القتال بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

وقد ترتب على معركة أحد والبطولة الشخصية للعترة الطاهرة (ع) آثار في غاية الاهمية على صعيد مستقبل الاسلام. ومن تلك الآثار:

أ - التنظيم النفسي: لقد افرزت المعركة ان للمتغيرات النفسية كالخوف والقلق والهروب من ساحة المعركة والتخلّف عن الزحف تأثيراً مهماً على ارباك الانسجام الفكري والنفسي للمقاتلين. فالمعركة _ بالدرجة الاولى _ ليست بين افراد من طرفين بل هي صراع ديني وفكري بين مجتمعين. وبالتحديد بين مجتمع الاسلام ومجتمع الشرك. واي ارباك نفسي لمجتمع الاسلام يعني هزيمة نفسية للمسلمين لا يمكن تحملها في تلك الظروف الحرجة.

ب- تنظيم المسؤوليات: ان تصرف جنود عبد الله بن جبير الذين اجلسهم رسول الله (ص) على حافة جبل أحد لضبط المشركين، وعصيانهم للأوامر النبوية وتركهم مواقعهم سعياً نحو الغنائم كان درساً قاسياً في معنى المسؤولية الشرعية والعقلية. فقد كان من وظيفة هؤلاء البقاء في اماكنهم وعدم تركها. ولكن الانحلال من المسؤولية الاجتماعية عند هؤلاء أدّى الى انحلال اعظم في المسؤوليات الدينية. ولذلك فان معركة أحد كانت درساً في تنظيم مسؤوليات المقاتلين وعدم مخالفتهم لاوامر رسول الله (ص).

ج - تنظيم العلاقات الداخلية: ان الحرب تتطلب علاقات دينية متشابكة بين القائد وجنوده. فكان علي (ع) يمثّل لاوامر رسول الله (ص) حرفياً. فعندما يأمره: احمل عليهم: كان لا يتردد في ذلك بل كان يحمل عليهم بشدّة ويفترق جمعهم، كما قتل عمرو بن عبد الله الجحفي،

وشيبة بن مالك وغيرهم. اما الذين فروا من المعركة فقد كشفت الحرب هشاشة ايمانهم بالاسلام. بل كشفت في الواقع مقدار حرصهم على مصالحهم الشخصية وحبهم للحياة من الذل على الموت مع الشرف والشهادة.

د - الشجاعة الفردية: اثبتت الشجاعة الفردية انها من العوامل الحاسمة في معارك الاسلام الاولى. فالتقنية العسكرية في ذلك الزمان المتمثلة بالسيف كانت تسمح للشجاعة الشخصية بالظهور بصورة بارزة. نعرض مثلاً لذلك. فقد كانت راية قريش مع «طلحة بن ابي طلحة العبدى» من بني عبد الدار فقتله علي (ع)، وأخذ الراية من بعده «ابو سعيد بن ابي طلحة» فقتله علي (ع) وسقطت الراية فأخذها «مسافع بن ابي طلحة» فقتله علي (ع)، حتى سقط تسعة نفر من بني عبد الدار حتى صار لوائهم الى عبد لهم اسود يقال له: «صواب» فانتهى اليه علي (ع) فقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء باليسرى فضرب يسراه فقطعها فاعتنقها بالجذماوين الى صدره، ثم التفت الى ابي سفيان فقال: هل عُذرت في بني عبد الدار؟ فضربه علي (ع) على رأسه فقتله. وسقط اللواء فأخذتها غمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها.

وكان ذلك قبل انقضا حالد بن الوليد على عبد الله بن جبير وجماعته القليلة، وقبل الاتيان على المسلمين من اديبارهم.

لقد كانت الشجاعة الفردية عاملاً من عوامل قلب التوازن العسكري، وتحويل ضعف المسلمين وقتلهم الى نصر مؤزر في المرحلة الاولى من الحرب. وإيقاف الهزيمة من تحقيق جميع اهدافها في المرحلة الثانية من معركة أحد. وفي هذه المعركة بالذات، قامت شجاعة علي (ع) الفردية البطولية بإيقاف تداعيات تلك الهزيمة من تحقيق اهدافها، وهو المنع من قتل رسول الله (ص) من قبل المشركين على اقل التقادير.

علل الحرب وبدائلها

تختلف علل الحرب ومقتضياتها من معركة لأخرى. ولا يمكن تفكيك طبيعة المقاتلين واخلاصهم وقوة يقينهم، عن الآثار الناتجة عن سلوكهم الحربي. واذا كان الاسلام يحث المؤمنين

على قتال المشركين بتلك الحماسة والقوة، فانه يستند على قاعدة تفصح عن ان الحرب الابتدائية هي البديل الاخلاقي للسلم الدليل مع الشرك والوثنية وعبادة الاصنام.

١- هل يمكن النظر لكل الحروب من زاوية واحدة؟

لا يمكن الاقرار ابدأ بأن لكل الحروب ابعاداً متساوية وعللاً متشابهة. فالحرب ليست ظاهرة تجريبية تحصل في كل مرة بنفس العوامل التي تحصل لحرب أخرى. فهي ليست تجربة كيميائية تضع فيها المواد المتفاعلة لتشرع بالفاعل ومن ثم تنتج المادة المطلوبة. بل ان لكل حرب خصائصها ومظاهرها واسبابها. ومن هذا النمط نستطيع ان ننظر _ بعين البصيرة _ الى معركة أحد، فهي تختلف عن بدر الكبرى والخنديق وخيبر. لا لأنها وقعت في مكان وزمان مختلفين عن المعارك الاخرى، بل لان نظامها قد اختلف بسبب عصيان بعض الرماة اوامر رسول الله (ص). فقد ارتكب هؤلاء الرماة تلك المعصية في وقت كان المفترض بهم طاعة قائدهم (ص)، وهم يحمون ثغر جيش المسلمين على جبل أحد.

وإذا كان خلافاً من هذا الحجم قد أوقع تلك الخسارة بالمسلمين، فما بالك لو كانت شخصية كشخصية علي (ع) غائبة عن الساحة العسكرية، فكيف كان حجم الخسارة؟ لا شك ان وجود بطل الابطال (ع) في الميدان منافحاً عن رسول الله (ص) ومدافعاً عن الدين الحنيف ومقاتلاً المشركين كان قد جنّب الاسلام حجماً عظيماً من الخسارة في وقت انهزم فيه المقاتلون عن ساحة المعركة. وقد امر الله سبحانه بحرمة الفرار وقت الزحف، فقال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**. فبين القرآن المجيد حكماً شرعياً خاصاً بالمعركة وهو حرمة استدبار العدو واستقبال جهة الهزيمة ؛ وخطاب تلك الآية عام غير مخصوص بوقت او بمعركة معينة. وعليه يتحمل المنهزم من القتال غضباً من الله سبحانه فيكون موعده جهنم وبئس المصير. وقال تعالى في خصوص واقعة أحد: **(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا...)**.

ولكنهم فروا على اية حال، ولا يثبت مع رسول الله (ص) الا الامام (ع) والقلة القليلة من المؤمنين. فالخطأ البشري في ساحة المعركة مهما كان صغيراً، يكلف الجيش المقاتل خسارة

عظيمة. وقد كان خطأ بعض المسلمين ممن عصوا رسول الله (ص) مدمراً وقاتلاً بحيث كان الخطر مهيمناً على وجود الدين كله. ومنع أخطاء من ذاك القبيل مهمة ايضاً في منع حدوث خسارة من ذاك الحجم.

ان الخسارة في الحرب لاي طرف، تعني تحطيم شبكة العلاقات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للطرف المنهزم. وهذا يعني ان الفشل في تحقيق النصر العسكري او النفسي على المشركين هو تحطيم للمباني التي قام عليها الدين من طاعة رسول الله (ص) والمؤاخاة الاجتماعية والعدالة الحقوقية والعبادات. ولذلك، فاننا لا نستطيع تفكيك طبيعة النظام الديني عن جيشه ومقاتليه من جهة ونظام الشرك وجيشه ومقاتليه من جهة اخرى. فالمقاتلون في كل طرف يعكسون الصورة الحقيقية لمجتمعهم ونظامهم السياسي والديني والاجتماعي.

وفي ضوء ذلك نفهم ان الاختلال في ميزان القوى بين الايمان والشرك الذي احدثته معركة أحد كان خطيراً للغاية. لكنه كان مؤقتاً، ذلك لان الاسلام كان يملك طاقات هائلة كامنة في نفوس اتباعه والمؤمنين به. فاذا كانت شجاعة علي (ع) قد منعت هزيمة الاسلام، وحافظت على حياة رسول الله (ص)، فانها كانت قادرة ايضاً على حصد النصر المؤزر في معارك قادمة .

٢ - ما هو البديل الاخلاقي للحرب؟

ربما يتسائل المرء: هل هناك بديل اخلاقي يستطيع ان يحل محل الحرب، والدمار الشامل التي يلحقها؟ والجواب على ذلك هو انه ليس هناك بديل اخلاقي عن الحرب غير الحرب. فالحرب الدفاعية التي يشنها المسلمون هي البديل الاخلاقي للحرب الهجومية التي يشنها المشركون. والحرب الهجومية من قبل المسلمين هي البديل الاخلاقي لتترك المشركين منغمسين في شركهم وفسقهم وفسادهم في الارض. والى ذلك اشار عز وجل: **(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)**، **(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**، **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**.

فلا شك ان من الوظائف المشروعة للمسلمين في حرب هجومية يقوم بها الاعداء هو القيام بمهمة الدفاع. فالدفاع عن الدين والنفس والعرض والوطن هو الحد الأدنى الذي يتطلبه ميدان المعركة. والدفاع يعني مقاتلة العدو قتالاً شديداً حتى يتم ابعاد الخطر عن الاسلام او يتم افناء القوة المهاجمة. ومن الطبيعي فان الفرار لا يعدّ اسلوباً من اساليب الدفاع. بل هو الهزيمة بعينها، ولذلك فقد نهى القرآن الكريم التولي بعد الزحف، فقال: **(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمِ الْأُدْبَارَ).**

وتؤيده العديد من الروايات. «منها»: ان امير المؤمنين (ع) قال مشيراً الى الآية الكريمة السابقة: «ان الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازين على الضلال، ضلال في الدين وسلب للدين مع الذل والصغار، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال».

و«منها»: ان ابا الحسن الرضا (ع) كتب في جواب بعض المسائل: «حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين، والاستخفاف بالرسول والائمة العادلة، وترك نصرتهم على اعدائهم، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا اليه من الاقرار بالربوبية واطهار العدل، وترك الجوار وامانة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عزّ وجلّ وغيره من الفساد».

ومن ذلك نستنتج بان الحرب ومقاتلة الاعداء، دفاعاً أو هجومياً، لا يتطلب قراراً سياسياً، بقدر ما يتطلب حكماً شرعياً وقراراً دينياً يتخذه الدين. لان النبي (ص) كان يدرك الموضوع الخارجي والحكم الشرعي وملاكه. وقد كان (ص) يستمد ذلك من الوحي والامداد السماوي.

ان معركة أحد رسمت الصورة الواضحة وهي: ان تغيير عقيدة الانسان من الشرك الى الايمان لا يتم عن طريق السلام والطرق السلمية، بل لابد من الحرب. واذا لم يفكر المسلمون بالهجوم، فان المشركين سوف يبدأون بالهجوم على المسلمين. فالمعركة اذن معركة بقاء او فناء لاحد الطرفين. فلا يمكن الغاء الحروب من الخريطة الاجتماعية للبشرية كما انه لا يمكن الغاء الامراض من الخريطة الصحية للبشر. فالامراض تحتاج الى علاج يتمثل بالدواء، كما ان الشرك

يحتاج الى علاج من اجل ان يُجثت من جذوره الفاسدة، يتمثل بالحرب. اذن ليس هناك من بديل في التعامل مع المشركين غير بديل الحرب.

(نهاية ص ٣٦٨)

«تاريخ الطبري» ج ٢ ص ٤٩٩.

«ينابيع المودة» - القندوزي باسناده عن علي بن الحسين. الباب الثالث عشر ص ٦٤.

المهراس: ماء بجبل أحد.

«الكامل في التاريخ» ج ٢ ص ١٥٧.

«وسيلة المآل» - الحضرمي ص ٢٢٥. و«اسنى المطالب» - الوصابي. الباب الحادي عشر ص ٦٩.

«مفتاح النجاء» - البدخشاني باسناده عن قيس بن سعد عن ابيه ص ٤١.

سورة آل عمران: آية ١٤٤.

سورة آل عمران: آية ١٤٤.

«سيرة ابن هشام» ج ٣ ص ٦٤.

الاحابيش: من اجتمع الى العرب وانضم اليهم من غيرهم.

الظعن: جمع الظعينة وهي المرأة الراكبة في الهودج. وكانت الابل تحمل الهودج. قال عمرو ابن كلثوم:

قفي قبل التفرق يا ظعينا نُخَبِّرُكَ اليقين وتُخْبِرُنَا

«الصحاح» للجوهري ج ٤ ص ٢١٦.

«تأريخ الطبري» ج ٢ ص ٥٠١.

«تأريخ الطبري» ج ٢ ص ٥٠١ - ٥١٤.

م. ن. - ج ٢ ص ٥٠١ - ٥١٤.

كان حمزة عم النبي (ص) واخوه في الرضاعة ويكبره اربع سنين. دافع حمزة (رض) عن النبي (ص) يوم العقبة، حيث وقف هو وامير المؤمنين (ع) على العقبة ومعه السيف مخاطباً المشركين: «والله لا يجوز احد هذه العقبة الا ضربته بسيفي». وكان رسول الله (ص) ومن بايعه من الانصار في دار عبد المطلب في مكة.

«جوامع السيرة النبوية» - ابن حزم الاندلسي ص ١٣٨.

م. ن. - ص ١٣٨.

سورة آل عمران: آية ١٤٤.

سورة آل عمران: آية ١٤٦.

«التفسير الكبير» للرازي. تفسير آية ١٤٦ من سورة آل عمران.

«المصدر السابق».

سورة آل عمران: آية ١٥٥.

«جوامع السيرة النبوية» ص ١٢٩.

«بحار الانوار» للمجلسي ج ٦ الطبعة الحجرية.

أي من الذي قُتل؟

سورة النور: آية ٦٢.

«الكامل في التأريخ» ج ٢ ص ١١١.

تشية جذماء أي: باليدين المقطوعتين.

سورة الانفال: آية ١٥ - ١٦ .

سورة آل عمران: آية ١٥٥ .

سورة التوبة: آية ٢٩ .

سورة التوبة: آية ٥ .

سورة التوبة: آية ١٢٣ .

سورة الانفال: آية ١٥ .

«علل الشرائع» - الشيخ الصدوق. باسناده عن ابن شاذان ان الامام الرضا (ع) كتب اليه فيما كتب من جواب مسائله.

(ص ٣٩٩ - ٤١٦)

الفصل الخامس عشر

واقعة ذات السلاسل

الامام (ع) ومعركة ذات السلاسل * الدلالات العلمية للنصوص: ١- ماكنة تزوير التاريخ. ٢ - بين فرص الحرب والرغبة في القتال: أ - التأثر الصميمي بالقائد (ع). ب - علي (ع) وفرصة الحرب. ج - علي (ع) والرغبة في القتال.

الامام (ع) ومعركة ذات السلاسل

وهي غزوة وادي الرمل التي وقعت في السنة الثامنة من الهجرة.

فقد بعث رسول الله (ص) الى اهل وادي اليباس «ذات السلاسل» عدداً من الصحابة كأبي بكر وعمر، فكان كلٌ منهم يرجع الى رسول الله (ص) ولا يقاتلهم. الى ان بعث (ص) علياً (ع) الى تلك المنطقة فأوقع بهم. و«سميت هذه الغزوة ذات السلاسل لانه (ع) اسر منهم وقتل وسبى وشد اسراهم في الحبال مكتفين كأنهم في السلاسل. ولما نزلت سورة [العاديات] خرج رسول الله (ص) الى الناس فصلى بهم الغداة وقرأ فيها: **(والعاديَاتِ ضَبْحاً . فالموريَاتِ قَدْحاً)** فلما فرغ من صلاته قال اصحابه: هذه سورة لم نعرفها. فقال رسول الله (ص): نعم ان علياً ظفر بأعداء الله وبشرني بذلك جبرئيل (ع) في هذه الليلة، فقدم علي (ع) بعد ايام بالغنائم والاسارى».

والقصة ان اهل وادي اليباس اجتمعوا في اثني عشر الف فارس وتعاهدوا وتعاهدوا وتوثقوا على ان لا يتخلف رجل عن رجل ولا يخذل أحداً واحداً ولا يفر رجل عن صاحبه حتى يموتوا كلهم عن حلف واحد او يقتلوا محمداً (ص) وعلي بن أبي طالب (ع). فنزل جبرئيل (ع) على محمد (ص) وأخبره بقصتهم وما تعاهدوا عليه وتوثقوا وامره ان يبعث ابا بكر اليهم في اربعة آلاف فارس من المهاجرين والانصار، ولكنه رجع اعتقاداً منه بان القوم من اهل اليباس اكثر منهم عدداً وأقوى منهم عدّة. فخالف امر رسول الله (ص) بذلك. ثم بعث النبي (ص) عمر بن الخطاب في المرة الثانية، ولكنه رجع بنفس مقالة ابي بكر.

فدعا علياً (ع) وأوصاه بما اوصى الاول والثاني واصحابه الاربعة آلاف فارس واخبره ان الله سيفتح عليه وعلى اصحابه. فخرج علي (ع) ومعه المهاجرون والانصار فصار بهم سريعاً حتى خافوا ان ينقطعوا من التعب وتحفى دوابهم، فقلنا لهم: لا تخافوا، فان رسول الله (ص) قد أمرني بأمر وأخبرني ان الله سيفتح عليّ وعليكم فابشروا فانكم على خير والى خير. فطابت نفوسهم وقلوبهم وساروا على ذلك السير والتعب حتى اذا كانوا قريباً منهم حيث يرونهم ويبراهم، امر

أصحابه ان ينزلوا وسمع اهل وادي اليباس بقدم علي بن ابي طالب واصحابه، فخرج اليه منهم مائتا رجل شاكين بالسلاح. فلما رأهم علي (ع) خرج اليهم في نفر من اصحابه فقالوا لهم: من انتم ومن اين انتم ومن اين اقبلتم واين تريدون؟ قال: انا علي بن ابي طالب ابن عم رسول الله (ص) اخوه ورسوله اليكم. ادعوكم الى شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ولكم ان آمنتم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم من خير وشر. فقالوا له: اياك اردنا وانت طلبتنا قد سمعنا مقاتلتك وما عرضت علينا فخذ حذرنا واستعد للحرب العوان، واعلم اننا قاتلوك وقاتلوا اصحابك والموعود فيما بيننا غداً ضحوة، وقد أعذرنا فيما بيننا وبينكم.

فقال لهم علي (ع): ويلكم! تهددونني بكثرتكم وجمعكم فانا استعين بالله وملائكته والمسلمين عليكم، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، فانصرفوا الى مراكزكم. وانصرف علي (ع) الى مركزه. فلما جت الليل أمر اصحابه ان يحسنوا الى دوابهم ويقضوا ويسرجوا، فلما انشق عمود الصبح صلى بالناس بغلس ثم اغار عليهم باصحابه فلم يعلموا حتى وطأتهم الخيل. فما ادرك آخر اصحابه حتى قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح اموالهم وخرب ديارهم واقبل بالاسارى والاموال معه. ونزل جبرئيل (ع) فأخبر رسول الله (ص) بما فتح الله بعلي (ع) وجماعة المسلمين. فصعد رسول الله (ص) المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأخبر الناس بما فتح الله علي المسلمين واعلمهم انه لم يصب منهم الا رجلا نزل. فخرج يستقبل علياً في جمع اهل المدينة من المسلمين حتى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة. فلما رآه علي (ع) مقبلاً نزل عن دابته ونزل النبي (ص) حتى التزمه وقبل ما بين عينيه. فنزلت جماعة المسلمين الى علي (ع) حيث نزل رسول الله (ص) واقبل بالغنيمة والاسارى وما رزقهم الله به من اهل الوادي اليباس. قال الامام جعفر بن محمد (ع): ما غنم المسلمون مثلها قط الا ان يكون من خبير فانها مثل ذلك. وانزل تبارك وتعالى في ذلك اليوم هذه السورة **(والعادياتِ ضحاً)**. وأورد صاحب تفسير البرهان موجزاً عن الغزوة في ذيل سورة العاديات.

قال السيد الحميري يصف الغزوة:

وفي ذات السلاسل من سليم
غداة أتاهم الموت المبير
وقد هزموا ابا حفص وعمرواً
وصاحبه مراراً فاستطبروا

فحل النذر او وجبت نذور

وقد قتلوا من الانصار رهطاً

جحاجة يسد بها الثغور

أزاد الموت مشيخة ضخاماً

وعندما استقبل النبي (ص) علياً في اطراف المدينة قال: «الحمد لله يا علي الذي شدّ بك ازري وقوى بك ظهري، يا علي انني سألت الله فيك كما سأل اخي موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه ان يشرك هارون في امره وقد سألت ربي ان يشدّ بك ازري. ثم التفت الى اصحابه وهو يقول: معشر اصحابي لا تلموني في حب علي بن ابي طالب (ع) فانما حبي علياً من امر الله، والله امرني ان احب علياً وادنيه. يا علي من احبك فقد احبني ومن احبني فقد احب الله...».

الدلالات العلمية للنصوص

لم تستطع ماكنة تزوير التأريخ نفى العلاقة الوثيقة بين فرص الحرب ورغبة علي (ع) الشديدة في قتال المشركين. فكانت تلك الرغبة المتعلقة بارادته (ع) في وضع نفسه في خدمة اهداف الحرب ضد الشرك، مقياساً حقيقياً لفضائله المثالية وتضحياته العظيمة من اجل الاسلام.

١ - ماكنة تزوير التأريخ:

كيف استطاع السلاطين تزوير ماكنة التأريخ بحيث ان تلك الواقعة مُحيت من الكتب التأريخية؟ وما هو حجم الماكنة الاعلامية والروائية التي حاولت مسح تلك الواقعة العظيمة من لوح التأريخ؟ تلك الواقعة التي قال عنها بعض المؤرخين بأنها اشهر موافقه (ع) ايام النبي (ص). لا شك ان الباحث المنصف لا يجد بداً من الايمان بان ماكنة السلطان الضخمة في قلب الحقائق وتزوير المفاهيم، قد وجدت في معركة «ذات السلاسل» حقائق كبيرة ينبغي اخفاؤها عن الاجيال الجديدة. حتى لا ينتشر ذكر علي بن ابي طالب (ع) ولا يمتد فضله في ارجاء الدنيا والتأريخ.

فلم يذكر ابن هشام في سيرته غير القضايا الهامشية عن تلك الغزوة، فيُعْتَوْنَهَا بعنوان:
«غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل» ويقول:

«وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من ارض بني عُذرة. وكان حديثه ان رسول الله (ص) بعثه يستنفر العرب الى الشام. وذلك ان أم العاص بن وائل كانت امرأة من بليّ، فبعثه رسول الله (ص) اليهم يستألفهم لذلك. حتى اذا كان على ماء بأرض جُذام، يقال له السَّلسل، وبذلك سُمّيت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل. فلما كان عليه خاف، فبعث الى رسول الله (ص) يستمده. فبعث اليه رسول الله (ص) أبا عُبَيْدة بن الجراح في المهاجرين الاولين، فيهم ابو بكر وعمر؛ وقال لابي عبّدة حين وجهه: لا تختلفا. فخرج ابو عبّدة حتى اذا قدم عليه، قال له عمرو: إنما جئتَ مدداً لي. قال ابو عبّدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه. وكانت ابو عبّدة رجلاً ليناً سهلاً، هيناً عليه امر الدنيا، فقال له عمرو: بل انت مدد لي. فقال له ابو عبّدة: يا عمرو، ان رسول الله (ص) قال لي: لا تختلفا. وانك إن عصيتني أقطعك. قال: فأنّي الامير عليك، وانت مدد لي. قال: فدونك. فصلى عمرو بالناس». ومع ان النص يظهر ان ابا بكر وعمر كانا ضمن جنود الجيش ولم يكونا من قاداته، ويُظْهِر الاختلاف بين عمرو بن العاص وابو عبّدة، ويُظْهِر حجم طموح عمرو بن العاص نحو الرئاسة وحب الدنيا، الا انه لا يُظْهِر طبيعة المعركة من حيث النصر او الهزيمة. فكيف يمكن لمعركة بتلك الضخامة ان تطوى من صفحات التاريخ لمجرد ان ابا بكر وعمر انهزما فيها، وانتصر علي (ع) على المشركين؟

هذا الامر يدعونا الى دراسة فلسفة التاريخ.

فلسفة التاريخ:

يعبر عن كل محاولة لاعطاء تفسير شامل وتوضيح كلي للعملية التاريخية بعبارة «فلسفة التاريخ». وعندما نتساءل عن: معنى التاريخ؟ وماهية اهدافه واغراضه؟ وماهية القوانين التي تحكم التطور التاريخي؟ ونحوها من تلك التساؤلات، فانما نبحت عن اجوبة تعطينا فكرة عن فلسفة التاريخ. ولذلك فعندما ندرس التاريخ، فاننا ندرس في الواقع المشاكل الكامنة وراء الاحداث التاريخية، وندرس العلل التي حكمت تلك الاحداث. ولذلك فنحن نتعلم من دراسة التاريخ كيفية التنبؤ بقضايا المستقبل في المجتمع الانساني.

ان الارضية التي تفسر بها احداث التأريخ وتُنقل اما ان تكون لها اهداف دينية أو سياسية أو اجتماعية. ولذلك فان تلك الاحداث لا يُنظر اليها بنفس الشكل ونفس الصورة من قبل الجميع.

فبعض المؤرخين مثل ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ينظر لـ «العمران الانساني» كشرط اساسي في صحة احداث التأريخ. فالحدث التأريخي ينسجم مع الحالة الاجتماعية السائدة. ويرى اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) ان التأريخ الثقافي هو الذي يحدد طبيعة الاحداث التاريخية. بينما يرى المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) ان تواريخ الملوك والامم والسياسة هي التي تصنع الاحداث التاريخية.

وبعض المؤرخين مثل كارل ماركس ينظرون للتأريخ على اساس انه خط مستقيم يصل الى اهدافه المرسومة. والبعض الآخر مثل ارنولد توينبي ينظر للتأريخ على اساس انه دوائر من التغيير تعيد نفسها في كل فترة تاريخية.

وعندما ننظر نحن الى التأريخ، فاننا لا ننظر له على اساس مجموعة من الاحداث المنفصلة. بل نراه مجموعة من الاحداث المترابطة التي يجمعها رباط معرفي علمي ينبغي ان يُدرس ويُحلل ؛ على قاعدة ان التأريخ يعكس ايضاً التفكير التأريخي في ذلك الزمان ويعكس تلك الحجج والبراهين التي يمكن ان تستخدم من اجل اقناع الافراد.

ولا شك ان تزوير الحقائق وقلب المفاهيم، من اجل خلق شخصيات فكرية استدلالية وهمية للاحداث، يرتبط مباشرة بتلك العملية التاريخية. فقد حاول الامويون وعلى مدى قرن كامل تزوير شخصية الامام علي (ع) من خلال شتمه على منابر المسلمين. وهنا كيف يستطيع المفكر بعد اربعة عشر قرناً فهم التفكير التأريخي ما لم يفضح التزوير الذي حصل في تلك الحقبة التاريخية؟

فمهمة المؤرخين في البحث عن الماضي واحداثه وعلله، يصطدم احياناً بأحداث فريدة في ذاتها ولا يمكن ان تتكرر مرة اخرى. وتلك الاحداث، كما انها تُنشئ انبهاراً بشخصياتها وافكارها، فانها قادرة على ان تنشئ صورة قابلة للإتهام بأنها مبالغ فيها وكاذبة. ومن هنا، فان

تلك الاحداث، يمكن ان تصور في التأريخ على انها احداث لها نهايتان: اما التصديق المطلق او التكذيب المطلق بها. ومن تلك الاحداث قضية الامامة عموماً، وامامة امير المؤمنين (ع) بالخصوص، وقضية معركة ذات السلاسل بالخاص. فقد كان للمعركة قابلية _ في اطار المصداق _ لانشاء نهايتين هما: التصديق المطلق او التكذيب المطلق، لذلك فانها حُذفت من كتب التأريخ المتصلة بأعداء امير المؤمنين (ع). وكان من اهداف ذلك الحذف ان لا يكون لتلك المعركة دور تأريخي يضاف الى ميزات الامام (ع) وفضائله.

ولا شك ان العلية في التأريخ ينبغي ان تؤخذ بلحاظ الظروف التاريخية التي مرت بالحادثة ذاتها، ولا تؤخذ بالظروف التي نعيش فيها اليوم بعد اربعة عشر قرناً. ذلك ان قراءة التأريخ يعني قراءة لعل تلك الفترة الزمنية التي نقرأ أحداثها. فاذا كان علي (ع) قادراً على إلحاق الهزيمة بالمشركين في تلك الظروف الصعبة، فانه (ع) كان قادراً على نصر الاسلام وتشبيت موقعه في الحياة.

فالاحداث التي قد نستغرب ضخامتها الان في هذا العصر، فانما نستغربها لان عللها في الزمن التي حصلت فيه تختلف عن علل هذا الزمان. فالقدرة الخارقة للعادة عند علي (ع) على ساحات المعارك قد نستغربها اليوم، لاننا لا نعيش علل ومسببات تلك الفترة الزمنية ومنها عدم تعقد الحياة الاجتماعية ووجود السيف كسلاح رئيسي في المعركة ووجود الفرس ونحوه من وسائل النقل والحرب. وتلك العلة استدعت وجود بطل عملاق يستطيع تحطيم قدرات العدو العسكرية وتدميرها.

الفكرة التاريخية:

ولكن السؤال المطروح اليوم هو: هل ان للفكرة التاريخية خصائصها المنطقية والفلسفية التي تقاوم كل محاولات التفسير والتأويل؟ لا شك ان الجواب يمكن ان يتركز على نقطتين:

الاولى: الشخصية الفلسفية للحدث التاريخي، وهل يمكن ان يُفسّر بطرق مختلفة او لا؟
فهل ان واقعة ذات السلاسل لها تأثير على مجرى التأريخ مثلاً؟ وهل يمكن ان نستلهم منها العبر

لحد اليوم؟ خصوصاً اذا عرفنا ان ابا بكر وعمر وعلياً (ع) كانوا المحركين لاجدائها سلباً أو ايجاباً.

ونعني بالشخصية الفلسفية للحدث هو ان الحدث التاريخي يستنتقُ عللاً منطقية ومباني عقلية يستأنس بها العقل البشري على مر العصور. فحدث نزول الوحي على رسول الله (ص) مثلاً له شخصية فلسفية عظمية لانه يستنتقُ عللاً يستأنس بها العقل البشري مادام موجوداً على البسيطة. وواقعة ذات السلاسل تجري على نفس القاعدة، لان شجاعة علي (ع) فيها كانت علّة يتناغم معها العقل البشري الذي يميل الى هزيمة الاشرار من الكفار ويحب انتصار اهل التوحيد والحق.

الثانية: الشخصية المعرفية للحدث التاريخي، وهل يستبطن ذلك الحدث صلاحية موضوعية للاستمرار بالنظر اليه كحدث تاريخي؟ خصوصاً ان بعض الاحداث التي وقعت في التاريخ انتهت لوقتها، كما هو الحال في موت ابي سفيان مثلاً او اندثار دولة المناذرة او سقوط همدان.

ونعني بالشخصية المعرفية للحدث هو ان الحدث التاريخي يستبطن مصدراً للمعرفة يُنقل للاجيال المتلاحقة بعد انتهائه. ومعركة ذات السلاسل التي وضعت علياً (ع) اسطورة في البطولة على المسرح الاجتماعي، تعدُّ شجرة في المعرفة من حيث البطولة والتضحية والايثار والايمان بالله سبحانه والقدرة على تحطيم الشرك في الارض.

شروط تفسير «ذات السلاسل»:

ومن هنا لابد لنا في تفسير الاحداث التاريخية من محاولة ربطها بسلسلة من الشروط والوقائع المترابطة. فالحرب الابتدائية مثلاً لا تكون عادلة ما لم يكن قائدها بطلاً عارفاً بالله سبحانه او معصوماً، والثورات السياسية لا نستطيع فهم ابعادها ما لم نفهم الشخصيات التي تحركها من وراء الستار. فالشرطية والعلية هنا تسلطان ضوءً على معرفة الحدث التاريخي وفهم دوافعه التاريخية. وهنا لابد من ترتيب النقاط التالية:

١ - القضية الشرطية في الحدث التاريخي، وهي القضية التي يتحدد جزاؤها متى ما تحقق شرطها مثل (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) وهذا هو الجزء (حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) وهذا هو الشرط. اما بخصوص المعركة فنقول ان بطولة الامام (ع) وتفانيه في معارك الاسلام كانت شرطاً للنصر. فالبطولة في (ذات السلاسل) كانت شرطاً، والنصر كان جزاءً لذلك الشرط.

٢ - قضية العلية في الحدث التاريخي، وهي ان تفاني علي (ع) في المعركة وذويانته في الله كان علةً لهزيمة المشركين واذلالهم. وهذه علة تامة، تشتمل على جميع ما يتوقف عليه وجود المعلول، بحيث لا يبقى للمعلول معها الا ان يوجد.

٣ - قضية تجميع وحدات بناء الحقيقة التاريخية وحده وحدة حتى يمكن فهم العلاقات الطبيعية بين كل مصداق من مصاديق تلك الصورة الكلية. فمن اجل ادراك مغزى الحادثة التاريخية او فهم الدوافع التي حركتها لابد من اشتراكنا في تصورها مع الابطال الذين صنعوها في آمالهم ومشاعرهم وصدق احساسهم.

ومن تلك القدرات الذهنية التي نبذلها في فهم التاريخ، نستطيع ان نربط العوامل التاريخية بعضها ببعض بصورة عقلانية ونخرج بعدها بتصور أقرب الى الواقع عما حدث. والموضوعية هنا ممكنة، بل حتمية من اجل استمرار فهم صادق للتاريخ. ذلك ان الصفات والتفسير اذا كانت حقيقية، كان العمل التاريخي اقرب الى الموضوعية.

ولو وضعنا «ذات السلاسل» في الميزان الموضوعي، وربطنا تفاني الامام (ع) وبطولته في المعارك الكبرى السابقة، ل جاءت هذه المعركة في موضعها الصحيح. فصفات الامام (ع) الدينية والاخلاقية والعسكرية كانت متطابقة تماماً مع شروط تلك الواقعة العظيمة.

ان ماكنة تزوير التاريخ حاولت حذف واقعة ذات السلاسل لان الدوافع السياسية للسلطين وكتاب التاريخ كانت متضادة في محاولة محو المثاليات الدينية عند الامام (ع). ومع ان كفة كتاب تاريخ السلطين قد رجحت _ تاريخياً _ على كفة كتاب تاريخ الحق، فحذفوا النصوص ومسحوا البراهين والدلائل التي دلت على وقوع ذلك الحدث التاريخي الخطير. الا ان الصحف القليلة التي كُتبت فيها الحقيقة بقيت تتداولها الايدي الامينة وتحافظ عليها بسفك

المهيج. لقد انحرف مؤرخو السلاطين عن الجادة عندما تخلوا عن موضوعيتهم ونزاهتهم في عرض الحقائق التاريخية عرضاً مجرداً عن الدوافع السياسية.

وبالاجمال، لو سُئلنا: كيف استطاعت الماكنة الاعلامية تزوير التاريخ وحذف تلك الواقعة العظيمة، التي كانت اشهر موافقه (ع) مع النبي (ص)، من صحائف التاريخ؟ وما هي اهدافها؟
لقلنا: ان الارضية التي تُفسَّر بها احداث التاريخ لها اهدافٌ سياسية. فالتحريف الذي يحصل في الاحداث التاريخية يرجع الى فكرة تغير العلية التاريخية. وبمعنى اوضح ان الاحداث تؤخذ بلحاظ الظروف التاريخية التي مرت بالحادثة ذاتها، ولا تؤخذ بالظروف التي يعيشها الناس بعد مئات السنين. ذلك ان قراءة التاريخ يعني قراءة لعل تلك الفترة الزمنية التي نقرأ أحداثها.

وبالنتيجة، فان حذف حدث تاريخي من كتب التاريخ، سيولّد شكوكاً في مصداقية ذلك الحدث بعد مئات من السنين. وكان هذا هو الهدف الذي سعى من اجله السلاطين والخلفاء، وهو حذف فضائل امير المؤمنين (ع) من كتب التاريخ، حتى لا يتسنى للذين يأتون من بعده من الاجيال المتلاحقة تصديق تلك الاحداث المتصلة بفضائله ومعجزاته (ع).

٢ - بين فرص الحرب والرغبة في القتال:

هناك علاقة متينة بين فرص الحرب وبين الرغبة في القتال. وقد لاحظنا تلك العلاقة بصورة جلية في مقدمات معركة ذات السلاسل. فما هو دور تلك العلاقة في الصراع بين الشرك والايمان؟ تعني «فرص الحرب» امكانية تحقيق التحام عسكري بين الطرفين المتحاربين. اما «الرغبة في القتال» فهي تتعلق بارادة الانسان المحارب بوضع نفسه في خدمة اهداف الحرب، فلا يكثر حينئذٍ بالقتل او الجرح او تكبد الخسارة. فقد يذهب الفرد الى المعركة ولكن ليست لديه الرغبة في القتال. لانه قد يؤمل نفسه بضعف احتمالية تحقيق الالتحام العسكري بين الطرفين.

ولذلك، فان أي موقف سلمي يلمسه من قبل العدو _ كشراسة الاعداء وحسن عدتهم وكثرتهم _ يجعله يتلمس الاعدار للهروب من ساحة المعركة والفرار صوب الامان والحفاظ على النفس. وهذا ما حصل للذين ذهبوا الى المعركة قبل علي (ع). اما البطل المقدم الذي كان

يحارب في سبيل الله، فانه ما ان لبس لامة الحرب، حتى بنى في نفسه وعقله رغبة جامحة في الاقتحام والمقاتلة والموت في سبيل الله تعالى. وهذا ما قام به علي (ع) في تلك المعركة.

فالرغبة في القتال، اذن، لها علاقة بالدوافع والاهداف التي يمتلكها المحارب حيث يختار الحرب كبديل رئيسي لتحقيق الهدف. ومن هنا نرى اقتحام الامام (ع) لتحصينات العدو في ذات السلاسل كان اقتحاماً سريعاً كلمح البصر تموّنه شعلة الرغبة للقتال والتحرق لمواجهة اعداء الله. بحيث ان عدّوه السريع اعنف بهم، فخافوا ان ينقطعوا من التعب وخافوا ان تحفى دوابهم قبل ان يصلوا الى عدوهم. ولكن الرغبة الجامحة في قتال المشركين، والموت في سبيل الله كان يقوي فرص الحرب عند علي (ع) من اجل الالتحام بين جيشي المسلمين والمشركين.

أ - التأثير الصممي بالقائد (ع):

وهذا الجو المشحون بالرغبة في القتال من قبل القائد، يؤسس لتقوية رابط آخر بين كيان المحارب وبين المحيط الديني الذي يعيش فيه. فلا بأس ان نضع الموضوع على شكل التساؤل التالي: هل هناك امكانية تأثر الجنود بالمحيط القتالي الذي يُنشئه لهم قائدهم (ع)؟ وهل ان تلك الامكانية تنهض الى مستوى القطعية او الى مجرد الاحتمالية؟ من اجل الاجابة على ذلك لابد من ادراج ثلاثة وجوه:

الوجه الاول: امكانية تأثر الجندي بالمحيط البطولي للقيادة: فمن الممكن للمقاتل العادي التأثر بمحيط المقاتلين الابطال، وقد تصل تلك الامكانية الى مستوى القطع. فامكانية التأثر ببطولة القائد قضية طبيعية اذا تصورنا ان قدرات المجموع قدرات غير استثنائية، بينما يكون مصدر التأثير لمن كانت له القدرة الاستثنائية وهو القائد. فبطولة الامام (ع) كانت استثنائية بلحاظ كل المعطيات التاريخية التي نلمسها. فلا شك ان شخصيته الفذة (ع) كانت تشيع على المقاتلين جواً من التواضع والايمان العميق والبطولة الفذة والتأثر بتلك القدوة المتكاملة في الدين. فالامكانية هنا، وبلحاظ المعطيات التاريخية، تصل الى مستوى القطعية.

الوجه الثاني: احتمالية التأثر بالمحيط: والاحتمالية مرتبطة بمقدار التكهن بضخامة علم القائد وطهارة دوافعه نحو العمل العسكري. والاحتمالية هنا تعني لو ان نموذجاً بطولياً وجد على

ساحة المعركة وهو يحمل علماً جماً ودافعاً ايمانياً نقياً لكان التأثير بذلك النموذج اقوى. ولكن الاحتمالية تعني نسبة مئوية من الحقيقة ونسبة اخرى من الوهم. وهذا لا يستقيم مع المصاديق القوية التي تحرك النفس الانسانية، التي نلمسها ونختبرها. فيكون الوجه الاول اقوى من الوجه الثاني.

الوجه الثالث: الاستقلال العقلي: وهو افتراض ان الجندي العادي _ غير الاستثنائي _ لا يتأثر بالمحيط القتالي أبداً، فيكون سلوكه سلوكاً عقلياً محضاً. أي ان بطولته او جنبه وجدا دون التأثير بآخرين يعتبرهم نماذج له. وهذا مما لم نجده في صفحات التأريخ. فلم يُبرز لنا التأريخ صورة جنود من هذا النمط. وهذا اضعف الوجوه.

فيتعين الوجه الاول، ونستفيد من ذلك ان امكانية تأثير جنود علي (ع) الاربعة آلاف في ذات السلاسل ببطولته كان امراً واقعياً. فلولا بطولة الامام (ع) لم يستطع ذلك الجيش تحقيق شيء على مستوى المعركة بمنظورها الجزئي والاسلام بمنظوره الكلي.

وفي ضوء ذلك نستطيع ان نقرر بأن الرغبة في القتال عند المؤمنين الموقنين كانت تحددها عوامل وصفات ايمانية مثل: الاقتحام، ونكران الذات، واليقين، والبطولة. بينما تحدد الرغبة عند عموم الناس عوامل اخرى مثل: التريث في القتال، والتردد، والفرار من الزحف، وحب الدنيا، والخوف من الموت، ونحوها. ومن هنا ترى ان المؤمنين الموقنين بالله حقاً اقتحاميون في ساحة المعركة، لان دوافعهم لا تقبل تغييراً بعد ان تيقنوا بان الله معهم، وانهم يحاربون من اجل الآخرة، وان الله سيرزقهم احدى الحسنين اما النصر واما الشهادة.

وعلى أي تقدير فان الذي نراه جندياً او قائداً في المعركة لا بد ان نلمس دوافعه في الرغبة في القتال: ايماناً و يقيناً، او تردداً ورجوعاً عن القتال. لقد كان حب الموت و لقاء الله تعالى والكرّ ونكران الذات اهم صفات جيش ذات السلاسل بقيادة الامام (ع). بينما لمسنا من الآخرين حباً في الفرار و طلباً للعافية، كما سوف نلاحظ في الفصول القادمة فرار ابي سفيان وأولاده يوم حُنين، وتراجع البعض في خيبر وذات السلاسل، وفرارهم في حُنين ايضاً.

ب - علي (ع) وفرصة الحرب:

ذكرنا ان فرصة الحرب تعني امكانية الالتحام بين الايمان والشرك في معركة حاسمة ينتصر فيها هذا الطرف على الآخر. ففرصة الحرب للقائد البطل تعني انه سوف يستثمر طاقاته البطولية في سحق العدو وتدمير قدراته العسكرية. بينما يرى الخائف من الحرب ان فرص الحرب هي فرص للموت الذي ينبغي الفرار منه ان امكن، او عدم التقدم في الخطوط الامامية وترك القيادة العسكرية لآخرين، او الحصول على غنائم عندما تحين الفرصة لذلك. ففرصة الحرب ، اذن ، تعبر عن مقاربة عسكرية دامية بين عدوين متحاربين يحاول كل منهما إفناء الآخر وافناء معتقداته معه.

ومن هنا كان الامام (ع) يحاول جاهداً خلق فرصٍ للحرب من خلال تصميمه شكل الالتحام بين المعسكرين. فكان (ع) يشرع في السير نحو العدو، وكان (ع) يقف في المقدمة في كل معركة يخوضها، وكان (ع) ينتخب من مقاتلي المشركين النخبة فيبارزهم ويفنيهم عن بكرة ابيهم. ثم يبدأ جيشه _ وبعد ان رأى قائده (ع) في المقدمة يواجه الموت حقيقة _ بالتحرك لمنازلة العدو.

ج - علي (ع) والرغبة في القتال:

ان الرغبة في القتال لها علاقة مباشرة بالسلوك العقلي. فالرغبة في القتال هي التي تصنع القرار النهائي للمشاركة في الحرب او الالتحام مع العدو. والقرار النهائي للمشاركة في القتال مرهون بالصور الذهنية التي يكونها ذهن القائد المقاتل عن العالم المحيط به وعن الوضع الميداني الذي سيواجهه وهو في المعركة. ومن تلك الصور الذهنية التي تصنع القرار النهائي بالذهاب للحرب: حسابات الربح والخسارة في المعركة، او حجم الاهداف المتوخاة من القتال.

وكانت حسابات الامام (ع) في قراره النهائي في القتال هو مقدار الفائدة التي يجنيها الاسلام من المعركة فهو (ع) لم يفكر بحسابات مادية او دنيوية او شخصية. بل كان (ع) لا يرى بديلاً عن الحرب ضد المشركين على ضوء قوله تعالى: **(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)**، **(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)**، **(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ**

اللَّهُ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

فليس هناك خسارة في حرب مع الكفار، فلا بد ان يرزق المسلم المقاتل احدى الحسينيين اما النصر واما الشهادة. ولذلك كان مجرد اسم علي (ع) في المعركة يعني كسر شوكة الشرك، واحقاق الحق، وتحقيق النصر المؤزر للاسلام.

اذن ليس هناك من بديل لكسر شوكة المشركين غير الحرب والجهاد في سبيل الله بالسيف. لان البدائل الاخرى محدودة وضيقة. فهل ينفع الكلام وتنفع الالفاظ المحملة بالمعاني الجليلة لاقتناع المشركين بأحقية الرسالة الالهية؟ وهل ينفع الاسلوب المسالم في حمل المشركين على التخلي عن شركهم وعبوديتهم لغير الله؟ لا نستطيع ان نتصور ذلك، ولذلك فان البدائل المتوفرة غير الحرب في ذلك الزمان بدائل محدودة وضيقة. فالحرب ضد الشرك اذن كانت قضية حتمية لا مفرّ منها ابداً.

يضاف الى ذلك ان المناخ الذي كان يسيطر على المسلمين يومئذٍ يمكن تلخيصه بالموارد

التالية:

١ - كانوا قلةً مستضعفة تخاف ان يتخطّفها الموت.

٢ - كانت تهديدات المشركين وعداوتهم قائمة.

٣ - كانت اراجيف المنافقين فعالة في التأثير على شريحة من الناس.

٤ - كان الرعب والخوف وعدم الامان والبعد عن الوطن من العوامل المقلقة لبعض

الناس.

كل ذلك كان يضيف _ بالحاح _ الى الحاجة لبروز مقاتل لا يهاب الموت، ولا يعرف الخوف طريقاً الى قلبه. يقاتل وهو العضد الايمن لرسول الله (ص). فكان علي بن ابي طالب (ع) هو ذلك المقاتل الذي قلب المعارك لصالح المسلمين ضد المشركين.

وبذلك أصبح مجرد الاعلان عن مشاركة الامام (ع) في المعركة، حربة نفسية رهيبة ضد المشركين ودافعاً عظيماً للمسلمين بالشعور بالنصر والاستعداد لتهيئة مقدماته. خصوصاً وان معركة «ذات السلاسل» كانت قد اثبتت ذلك دون ادنى شك.

(نهاية ص ٤١٦)

الظاهر ان هذه المعركة وقعت قبل فتح مكة، وكان فيها ردعاً عظيماً لقريش بالتخلي عن محاربة المسلمين.

سورة العاديات: آية ١ - ٢.

«مجمع البيان» - الطبرسي ج ١٠ ص ٥٢٨.

رواها علي بن ابراهيم القمي باسناده عن ابي بصير بن ابي عبد الله (ع) في قوله: (والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً)، واوردناها ملخصة.

الغلس: ظلمة آخر الليل. قال الأخطل:

كذبت عينك أم رأيت بوايط
غلس الظلام من الرباب خيالاً

والنغليس: السير من الليل بغلس «الصحاح» ج ٢ ص ٩٥٦ مادة: غلس.

«تفسير القمي» ج ٢ ص ٤٣٤. و«المناقب» - ابن شهر آشوب ج ٣ ص ١٤٠.

«تفسير البرهان» - السيد البحراني ج ٤ ص ٤٩٨.

«المناقب» - ابن شهر آشوب ج ٣ ص ١٤٢.

«بحار الانوار» ج ٦ ص ٥٩٣.

«الغزوات» - النقدي ص ١٠٩.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٢٧٢.

«تأريخ ابن خلدون» - المقدمة. ص ١٠ ، ٣١.

«تأريخ اليعقوبي» ج ١ ص ٨٤ - ١٦٠.

«مروج الذهب» - المسعودي. ج ١ ص ٨٠ - ٢٥٥.

سورة الرعد: آية ١١.

سورة التوبة: آية ١٤ - ١٥.

سورة التوبة: آية ٧٣.

سورة التوبة: آية ١١١.

(ص ٤١٧ - ٤٣٦)

الفصل السادس عشر

فتح مكة

علي (ع) وفتح مكة * تصرفات خالد بن الوليد: آثار ما قبل الاسلام * الدلالات العلمية
للمنصوص: ١- الحق والباطل: من زاوية فلسفية: أ - الباطل. ب - الحق. ٢- فتح مكة: طراز
الفتوحات الكبرى. ٣ - فتح مكة: استراتيجية جاء الحق وزهق الباطل.

علي (ع) وفتح مكة

فُتحت مكة المكرمة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وخبرها انه كان من شروط صلح الحديبية بين رسول الله (ص) وبين قريش انه من أحب ان يدخل في عقد رسول الله (ص) وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله (ص) وعهده. ولكن بنو بكر وقريش تظاهرت على خزاعة واصابوا منهم مقتلاً ونقضوا عهدهم مع رسول الله (ص). فقدم عمرو بن سالم الخزاعي الى المدينة ووقف على رسول الله (ص) وهو جالس في المسجد بين الناس، فقال يستثيره على قتال اهل مكة من المشركين:

يا ربّ اني ناشدُ محمداً	حلفَ أئبنا وائبه الأتلدا
قد كنتمْ وُلداً وكنا والدا	ثُمّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصُرْ هداك الله نصرأً أعتدا	وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا	ان سيم خَسفا وجهه تربّدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداءٍ رُصدا
وزعموا أن لست ادعو أحداً	وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيتونا بالوتير هُجّدا	وقتلونا رُكعاً وسُجّدا

وأحست قريش بعظمة الجريمة التي ارتكبتها ضد المسلمين. وتسارعت الاحداث، فقدم ابو سفيان المدينة واراد ان يكلم رسول الله (ص) لتصحيح ما ارتكب من خطأ فادح بنقضه العهد مع المسلمين ولكنه لم يفلح، فلم يردّ (ص) عليه شيئاً. فعندها «دخل على علي بن ابي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله (ص) ورضي عنها، وعندها حسن بن علي غلام يدبّ بين يديها. فقال: يا علي، انك امسّ القوم بي رحماً، واني قد جئت في حاجة فلا ارجعن

كما جئت خائباً، فاشفع لي الى رسول الله. فقال: ويحك يا ابا سفيان! والله لقد عزم رسول الله (ص) على امر لا نستطيع ان نكلّمه فيه. فالتفت الى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيُجِيرَ بين الناس، فيكون سيد العرب الى اخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنَيَّ ذلك ان يجيرَ بين الناس، وما يجير احدٌ على رسول الله (ص).

قال: يا ابا الحسن، اني ارى الامور قد اشتدّت عليّ، فانصحني.

قال (ع): والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

قال (ع): لا والله، ما اظنه، ولكني لا اجد لك غير ذلك.

فقام ابو سفيان في المسجد، فقال: ايها الناس، اني قد أجزت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلّمته فوالله ما ردّ عليّ شيئاً... ثم جئت علياً فوجدته الين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله ما ادري هل يغني ذلك شيئاً ام لا؟...».

وأمر رسول الله (ص) بالجهاز، فتجهز عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف عنه احد. وخرجوا جميعاً نحو مكة. فلما نزل رسول الله (ص) «مرّ الظهران» قدم ابو سفيان يستظهر الخبر، فأخذه العباس بن عبد المطلب الى رسول الله (ص). فلما رآه (ص) قال: ويحك يا ابا سفيان، ألم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله؟ قال: بأبي انت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت ان لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا ابا سفيان! ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! اما هذه والله فان في النفس منها حتى الان شيئاً. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد ان لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله قبل ان تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم!

قال العباس: قلت يا رسول الله، ان ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: (نعم). من دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن).

وعندما رأى ابو سفيان جنود الله تمر من امامه في مضيق الوادي التفت الى العباس وقال: «والله يا ابا الفضل، لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيماً، قال العباس: يا ابا سفيان انها النبوة. قال: فنعم اذن».

وحينما دخلوا قال سعد بن عباد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة! وهو رأي لم يستشر فيه رسول الله (ص)، ويدل على حجم الآثار الجاهلية المترسبة عند بعض المسلمين. فتدارك النبي (ص) الموقف الذي يمكن ان يتطور الى سفك دماء، وقال (ص) لعلي بن ابي طالب (ع): أدركه، فخذ الراية منه، فكن انت الذي تدخل بها. وهكذا كان، فدخل رسول الله (ص) وبهدى علي (ع) الراية ثم جيش النبي (ص) من ورائهما.

وكان رسول الله (ص) قد عهد الى امرائه من المسلمين، حين أمرهم ان يدخلوا مكة، ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم. لكنه امرهم بالخصوص بقتل اربعة نفر هم: عبد الله بن سعد بن ابي سرح، والحويرث بن نفيل، وابن خطل، ومقبس بن ضبابة. وامرهم ايضاً بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله (ص). وقال (ص): اقتلوهم وان وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. فقتل علي (ع): الحويرث بن نفيل واحدى القينتين وأفلتت الأخرى. وقتل (ع) مقبس بن ضبابة في السوق. وادرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق اليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً فقتله.

اما عبد الله بن سعد الذي كان قد ارتدّ مشركاً بعد ان كتب بعضاً من الوحي وحرفه، فظفر به ولكن عثمان بن عفان غيبه وطلب له الامان من رسول الله (ص) في قصة ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب. ثم ولاه عمر بن الخطاب بعض اعماله في خلافته، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر!!

ولما دخل رسول الله (ص) مكة، دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون ان السيف لا يرفع عنهم. فأتى (ص) الحرم وقام على باب الكعبة فقال: «لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج... يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...) الآية كلها. ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون انِّي فاعلٌ فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وكان الله سبحانه قد امكنه من رقابهم عنوة فكانوا له فيئاً، فلذلك سُمِّي اهل مكة الطلقاء. و«لما فتح الله مكة على رسول الله (ص) أمر النبي (ص) علياً (كرم الله وجهه) أن يصعد على منكبه ليقذف الصنم التي كانت اعظم الاصنام عن المسجد الحرام». وتفصيل ذلك كان على لسان علي بن ابي طالب (ع) كما يرويها احمد بن حنبل، قال (ع): «انطلقت انا والنبي (ص) حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله (ص): اجلس وصعد علي منكبي فذهبت لانهض به فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله (ص) وقال: اصعد علي منكبي، فصعدت علي منكبيه، فنهض بي . قال: فانه يخيل اليّ اني لو شئت لثلثُ افق السماء حتى صعدت علي البيت وعليه تمثال صِفر او نحاس، فجعلت ازاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى اذا استمكنْتُ منه قال لي رسول الله (ص): اقدف به، فقدفْتُ به فتكسّر كما تنكسر القوارير». وفي رواية اخرى ان علياً (ع) لما عالجته كان رسول الله (ص) يقول له: ايه ايه (... جاء الحقُ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهوقاً)».

تصرفات خالد بن الوليد: آثار ما قبل الاسلام

وعندما فتحت مكة، بعث رسول الله (ص) السرايا فيما حول مكة تدعوا الى الله عزّ وجلّ، ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره ان يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب: سُليم بن منصور، ومذليج بن مُرة. فوطئوا بني جذيمة بن عامر. فلما رآه القوم اخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح، فان الناس قد اسلموا.

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك . فكَتِفُوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر الى رسول الله (ص) رفع يديه الى السماء، ثم قال: اللهم اني ابرء اليك مما صنع خالد بن الوليد.

فدعا رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (رضوان الله عليه)، فقال: يا علي، اخرج الى هؤلاء القوم، فانظر في امرهم، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك. فخرج علي (ع) حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله (ص)، فَوَدَى لهم الدماء وما أصيب لهم من الاموال، حتى انه ليدي لهم مبلغة الكلب.

حتى اذا لم يبق شيء من دم ولا مال الا وَدَاه، بقيت معه بقية من المال. فقال لهم علي (رضوان الله عليه) حين فَرَّغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم او مال لم يُودَ لكم؟ قالوا: لا. قال: فاني اعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله (ص) مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع الى رسول الله (ص)، فأخبره الخبر، فقال (ص): أصبت وأحسن. ثم قام رسول الله (ص) فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى انه ليرى ما تحت منكبيه، يقول: «اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات».

وبعد مقتل هؤلاء الابرياء من بني جذيمة، أثيرت مشادة لفظية بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف. فقال له عبد الرحمن بن عوف: عملت بأمر الجاهلية في الاسلام. فقال: انما تأرت بأبيك. فقال عبد الرحمن: كذبت، قد قتلتُ قاتل ابي، ولكن تأرت بعمك الفاكه بن المغيرة، حتى كان بينهما شر. فبلغ ذلك رسول الله (ص)، فقال (ص): «مهلاً يا خالد، دع عنك اصحابي. فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما ادركت غدوة رجل من اصحابي ولا روحته». وكانت تلك الادانة من قبل رسول الله (ص) تدلّ على ان آثار الجاهلية لا زالت باقية في نفوس هؤلاء. فكيف ينسى التأريخ سيف ذي الفقار لانه سيف علي (ع) ويطبّل ويزمر لسف الله المسلول _ سيف خالد بن الوليد _ وهو يقوم بتلك التصرفات التي يتبرأ منها رسول الله (ص)؟ وهل يُصح ان يُدخَلَ خالد بن الوليد ضمن صحابة رسول الله (ص)، وهو (ص) نفسه يُخرجه بالقول: «مهلاً يا خالد دع عنك اصحابي فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما ادركت غدوة رجل من اصحابي...»؟

الدلالات العلمية للنصوص

هناك دلالات علمية يمكن استنباطها من النصوص التي اوردناها في فتح مكة. ومن تلك الدلالات: تنبأ الدين ببقاء الحق وزوال الباطل، والطراز الرفيع لفتح مكة بين الفتوحات، وبطولة الامام (ع) التي كان من اهم آثارها: فتح مكة وانكسار دولة الشرك الى الابد.

١- الحق والباطل: من زاوية فلسفية

عندما تكسرت اصنام قريش في فتح مكة على يدي رسول الله (ص) وعلي بن ابي طالب (ع)، قال (ص): ايه ايه (...جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً). فما هو الباطل الذي حُكم عليه بالموت والزوال؟ وما هو الحق الذي أقر له بالحياة؟

يعبر الحق عن صفات الكمال المطلق، وكل شيء يتصل بالله سبحانه هو الحق: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ...)، (فتعالى الله المَلِكُ الْحَقُّ...)، (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)، (ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى...). بينما لا يمثل الباطل الا الشيطان وكل ما يدعو اليه هو شر وفساد، كما اشار تعالى: (... فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)، (ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ...).

أ - الباطل:

هناك تساؤل وجيه يمكن ان يطرح في هذا المقام وهو: هل ان الباطل قضية متعلقة بالاخلاق او انه قضية متعلقة بالدين؟ وهل يمكن طرد الباطل من العقل، ثم من الحياة الاجتماعية، من دون مساعدة الدين؟

طبيعياً، يعدُّ الباطل حقيقة مسقلة بذاتها بسبب قابلية النفس الانسانية على الاقتراب منه او الابتعاد عنه. واهم مصاديق الباطل: الفجور والكفر. فقد خلق الله سبحانه النفس الانسانية والهمها الفجور والتقوى فقال: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا).

فالنفس الانسانية كيان يمتلك القدرة والعلم والحكمة، وقد سواها سبحانه وتعالى ورتب خلقها ونظم قواها واعضاءها. والقي في روعها وافاض عليها صوراً علمية من التصور والتصديق، وعرفها صفات الافعال من التقوى والفجور. فالعنوان المشترك بين التقوى والفجور هو متن الفعل. مثال ذلك: اكل المال وهو مشترك بين اكل مال اليتيم وهو فجور، واكل المال الحلال وهو من التقوى. ومثال آخر: المباشرة وهو عمل مشترك بين الزنى وهو فجور، والزواج الشرعي وهو من التقوى. ومثال ثالث: العبادة وهو عمل مشترك بين عبادة الصنم وهو فجور، وعبادة الله سبحانه وهو تقوى.

والمحصّل من الآيات الشريفة هو ان الله عزّ وجلّ عرف الانسان بخصائص الافعال من فجور او تقوى، وميّز له الافعال المتصلة بالتقوى والاخرى المتصلة بالفجور.

ومن تلك الآيات الشريفة نستلهم ان هناك تناقضاً منطقيّاً بين الحق والباطل. فلا بد ان يهزم احدهما الآخر ويدحره، ولا يمكن ان يجتمعا في مكان واحد في نفس الوقت. بل لا بد من استقلالية تحمي احدهما عن الآخر. فاما هذا واما ذاك. أي اما الفساد والظلم والشيطان: وهو الباطل. واما الخير والصلاح والعدالة: وهو الحق.

ولم يقف القرآن الكريم موقفاً حيادياً من الباطل بل ادانه في مواطن عديدة، فخاطب اهل الكتاب: (يا اهل الكتاب لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، وخاطب عبدة الاوثان: (... أَقْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)، ونقل عن المنكرين: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ...). ونقل عن الكافرين ومجادلتهم بالباطل لدحض الحق: (... وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)، وخاطب المسلمين بضرورة مراعاة شرعية التعامل التجاري عبر قوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...)، وادان الكافرين اجمالاً بقوله: (... وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

ومن ذلك نفهم ان طبيعة الاشياء في الكون تتناغم مع الخير والصلاح والعدالة والتوحيد، ومن كل ما يمثله الحق من مفاهيم وافكار. وعندما يقوم الانسان بفعل الباطل من فساد وظلم وعبادة للشيطان والوثن، فانه انما ينتهك طبيعة الاشياء التي خلقها الله سبحانه. فهنا لا بد من

دحر الباطل الذي ينتهك النظام الكوني المبني على اساس العدالة والخير والتوحيد. كما قال:
(وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...).

ومجيء الاسلام كان انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود في ذات المؤمن على الاقل.
فالمؤمن بتعاليم الدين السماوي يؤمن بالحق ويبنى وجوده الاجتماعي والذاتي الجديد على اساس
ايقاف الباطل وحذفه من حياته. وهذا يعني اننا اذا الغينا الباطل من الساحة الاجتماعية، كما فعل
رسول الله (ص) وعلي (ع) بتحطيم الاصنام، فان ذوات الناس سوف تنفتح على الخير والاستماع
الى الحق. وهنا يتخير الانسان بحرية، في ذلك الجو المنفتح وتلك الارضة الواسعة، بين الحق
والباطل.

ولو كان الباطل قضية متعلقة بالاخلاق لاستطاع الانسان دحرها من دون مساعدة الدين،
بل لكان العقل سلاحاً كافياً من اسلحة دحر الباطل. ولكن الحقيقة تقول بان للباطل كيانهً مستقلاً
لا يقف امامه الا الدين. فمع ان العقل يدعو الى التوحيد والعدل، الا ان العقل المجرد عن
الايمان قد يدعو الى الفساد والدمار والشرك. فالعقل لوحده لا يستطيع دحر الباطل. ولو كان
العقل كافياً لادراك معاني الوجود لانتهى دور الدين في الحياة الانسانية. فقضية الباطل اذن
ليست متعلقة بالفلسفة الاخلاقية فقط، بل ان ازالة الباطل موكولة الى تعاليم الدين ومقدار ادائها
من قبل المؤمنين.

فلا شك ان زوال الباطل يتحقق عندما يمارس المكلفون تكاليفهم الشرعية ويتعمون
برحمة القوانين الدينية، وعندها ينتفي الفساد والظلم والشرك. فثببت الحق مرهون بتقوية شوكة
الدين. ومن هنا نفهم مغزى مخاطبته (ص) لعلي (ع): ايه ايه (... **جاء الحق وزهق الباطل إنَّ
الباطل كان زهوقاً**). فبتحطيم رمز الوثنية والشرك في مكة، بدأ الاذعان لتقبل فكرة انتصار
الاسلام وانتشار قيمه السماوية في الخير والعدالة والمحبة والصالح على مبادئ الظلم والفساد
والشرك. ومن هنا جاء الحق وزهق الباطل بكل ما تحمله تلك الالفاظ من معان ومفاهيم وافكار.
فقد جاء الحق عبر رسالة السماء محملاً بمفاهيم العدالة والخير والاخوة والمحبة والتعاون،
وعندها انفتح الباب للانسان لاختيار طريق الخير بدل طريق الشر، وعندها كانت الحكمة

الالهية: (لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...) لان الانسان بطبيعته يختار الخير على الشر، ويختار الحق على الباطل.

ذلك ان الباطل يؤدي دائماً الى الالم والمعاناة على صعيد الانسانية، ولا يؤدي الشر إلا الى الحرب، والظلم، والاجحاف بحقوق الآخرين. ولذلك فان الدين يحارب الباطل اينما وُجد، لان الدين لا ينمو ولا يستقر بوجود الباطل. فالدين يدعو الى الصفاء، والامانة، والمحبة، والولاء. بينما يدعو الباطل الى الخيانة، والبغض، والدماء، والاضطراب.

وبكلمة فان الشر يحطم الروح الانسانية، ويعكر الصفاء الذهني والنفسي الذي يجلبه الدين، ويدمر الفرص العقلانية لانتخاب الدين كبديل في الحياة تمشياً مع قوله تعالى: (لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...). اما الخير _ وهو احد مصاديق الحق _ فانه يجلب على الانسان سعادة ابدية، لان الخير يربط الانسان بالله سبحانه، ويربط الافراد بعضهم ببعض عن طريق القيم العليا في الحب والتعاون والتآخي. وجوهر الفكرة ان العقل لا ينهض الى مستوى طرد الباطل. فلا بد من تدخل الدين في طرد الباطل من النفس أولاً ثم سحق الباطل على المستوى الاجتماعي واحقاق الحق عن طريق الادارة الدينية للمجتمع.

ب - الحق:

ان الحق في ذاته أمرٌ حسنٌ له قيمة اخلاقية عليا في حياة الانسان. فالحق يشمل الخير في كل جوانبه، ولذلك وصف الله سبحانه نفسه بانه الحق المبين كما قال: (... وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ).

ولكن يمكن تصنيف الحق، فيما نحن فيه، الى صنفين: الحق على الصعيد الذاتي، والحق على الصعيد الموضوعي.

فعلى الصعيد الذاتي: فقد وصف الله عزّ وجلّ نفسه بالحق، لان الحق يمثل كل جوانب الخير، فهو تعالى الحق الذي يحقق كل شيء حق، ويجري في الاشياء النظام الحق. فالمولى عزّ وجلّ هو الذي يمسك بأسباب الخير والعدالة والقوة والعزة والقدرة. هو الذي خلق الخلق والحياة وصمم الكون والاشياء لتكون خيراً بذاتها. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على

ذلك. فهو علة جميع العلل من الایجاد والتدبير والملك والإماتة والبعث، كما في قوله: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ إِلَّا لَهٗ الْحُكْمُ...)، (فَدَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ). والامر كله بيده فهو الخالق لكل شيء المدبر لكل امر، وليس لغيره الا الاوهام من اجل الابتلاء والامتحان، فقال: (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)، (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...)، (ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى...)، (... وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ). وتلك بديهيات لا ستار عليها بوجه من الوجوه. فالحق من اسماء الله الحسنی لثبوتة تعالی بذاته وصفاته ثبوتاً لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغيير.

وعلى الصعيد الموضوعي: فان الحق _ بقیمة الاخلاقية _ قد تمثل بالاسلام. فالاسلام ليس فرداً ولا شخصاً ولا مفردة، بل هو موضوع للخير العام. فهذا الدين يمثل حالة معنوية لنشر العدالة بين الناس، ويعكس صورة لنظام في ادارة صلة الانسان بربه، وصورة لنظام الادارة الاجتماعية والحقوقية. ولذلك عبّر عن الدين بانه الحق، كما يُستخلص من التأمل في قوله تعالی: (... فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ...)، (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...)، (... فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...)، (... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...)، (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...). وفي الآيات الكريمة دلالة ظاهرة على ان الدين الذي نزل على محمد (ص) هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب، وحق فيما خالفه لكون القرآن مهيمناً على جميع الكتب السماوية السابقة.

وبذلك يكون الحق الذي بشر بمجيئه رسول الله (ص) عندما كان علي (ع) يكسر الاصنام يمثل كل معاني الخير والعدالة والتوحيد والعبودية لله الواحد القهار. وان كان ذلك الحق يغطي مساحة قانونية او معنوية او انسانية او طبيعية، فانه انما يدلّ على شمولية الدين لكل تلك الحقوق. فالدين يحفظ حق الانسان في التعبد، وحق الانسان في العيش بكرامة تحت اجواء الخير. وبكلمة، فان الحق هو بشرى السماء للبشرية المعذبة التي تبحث عن طريق للهداية والنجاة من العذاب.

لو اردنا ادراك اهمية «فتح مكة» باطار الفهم المعاصر الحديث، لافترضنا اننا يجب ان نفهم آثارها او مقتضياتها بنفس درجة فهم اسبابها او عللها. فمع ان شجاعتي رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) الفائقتين كانا من اهم عللها، فان آثارها كانت خطيرة للغاية. ذلك ان فتح مكة وضع القيادة الدينية الاجتماعية للعالم بيد المسلمين بعد ان كان المشركون يعيشون في الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنين باطناً او ظاهراً، في دين الله افواجاً. وقد تنبأ كتاب الله المجيد بتلك الاحداث بالقول: **(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً).**

وتلك سورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة. حيث كانت السورة إخباراً بتحقيق أمر لم يتحقق بعد. وهو الوعد الجميل بالنصر والفتح. وتلك السورة تنطبق على فتح مكة الذي هو أم فتوحاته (ص) في حياته، حيث تكفل ذلك النصر بهدم بنيان الشرك في جزيرة العرب. ولذلك طلب الله عزّ وجلّ من رسوله (ص) ان يسبحه وينزهه بقوله: **(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)** الآية. حيث تم اذلال الشرك وتعزيز التوحيد وابطال الباطل واحقاق الحق.

واصبح الاسلام بعد فتح مكة قوة عالمية تستطيع مواجهة قوى الفرس او الروم والانتصار عليهما، وتثبيت الامن العالمي في ذلك الوقت تحت شعار: لا اله الا الله، محمد رسول الله. وهذا كله يمثل مصداقاً من مصاديق المقولة القرآنية: جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقاً.

أ - بدء عصر جديد:

ولاشك ان فتح مكة لم يكن مجرد عملية انهيار قوة عالمية وهي قوة المشركين، وانتصار قوة اعظم في المبدأ والعقيدة وهي قوة المسلمين. بل كانت عملية بدء عصر جديد يستمر فيه الاسلام حياً نابضاً فعّالاً الى يوم القيامة. لان الاسلام بطبيعته دين عالمي وليس ديناً محلياً يهتم بعرق معين او طائفة معينة. ويؤيده قول الله تعالى: **(وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً...).**

وقد كان للبطولة الخارقة دور حاسم في فتح مكة وتحطيم الاصنام فوق الكعبة وحولها، كما بحثنا ذلك سابقاً. وبتحطيم الاصنام أزف الوقت لإعلان عدم شرعية الشرك في معقل المشركين بمكة بقوة السلاح والايمان، واعلان انتقال السلطة العالمية من يد الشرك الى يد الايمان، وانتهاء التحدي الفكري الذي قاده الشرك القرشي ضد الاسلام.

ومن منطلق تلك الاحداث لابد من ادراك مقدار المكاسب التي حققتها بطولة اهل بيت النبوة (ع) في المعارك الاسلامية الكبرى. فقد دمر ذلك التفاني العجيب من اجل الدين، كل احكام الوثنية في البقاء. فلم تكن تلك المعارك صراعاً شخصياً بين بني هاشم وبني امية. ولم تكن تلك مواجهة شخصية بين رسول الله (ص) وأبي سفيان، او بين حمزة وابي جهل، او بين علي (ع) ومعاوية.

بل كان الصراع بين الخير والشر او الحق والباطل صراعاً تاريخياً بين معسكرين ذوي مبادئ متصارعين الى ابد الدهر. ولم يكن تسامح رسول الله (ص) مع اهل مكة الطلقاء ليغير من موقف النخبة الجاهلية. فحتى مع اظهار اسلامه، لا يزال ابو سفيان في قلبه شيء من رسالة محمد (ص)، ولا يزال يؤمن بأنه المُلْك الذي حازه محمد (ص) واصبح به عظيماً، لا النبوة الخاتمة ولا وحي السماء. ولا يزال خالد بن الوليد يتصرف على ضوء عنجهيته الجاهلية فيقتل من لا يجوز قتله، وعنندها يتبرأ رسول الله (ص) من افعاله.

ان العداء التاريخي الذي كانت تكنه قريش للاسلام ولرسول الله (ص) ولعلي (ع) لم يكن ليزول باعلان الشهادتين على اللسان دون القلب. ذلك ان فتح مكة كان اظهار قدرة الله سبحانه على اعزاز الاسلام وتكريمه وتجليل خاتم الانبياء (ص). وقد نصر الله الاسلام على رغم انوف صناديد قريش من الذين تشربت في قلوبهم عبادة الاوثان والاصنام.

ولذلك كانت النبوة امراً لا تستطيع قريش هضمه او استيعابه. فما هي تلك القوة الهائلة التي تستطيع ان تحرك القلوب نحو الله ضد الشيطان والشرك والرجس؟ وما هو سر ذلك التسامي العظيم لرسالة محمد (ص) بين الامم؟ وما هو سر شجاعة علي (ع) الفائقة وتفانيه في حماية الرسالة السماوية؟ وما هو السر في استبسال تلك النخبة المؤمنة التي كانت تحيط برسول الله (ص) وتصحبه؟ لا شك ان تلك النخبة كانت اشدّ تماسكاً في اتباع قائدها (ص) من غيرها

من نخب الملل والمذاهب، فهذا علي (ع) يصعد على كتف رسول الله (ص) ليحطم الاصنام، في وقت كان شعارهما: جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً. وكان حمزة (رض) متفانياً في الدفاع عن الاسلام ونبيه (ص)، وكان ابو طالب ومواقفه الاجتماعية العظيمة تفصح عن عمق ايمانه برسالة محمد (ص)، وكان تغاني جعفر بن ابي طالب مشهوداً من اجل الاسلام ورسالته السماوية للبشرية.

ب - إعادة تركيب العالم:

وبذلك فقد كان الشعور الوجداني بين النخبة المؤمنة هو ان يزدهر الخير بين البشر وتحقق كلمة التوحيد وعبادة الله سبحانه. وبذلك كان فتح مكة اعادة لبناء التركيب السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء الدين الجديد. في وقت كان العالم يبحث فيه عن قيادة جديدة تحقق العدل الاجتماعي والامان والتوحيد، فكانت قيادة رسول الله (ص) تحقق ثبات دولة الايمان العالمية ونظامها الامني والحقوق.

والسبب في البحث عن قيادة عالمية جديدة ان العالم يتضمن شعوباً متباينة في التقاليد والعادات واللغات، ولا يمكن ان يجمعها الا دين سماوي واحد. فكان الاسلام هو الدين القادر على جمع ذلك العدد الهائل من البشر تحت سقف خيمة واحدة يظللها لواء واحد. ولا يستطيع احد تحمل مسؤولية ادارة ذلك التجمع العالمي اجتماعياً وسياسياً الا رسولاً يوحى اليه. فكان رسول الله (ص) هو حامل المسؤولية العالمية. وكان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القيادة الدينية بعده (ص) أمير المؤمنين (ع).

فقد كان (ع) موضع ثقة رسول الله (ص) في فتح مكة. فعندما قال الناس: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحرمه. دعاه النبي (ص) لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيؤدي حتماً الى سفك الدماء. فكان علي (ع) منقذ الموقف. وعندما قال خالد بن الوليد بقتل من قتل من بني جذيمة، وداهم رسول الله (ص) فبعث اليهم علياً (ع) لتسوية الوضع. وقبلها كان علي (ع) ثقة ابي سفيان رأس الشرك الذي حارب الاسلام والنبي (ص) وعلياً (ع) اشد حرب. فكان علي (ع)، إذا صحت الرواية، أليهم معه. وهكذا كان خلق الانبياء والاوصياء. وهذا تعامل رسول الله (ص) في مكة مع الطلقاء.

ويمكننا الآن ان نقول باطمئنان بأن فتح مكة كان من طراز الفتوحات الكبرى للاسباب التالية:

1^{اً} - رجع رسول الله (ص) منتصراً الى البلدة التي حاربه واضطهدته وتآمرت على قتله واخرجته بالاكراه. فبعد ثمان سنوات فقط من الهجرة الكبرى من مكة الى المدينة، رجع المصطفى (ص) الى بلده مكلاً بالانتصار.

2^{اً} - دخل خاتم الانبياء (ص) الكعبة وبجنبه علي (ع) وحطما الاصنام التي كانت تعتبر رمز الشرك في عالم ذلك الزمان، وفي كل زمان. وأرجع (ص) للكعبة الشريفة حرمتها النبوية التي وضعها ابراهيم الخليل (ع) ولوثتها جاهلية الاوثان والاصنام.

3^{اً} - كان رداء المصطفى (ص) التسامح مع ألد اعدائه: مشركي قريش. فأعطاهم الامان، وقال لهم: اذهبوا فانتم الطلقاء. وكان هؤلاء قد ارتكبوا اعظم الفظائع ضد الموحدين المسلمين.

4^{اً} - كان فتح مكة إيذاناً لتحرير الجزيرة العربية من الشرك، والاذعان لسلطان الاسلام. وبعدها تهيأ رسول الله (ص) لمحاربة القوى الاخرى في العالم.

٣ - فتح مكة: استراتيجية جاء الحق وزهق الباطل

ان الآية الشريفة: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) حبلى بالمعاني العديدة التي يمكن ان يستظهرها ذهن العالم بأحكام الدين وتشريعاته. ومن تلك المعاني نظرية «حتمية ازهاق الشرك والظلم وحتمية انتصار الدين» على المدى البعيد. فتلك النظرية تعرض علينا امكانية صياغة استراتيجية الاسلام بالنسبة للدنيا والتاريخ. فالدين هو الحق، والكفر هو الباطل. ولا بد ان ينتصر الدين ويندحر الباطل ويموت. لان الحق باقٍ الى الابد، والباطل ميتٌ الى الابد بظهور الاسلام وانتشاره في آفاق الارض. وفي الآية دلالة على ان الباطل لا دوام له ومصيره الهلاك كما قال تعالى في مكان آخر عن الباطل حيث مثله بالشجرة الخبيثة: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ).

وفي هذه المناسبة لا بد من استخدام بعض المصطلحات الحديثة التي دخلت قاموس اللغة الاجتماعية والسياسية وهما اصلاً: البعيد المدى «الاستراتيجية»، والقصير المدى «التكتيك». وهما مصطلحان اعجميان دخلا اللغة العربية. فالمعروف في الاوساط العلمية: ان التكتيك هو حركة ميكانيكية لاجسام وضعت في مسار بواسطة الخطة الاستراتيجية. وبتعبير اوضح ان الاعمال التي تتطلب زمناً طويلاً في الانجاز تحتاج الى خطة وتصميم مسبق، وتحتاج ايضاً الى من يقوم بالحركة الآن هو ما يُسمى بالمدى القصير او التكتيك. فحركة السيارة او العربة هو تكتيك لخطة يضعها السائق من اجل الوصول الى المدينة المقصودة «الاستراتيجية».

واذا كانت الحرب تكتيكاً قصير المدى، فان التخطيط لها واستثمار نتائجها في النصر هو استراتيجية بعيدة المدى. وقد كان فتح مكة من هذا القبيل فقد كان الفتح جزءاً من خطة مستقبلية بعيدة المدى لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية ليصل العالم الواسع كله.

وبصورة اخرى، فان النهوض بأعباء الرسالة السماوية من اجل نشرها في العالم الى يوم القيامة لا يمكن ان يتم ما لم يجتز المسلمون مرحلة الانتصار النهائي على الشرك في الحروب التكتيكية التي كان يخوضها علي (ع) جنباً الى جنب مع رسول الله (ص)، ثم ينتقلون الى مرحلة الاستراتيجية البعيدة المدى. فهنا انتقل المسلمون من مرحلة الدائرة المحلية الى مرحلة الدائرة العالمية. فالاسلام اندازٌ وبشارةٌ (... كَافَّةً لِلنَّاسِ...)، بعد ان كان الانذار محصوراً بـ (... أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...) ومن قبلها بـ (...عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...).

كان رسول الله (ص) يخطط لاهداف استراتيجية بعيدة المدى في المعارك التي كان يخوضها، لانه كان (ص) مسدداً بالوحي، ولانه كان قائداً عسكرياً ملهماً من الطراز الاول، مكلفاً بدعوة الناس جميعاً الى الاسلام. وكان علي (ع) الى جنبه دائماً الوسيلة القوية «التكتيك» التي تحقق نبؤات المصطفى (ص) وطموحاته في نشر الدين على بقاع المعمورة. والاستراتيجية لا يمكن ان تحقق اهدافها ما لم يكن التكتيك فعالاً وحيوياً.

ولا شك ان تكتيك المعركة في ذلك الوقت كان ينصب على شجاعة المقاتل بالدرجة الاولى وبطولته القوى في انتزاع النصر من العدو. لان معارك الاسلام الاولى ضد الشرك كانت معارك برية بسلاح رئيسي واحد هو السيف. فلم تكن هناك معارك جوية أو بحرية او برية كما هو

الحال اليوم مع عشرات الانواع من الاسلحة المعقدة. ولذلك فان أي معركة اسلامية تقع بدون وجود بطل استثنائي مقدام كعلي (ع) لا يكتب لها النصر. فلم يحقق المسلمون شيئاً في معارك غاب عنها علي (ع) كمعركة ذات السلاسل قبل دخوله فيها، ومعركة خيبر قبل استلامه (ع) الراية، ومعركة مؤتة التي لم يحضرها.

ان فلسفة الزمان والمكان تدعونا للايمان بأن نزول الرسالة السماوية في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من الارض، كان له معانٍ سامية تبقى مع التاريخ والبشرية الى يوم القيامة. فقد كان ذلك الزمان وسطاً بين تأريخ سابق وتأريخ لاحق، وكان ذلك المكان ولا يزال قلب العالم قديماً وحديثاً. وبذلك فان احداثاً جسيمة - كأحداث الاسلام ومعاركه ضد الشرك - ستبقى في ضمير البشرية يمكن فهمها واستيعاب معانيها الجليلة الى آخر يوم يعيش الانسان فيه على وجه الارض. ولا شك ان احداثاً جسيمة كتلك كانت تقتضي وجود بطل عظيم مطيع يذود عن رسول الله (ص) المخاطر، ويستوعب اهداف الرسالة، وعلى استعداد تام للتضحية من اجل مبداه. فكان الامام (ع) يمثل ذلك الرجل المثالي الذي تفهمه البشرية في كل وقت وتفهم بطولته النادرة وتضحياته الجسيمة من اجل الاسلام.

وبلحاز فلسفة الزمان والمكان لا بد من الايمان بأن اساليب القتال تتغير وتبديل من زمن لزمان ومن مكان لمكان، الا ان الثابت الذي نفهمه في كل جيل هو اخلاقية الحرب وتعامل المحاربين فيها وطبيعة دوافعهم الخيرة. واذا فهمنا ذلك وآمنّا بأن اخلاقية الاسلام في الحروب كانت القمة في الكمال استطعنا فهم بطولة علي (ع) وتضحياته في سبيل مبداه وعقيدته. واذا كان قول النبي (ص) للامام (ع): «ايه ايه. جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقاً» يُفسّر بأن الحق قد انتصر وسوف ينتصر، وان الباطل قد سُحق وسوف ينهزم في كل مرة يتواجد فيها مؤمنون مخلصون متفانون ؛ فاننا لا بد ان نؤمن بأن تلك هي اهداف استراتيجية بعيدة المدى للاسلام ولرسالته السماوية. ومن هنا نفهم ان فتح مكة كان البوابة العظمى للانفتاح على البشرية في القلب والعقل والادراك على طول الزمن.

(تليها ص ٤٣٧ - ٤٥٤)

ناشد: طالب ومدكّر. والاتلد: القديم.

يريد ان بني عبد مناف بني امهم من خزاعة، وكذلك قصي امه فاطمة بنت سعد الخزاعية.

أعتد: حاضر، والمدد: العون.

تجرد: شمر وتهياً للحرب. وسيم: طلب منه وكلف. الخسف: الذل. وتريد: تغير الى السواد.

الفيلق: العسكر الكثير.

كداء: موضع بأعلى مكة.

الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة. والهجد: النيام.

عندما خسروا ابو سفيان كل شيء اراد الضرب على وتر الرحم والدم، وهو الذي قاتل رسول الله (ص) وعلياً (ع) من بني هاشم اشد القتال. لكنه اليوم يتحدث عن علاقة بني امية ببني هاشم من ناحية الرحم والاجداد!

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٣٩.

م. ن. - ج ٤ ص ٤٥ - ٤٦.

م. ن. - ج ٤ ص ٤٧.

م. ن. - ج ٤ ص ٤٩.

م. ن. - ج ٤ ص ٥٢.

سدانة البيت: خدمته.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٥٤ - ٥٥.

مفتاح النجاء. ص ٤٦.

«مسند احمد» - رواه احمد بن حنبل باسناده عن ابي مريم عن علي (ع) ج ١ ص ٨٤.

سورة الاسراء: آية ٨١.

«المستدرک علی الصحیحین» ج ٢ ص ٣٦٦.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٧٢.

ميلغة الكلب: شيء يحفر من خشب، ويجعل ليبلغ فيه الكلب. وكان يستعمل عند اهل البادية واصحاب الغنم.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٧٢ - ٧٣.

م. ن. - ج ٤ ص ٧٤.

سورة الاسراء: آية ٨١.

سورة التوبة: آية ٣٣.

سورة طه: آية ١١٤.

سورة الكهف: آية ٤٤.

سورة الحج: آية ٦.

سورة يونس: آية ٣٢.

سورة الحج: آية ٦٢.

سورة الشمس: آية ٧ - ٨.

سورة آل عمران: آية ٧١.

سورة النحل: آية ٧٢.

سورة الكهف: آية ٥٦.

سورة غافر (المؤمن): آية ٥.

سورة النساء: آية ٢٩.

سورة العنكبوت: آية ٥٢.

سورة المؤمنون: آية ٧١.

سورة الاسراء: آية ٨١.

سورة البقرة: آية ٢٥٦.

سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

سورة النور: الآية ٢٥.

سورة الانعام: الآية ٦٢.

سورة يونس: الآية ٣٢.

سورة الكهف: الآية ٤٤.

سورة طه: الآية ١١٤.

سورة الحج: الآية ٦.

سورة النور: الآية ٢٥.

سورة البقرة: الآية ٢٦.

سورة البقرة: الآية ١١٩.

سورة البقرة: الآية ٢١٣.

سورة المائدة: الآية ٤٨.

سورة التوبة: الآية ٣٣.

سورة النصر: الآية ١-٣.

سورة سبأ: الآية ٢٨.

سورة الاسراء: الآية ٨١.

سورة ابراهيم: الآية ٢٦.

سورة سبأ: الآية ٢٨.

سورة الانعام: الآية ٩٢.

سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(ص ٤١٧ - ٤٣٦)

الفصل السادس عشر

فتح مكة

علي (ع) وفتح مكة * تصرفات خالد بن الوليد: آثار ما قبل الاسلام * الدلالات العلمية للنصوص: ١- الحق والباطل: من زاوية فلسفية: أ - الباطل. ب - الحق. ٢- فتح مكة: طراز الفتوحات الكبرى. ٣ - فتح مكة: استراتيجية جاء الحق وزهق الباطل.

علي (ع) وفتح مكة

فُتحت مكة المكرمة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وخبرها انه كان من شروط صلح الحديبية بين رسول الله (ص) وبين قريش انه من أحب ان يدخل في عقد رسول الله (ص) وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله (ص) وعهده. ولكن بنو بكر وقريش تظاهرت على خزاعة واصابوا منهم مقتلاً ونقضوا عهدهم مع رسول الله (ص). فقدم عمرو بن سالم الخزاعي الى المدينة ووقف على رسول الله (ص) وهو جالس في المسجد بين الناس، فقال يستثيره على قتال اهل مكة من المشركين:

يا ربّ اني ناشدُ محمداً	حلفَ أئبنا وائبه الأتلدا
قد كنتمْ وُلداً وكنا والدا	ثُمّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصُرْ هداك الله نصراً أعتدا	وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا	ان سيم خَسفا وجهه تربّدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداءٍ رُصدًا
وزعموا أن لست ادعو أحداً	وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيتونا بالوتير هُجّدا	وقتلونا رُكعاً وسُجّدا

وأحست قريش بعظمة الجريمة التي ارتكبتها ضد المسلمين. وتسارعت الاحداث، فقدم ابو سفيان المدينة واراد ان يكلم رسول الله (ص) لتصحيح ما ارتكب من خطأ فادح بنقضه العهد مع المسلمين ولكنه لم يفلح، فلم يردّ (ص) عليه شيئاً. فعندها «دخل على علي بن ابي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله (ص) ورضي عنها، وعندها حسن بن علي غلام يدبّ بين يديها. فقال: يا علي، انك امسّ القوم بي رحماً، واني قد جئت في حاجة فلا ارجعن

كما جئت خائباً، فاشفع لي الى رسول الله. فقال: ويحك يا ابا سفيان! والله لقد عزم رسول الله (ص) على امر لا نستطيع ان نكلمه فيه. فالتفت الى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيُجِيرَ بين الناس، فيكون سيد العرب الى اخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنَيَّ ذلك ان يجيرَ بين الناس، وما يجير احدٌ على رسول الله (ص).

قال: يا ابا الحسن، اني ارى الامور قد اشتدّت عليّ، فانصحني.

قال (ع): والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

قال (ع): لا والله، ما اظنه، ولكني لا اجد لك غير ذلك.

فقام ابو سفيان في المسجد، فقال: ايها الناس، اني قد أجزت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما ردّ عليّ شيئاً... ثم جئت علياً فوجدته الين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله ما ادري هل يغني ذلك شيئاً ام لا؟...».

وأمر رسول الله (ص) بالجهاز، فتجهز عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف عنه احد. وخرجوا جميعاً نحو مكة. فلما نزل رسول الله (ص) «مرّ الظهران» قدم ابو سفيان يستظهر الخبر، فأخذه العباس بن عبد المطلب الى رسول الله (ص). فلما رآه (ص) قال: ويحك يا ابا سفيان، ألم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله؟ قال: بأبي انت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت ان لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا ابا سفيان! ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! اما هذه والله فان في النفس منها حتى الان شيئاً. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد ان لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله قبل ان تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم!

قال العباس: قلت يا رسول الله، ان ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: (نعم). من دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن). (ص).

وعندما رأى ابو سفيان جنود الله تمر من امامه في مضيق الوادي التفت الى العباس وقال: «والله يا ابا الفضل، لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيماً، قال العباس: يا ابا سفيان انها النبوة. قال: فنعم اذن».

وحينما دخلوا قال سعد بن عباد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة! وهو رأي لم يستشر فيه رسول الله (ص)، ويدل على حجم الآثار الجاهلية المترسبة عند بعض المسلمين. فتدارك النبي (ص) الموقف الذي يمكن ان يتطور الى سفك دماء، وقال (ص) لعلي بن ابي طالب (ع): أدركه، فخذ الراية منه، فكن انت الذي تدخل بها. وهكذا كان، فدخل رسول الله (ص) وبهدى علي (ع) الراية ثم جيش النبي (ص) من ورائهما.

وكان رسول الله (ص) قد عهد الى امرائه من المسلمين، حين أمرهم ان يدخلوا مكة، ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم. لكنه امرهم بالخصوص بقتل اربعة نفر هم: عبد الله بن سعد بن ابي سرح، والحويرث بن نفيل، وابن خطل، ومقبس بن ضبابة. وامرهم ايضاً بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله (ص). وقال (ص): اقتلوهم وان وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. فقتل علي (ع): الحويرث بن نفيل واحدى القينتين وأفلتت الأخرى. وقتل (ع) ايضاً: مقبس بن ضبابة في السوق. وادرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق اليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً فقتله.

اما عبد الله بن سعد الذي كان قد ارتدّ مشركاً بعد ان كتب بعضاً من الوحي وحرفه، فظفر به ولكن عثمان بن عفان غيبه وطلب له الامان من رسول الله (ص) في قصة ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب. ثم ولاه عمر بن الخطاب بعض اعماله في خلافته، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر!!

ولما دخل رسول الله (ص) مكة، دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون ان السيف لا يرفع عنهم. فأتى (ص) الحرم وقام على باب الكعبة فقال: «لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج... يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...) الآية كلها. ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون انِّي فاعلٌ فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وكان الله سبحانه قد امكنه من رقابهم عنوة فكانوا له فيئاً، فلذلك سُمِّي اهل مكة الطلقاء. و«لما فتح الله مكة على رسول الله (ص) أمر النبي (ص) علياً (كرم الله وجهه) أن يصعد على منكبه ليقذف الصنم التي كانت اعظم الاصنام عن المسجد الحرام». وتفصيل ذلك كان على لسان علي بن ابي طالب (ع) كما يرويها احمد بن حنبل، قال (ع): «انطلقت انا والنبي (ص) حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله (ص): اجلس وصعد علي منكبي فذهبت لانهض به فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله (ص) وقال: اصعد علي منكبي، فصعدت علي منكبيه، فنهض بي . قال: فانه يخيل اليّ اني لو شئت لثلثُ افق السماء حتى صعدت علي البيت وعليه تمثال صِفر او نحاس، فجعلت ازاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى اذا استمكنْتُ منه قال لي رسول الله (ص): اقدف به، فقدفْتُ به فتكسر كما تنكسر القوارير». وفي رواية اخرى ان علياً (ع) لما عالجه كان رسول الله (ص) يقول له: ايه ايه (... جاء الحقُ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهوقاً)».

تصرفات خالد بن الوليد: آثار ما قبل الاسلام

وعندما فتحت مكة، بعث رسول الله (ص) السرايا فيما حول مكة تدعوا الى الله عزّ وجلّ، ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره ان يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب: سليم بن منصور، ومذليج بن مُرة. فوطئوا بني جذيمة بن عامر. فلما رآه القوم اخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح، فان الناس قد اسلموا.

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك . فكَتِفُوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر الى رسول الله (ص) رفع يديه الى السماء، ثم قال: اللهم اني ابرء اليك مما صنع خالد بن الوليد.

فدعا رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (رضوان الله عليه)، فقال: يا علي، اخرج الى هؤلاء القوم، فانظر في امرهم، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك. فخرج علي (ع) حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله (ص)، فَوَدَى لهم الدماء وما أصيب لهم من الاموال، حتى انه ليدي لهم مبلغة الكلب.

حتى اذا لم يبق شيء من دم ولا مال الا وَدَاه، بقيت معه بقية من المال. فقال لهم علي (رضوان الله عليه) حين فَرَّغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم او مال لم يُودَ لكم؟ قالوا: لا. قال: فاني اعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله (ص) مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع الى رسول الله (ص)، فأخبره الخبر، فقال (ص): أصبت وأحسن. ثم قام رسول الله (ص) فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى انه ليرى ما تحت منكبیه، يقول: «اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات».

وبعد مقتل هؤلاء الابرياء من بني جذيمة، أثيرت مشادة لفظية بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف. فقال له عبد الرحمن بن عوف: عملت بأمر الجاهلية في الاسلام. فقال: انما تأرت بأبيك. فقال عبد الرحمن: كذبت، قد قتلتُ قاتل ابي، ولكن تأرت بعمك الفاكه بن المغيرة، حتى كان بينهما شر. فبلغ ذلك رسول الله (ص)، فقال (ص): «مهلاً يا خالد، دع عنك اصحابي. فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما ادركت غدوة رجل من اصحابي ولا روحته». وكانت تلك الادانة من قبل رسول الله (ص) تدلّ على ان آثار الجاهلية لا زالت باقية في نفوس هؤلاء. فكيف ينسى التأريخ سيف ذي الفقار لانه سيف علي (ع) ويطبّل ويزمر لسف الله المسلول _ سيف خالد بن الوليد _ وهو يقوم بتلك التصرفات التي يتبرأ منها رسول الله (ص)؟ وهل يُصح ان يُدخَلَ خالد بن الوليد ضمن صحابة رسول الله (ص)، وهو (ص) نفسه يُخرجه بالقول: «مهلاً يا خالد دع عنك اصحابي فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما ادركت غدوة رجل من اصحابي...»؟

الدلالات العلمية للنصوص

هناك دلالات علمية يمكن استنباطها من النصوص التي اوردناها في فتح مكة. ومن تلك الدلالات: تنبأ الدين ببقاء الحق وزوال الباطل، والطراز الرفيع لفتح مكة بين الفتوحات، وبطولة الامام (ع) التي كان من اهم آثارها: فتح مكة وانكسار دولة الشرك الى الابد.

١- الحق والباطل: من زاوية فلسفية

عندما تكسرت اصنام قريش في فتح مكة على يدي رسول الله (ص) وعلي بن ابي طالب (ع)، قال (ص): ايه ايه (...جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً). فما هو الباطل الذي حُكم عليه بالموت والزوال؟ وما هو الحق الذي أقر له بالحياة؟

يعبر الحق عن صفات الكمال المطلق، وكل شيء يتصل بالله سبحانه هو الحق: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ...)، (فتعالى الله المليكُ الحقُّ...)، (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)، (ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى...). بينما لا يمثل الباطل الا الشيطان وكل ما يدعو اليه هو شر وفساد، كما اشار تعالى: (... فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)، (ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ...).

أ - الباطل:

هناك تساؤل وجيه يمكن ان يطرح في هذا المقام وهو: هل ان الباطل قضية متعلقة بالاخلاق او انه قضية متعلقة بالدين؟ وهل يمكن طرد الباطل من العقل، ثم من الحياة الاجتماعية، من دون مساعدة الدين؟

طبيعياً، يعدُّ الباطل حقيقة مسقلة بذاتها بسبب قابلية النفس الانسانية على الاقتراب منه او الابتعاد عنه. واهم مصاديق الباطل: الفجور والكفر. فقد خلق الله سبحانه النفس الانسانية والهمها الفجور والتقوى فقال: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا).

فالنفس الانسانية كيان يمتلك القدرة والعلم والحكمة، وقد سواها سبحانه وتعالى ورتب خلقها ونظّم قواها واعضاءها. والقى في روعها وافاض عليها صوراً علمية من التصور والتصديق، وعرّفها صفات الافعال من التقوى والفجور. فالعنوان المشترك بين التقوى والفجور هو متن الفعل. مثال ذلك: اكل المال وهو مشترك بين اكل مال اليتيم وهو فجور، واكل المال الحلال وهو من التقوى. ومثال آخر: المباشرة وهو عمل مشترك بين الزنى وهو فجور، والزواج الشرعي وهو من التقوى. ومثال ثالث: العبادة وهو عمل مشترك بين عبادة الصنم وهو فجور، وعبادة الله سبحانه وهو تقوى.

والمحصّل من الآيات الشريفة هو ان الله عزّ وجلّ عزّف الانسان بخصائص الافعال من فجور او تقوى، وميّز له الافعال المتصلة بالتقوى والاخرى المتصلة بالفجور.

ومن تلك الآيات الشريفة نستلهم ان هناك تناقضاً منطقيّاً بين الحق والباطل. فلا بد ان يهزم احدهما الآخر ويدحره، ولا يمكن ان يجتمعا في مكان واحد في نفس الوقت. بل لا بد من استقلالية تحمي احدهما عن الآخر. فاما هذا واما ذاك. أي اما الفساد والظلم والشيطان: وهو الباطل. واما الخير والصلاح والعدالة: وهو الحق.

ولم يقف القرآن الكريم موقفاً حيادياً من الباطل بل ادانه في مواطن عديدة، فخاطب اهل الكتاب: (يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، وخاطب عبدة الاوثان: (... أَقْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)، ونقل عن المنكرين: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ...). ونقل عن الكافرين ومجادلتهم بالباطل لدحض الحق: (... وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)، وخاطب المسلمين بضرورة مراعاة شرعية التعامل التجاري عبر قوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...)، وادان الكافرين اجمالاً بقوله: (... وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

ومن ذلك نفهم ان طبيعة الاشياء في الكون تتناغم مع الخير والصلاح والعدالة والتوحيد، ومن كل ما يمثله الحق من مفاهيم وافكار. وعندما يقوم الانسان بفعل الباطل من فساد وظلم وعبادة للشيطان والوثن، فانه انما ينتهك طبيعة الاشياء التي خلقها الله سبحانه. فهنا لا بد من

دحر الباطل الذي ينتهك النظام الكوني المبني على اساس العدالة والخير والتوحيد. كما قال:
(وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...).

ومجيء الاسلام كان انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود في ذات المؤمن على الاقل.
فالمؤمن بتعاليم الدين السماوي يؤمن بالحق ويبنى وجوده الاجتماعي والذاتي الجديد على اساس
ايقاف الباطل وحذفه من حياته. وهذا يعني اننا اذا الغينا الباطل من الساحة الاجتماعية، كما فعل
رسول الله (ص) وعلي (ع) بتحطيم الاصنام، فان ذوات الناس سوف تنفتح على الخير والاستماع
الى الحق. وهنا يتخير الانسان بحرية، في ذلك الجو المنفتح وتلك الارضة الواسعة، بين الحق
والباطل.

ولو كان الباطل قضية متعلقة بالاخلاق لاستطاع الانسان دحرها من دون مساعدة الدين،
بل لكان العقل سلاحاً كافياً من اسلحة دحر الباطل. ولكن الحقيقة تقول بان للباطل كياناً مستقلاً
لا يقف امامه الا الدين. فمع ان العقل يدعو الى التوحيد والعدل، الا ان العقل المجرد عن
الايمان قد يدعو الى الفساد والدمار والشرك. فالعقل لوحده لا يستطيع دحر الباطل. ولو كان
العقل كافياً لادراك معاني الوجود لانتفى دور الدين في الحياة الانسانية. فقضية الباطل اذن
ليست متعلقة بالفلسفة الاخلاقية فقط، بل ان ازالة الباطل موكولة الى تعاليم الدين ومقدار ادائها
من قبل المؤمنين.

فلا شك ان زوال الباطل يتحقق عندما يمارس المكلفون تكاليفهم الشرعية ويتعمون
برحمة القوانين الدينية، وعندها ينتفي الفساد والظلم والشرك. فثببت الحق مرهون بتقوية شوكة
الدين. ومن هنا نفهم مغزى مخاطبته (ص) لعلي (ع): ايه ايه (... جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا). فبتحطيم رمز الوثنية والشرك في مكة، بدأ الاذعان لتقبل فكرة انتصار
الاسلام وانتشار قيمه السماوية في الخير والعدالة والمحبة والصالح على مبادئ الظلم والفساد
والشرك. ومن هنا جاء الحق وزهق الباطل بكل ما تحمله تلك الالفاظ من معان ومفاهيم وافكار.
فقد جاء الحق عبر رسالة السماء محملاً بمفاهيم العدالة والخير والاخوة والمحبة والتعاون،
وعندها انفتح الباب للانسان لاختيار طريق الخير بدل طريق الشر، وعندها كانت الحكمة

الالهية: (لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...) لان الانسان بطبيعته يختار الخير على الشر، ويختار الحق على الباطل.

ذلك ان الباطل يؤدي دائماً الى الالم والمعاناة على صعيد الانسانية، ولا يؤدي الشر إلا الى الحرب، والظلم، والاجحاف بحقوق الآخرين. ولذلك فان الدين يحارب الباطل اينما وُجد، لان الدين لا ينمو ولا يستقر بوجود الباطل. فالدين يدعو الى الصفاء، والامانة، والمحبة، والولاء. بينما يدعو الباطل الى الخيانة، والبغض، والدماء، والاضطراب.

وبكلمة فان الشر يحطم الروح الانسانية، ويعكر الصفاء الذهني والنفسي الذي يجلبه الدين، ويدمر الفرص العقلانية لانتخاب الدين كبديل في الحياة تمشياً مع قوله تعالى: (لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...). اما الخير _ وهو احد مصاديق الحق _ فانه يجلب على الانسان سعادة ابدية، لان الخير يربط الانسان بالله سبحانه، ويربط الافراد بعضهم ببعض عن طريق القيم العليا في الحب والتعاون والتآخي. وجوهر الفكرة ان العقل لا ينهض الى مستوى طرد الباطل. فلا بد من تدخل الدين في طرد الباطل من النفس أولاً ثم سحق الباطل على المستوى الاجتماعي واحقاق الحق عن طريق الادارة الدينية للمجتمع.

ب - الحق:

ان الحق في ذاته أمرٌ حسنٌ له قيمة اخلاقية عليا في حياة الانسان. فالحق يشمل الخير في كل جوانبه، ولذلك وصف الله سبحانه نفسه بانه الحق المبين كما قال: (... وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ).

ولكن يمكن تصنيف الحق، فيما نحن فيه، الى صنفين: الحق على الصعيد الذاتي، والحق على الصعيد الموضوعي.

فعلى الصعيد الذاتي: فقد وصف الله عزّ وجلّ نفسه بالحق، لان الحق يمثل كل جوانب الخير، فهو تعالى الحق الذي يحقق كل شيء حق، ويجري في الاشياء النظام الحق. فالمولى عزّ وجلّ هو الذي يمسك بأسباب الخير والعدالة والقوة والعزة والقدرة. هو الذي خلق الخلق والحياة وصمم الكون والاشياء لتكون خيراً بذاتها. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على

ذلك. فهو علة جميع العلل من الایجاد والتدبير والملك والإماتة والبعث، كما في قوله: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ إِلَّا لَهٗ الْحُكْمُ...)، (فَدَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ). والامر كله بيده فهو الخالق لكل شيء المدبر لكل امر، وليس لغيره الا الاوهام من اجل الابتلاء والامتحان، فقال: (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)، (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...)، (ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى...)، (... وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ). وتلك بديهيات لا ستار عليها بوجه من الوجوه. فالحق من اسماء الله الحسنی لثبوتة تعالی بذاته وصفاته ثبوتاً لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغيير.

وعلى الصعيد الموضوعي: فان الحق _ بقیمة الاخلاقية _ قد تمثل بالاسلام. فالاسلام ليس فرداً ولا شخصاً ولا مفردة، بل هو موضوعٌ للخير العام. فهذا الدين يمثل حالة معنوية لنشر العدالة بين الناس، ويعكس صورة لنظامٍ في ادارة صلة الانسان بربه، وصورة لنظام الادارة الاجتماعية والحقوقية. ولذلك عُبر عن الدين بانه الحق، كما يُستخلص من التأمل في قوله تعالی: (... فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ...)، (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...)، (... فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ...)، (... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...)، (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...). وفي الآيات الكريمة دلالة ظاهرة على ان الدين الذي نزل على محمد (ص) هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب، وحق فيما خالفه لكون القرآن مهيمناً على جميع الكتب السماوية السابقة.

وبذلك يكون الحق الذي بشرَ بمجيئه رسول الله (ص) عندما كان علي (ع) يكسر الاصنام يمثل كل معاني الخير والعدالة والتوحيد والعبودية لله الواحد القهار. وان كان ذلك الحق يغطي مساحة قانونية او معنوية او انسانية او طبيعية، فانه انما يدلّ على شمولية الدين لكل تلك الحقوق. فالدين يحفظ حق الانسان في التعبد، وحق الانسان في العيش بكرامة تحت اجواء الخير. وبكلمة، فان الحق هو بشرى السماء للبشرية المعذبة التي تبحث عن طريق للهداية والنجاة من العذاب.

لو اردنا ادراك اهمية «فتح مكة» باطار الفهم المعاصر الحديث، لافترضنا اننا يجب ان نفهم آثارها او مقتضياتها بنفس درجة فهم اسبابها او عللها. فمع ان شجاعتي رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) الفائقتين كانا من اهم عللها، فان آثارها كانت خطيرة للغاية. ذلك ان فتح مكة وضع القيادة الدينية الاجتماعية للعالم بيد المسلمين بعد ان كان المشركون يعيشون في الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنين باطناً او ظاهراً، في دين الله افواجاً. وقد تنبأ كتاب الله المجيد بتلك الاحداث بالقول: **(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً).**

وتلك سورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة. حيث كانت السورة إخباراً بتحقيق أمر لم يتحقق بعد. وهو الوعد الجميل بالنصر والفتح. وتلك السورة تنطبق على فتح مكة الذي هو أم فتوحاته (ص) في حياته، حيث تكفل ذلك النصر بهدم بنيان الشرك في جزيرة العرب. ولذلك طلب الله عزّ وجلّ من رسوله (ص) ان يسبحه وينزهه بقوله: **(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً)** الآية. حيث تم اذلال الشرك وتعزيز التوحيد وابطال الباطل واحقاق الحق.

واصبح الاسلام بعد فتح مكة قوة عالمية تستطيع مواجهة قوى الفرس او الروم والانتصار عليهما، وتثبيت الامن العالمي في ذلك الوقت تحت شعار: لا اله الا الله، محمد رسول الله. وهذا كله يمثل مصداقاً من مصاديق المقولة القرآنية: جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقاً.

أ - بدء عصر جديد:

ولاشك ان فتح مكة لم يكن مجرد عملية انهيار قوة عالمية وهي قوة المشركين، وانتصار قوة اعظم في المبدأ والعقيدة وهي قوة المسلمين. بل كانت عملية بدء عصر جديد يستمر فيه الاسلام حياً نابضاً فعلاً الى يوم القيامة. لان الاسلام بطبيعته دين عالمي وليس ديناً محلياً يهتم بعرق معين او طائفة معينة. ويؤيده قول الله تعالى: **(وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً...).**

وقد كان للبطولة الخارقة دور حاسم في فتح مكة وتحطيم الاصنام فوق الكعبة وحولها، كما بحثنا ذلك سابقاً. وبتحطيم الاصنام أزف الوقت لإعلان عدم شرعية الشرك في معقل المشركين بمكة بقوة السلاح والايمان، واعلان انتقال السلطة العالمية من يد الشرك الى يد الايمان، وانتهاء التحدي الفكري الذي قاده الشرك القرشي ضد الاسلام.

ومن منطلق تلك الاحداث لابد من ادراك مقدار المكاسب التي حققتها بطولة اهل بيت النبوة (ع) في المعارك الاسلامية الكبرى. فقد دمر ذلك التفاني العجيب من اجل الدين، كل احكام الوثنية في البقاء. فلم تكن تلك المعارك صراعاً شخصياً بين بني هاشم وبني امية. ولم تكن تلك مواجهة شخصية بين رسول الله (ص) وأبي سفيان، او بين حمزة وابي جهل، او بين علي (ع) ومعاوية.

بل كان الصراع بين الخير والشر او الحق والباطل صراعاً تاريخياً بين معسكرين ذوي مبادئ متصارعين الى ابد الدهر. ولم يكن تسامح رسول الله (ص) مع اهل مكة الطلقاء ليغير من موقف النخبة الجاهلية. فحتى مع اظهار اسلامه، لا يزال ابو سفيان في قلبه شيء من رسالة محمد (ص)، ولا يزال يؤمن بأنه المملك الذي حازه محمد (ص) واصبح به عظيماً، لا النبوة الخاتمة ولا وحي السماء. ولا يزال خالد بن الوليد يتصرف على ضوء عنجهيته الجاهلية فيقتل من لا يجوز قتله، وعنندها يتبرأ رسول الله (ص) من افعاله.

ان العداء التاريخي الذي كانت تكنه قريش للاسلام ولرسول الله (ص) ولعلي (ع) لم يكن ليزول باعلان الشهادتين على اللسان دون القلب. ذلك ان فتح مكة كان اظهار قدرة الله سبحانه على اعزاز الاسلام وتكريمه وتجليل خاتم الانبياء (ص). وقد نصر الله الاسلام على رغم انوف صناديد قريش من الذين تشربت في قلوبهم عبادة الاوثان والاصنام.

ولذلك كانت النبوة امراً لا تستطيع قريش هضمه او استيعابه. فما هي تلك القوة الهائلة التي تستطيع ان تحرك القلوب نحو الله ضد الشيطان والشرك والرجس؟ وما هو سر ذلك التسامي العظيم لرسالة محمد (ص) بين الامم؟ وما هو سر شجاعة علي (ع) الفائقة وتفانيه في حماية الرسالة السماوية؟ وما هو السر في استبسال تلك النخبة المؤمنة التي كانت تحيط برسول الله (ص) وتصحبه؟ لا شك ان تلك النخبة كانت اشدّ تماسكاً في اتباع قائدها (ص) من غيرها

من نخب الملل والمذاهب، فهذا علي (ع) يصعد على كتف رسول الله (ص) ليحطم الاصنام، في وقت كان شعارهما: جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً. وكان حمزة (رض) متفانياً في الدفاع عن الاسلام ونبيه (ص)، وكان ابو طالب ومواقفه الاجتماعية العظيمة تفصح عن عمق ايمانه برسالة محمد (ص)، وكان تغاني جعفر بن ابي طالب مشهوداً من اجل الاسلام ورسالته السماوية للبشرية.

ب - إعادة تركيب العالم:

وبذلك فقد كان الشعور الوجداني بين النخبة المؤمنة هو ان يزدهر الخير بين البشر وتحقق كلمة التوحيد وعبادة الله سبحانه. وبذلك كان فتح مكة اعادة لبناء التركيب السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء الدين الجديد. في وقت كان العالم يبحث فيه عن قيادة جديدة تحقق العدل الاجتماعي والامان والتوحيد، فكانت قيادة رسول الله (ص) تحقق ثبات دولة الايمان العالمية ونظامها الامني والحقوق.

والسبب في البحث عن قيادة عالمية جديدة ان العالم يتضمن شعوباً متباينة في التقاليد والعادات واللغات، ولا يمكن ان يجمعها الا دين سماوي واحد. فكان الاسلام هو الدين القادر على جمع ذلك العدد الهائل من البشر تحت سقف خيمة واحدة يظللها لواء واحد. ولا يستطيع احد تحمل مسؤولية ادارة ذلك التجمع العالمي اجتماعياً وسياسياً الا رسولاً يوحى اليه. فكان رسول الله (ص) هو حامل المسؤولية العالمية. وكان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القيادة الدينية بعده (ص) أمير المؤمنين (ع).

فقد كان (ع) موضع ثقة رسول الله (ص) في فتح مكة. فعندما قال الناس: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحرمه. دعاه النبي (ص) لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيؤدي حتماً الى سفك الدماء. فكان علي (ع) منقذ الموقف. وعندما قال خالد بن الوليد بقتل من قتل من بني جذيمة، وداهم رسول الله (ص) فبعث اليهم علياً (ع) لتسوية الوضع. وقبلها كان علي (ع) ثقة ابي سفيان رأس الشرك الذي حارب الاسلام والنبي (ص) وعلياً (ع) اشد حرب. فكان علي (ع)، إذا صحت الرواية، أليهم معه. وهكذا كان خلق الانبياء والاوصياء. وهذا تعامل رسول الله (ص) في مكة مع الطلقاء.

ويمكننا الآن ان نقول باطمئنان بأن فتح مكة كان من طراز الفتوحات الكبرى للاسباب التالية:

1^{اً} - رجع رسول الله (ص) منتصراً الى البلدة التي حاربه واضطهدته وتآمرت على قتله واخرجته بالاكراه. فبعد ثمان سنوات فقط من الهجرة الكبرى من مكة الى المدينة، رجع المصطفى (ص) الى بلده مكلاً بالانتصار.

2^{اً} - دخل خاتم الانبياء (ص) الكعبة وبجنبه علي (ع) وحطما الاصنام التي كانت تعتبر رمز الشرك في عالم ذلك الزمان، وفي كل زمان. وأرجع (ص) للكعبة الشريفة حرمتها النبوية التي وضعها ابراهيم الخليل (ع) ولوثتها جاهلية الاوثان والاصنام.

3^{اً} - كان رداء المصطفى (ص) التسامح مع ألد اعدائه: مشركي قريش. فأعطاهم الامان، وقال لهم: اذهبوا فانتم الطلقاء. وكان هؤلاء قد ارتكبوا اعظم الفظائع ضد الموحدين المسلمين.

4^{اً} - كان فتح مكة إيذاناً لتحرير الجزيرة العربية من الشرك، والاذعان لسلطان الاسلام. وبعدها تهيأ رسول الله (ص) لمحاربة القوى الاخرى في العالم.

٣ - فتح مكة: استراتيجية جاء الحق وزهق الباطل

ان الآية الشريفة: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) حبلى بالمعاني العديدة التي يمكن ان يستظهرها ذهن العالم بأحكام الدين وتشريعاته. ومن تلك المعاني نظرية «حتمية ازهاق الشرك والظلم وحتمية انتصار الدين» على المدى البعيد. فتلك النظرية تعرض علينا امكانية صياغة استراتيجية الاسلام بالنسبة للدنيا والتاريخ. فالدين هو الحق، والكفر هو الباطل. ولا بد ان ينتصر الدين ويندحر الباطل ويموت. لان الحق باقٍ الى الابد، والباطل ميتٌ الى الابد بظهور الاسلام وانتشاره في آفاق الارض. وفي الآية دلالة على ان الباطل لا دوام له ومصيره الهلاك كما قال تعالى في مكان آخر عن الباطل حيث مثله بالشجرة الخبيثة: (ومثلاً كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ).

وفي هذه المناسبة لا بد من استخدام بعض المصطلحات الحديثة التي دخلت قاموس اللغة الاجتماعية والسياسية وهما اصلاً: البعيد المدى «الاستراتيجية»، والقصير المدى «التكتيك». وهما مصطلحان اعجميان دخلا اللغة العربية. فالمعروف في الاوساط العلمية: ان التكتيك هو حركة ميكانيكية لاجسام وضعت في مسار بواسطة الخطة الاستراتيجية. وتعبير اوضح ان الاعمال التي تتطلب زمناً طويلاً في الانجاز تحتاج الى خطة وتصميم مسبق، وتحتاج ايضاً الى من يقوم بالحركة الآن هو ما يُسمى بالمدى القصير او التكتيك. فحركة السيارة او العربة هو تكتيك لخطة يضعها السائق من اجل الوصول الى المدينة المقصودة «الاستراتيجية».

واذا كانت الحرب تكتيكاً قصير المدى، فان التخطيط لها واستثمار نتائجها في النصر هو استراتيجية بعيدة المدى. وقد كان فتح مكة من هذا القبيل فقد كان الفتح جزءاً من خطة مستقبلية بعيدة المدى لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية ليصل العالم الواسع كله.

وبصورة اخرى، فان النهوض بأعباء الرسالة السماوية من اجل نشرها في العالم الى يوم القيامة لا يمكن ان يتم ما لم يجتز المسلمون مرحلة الانتصار النهائي على الشرك في الحروب التكتيكية التي كان يخوضها علي (ع) جنباً الى جنب مع رسول الله (ص)، ثم ينتقلون الى مرحلة الاستراتيجية البعيدة المدى. فهنا انتقل المسلمون من مرحلة الدائرة المحلية الى مرحلة الدائرة العالمية. فالاسلام اندازٌ وبشارةٌ (... كَافَّةً لِلنَّاسِ...)، بعد ان كان الانذار محصوراً بـ (... أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...) ومن قبلها بـ (...عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...).

كان رسول الله (ص) يخطط لاهداف استراتيجية بعيدة المدى في المعارك التي كان يخوضها، لانه كان (ص) مسدداً بالوحي، ولانه كان قائداً عسكرياً ملهماً من الطراز الاول، مكلفاً بدعوة الناس جميعاً الى الاسلام. وكان علي (ع) الى جنبه دائماً الوسيلة القوية «التكتيك» التي تحقق نبؤات المصطفى (ص) وطموحاته في نشر الدين على بقاع المعمورة. والاستراتيجية لا يمكن ان تحقق اهدافها ما لم يكن التكتيك فعالاً وحيوياً.

ولا شك ان تكتيك المعركة في ذلك الوقت كان ينصب على شجاعة المقاتل بالدرجة الاولى وبطولته القوى في انتزاع النصر من العدو. لان معارك الاسلام الاولى ضد الشرك كانت معارك برية بسلاح رئيسي واحد هو السيف. فلم تكن هناك معارك جوية أو بحرية او برية كما هو

الحال اليوم مع عشرات الانواع من الاسلحة المعقدة. ولذلك فان أي معركة اسلامية تقع بدون وجود بطل استثنائي مقدام كعلي (ع) لا يكتب لها النصر. فلم يحقق المسلمون شيئاً في معارك غاب عنها علي (ع) كمعركة ذات السلاسل قبل دخوله فيها، ومعركة خيبر قبل استلامه (ع) الراية، ومعركة مؤتة التي لم يحضرها.

ان فلسفة الزمان والمكان تدعونا للايمان بأن نزول الرسالة السماوية في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من الارض، كان له معانٍ سامية تبقى مع التاريخ والبشرية الى يوم القيامة. فقد كان ذلك الزمان وسطاً بين تأريخ سابق وتأريخ لاحق، وكان ذلك المكان ولا يزال قلب العالم قديماً وحديثاً. وبذلك فان احداثاً جسيمة - كأحداث الاسلام ومعاركه ضد الشرك - ستبقى في ضمير البشرية يمكن فهمها واستيعاب معانيها الجليلة الى آخر يوم يعيش الانسان فيه على وجه الارض. ولا شك ان احداثاً جسيمة كتلك كانت تقتضي وجود بطل عظيم مطيع يذود عن رسول الله (ص) المخاطر، ويستوعب اهداف الرسالة، وعلى استعداد تام للتضحية من اجل مبداه. فكان الامام (ع) يمثل ذلك الرجل المثالي الذي تفهمه البشرية في كل وقت وتفهم بطولته النادرة وتضحياته الجسيمة من اجل الاسلام.

وبلحاز فلسفة الزمان والمكان لا بد من الايمان بأن اساليب القتال تتغير وتتبدل من زمن لزمان ومن مكان لمكان، الا ان الثابت الذي نفهمه في كل جيل هو اخلاقية الحرب وتعامل المحاربين فيها وطبيعة دوافعهم الخيرة. واذا فهمنا ذلك وآمنّا بأن اخلاقية الاسلام في الحروب كانت القمة في الكمال استطعنا فهم بطولة علي (ع) وتضحياته في سبيل مبداه وعقيدته. واذا كان قول النبي (ص) للامام (ع): «ايه ايه. جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقاً» يُفسّر بأن الحق قد انتصر وسوف ينتصر، وان الباطل قد سُحق وسوف ينهزم في كل مرة يتواجد فيها مؤمنون مخلصون متفانون ؛ فاننا لا بد ان نؤمن بأن تلك هي اهداف استراتيجية بعيدة المدى للاسلام ولرسالته السماوية. ومن هنا نفهم ان فتح مكة كان البوابة العظمى للانفتاح على البشرية في القلب والعقل والادراك على طول الزمن.

(تليها ص ٤٣٧ - ٤٥٤)

ناشد: طالب ومدكّر. والاتلد: القديم.

يريد ان بني عبد مناف بني امهم من خزاعة، وكذلك قصي امه فاطمة بنت سعد الخزاعية.

أعتد: حاضر، والمدد: العون.

تجرد: شمر وتهياً للحرب. وسيم: طلب منه وكلف. الخسف: الذل. وتريد: تغير الى السواد.

الفيلق: العسكر الكثير.

كداء: موضع بأعلى مكة.

الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة. والهجد: النيام.

عندما خسرو ابو سفيان كل شيء اراد الضرب على وتر الرحم والدم، وهو الذي قاتل رسول الله (ص) وعلياً (ع) من بني هاشم اشد القتال. لكنه اليوم يتحدث عن علاقة بني امية ببني هاشم من ناحية الرحم والاجداد!

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٣٩.

م. ن. - ج ٤ ص ٤٥ - ٤٦.

م. ن. - ج ٤ ص ٤٧.

م. ن. - ج ٤ ص ٤٩.

م. ن. - ج ٤ ص ٥٢.

سدانة البيت: خدمته.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٥٤ - ٥٥.

مفتاح النجاء. ص ٤٦.

«مسند احمد» - رواه احمد بن حنبل باسناده عن ابي مريم عن علي (ع) ج ١ ص ٨٤.

سورة الاسراء: آية ٨١.

«المستدرك على الصحيحين» ج ٢ ص ٣٦٦.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٧٢.

ميلغة الكلب: شيء يحفر من خشب، ويجعل ليلغ فيه الكلب. وكان يستعمل عند اهل البادية واصحاب الغنم.

«سيرة ابن هشام» ج ٤ ص ٧٢ - ٧٣.

م. ن. - ج ٤ ص ٧٤.

سورة الاسراء: آية ٨١.

سورة التوبة: آية ٣٣.

سورة طه: آية ١١٤.

سورة الكهف: آية ٤٤.

سورة الحج: آية ٦.

سورة يونس: آية ٣٢.

سورة الحج: آية ٦٢.

سورة الشمس: آية ٧ - ٨.

سورة آل عمران: آية ٧١.

سورة النحل: آية ٧٢.

سورة الكهف: آية ٥٦.

سورة غافر (المؤمن): آية ٥.

سورة النساء: آية ٢٩.

سورة العنكبوت: آية ٥٢.

سورة المؤمنون: آية ٧١.

سورة الاسراء: آية ٨١.

سورة البقرة: آية ٢٥٦.

سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

سورة النور: الآية ٢٥.

سورة الانعام: الآية ٦٢.

سورة يونس: الآية ٣٢.

سورة الكهف: الآية ٤٤.

سورة طه: الآية ١١٤.

سورة الحج: الآية ٦.

سورة النور: الآية ٢٥.

سورة البقرة: الآية ٢٦.

سورة البقرة: الآية ١١٩.

سورة البقرة: الآية ٢١٣.

سورة المائدة: الآية ٤٨.

سورة التوبة: الآية ٣٣.

سورة النصر: الآية ١-٣.

سورة سبأ: الآية ٢٨.

سورة الاسراء: الآية ٨١.

سورة ابراهيم: الآية ٢٦.

سورة سبأ: الآية ٢٨.

سورة الانعام: الآية ٩٢.

سورة الشعراء: الآية ٢١٤.